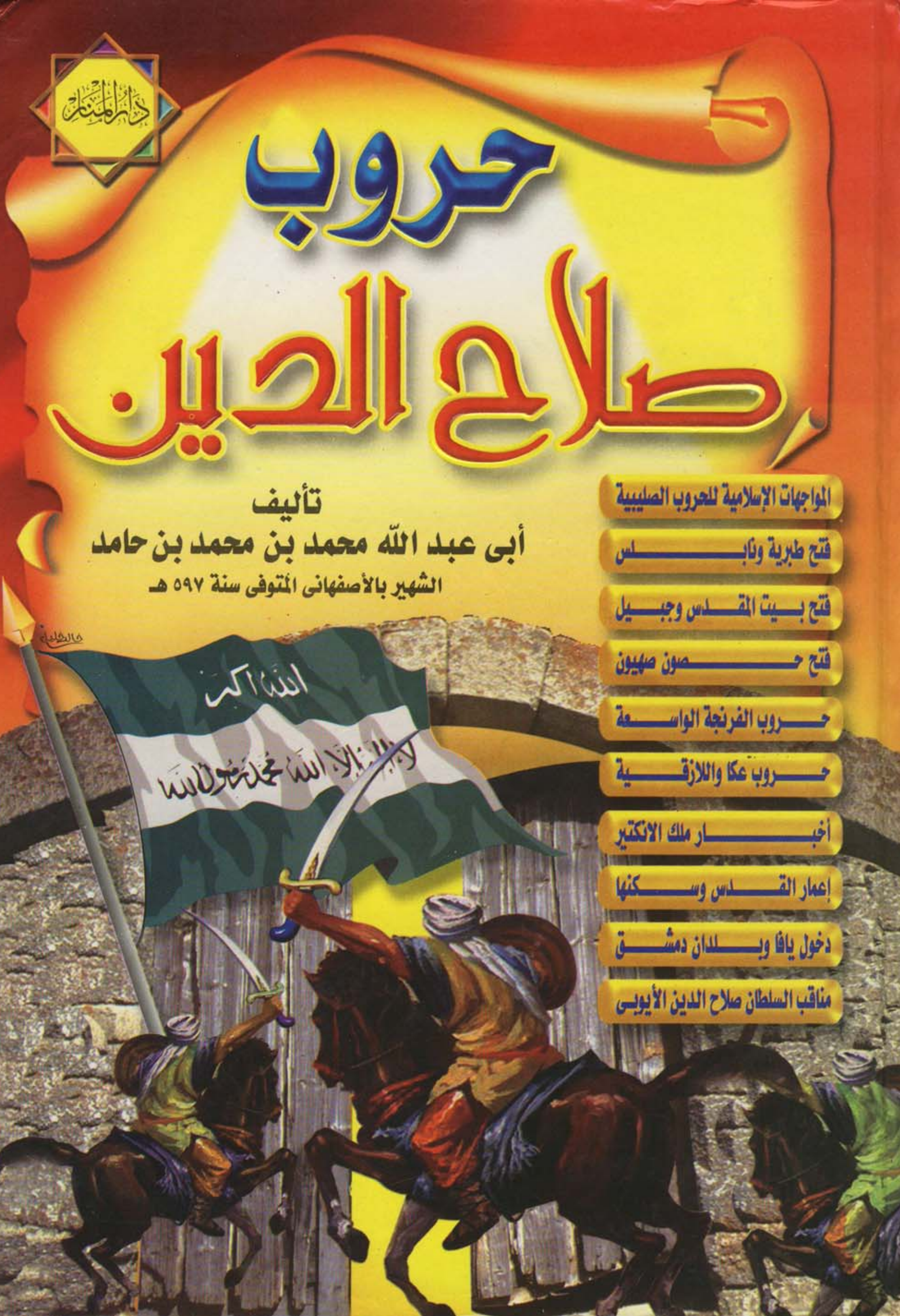

دار المنار
حروب
صلاح الدين
تأليف
أبى عبد الله محمد بن محمد بن حامد
الشهير بالأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ
المواجهات الإسلامية للحروب الصليبية
فتح طبرية ونابلس
فتح بيت المقدس وجبيل
فتح حصون صهيون
حروب الفرنجة الواسعة
حروب عكا واللازقية
أخبار ملك الانكتير
إعمار القدس وسكنها
دخول يافا وبلدان دمشق
مناقب السلطان صلاح الدين الأيوبى

حروب صلاح الدين

وفتح بيت المقدس

وهو الكتاب المسمى

الفتح القُسِّىّ فى الفتح القُدْسىّ

تأليف

الوزير المنشئ البليغ

أبى عبد الله محمد بن محمد بن حامد

الشهير بعماد الدين الكاتب الأصفهانى

المتوفى سنة ٥٩٧ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين، محمد بن عبد الله النبى العربى الأمين وعلى آله وصحبة الطيبين الطاهرين.

وبعد . . .

فهذا كتاب حول أحداث ووقائع تاريخية جديرة بأن تكتب بأحرف من نور، هذه الفترة التى وقعت فيها الأحداث. هى أهم مرحلة فى تاريخ الحروب الصليبية حيث أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى المملكة التى ضمت مصر وبلاد والشام وغيرهما، والتى جمع جهودها وقدراتها ووجه بها ضربة قاصمة للصليبين فى معركة حطين واستعاد بها مباشرة بيت المقدس وانتزعه انتزاعًا من أيدى هؤلاء المرتزقة بعد احتلال دام أكثر من تسعين عامًا.

حقا إن هذا الكتاب تسجيل تاريخى للنشاط الحربى للبطل صلاح الدين، الذى يجب أن يكون قدوة لشبابنا وهاديا لأجيالنا حتى نحقق ما حققه هذا البطل من انتصارات على أعداء الإسلام والعروبة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الناشر

ترجمة العماد الكاتب

هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين، الملقب عماد الدين الأصفهانى، ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م)، وانتظم فى سلك طلبة المدرسة النظامية ببغداد. وولاه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة نظر البصرة، ثم نظر واسط. ولما توفى الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦١هـ (١١٦١م) فقد العماد مكانته وأودع السجن، ومع أنه أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، فلم يستطع أن يسترد مكانته بالعراق، فانتقل إلى دمشق وهناك قدّمه كمال الدين بن الشهرزورى، قاضى قضاة دمشق، إلى نور الدين محمود ابن زنكى فعيّنه فى ديوان الإنشاء سنة ٥٦٣ هـ وبقى فيه حتى نقل إلى وظيفة أخرى فى سنة ٥٦٧هـ تتناسب مع نشاطه العلمى قبل قدومه إلى الشام، وهى وظيفة الأستاذية بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، والتى نسبت إليه، لسكناه بها، فقيل لها: العمادية، ثم ولاه فى السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء.

وتدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين، ذلك أن ابنه وخليفته الملك الصالح إسماعيل، الذى ولى الملك سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م) وهو فى الحادية عشرة من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه، وطرده من البلاط، فخرج العماد من دمشق قاصداً بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، وهناك بلغه أن صلاح الدين استولى على مصر، وأنه خرج منها قاصداً دمشق ليستولى عليها، فلاقاه العماد فى حمص، واتصل بالقاضى الفاضل الذى توسط فى أمره عند صلاح الدين، فعيَنه فى ديوان الإنشاء، لينوب عن القاضى الفاضل وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته، واكتسب حظوته من جديد، ومن ذلك التاريخ لازم العماد صلاح الدين، فى رحلته أو إقامته، وقام له بمثل ما كان القاضى الفاضل يقوم به من الأعمال، وإن لم يصل إلى نفس المكانة السامية التى صارت للفاضل، عشير صلاح الدين ويده اليمنى فى جميع أعمال الإدارة والسياسة والحرب، بل فى أخص الشؤون العائلية للأسرة الأيوبية. ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) اضطر العماد إلى ملازمة بيته وأقبل على التصنيف حتى توفى فى الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ (٢٠/٦/١٢٠١م).

● **مؤلفاتـــــــه:**

أما كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى فهو تاريخ سبع سنوات فقط من حياة صلاح الدين (٥٨٣-٥٨٩) وهو العام الذى فتح صلاح الدين فيه بيت المقدس. والقاضى الفاضل هو الذى أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسماه الفتح القدسى نسبة إلى بيت المقدس، والفتح القسى، نسبة إلى قس بن ساعدة الإيادى،

خطيب العرب فى الجاهلية وكان قس معروفًا إذ ذاك بالسجع، وكان العماد الأصفهانى قد جعل كتابه هذا سجعًا من أوله إلى آخره، فاستحسن القاضى الفاضل هذه التسمية، وقصده منها أن الله فتح على العماد فى سجعه هذا كما فتح على قس بن ساعدة من قبله فى السجع والبلاغة أيضا.

وكتاب الفتح القسى، تسجيل تاريخى منظم للنشاط الحربى الذى قام به صلاح الدين بين سنتى ٥٨٣-٥٨٩هـ، وهى فترة الجهاد الأكبر الذى قام به لتطهير فلسطين وبلاد الشام عامة من الاحتلال الصليبى. وقد استعاد صلاح الدين بهذه الحروب كثيرًا من معاقل الصليبيين، وفى مقدمتها بيت المقدس، كما واجه جموعهم فى حملتهم الثالثة بزعامة فريدريك بربروسا ملك ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب ملك فرنسا. وهذه الحملة انتهت بصلح الرملة قبيل وفاة صلاح الدين بشهور قليلة.

وفى مقدمة كتاب الفتح القسى يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة ٥٨٣هـ لتكون بداية للكتاب فيقول عن خروج الجيوش الإسلامية للحرب:

«وأنا أرّخت بهجرة ثانية، وهى هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وأعظم الكرّتين».

والفرق بين فتوح الشام، فى رأى العماد، والفتوح الإسلامية الأولى فرق بيِّن تبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض، من الفجر، فإن الشام فتح والعهد بالرسول غير بعيد، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والضخامة التى كان عليها أيام الفتح الصلاحى، هذا بالإضافة إلى أنه فتح للقدس بعد أن طغى عليها الكفر وانحسر عنها الإسلام.

أما الفترة التى يشملها البرق الشامى فتبدأ سنة ٥٦٢هـ، وتنتهى عند وفاة صلاح الدين، وهذا الكتاب أكبر حجمًا من الفتح القسى وأوسع مجالاً. وقد بدأه بذكر انتقاله من العراق إلى الشام، واتصاله بخدمة نور الدين عن طريق كمال الدين ابن الشهرزورى، الذى قدّمه أيضًا لنجم الدين أيوب، فساعد بهذا على تجديد الصلة بين الأيوبيين وأسرة العماد، تلك الصلة التى بدأت بتكريت عندما اتصل عم العماد، العزيز، بنجم الدين أيوب صاحب قلعة تكريت حينذاك.

والفتح القسى موجود بكثرة، مخطوطًا ومطبوعًا. أما البرق الشامى فلا يوجد منه إلا مخطوطة للجزأين الثالث والخامس فى مكتبة بودليان بأوكسفورد.

ومما يذكر أن الفتح كتب للمرة الأولى فى مجلدين، بينما كتب البرق فى سبعة مجلدات. ولعل الفارق فى الحجم بين الكتابين عائد إلى الفارق فى الفترة الزمنية التى يتعرض لها كل منهما وأسلوب الكتابين واحد تميز به العماد فى جميع ما كتب، حتى

وفى شعره، فهو يعتمد على الإكثار من استعمال المحسنات البديعية، بدرجة مملة مرهقة تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منها أمرًا صعبًا ومهمة شاقة، ولكن صدق هذه المعلومات يستحق ما يُصرف فى سبيل استخلاصها من العناء، فالعماد يتحدث عما شاهده أو سمعه بنفسه، أو عما وقف عليه فى أثناء عمله بديوان الإنشاء. وهو يؤيد حديثه أحيانًا بالوثائق التى كتبها بنفسه، أو التى وصلت إليه كما لم يقتبس العماد فى الفتح وثيقة واحدة لرئيسه القاضى الفاضل، على حين نجد فى البرق الشامى بعضًا من هذه الوثائق الفاضلية. وقد يكون السبب فى هذا أن الفتح فى أغلبه وصف للحوادث التى وقعت فى فلسطين والشام عامة، فى فترة الفتوح العظيمة، ثم فى فترة الحروب الصليبية، وقد شهدها العماد بنفسه، أما القاضى الفاضل، فإنه لم ينزل إلى ميدان المعركة فى هذه الفترة، بل قضى بعضًا منها بعيدًا عنها، فى مصر، نائبًا عن صلاح الدين، وهذان الكتابان يتفقان فى الطريقة إذ يتبعان نظام الحوليات، ولا يتعرضان لترجمة الأعلام الراحلين من العلماء أو غيرهم، إلا فيما ندر.

وكتاب «نصرة الفطرة وعُصْرة الفطرة» فهو تاريخ للسلاجقة ووزرائهم، وترجمة مختصرة بأسلوب إنشائى مسجوع للكتاب الفارسى المفصل الذى صنّفه شرف الدين أنوشروان المتوفى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م). وقد اختصره أبو الفتح البندارى فى كتاب سماه «زبدة النصرة ونخبة العصرة».

وأسرة السلاجقة بدأ نجمها بالظهور على مسرح تاريخ الدولة العباسية حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى حين خلفت الأسرة البويهية المنهارة. ثم توزع سلطان هذه الأسرة بتأثير عوامل المطامح الشخصية لأمرائها. وكان العماد قد اتصل بهؤلاء السلاجقة قبيل قدومه على الشام، وتولى التدريس ببعض المدارس التى أنشأها، كما تولى فى ظلهم منصبًا إداريًا فى مدينة واسط بالعراق. وقد حملته صلته هذه على تدوين تاريخهم فى مؤلف خاص اقتبسه أبو شامة فى مناسبات قليلة جدًا. وهو لهذا السبب لا يعتبر مصدرًا رئيسيًا من مصادر الروضتين الذى لا يهتم اهتمامًا مباشرًا بتاريخ السلاجقة.

وللعماد مؤلف آخر له طابع أدبى صرف، وهو كتاب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» وهو تراجم لأدباء مصر والشام والمغرب والعراق والجزيرة، ممن عاصروا العماد، والخريدة ذيل على كتاب «دمية القصر» للباخرزى، وهذا الكتاب الأخير ذيل لكتاب «يتيمة الدهر» للثعالبى.

ويقع كتاب «الخريدة» فى عدة مجلدات يستقل واحد منها أو أكثر بجهة من الجهات، وقد اقتبسه أبو شامة أيضًا فى مناسبات قليلة عند الحديث عن بعض

الشخصيات للتعريف بقيمتها الأدبية، وذلك مثل الصالح طلائع بن رزيك، أو الجليس بن الحباب، أو ابن المهذب الزبيرى، من رجال الدولة الفاطمية.

وللعماد ديوان شعر، وقد ضاع، لكن أبو شامة سجّل بالروضتين جملة قصائد من نظم العماد فى مدح نور الدين وصلاح الدين، تهنئهما بانتصارهما على الصليبيين، وفى رثاء كل منهما عند وفاته. كما ضاعت رسائله ولم يصل لنا منها سوى قدر ضئيل.

ومن كتبه أيضًا «رسالة العتبى والعقبى» عن الأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) وقد ذكره أبو شامة، كما ذكر كتابًا آخر له هو «خطفة البارق وعطفة الشارق» عن الأحداث من سنة ٥٩٣هـ حتى موته.

وذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون ٦ / ١٠٥، مؤلفات العماد الكاتب، وهى:

١ – البرق الشامى، فى التاريخ.

٢ – خريدة القصر وجريدة أهل العصر، فى ذيل الدمية.

٣ – خطفة البارق وعطفة الشارق، فى التاريخ.

٤ – ديوان دوبيت.

٥ – ديوان الرسائل.

٦ – ديوان شعر.

٧ – زبدة النصرة ونخبة العصرة، فى التاريخ.

٨ – السيل على الذيل لتاريخ بغداد، للسمعانى.

٩ – العتبى والعقبى، رسالة فى التاريخ.

١٠– القدح القسّى فى الفتح القدسى (وهو الذى بين أيدينا باسم «الفتح القسّى فى الفتح القدسى»).

١١– نحلة الرحلة، فى التاريخ.

١٢– نصرة الفترة وعصرة الفترة، فى أخبار السلجوقية.

* * *

عصر المؤلف وبيئته

أحوال العالم الإسلامى قبل وأثناء الحروب الصليبية

أحوال العالم الإسلامى عشية الحروب الصليبية:

يجد الباحث فى تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية، لزامًا عليه، أن يحيط بأحوال العالم الإسلامى بشكل عام، وأحوال الخلافتين العباسية والفاطمية بشكل خاص، ليتسنى له فهم الظروف التى ساهمت فى إبراز آل زنكى وآل أيوب على مسرح الأحداث السياسية فهمًا صحيحًا.

فبعد فترات الزهو والانتصار التى عرفها العالم الإسلامى، بدأ الوهن يدب فى أوصاله منذ القرن الحادى عشر الميلادى. ففى جناحه الشرقى خلافتان إحداهما عباسية سنية فى بغداد، والأخرى فاطمية شيعية فى القاهرة، وولاء المسلمين موزّع بينهما. وقد أنهكتهما مشاكلهما الداخلية بحيث باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وحدّ أطماع الطامعين فيها من قوى محلية وخارجية تمثلت بالصليبيين والبيزنطيين. ولم يكن الغرب الإسلامى بأفضل حال، فقد كان هو أيضًا يعانى من الانهيار بسبب تفككه إلى دويلات عرفت بدول الطوائف فى الأندلس، الأمر الذى أطمع الإربان فيها وقوّى أملهم فى طرد المسلمين نهائيًا من الأندلس، وبدا كأن معجزة فقط هى التى تنقذ العالم الإسلامى من انهيار محقق، وقد تحققت هذه المعجزة فعلاً على أيدى المرابطين فى المغرب الإسلامى والسلاجقة الأتراك فى المشرق. ويهمنا هنا الحديث عن السلاجقة، فعن طريقهم ظهر الأتابكة من آل زنكى، وعن طريق هؤلاء ظهر الأيوبيون فيما بعد.

والسلاجقة مجموعة من قبائل الغز التركية تنسب إلى سلجوق بن دقاق، الذى جمع شملها ووحد كلمتها، وبدأت به أهميتها، منذ أن انتقلت معه من سهوب تركستان، موطنها الأصلى، إلى بلاد ما وراء النهر، حيث اعتنقت الديانة الإسلامية على المذهب السنى. واستقرت بنواحى سمرقند وبخارى أواخر القرن الرابع الهجرى وتعاونت مع السامانيين فى نشر الإسلام بين الأتراك الوثنيين وحماية الثغور الإسلامية، وما لبثت جموعهم أن اتجهت غربًا نحو خراسان بقيادة طغرل بك، حفيد سلجوق، حيث استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم سنة ١٠٣٧م، كما استولوا على همذان والدنيور، والرى، وأصبهان التى اتخذها طغرل بك عاصمة له من بين سنتى ٤٣٣-٤٣٧هـ. وقد حرصوا خلال زحفهم على إظهار تمسكهم بالمذهب السنى ومناهضة المذهب الشيعى دون هوادة.

وفى الوقت الذى كانت فيه جموع السلاجقة تنثال غربًا، كانت الخلافة العباسية تعانى الكثير من سيطرة الأسرة البويهية الشيعية على الخلفاء العباسيين بحيث باتت سلطة الخليفة العباسى اسمية، ليس له من مظاهرها إلا الخطبة والسكّة وتعيين القضاء وخطباء المساجد، بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لأنفسهم لقب ملك أو شاهنشاه، بدلاً من لقب أمير الأمراء الذى كان سائداً فى عصر النفوذ التركى السابق، كما قرنت أسماؤهم باسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة.

وعانت الخلافة العباسية، إضافة إلى النفوذ البويهى، من مؤامرات الدولة الفاطمية، مما جعل الخليفة العباسى القائم بأمر الله على التطلع إلى الاستعانة بطغرل بك والسلاجقة للتخلص من البويهيين الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة، فأسرع طغرل بك بتلبية ندائه ودخل بغداد سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥م وأعاد القائم إلى سدة الخلافة بعد أن قضى على دولة الملك الرحيم آخر الملوك البويهيين. وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة فى بغداد، حيث اتخذ طغرل بك لقب سلطان ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة. وهذا اللقب الذى يعنى القوة والنفوذ، كان يطلق على الخلفاء وحدهم.

وكان رد الخلافة الفاطمية على دخول السلاجقة بغداد وقضائهم على البويهيين سريعًا إذا شجعت وأيّدت ثورة القائد التركى البساسيرى بالمال والسلاح، مما مكّنه من التغلب على جيوش الخليفة العباسى فى سنجار سنة ٤٤٩. ثم أخذ ينتظر فرصة مناسبة دخول بغداد نفسها، فانتهز خروج طغرل بك من بغداد إلى شمال العراق ليخضع تمرداً قام به أخوه إبراهيم وهاجم بغداد واستولى عليها، وأجبر الخليفة القائم على إصدار عهد عنه يعترف فيه بعدم أحقية بنى العباس فى الخلافة مع وجود الفاطميين أبناء فاطمة الزهراء. وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر على منابر بغداد، وأرسلت إليه عمامة الخليفة وعرشه.

إلا أن ثورة البساسيرى لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد طغرل بك ليقضى على البساسيرى وليعيد الخليفة القائم. وتوّج انتصاره هذا بالزواج من ابنة الخليفة القائم عام ٤٥٤هـ. لكن العمر لم يطل به بعد هذا الزواج فما لبث أن توفى فى العام التالى ٤٤٥ /١٠٦٣ وقد جاوز السبعين.

وولى ا لحكم بعد طغرل بك، ابن أخيه السلطان عضد الدين ألب أرسلان فحمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين والشيعة على السواء طيلة فترة حكمه التى دامت عشرة أعوام (١٠٦٣-١٠٧٣م) وبسط سيطرته على حلب سنة ١٠٧٠م وكانت معقلاً للشيعة، ومنها أرسل قائده أتسز الخوارزمى إلى فلسطين وكانت تابعة

للفاطميين، ففتح الرملة والقدس وما جاورها. ثم قصد دمشق وحاصرها وخرّب ضواحيها، وقطع الإمدادات عنها، ولكنه فشل فى دخولها.

ومن حلب اتجه ألب أرسلان لمقابلة الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينيس الذى توغل فى الأراضى الإسلامية حتى بلغ ملاذكرد التى دارت عندها معركة هائلة كتب النصر فيها لألب أرسلان وأُسر الأمبراطور البيزنطى سنة (٤٦٢-١٠٧١م).

وتمهدت الطريق بهذا النصر لألب أرسلان إلى ممتلكات البيزنطيين فى آسيا الصغرى. فوجه إليها ابن عمه سليمان قتلمش فأقام فيها دولة سلاجقة الروم. ولم يعش ألب أرسلان بعد نصره هذا طويلاً، إذ قتل على يد أحد أتباعه أثناء حروبه فى بلاد ما وراء النهر عام ١٠٧٣م. وكان قد أوصى بالملك من بعده لولده ملكشاه.

وفى عهد ملكشاه، استطاع القائد اتسز الاستيلاء على دمشق عام ٤٦٨هـ وما لبث ملكشاه أن عيّن أخاه تتش ملكًا على بلاد الشام وجعل الحكم وراثيًا فى أسرته، وبذلك قامت فى دمشق دولة سلاجقة الشام التى وقفت فى وجه أى تقدم فاطمى فى مصر باتجاه الشام.

وجاء وفاة ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام عام (٤٨٥-١٠٩٢م) إيذانًا بتفكك إمبراطورية السلاجقة، فقد خلف من الأولاد أربعة، هم: بركياروق، ومحمود، ومحمد وسنجر. وقد انقسمت دولته فيما بينهم، فتنافسوا، ومن بعدهم أولادهم، على السيطرة على الخليفة العباسى وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لنفسه لقب السلطان. كما تنافس ابنا تتش، رضوان ودقاق فى الشام. وأعمامه وأبناءهم فى ولايات المشرق.

ولعل أبرز مظهر لانحلال دولة السلاجقة، إضافة إلى التفكك والتناصر الأسرى، هو استقلال عدد من كبار قادة السلاجقة ممن اصطلح على تسميتهم بـ«الأتابكة» بولاياتهم، والأتابكة هى جمع لكلمة أتابك التركية المؤلفة من مقطعين: «أتا» بمعنى أب، و«بك» بمعنى السيد الذى يربى أولاد الملوك. ثم أصبح لقبًا تشريفيًا يمنح لكبار القادة بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة. وقد أطلقت على الدول التى أسسوها الأتابكيات وهى كثيرة عديدة، وبيوتها شتى لا تنتسب إلى نسب واحد، ولكن مما يجمعها هو صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقى والنظام الإقطاعى الإسلامى. وأهم هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكى، وعن طريق آل زنكى ظهر الأيوبيون، ولعب هؤلاء وأولئك أدوارهم على مسرح الحوادث السياسية فى الشرق الأدنى الإسلامى.

ولم تكن الخلافة الفاطمية فى مصر، أسعد حالاً فى هذه الفترة، من الخلافة

العباسية التى كانت فى هذه الفترة فى أشد حالات الضعف. وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله الذى أعلن الخلافة، وتلقب بلقب المهدى، وتسمى بأمير المؤمنين سنة (٢٩٧-٩٠٩م). وبعد أن أستولت على مصر والشام ومعظم بلاد جزيرة العرب أخذ الضعف يدب فى أوصالها نتيجة لاستبداد الوزراء، وهو نفس السبب الذى تسبّب فى ضعف الخلافة العباسية حين استبد بها أمراء الأمراء، ومن بعدهم ملوك بنى بويه، ثم سلاطين السلاجقة. وقد كان الخلفاء الفاطميون أثناء إقامتهم بالمغرب، وفى أوائل حكمهم فى مصر، يعتمدون على أنفسهم فى تدبير الأمور، وإن استخدموا فى مصر الكاتب أو المدبّر أو الوسيط أو السفير، وهى تسميات تدل على الذى يتصرف برأى الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير، ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله، كان هؤلاء ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ.

واعتباراً من النصف الثانى من عهد الخليفة المستنصر بالله، الذى تميزت فترة حكمه الطويلة بالمجاعات بسبب قصور النيل وما تلاه من قحط شديد استمر سبع سنوات، كثرت الفتن والقلاقل، ففقد الخليفة ووزراؤه كل سلطة فى البلاد بحيث كان هؤلاء الوزراء يسقطون بسرعة بحيث عيّن فى مدى أربع سنين عشرون وزيراً منهم.

ولما أضحى الخليفة المستنصر عاجزاً عن قمع الفتن، وتصريف أمور الدولة بنفسه، التجأ إلى واليه على عكة بالشام، بدر الجمالى، الأرمنى الأصلى، فطلب منه القدوم إلى مصر لتنظيم أمورها وإخماد ما نشب فيها من فتن، ورحب بدر الجمالى بذلك ودخل مصر فى جيش كبير من الأرمن عام ٤٦٦هـ وقبض على زمام الأمور بيد من حديد، فخلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة إلى جانب تفويضه إمرة الجيوش. وبذلك أصبحت سلطته تمتد إلى كل أمر من أمور الدولة، فهو أمير الجيوش، المسيطر على الجيش وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادى دعاة المؤمنين، أى المشرف على الدعوة الفاطمية. وقد حكم بدر حكماً مطلقاً إلى وقت وفاته سنة (٤٨٧هـ-١٠٩٤م) حيث كان المستنصر معه كالمحجور عليه.

وبعد بدر الجمالى توالت سلسلة من وزراء التفويض أولهم الأفضل بن بدر الجمالى الذى كان له من القوة ما حمله على إيصال المستعلى، الابن الأصغر للمستنصر، لمركز الخلافة رغم أحقية أخيه نزار بها. وما لبث أن تخلص منه باغتياله بالسم عام ١١٠١م وأحل فى مركز الخلافة المنصور بن المستعلى وكان لا يزال طفلاً فى الخامسة من عمره ولقبّه بالآمر بأحكام الله، وحجر عليه ولم يسمح له بالظهور إلا مرتين فى السنة، ولكن الآمر بعد أن بلغ رشده حاول أن يسترد نفوذه الضائع فتخلص من وزيره بعد أن دسّ السم له فقتله عام ١١٢١م. وشغل هذا المنصب بعد الأفضل

المأمون البطائحى الذى حاول أن يسير على خطى سلفه من حيث الاستبداد بالخليفة، الأمر الذى اضطر الخليفة الآمر أن يدس له أحد مماليكه فقتله عام ٥١٩-١١٢٥م.

وفى عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) قتل الآمر على يد أحد أتباع عمه نزار، الذين كانوا يعتبرونه، وأباه من قبله، غاصبين للحكم. ولما لم يترك الخليفة الآمر وريثاً، فقد انتقلت الخلافة إلى أحد أقربائه ويدعى عبد المجيد، الذى تلقب بالحافظ لدين الله. وفى عهده استبد بالسلطنة الوزير الأكمل بن الأفضل الذى قبض على الخليفة وسجنه واستولى على ما فى قصره من أموال وتحف. وما لبث الأكمل أن قتل عام ٥٢٦هـ وأخرج الحافظ من سجنه. وقد اعتبر هذا اليوم يوم عيد يحتفل به كل عام وسمى عيد النصر.

وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ-١١٤٦م اشتد التنافس بين كبار موظفى الدولة على منصب الوزارة، وساعدهم على ذلك صغر سن الخلفاء الذين توالوا على الخلافة بعد الحافظ، وهم على التوالى: الظافر والفائز والعاضد، وتوالى على منصب الوزارة فى هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية رضوان بن ولخشى والى الغربية والعادل بن السلار والى البحيرة، وطلائع بن رزيك والى الأشمونيين وشاور والى قوص، وأبو الأشبال ضرغام الذى تولى الوزارة لآخر الخلفاء الفاطميين العاضد بعد أن هزم شاور الذى هرب إلى الشام ليستنجد بالزنكيين.

يتضح لنا، من هذه العجالة، أن الخلافتين العباسية والفاطمية لم تكونا على حال تحسدان عليه، وشغلتهما مشاكلهما الداخلية عن مقاومة خصم مشترك لكلتيهما وللإسلام، وتمثل هذا الخصم بالحملات الصليبية التى استهدفت ظاهرياً استخلاص الأماكن المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين وحماية الحجاج الوافدين من أوروبا، بشكل خاص، مما كانوا يلاقونه من عراقيل ومصاعب واضطهاد من جانب المسلمين، ولما كان العصر عصر العاطفة الدينية المشبوبة، فقد اتخذ القائمون على تلك الحملات من الدين ستاراً يخفون وراءه مطامعهم وأهدافهم الحقيقية ليجتذبوا أكبر عدد من المشاركين بهذه الحملات. والواقع أنه تجمعت من الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ما ينبغى أن يأخذه الباحث المنصف بعين الاعتبار وهو يدرس تاريخ هذه الفترة. وإذا كانت قلة من المشاركين بهذه الحملات قد حملت شارة الصليب لدوافع دينية، فقد كان عدد من زعماء هذه الحملات قد قصدوا من اشتراكهم بها أن يفتتحوا أراضى جديدة لهم يرفعون عليها أعلامهم وتدين لهم بالطاعة. كما قصدت المدن التجارية فى أوروبا مثل البندقية وجنوى وبرشلونة وبيزا وفلورنسا أن تجنى الأرباح الهائلة من احتكار التجارة بين الشرق

والغرب، والسيطرة على طرق التجارة التى تمر عبر الوطن العربى، والقضاء على البحرية الإسلامية التجارية، لذا فإنها موّلت هذه الحملات وساعدت فى نقلها على متن سفنها إلى ميادين القتال، متخذة من هذه الحرب فرصة لتنشيط تجارتها. لقد كان الشرق منجم ذهب هرع لينهبه الأفاقون والمفلسون واللصوص والباعة والخدم والرهبان والرقيق يسيطر عليهم جميعًا حمى الخوف على الحياة والاختيار بين الإثراء والشحاذة على حد تعبير أحد المؤرخين. لقد كانت الحملات الصليبية فى واقع الأمر استعمارًا سياسيًا واقتصاديًا لهذه المنطقة من العالم.

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا جزئيًا فى تحقيق أهدافهم واستطاعوا إقامة مملكة فى القدس وإمارات ثلاث فى الرها وأنطاكية و طرابلس، فإن نجاحهم هذا لا يُعزى إلى وفرة عددهم، وإلى سيل الإمدادات الذى لم ينقطع من الغرب الأوروبى بتشجيع ودعم من البابوية فى روما، ومن الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل يعود أساسًا إلى تفرق كلمة المسلمين وضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية مع العداء المذهبى الذى دمغ بطابعه تصرفات وعلاقات كلتا الخلافتين الواحدة بالأخرى، فأفاد الصليبيون من هذا الواقع ووظفوه لصالحهم.

١ - المواجهة الصليبية - العربية الإسلامية:

ليس بمقدورنا فى هذه الدراسة أن نقدم تقريرًا مفصلاً لسير الأحداث العسكرية والسياسية، ولكننا نود أن نشير إلى أن عداوة مريرة نشأت بين الأمم التى تدين بالمسيحية والإسلام منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر المتوسط، بعد أن أجبروا البيزنطيين على التراجع إلى أقصى بلادهم فى آسيا الصغرى وسيطروا فى عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم فى سوريا والجزيرة ومصر وأرمينية وقبرص ورودس، أى على معظم شرق البحر المتوسط، كما سيطروا فى عهد الخلافة الأموية على المغرب والأندلس وجزر البيار وسردينية وكريت فى غرب المتوسط، ولما جاءت الدولة الأغلبية، فى شمال إفريقيا، استولت على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ثم على مالطة ٢٢١هـ/ ٨٣٥م وفتح المسلمون كالبريا جنوب إيطاليا ووصلوا إلى روما سنة ٢٣١هـ/ ٨٤١م مقر البابا التى دخلوها وأحرقوها ونهبوا كنائسها، واضطر البابا ليون الرابع أن يختبئ. ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم فى شمال إفريقيا، بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية سنة ٣٣٣هـ/٩١٥م وأخذوا يغزون أيضًا فى كالبريا (قلّورية كما سماها العرب) وهاجموا لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، وهاجموا جنوب شرق فرنسا، كما غزوا سواحل بلاد الروم.

وكان من الطبيعى والمنتظر أن تستهدف الأمم النصرانية، بعد أن اشتد ساعدها،

الانتقام من المسلمين، ولم يكن متوقعًا أن يأتى الخطر من جانب البيزنطيين الذين تلقوا ضربات قاسية من المسلمين، منذ انسياحهم فى حركة الفتوح باستيلائهم على أملاكهم فى حوض البحر المتوسط، ومن ناحية أخرى بسبب أن حدودها فى أوروبا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية وبخاصة البلغار. ولما قويت بيزنطة، بضعف الخلافة العباسية، وبعد تسوية علاقاتها بالبلغار، مدّت نفوذها فى عهد الأسرة المقدونية إلى الإمارات الإسلامية فى شمال الشام وفى إقليم الجزيرة، كما استعادت رودس وقبرص وكبريت، وجعلتها مراكز للإغارة على سواحل المسلمين.

وفى أوائل عهد الفاطميين، بعد أن نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وصل البيزنطيون إلى قرب القدس مرار إلا أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم وما لبثوا أن عقدوا الصلح معهم، دون أن يسترجعوا الجزر التى فقدوها، ولما جاء السلاجقة إلى العراق، زادوا من ضعف البيزنطيين، خاصة بعد أن تقدموا باتجاه آسيا الصغرى التى فتحوا أبوابها لهجرة قبائلهم فتكوّنت إمارة سلجوقية قوية على يد سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، اتخذت قونية عاصمة لها وبدأت تتوسع مقتطعة الأراضى البيزنطية جزءًا جزءًا، كما اضطروا البيزنطيين أن يدفعوا لها الجزية.

ولكن الخطر الحقيقى جاء من أهل أوروبا الذين عرفهم العرب باسم الفرنجة أو الإفرنج، وبخاصة من العناصر النورماندية الشمالية المخاطرة الذين غزوا إنكلترا فى القرن الثانى الميلادى وفيها تحولوا إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى شمال فرنسا واستقروا فى منطقة النورماندى التى نسبت إليهم. ومن هناك بدأوا يهاجمون سواحل الأندلس الإسلامية سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٤م. كما حاولوا بقيادة زعيمهم روبير جيسكار أن يقضوا على نفوذ بيزنطية على سواحل الأدرياتيك. وحينما صُدّوا اتجهوا إلى جنوب إيطاليا وصقلية ومالطة وكانت تخضع للفاطميين ولآل باديس فى تونس، واستولوا عليها بقيادة ملكهم روجار Roger فى سنة ٤٨٤ / ١٠٩١ بعد أن حطموا سيطرة الأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط، وبدأوا يغيرون على مراكب المسلمين المتجهة من مصر إلى إفريقيا. كما هاجموا طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ-١١٤٦م واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وقد تحالفوا للقضاء على نفوذ المسلمين فى البحر المتوسط مع دويلات قوية بدأت تظهر فى إيطاليا، مستقلة عن نفوذ بيزنطية مثل بيزا وجنوى والبندقية.

كذلك جاء الخطر من قبل نصارى الأندلس الذين بدأوا يسترجعون جزءًا فجزءًا الأراضى الواقعة تحت سيطرة المسلمين فيما عرف بحروب الاسترداد (الريكونكيستا) مستغلين ضعفهم وانقسامهم إلى دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف،

ولكن مما حدّ من انتصاراتهم ظهور الدولتين المرابطية والموحدية فى المغرب اللتين أوقفتا تقدم الأسبان وجمّدتا نشاطاتهم المعادية إلى حين.

ولكن الخطر الداهم على المسلمين، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب فى العصور الوسطى بالأرض الكبيرة، وهى تمتد من شمال الأندلس إلى روما شرقًا، وكانت البابوية فى روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة عليهم. وباستثناء فرنجة فرنسا الذين أغار المسلمون عليهم وهاجموا أراضيهم فى عهد الأمويين والعباسيين لمجاورتها الأندلس، لم يكن الإسلام على عداء مع سائر فرنجة أوروبا، إلا أنهم حينما دعاهم البابا إلى حرب المسلمين لبوا النداء وأضحوا من أشد أعداء الإسلام.

ابتدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثانى سنة ١٠٩٥م بمؤتمر كليرمونت (Clermont-Ferrand) بجنوب فرنسا، بناءً على دعوة البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م)، وحضره حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، وقد ألقى البابا أوربان فى المؤتمر خطابًا حض فيه على حرب المسلمين ولتحرر الكنيسة الشرقية من ربقتهم، والأراضى المقدسة من سيطرتهم مقابل غفران جزئى لكل من سيشارك فى هذه الحرب سواء مات فى الطريق إلى الأراضى المقدسة أو قتل فى الحرب ضد المسلمين، كما خطب بطرس الناسك أيضًا ولقيت خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما لوحت به من مكاسب دنيوية ورغّبت بالمكاسب الدينية استجابة فورية وحماسية تجسدت فى الصيحة التى رددها الحاضرة: الله يريد ذلك (Dieu le Veut-Dies le volt). والواقع أن هذه الاستجابة لم تكن ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه قدر ما كانت استجابة للمشروع الذى طال انتظارهم له. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحرب الصليبية تتناسب مع العصر تمامًا، إذ كان المجتمع الإقطاعى الأوروبى، بغطرسته وكبريائه وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذى يحل مشكلته فى الدنيا ويضمن له المغامرة والكسب مثلما يضمن له خلاص الروح.

أخذ الفرنجة يتجمعون فى كل مكان لقتال المسلمين وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليبًا من قماش أحمر، لذلك عرفت الحروب التى قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية، أما المؤرخون العرب فسموها بحركة الفرنج.

وقد اشترك فى أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاؤوا من كل مكان فى أوروبا يقودهم بطرس الناسك إلى بيت المقدس. حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوروبا إلى القسطنطينية، فقتلوا اليهود فى طريقهم وسلبوا ونهبوا، ويبدو أن

بطرس الذى كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذى تألف من المقاتلين والطامعين، والذى ضم مئات من الأفاقين والمجرمين وبنات الهوى والفلاحين المعدمين والفقراء من أهل المدن فضلاً عن عدد صغير من الفرسان. فلما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية فى سنة ٤٨٩هـ/١٠٦٩م نصحهم ملكها ألكسيوس كومينوس (١٠٨١-١١١٨م) بألا يتسرعوا فى العبور إلى آسيا الصغرى، ولكنهم أساؤوا التصرف فأحرقوا القصور ونهبوا الكنائس، فأمرهم بالرحيل، وسرعان ما وقعوا فى كمين أعده لهم السلاجقة فأجهز على الحملة الشعبية فى حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.

وفى الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة. ولذا كان خطرها شديداً على المسلمين، وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة مثل غودفروا دى بويون Godefroi de Bouillon ويسميه العرب كندفرى أو كندهرى، وشقيقه بودوان Boudouin ويسمونه بغدوين أو بردويل، وبوهيمند النورماندى Bohémond ويسمونه بيمنت أو بيمند. وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوروبا، والبعض الآخر عن طريق سهول إيطاليا الشمالية.

فلما وصلوا إلى القسطنطينية سنة ٤٩٠/١٠٩٧م ليعبروا بحر مرمرة، أو ما سماه العرب بالخليج أو «المجاز» إلى بلاد الترك السلاجقة، لم يمكنهم ألكسيوس من العبور حتى يتعهدوا له وأن يقسموا له يمين الولاء بإعادة أنطاكية إذا ما استولوا عليها من السلاجقة.

كانت نيقية أول أهداف الصليبيين، وهى عاصمة دولة سلاجقة الروم يحكمها قلج أرسلان وتتحكم فى الطريق الأساسي عبر الأناضول. فتم فرض حصار عليها استسلمت بعده للإمبراطور البيزنطي خوفاً من وحشية الصليبيين، وكان النصر حافزاً للصليبيين على مواصلة الزحف جنوباً صوب فلسطين. ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها ولأن جماعات مسلمة من مدن حلب ودمشق والقدس خرجت لنصرتها. وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى الصليبيون على أنطاكية من صاحبها التركى ياغيسيان فى آذار ٤٩١هـ/١٠٩٨م، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهاليها المسلمين بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث. ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها بقيادة كربوقا التركى أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وأصبح الصليبيون فيها محاصرين، لكن الانقسامات بين المسلمين أضاع عليهم

الفرصة فانهزموا هزيمة منكرة . وكان الصليبيون قد اتفقوا مع ألكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية، إلا أنهم سلموها لبوهيمند الذى تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد Tangrid .

بعد هذا الانتصار سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فاستولوا على مدن عديدة منها الرُّها وأغلب سكانها من الأرمن، لكن أتابكة السلاجقة فى الجزيرة تمكنوا من وقف تقدمهم إلى بغداد . كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب وكانوا يسيرون على طول الشاطىء وتمدهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال فكانت مدن الشام العليا وموانيها تسلّم إليهم دون مقاومة . وقد تعامل الصليبييون بمنتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان مثلاً، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف، وأخذوا من كان حيًا لبيعه .

وهكذا قامت إمارتان صليبيتان فى بلاد الشام، رغم أن المسلمين كانوا قادرين على إبادة القوات الصليبية لو نبذ حكام المنطقة الشك والعداوة التى رسختها طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، الأمر الذى جعلهم عاجزين عن مقاومة قوات الصليبيين . لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسى للحكام العرب والسلاجقة فى المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم فى آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم فى بلاد الشام، وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات . ولا بد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة بيزنطية من النمط الذى تعودوا عليه . أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا أبداً فى مساعدة السلاجقة السنّة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة، حيث أرسل الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستعلى سفّاره لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام . ولم تثمر هذه المحاولات شيئاً . وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأى سلطات، ولا شك أن الفاطميين، كالسلاجقة، ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبى مجرد مرتزقة فى خدمة البيزنطيين .

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة فى شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا فى أنطاكية، أدرك أن السلاجقة ليسوا فى وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد، فشن هجومًا على فلسطين التى كانت فى حوزة سقمان وأيلغازى ابنى أرتق، وكانا يدينان بالولاء أمير دمشق دقاق . وفى سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م استولى على القدس وأناب فيها قائداً اسمه افتخار الدولة .

وفى الشمال من بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة تراقب انهيار السلاجقة فى سرور، ولم يتدخل أحد إلى جانبهم. ويذكر ابن الأثير ما نصه: «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية...». وإذا كان رضوان ودقاق السلجوقيان، قد اتخذا هذا الموقف، فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحاً.

وتحرك ريمون دى تولوز فى معرة النعمان على رأس قواته، جنوباً بحذاء منحدرات جبل النصيرية دون مشاكل، لأن الأمراء المحليين كانوا غاية فى الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشياً لهجوم الصليبيين عليهم. وبعدما حدث فى أنطاكية والرها ومعرة النعمان، قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبى. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلى، ثم انضم غود فرى وتنكريد وبوهيمند إلى الجيش الزاحف جنوباً، وقد استولى الصليبيون فى طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذى كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية، وتوغل الصليبيون فى الأراضى الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبى إلا بعد فوات الأوان.

كان الفصل الأخير فى الحملة الصليبية الأولى، هو الحصار الذى ضربه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من ٧ حزيران إلى ١٥ تموز ١٠٩٩م استبسل خلالها المدافعون فكانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من الأبراج عن تسليم أنفسهم. وفى يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م (٢٢ شعبان ٤٩٢هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحملة الفاطمية افتخار الدولة وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وجرى الدم فى الشوارع وظلت الجثث مطروحة فى الشوارع أياماً.

وكان الوزير الأفضل، لما بلغه وصول الصليبيين إلى القدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم، فلما قرب من القدس، كانوا قد فتحوها، وهجموا عليها وهزموه وأحرقوا من التجأ من عساكره إلى الغابات، وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى قبر المسيح بحيث إنهم كانوا يبكون من شدة الفرح. وهكذا سقطت القدس فى أيدى الصليبيين بعد أن ظلت فى يد المسلمين منذ فتحها زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/٦٣٨م.

وعندما خفَت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهام التى واجهتهم هى مواراة الجثث التى فاضت منها الروائح النتنة فى كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة. واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكى يقرروا ما ينبغى عمله فى هذا الصدد. وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها، فقد تنازعتها البابوية التى كانت تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة إلى سيطرتها على الكنيسة الغربية، والمدن الإيطالية التى قامت بنقل الجنود والأمداد على متن سفنها، وبيزنطة التى كانت تريد استعادة مستعمراتها فى الشرق. ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن يكون غود فرى (كند فرى أو كند هرى) حاكماً عليها تحت لقب «حامى الضريح المقدس» وكان هذا الحل الوسط فى حقيقة الأمر هروباً من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم فى هذه الدولة الوليدة.

وفى الثانى عشر من تموز عام ١١٠٠ مات غود فرى أثناء محاولته مد نفوذه فى السهل الساحلى بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا فى الإفادة من النصر الصليبى. وتمّ استدعاء بدوين من إمارته فى الرها ليتولى حكم بيت المقدس خلفاً لأخيه المتوفى. وفى الخامس والعشرين من كانون الأول تم تتويجه. وهكذا قامت مملكة بيت المقدس اللاتينية، التى تكونت بالإضافة إلى القدس، من يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل وأريافها التى تسكنها أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا إلا أن العدد الأكبر منهم بقى فى المنطقة حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم كانوا أقل كثيراً فى عددهم من المسلمين والعرب أصحاب البلاد، فقد حاولوا جهد طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. كما كانت من ناحية أخرى أخبار النجاح الذى أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربى رغبة فى الحصول على نصيب من المغانم التى شاعت أخبارها فى الغرب الأوروبى على ألسنة العائدين من فلسطين وبدأت الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة لمساعدة المؤمنين فى «جيش الرب» تحقق نجاحاً ملحوظاً.

وفى سنة ١١٠١م كانت حملة جديدة قد تجمعت فى الغرب الأوروبى لمساعدة صليبيى الشرق، وكانت عبارة عن جموع من اللمبارديين تشبه جموع بطرس الناسك من قبل، يتحرقون شوقاً للرحيل وقد غادرت ميلانو فى ١٣ حزيران سنة ١١٠١ وسلكت الحملة الطريق نفسه الذى سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما

وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا فى إثارة المتاعب الصليبية المعتادة. ولم يجد الإمبراطور ألكسيوس كومينوس بدا من نقلهم إلى آسيا الصغرى. وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم الفرنسية. وفى تلك الأثناء كان بوهيمند أمير أنطاكية أسيراً لدى أمير سيواس الملك الغازى بن الداتشمند. وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره، ولكن السلاجقة الذين علمتهم أحداث الحملة الأولى درساً قاسياً، اتَّحدت جهودهم فى مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة، فأطبقت جيوش قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازى أمير سيواس، على الصليبيين، الذين تبدّد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء فى الوقت المناسب ليحولوا الإشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطى، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس.

ومن ناحية أخرى، بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم فى الأراضى والموانىء التى كانت تفصل، أو تصل، بين المناطق المتناثرة التى استولوا عليها، وفى بطء بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدى لهم تماماً، ففى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية، وكان الجنويون بأساطيلهم خير عون لهم فى هذا الهجوم.

وحاول الفاطميون فى السنة التالية (١١٠٢م) أن يشنوا هجوماً مضاداً على الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة الخسائر التى نزلت بالصليبيين. ثم استولى تنكرد من البيزنطيين على اللاذقية سنة ١١٠٣م.

وعبثاً حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئاً، وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون بسهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى حراجة الوضع وسلبيته بقوله: «لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء...».

وفى سنة ١١٠٤م ملك الصليبيون عكا، ثم طرابلس، بعد حصار دام سبع سنوات مات أثناءها ريمون دى تولوز، وقد أظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار بطولة وصبراً رائعين طوال سنوات الحصار السبع، وأخيراً سقطت المدينة سنة ١١٠٩م، وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وأنطاكية، فضلاً عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها، لم تتوقف المقاومة الإسلامية فى الشمال من جانب

السلاجقة الذين نجحوا فى أسر بوهيمند فترة من الزمن، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين. كما أن الفاطميين فى الجنوب استغلوا قاعدتهم فى عسقلان لشن هجمات ضد الصليبيين فى سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، و١١٠٥م، وقد كلفت هذه الهجمات الكثير من الخسائر فى الرجال والأموال، بيد أن بذور الشك والمرارة لا زالت تفعل فعلها، فمنعت أى تنسيق جدى على محور القاهرة دمشق، وبعد ١١٠٥م لم يشن المصريون أى هجوم خطير على الصليبيين، بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد دائم على الصليبيين.

فى تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على الساحل كله باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكرى لصالحهم بالشكل الذى أقلق إمارة دمشق. وإزاء الفشل على محور دمشق القاهرة، بدأ أمير دمشق طغتكين (١٠٩٥م-١١٢٨م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (١١٠٨م - ١١١٣م) الذى كان يحاول تنظيم تحالف إسلامى كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية. ولكن هذه المحاولات لم تؤت ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية فى بلاد الشام حالت دون ذلك، كما أن سلاطين السلاجقة كانوا أكثر اهتماما بفارس منهم بالبلاد الشامية.

فى تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت فى معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيمند سنة ١١١١م، ثم تلاه تنكرد سنة ١١١٢م، وبذلك قوى مركز بلدوين الأول كثيراً بالشكل الذى أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق.

وعلى الجانب الإسلامى كانت تجرى محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين. وقد انتهز مودود أتابك الموصل فرصة استنجاد طغتكين به، فجمع جيشاً كبيراً لمهاجمة الصليبيين فى فلسطين هذه المرة. ففى سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق والأمير أياز بن أيلغازى صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبى تماما.

بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية فى آخر يوم جمعة من شهر ربيع الثانى من هذه السنة (تشرين الأول ١١١٣م)، ثم موت رضوان أمير حلب فى جمادى الآخرة فى السنة نفسها، خفّف من وطأة الهجوم الإسلامى على جبهة الشمال.

ولم يكن ثمة حادث مهم فى الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس، سوى محاولته غزو مصر سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ولكن مرضا عضالاً أصابه، فعاد مسرعا إلى فلسطين ليلقى حتفه. وتنتهى بذلك مرحلة التوسع الصليبى التى

قادها هذا الملك لتبدأ مرحلة التوازن بين الجبهة الإسلامية فى الشمال وبين الصليبيين، بحيث يتجه الجانبان فى أنظارهما شطر مصر التى بدأ الصليبيون يحاولون التوسع على حسابها.

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة إلى الشام والجزيرة، وأنه أصبحت لها مملكة وإمارات فى هذه البلاد بين إمارات السلاجقة وأتابكياتهم، وعلى حدود مصر، ونميز منها: إمارة الرها على الفرات التى كان يتبعها عدة بلاد، وإمارة أنطاكية فى الشمال التى امتدت إلى جبال طوروس وشمال الشام، ومملكة القدس التى امتدت من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، وإمارة طرابلس التى نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذاً لها على الساحل، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان دون أن تدخل فيها إمارة دمشق السلجوقية، ومع ذلك، فإن مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد الفرنجة، إذ كان يخضع لها أشرافهم فى الشام والجزيرة. وموقفهم منها يشبه موقف الإمارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان السلجوقى فى العراق.

٢ - المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين ودور آل زنكى وآل أيوب:

لم تكن المواجهة الصليبية العربية الإسلامية مجرد صدام عسكرى، وإنما كانت صداماً بين حضارتين. وقد تجلّت الاستجابات التى خلفتها هذه المواجهة فى عدة مستويات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية. هذا التفاعل بين هذه الجوانب جميعاً أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع.

إن الاستجابة الأولى للتحدى الذى فرضه العدوان الصليبى على العالم العربى تبرز فى الحقيقة القائلة: إن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الدينى والواجهة الشرعية ليتكرس نموذج الدولة العسكرية كبديل مناسب بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود فى مواجهة الصليبيين. وهذا الدور التاريخى هو الذى يضفى عليها الشرعية فى نظر رعاياها، كما أنه مبرر وجودها واستمرارها.

لقد شكل الغزو الصليبى صدمة نفسية مؤلمة وأثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الاستياء والغضب فى كل مكان ذهب إليه هؤلاء اللاجئون وأدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاؤوا إلى بلادهم بقصد البقاء. وبدأ العالم الإسلامى يشهد ظاهرة إيجابية، جاءت هذه المرة من جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأى عام قوى وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذى ضيّع البلاد وذلّ العباد. وأخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد فى فضل القدس الشريف وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات

الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التى تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس فى العالم العربى الإسلامى بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأى عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأى والمفكرون. وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين. وفى ظل هذا البعث الإيديولوجى ظهر آل زنكى فى الموصل اعتباراً من سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ليقودوا حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية. وما لبث عماد الدين زنكى أن صار أقوى حاكم مسلم فى زمانه، لأنه طوع قوته وموارده العسكرية فى خدمة المطلب العربى الإسلامى العام، أى الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس والعلماء والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأى العام القوى المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبى. وجاء عماد الدين زنكى استجابة تاريخية للمطلب العربى الإسلامى العام. من ثم برزت أتابكية الموصل، باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التى يقودها ملك مقاتل لكى تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت فى طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل الخلافتين العباسية والفاطمية فى التصدى لهم. هذه الدول هى: الزنكية، الأيوبية، ثم المملوكية.

تمكن عماد الدين زنكى تدريجياً من التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفى سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ملك مدينة حلب وقلعتها، وكان هذا أمراً فى غاية الخطورة على الصليبيين فى شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية. وفى العام التالى استولى على حماه، ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص ٥٣٢هـ/١١٤٣م.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكى أن تستولى على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً، وكانت تلك هى أول إمارة صليبية قامت على أرض الشرق العربى الإسلامى وأول إمارة خسروها فى حرب الاسترداد الإسلامية، لذا كان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت أصداؤها فى كل مكان إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً على استيلاء بلدوين دى بويون عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربى الإسلامى كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكى تعزيزاً لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة وتدعيماً له فى مواجهة النعرات الانعزالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكرى كان سقوط الرها بيد المسلمين

كسبًا كبيرًا لأنه جعل وادى الفرات كله منطقة إسلامية. كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التى تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما فى الغرب الأوروبى، فعلى الرغم من الحزن الذى عمّ الناس هناك، إلا أن أحداً لم يحاول أن يجنّد حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق لمقابلة البابا أيجينوس الثالث (١١٤٥-١١٥٣) بعد أن اعتلى العرش البابوى بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنتى ١١٤٥ و١١٤٩م جرت أحداث هذه الحملة التى عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية وكانت بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا، فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوروبا، واتجهت نحو القسطنطينية. ولكن الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما فى ٥٤١/١١٤٦م. وبقى الملكان ومع قلة وصلا بها بحراً إلى أنطاكية بعد أن نجا لويس من القتل أو الأسر بأعجوبة.

أما موقف الصليبيين فى بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لقى مصرعه على يد بعض خدمه غيلة فى السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤١/١١٤٦م وانقسام مملكته بين ولديه غازى الذى استولى على الموصل والجزيرة، ونور الدين وكان من نصيبه حلب، فقد فشل جوسلين أمير الرها فى هجومه على المدينة لاستردادها لأن نور الدين أفضل محاولته وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عنه قدوم جنود الحملة الثانية، ولكن لويس السابع الذى أقلقته مكائد أمير أنطاكية والإشاعات التى راجت عن وجود علاقة غرامية بينه وبين زوجته، تجاهل الرها وسار حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث فى فلسطين، وبدلاً من محاولة استرداد الرها سار كونراد نحو أتابكية دمشق، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس وحاصرها سنة ٥٤٣/١١٤٨م فجاء غازى ونور الدين لنصرة صاحب دمشق معين الدين أنر. لكن معين الدين الذى خاف على ملكه من ولدى عماد الدين، أرسل إلى الفرنجة وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال، وعاد كونراد إلى ألمانيا، كما عاد لويس بعد أن مكث فى الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة ١١٤٩م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية بالفشل وأصبح نور الدين أكبر الأتابكة الزنكيين بعد وفاة أخيه الأكبر غازى فى الموصل سنة ٥٤٤/١١٤٩م، وتنازل أخيه الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه فى الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازى بالجزيرة، مما جعله يفكر جديًا فى الاستيلاء على أتابكة دمشق لا سيما وأن حاكمها معين الدين أنر لا يزال يمثل عقبة كأداء فى وجه محاولاته لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففى

كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يسرعون لنجدتها، ومما جعله يعجل أيضا هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين بالشام سنة ٥٤٨ / ١١٥٣م الأمر الذى قوّى أملهم فى أخذ دمشق ولا سيما أن معين الدين أنر كان قد توفى، وضعف مجير الدين صاحبها، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك. كما ورده تقليد من الخليفة العباسى المتقى على البلاد الشامية وكذلك المصرية. وفى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م نجح نور الدين محمود فى دخول دمشق برغبة أهلها ونقل إليها مركز حكمه بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق. وعيّن نجم الدين أيوب حاكمًا عليها شيركوه نائبًا عنه وصلاح الدين رئيسًا لحاميتها.

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار إلى مصر التى كانت تعانى الضعف السياسى آنذاك. إذ كانت الخلافة الفاطمية فى الطور الأخير من عمرها، عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ أنهكتها الكوارث الطبيعية والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالى صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بين أيديهم. كما توالى جلوسهم على كرسى الحكم فى إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحى التدهور فى قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية فى ذلك الحين أشبه بالرجل المريض الذى ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولى عليها، أو يضمها إلى جانبه فى الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فإن كلاً من الطرفين آثر ألاّ ينتظر النهاية الطبيعية للدولة الفاطمية، وإنما يبادر إلى وضع حد لهذه النهاية.

كانت الأحداث السياسية فى مصر تجرى بسرعة نحو التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١م، لم يعد هناك حاكم قوى فى مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد فى دوامة لا نهاية لها من المؤامرات والدماء، بحيث انتعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود، وفى سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) فى إصلاح تحصينات غزة، مما كشف عن نيته المبيّتة فى الهجوم على مصر بوضوح، وكانت عسقلان لا تزال بأيدى المصريين وتمثّل تهديدًا محتملاً ضد الوجود الصليبى فى فلسطين. وفى سنة ٥٤٨ / ١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطينى كله

للصليبيين إلا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التى لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم فى عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحين مات بلدوين الثالث فى ١٠ شباط ١١٦٣م، كان واضحًا أن سياسته الخارجية التى قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف إذ إن سياسة خليفته أملريك الأول (عمورى) (١١٦٣-١١٧٤م) كانت فى حقيقة أمرها سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ إن اتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاة الصليبيين، إذ أدرك أملريك الأول أن سقوط مصر فى يد المسلمين السنة فى بلاد الشام سيجعل الدويلات الصليبية بين حجرى الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبى أن نور الدين محمود كان مدركًا لأهمية التطورات السياسية الداخلية فى مصر على مجريات الصراع الإسلامى الصليبى. وهكذا كان نور الدين وأملريك على أهبة الاستعداد لبدء السباق للفوز بالجائزة الكبرى، وهى مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين، فبعد موت الوزير الفاطمى الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨ / ١١٦١م اندلع الصراع على كرسى الوزارة بين ابنه العادل الذى مكث على كرسى الوزارة خمسة عشر شهراً، شاركه أثناءها شاور حاكم الصعيد الذى قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذى بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه. ولم يجد شاور بداً من الهرب صوب بلاط نور الدين محمود على حين وجد الملك الصليبى أملريك فى الفوضى الضاربة فى مصر آنذاك فرصة ملائمة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التى تقررت على مصر للصليبيين فى عهد سلفه بلدوين الثالث. وفى سنة ١١٦٣م كانت قوات أملريك تعبر برزخ السويس. ثم حاصر مدينة بلبيس، ولكن ضرغامًا الذى انفرد بكرسى الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقًا صعبًا جعل الصليبيين يرجعون القهقرة إلى فلسطين ولكن إلى حين.

وفى تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاد نور الدين محمود فى دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسى الوزارة الضائع فى القاهرة. وفى مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنويًا.

واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه وبرفقته ابن أخيه، الشاب الذى لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، صلاح الدين يوسف الأيوبى الذى خلف فيما بعد نور الدين فى قيادة الجهاد ضد الصليبيين.

ولكن ضرغامًا الذى بلغته أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين، ولم يتردد عمودى (أملريك) وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال الست سنوات التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات. لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل، وعلى طول المسافة ما بين الفرما والقاهرة. وكانت هذه النقلة فى مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد فى المفاهيم السياسية، فقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميدانًا رئيسيًا فى الحرب الصليبية، لا هامشًا عرضيا من هوامش ذلك الصراع الطويل المضنى.

على أى حال، أدت محاولات أملريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين فى غاية الأهمية:

أولاهما: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة.

وثانيهما: تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية. فقد قتل ضرغام وشاور فى خضم هذه الأحداث وصار أسد الدين شيركوه وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، وبعد موت أسد الدين سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى فى الوزارة.

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل الحقبة الحرجة فى تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة صلاح الدين فى خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه، وكان فشل مشروع أملريك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٥٦٥/١١٦٩م وحصارهم الفاشل لدمياط على مدى خمسين عامًا بمثابة الإعلان عن أن القائد الشاب قد دعّم حكمه واطمأن إلى سلامة مركزه السياسى.

وفى هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هى: دمشق والرها وحلب والموصل ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة فى أول

يوم جمعة فى سنة ٥٦٧ / ١٠ أيلول ١١٧١م أحل اسم الخليفة العباسى محل اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة التى أُلقيت فى مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمى العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع دون أن يدرى أن دولة أبائه قد دالت وأنه آخر الفاطميين.

كان انفراد صلاح الدين الأيوبى بالسلطة فى مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ إن مصر بمواردها الهائلة جعلت قدرته لا حدود لها ثم جاءت وفاة نور الدين محمود فى ١١ شوال ٥٦٩ / ١١٧٤، ثم موت عدوه اللدود أملريك ملك بيت المقدس فى السنة نفسها، فرصة طيبة لكى يوحد الجبهة الإسلامية وليؤكد زعامته على العالم الإسلامى، كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج فى حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات. وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين نفسه ملكًا على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسى سنة ٥٧٠ / ١١٧٥م، وقضى صلاح الدين فى مصر حوالى ست سنوات من ٥٧٢-٥٧٧هـ (١١٧٦-١١٨١م) لترتيب الأوضاع الداخلية فى مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين.

وفى تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة على مستوى كبير مع الصليبيين. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات، حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة فى حال نشوب المعركة ضد الصليبيين.

وفى تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل أن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس، كما شنوا غارات على تيماء شمال شبه الجزيرة العربية، وحاول رينالددى شاتيون أمير الكرك، ويسميه العرب أرناط، أن يقتحم البحر الأحمر ويحتل مكة والمدينة، وأن يتحكم فى حركة التجارة الدولية المارة فى هذا البحر. وهاجم بعض موانىء مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصرى سحق أسطوله تماماً.

وهكذا وجد صلاح الدين مبرراً قويًا لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاراته على زهرة جيوش الصليبيين عند قرون حطين فى فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٨٢هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م. لقد فقدت المملكة اللاتينية فى القدس قواتها العسكرية الرئيسة فى هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج فى المنطقة العربية، إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم فى الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية قاسية، ولكن ما حدث فى حطين كان

أخطر من ذلك بكثير، فقد تم تدمير أكبر جيش صليبى أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى، كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبى صاحب السيادة على العالم الإسلامى بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصيًا وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا ويافا وبيروت وجبيل ثم عسقلان وغزة. وفى أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ / أيلول ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة فى ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م، بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حتى غزوها قبل أكثر من ثمانين سنة. وأقيمت خطبة الجمعة فى المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً.

ولم يتبق بأيدى الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

وجاء رد الفعل الأوروبى عنيفا، فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء تنتشر بسرعة، فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبى بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور فى جولة قادته إلى بلاطات عدد من ملوك وأمراء الغرب لكى يستنهض هممهم وقام البابا غريغورى الثامن، الذى لم يستمر فى كرسى البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوى لكل «المؤمنين فى المغرب» يذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين عامًا كان يجب أن يكون نذيرًا لهم، كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوه فى حملة صليبية جديدة، وفرض صيامًا فى كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، والامتناع عن أكل اللحم فى أيام السبت والأربعاء.

ومات البابا غريغورى الثامن فى ١٧ كانون أول سنة ١١٨٧م، تاركًا لخليفته كليمنت الثالث (١١٨٧-١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة بالمائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين». وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠م)، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا (١١٨٩-١١٩٩)، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠-١١٢٣) فى ١١ أيار ١١٨٩ تحركت قوات الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية والقوات الإنكليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البرى الذى سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى.

ولكن الإمبراطور لقى حتفه فى أحد أنهار آسيا الصغرى غريقًا فى ١٠ حزيران سنة ١١٩٠م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبى قبل أن يصل إلى هدفه. وانتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية فى الحملة الصليبية الثالثة، أما ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠-١١٩١ فى نزاع حول الأمور الداخلية فى صقلية. ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسى أولاً بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطى. وفى تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا فى مدينة صور التى رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك غى دى لوزينيان، الذى أطلق صلاح الدين الأيوبى سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة فى سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة.

لا تهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا فى أيدى صليبيى الحملة الثالثة؛ وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا، على حين بقى ريتشارد فى بلاد الشام سنة كاملة. ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ / ١١٩٢م الذى أبقى الوضع كما هو عليه.

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذى خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربى، وسرعان ما تحولت آمال الكبار التى عقدت على هذه الحملة إلى إحباط واتهامات متبادلة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقى شهوراً قليلة فى بيت المقدس، ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربّه فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ / ٤ آذار ١١٩٣. وبوفاة صلاح الدين الأيوبى توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء السمع والبصر والفؤاد، وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه، أعداء كانوا أم حلفاء، ولكن الظروف التى أنجبته لقيادة الأمة الإسلامية كانت لا تزال قائمة، فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً، والإحياء الأيديولوجى والأخلاقى الذى كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية كان لا يزال فى طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

من الواضح أن وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ كانت نذيراً بقيام المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة. وكان صلاح الدين، يدرك أن إدارة إمبراطورية واسعة، فيما بعد وفاته، سوف يؤدى

إلى نتائج خطيرة، فما من أبنائه الذين خلفهم من يملك من الخلال والمواهب ما يمكنه أن يفرض طاعته على سائر الأمراء الأيوبيين، فشخصية صلاح الدين ومهابته وحزمه كانت كلها ضمانة لبقاء الدولة موحدة فى غياب النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة القائد. حقًا كانت الخلافة نظامًا له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها، إلا أن صلاح الدين لم يكن خليفة، وإنما فرض طاعته على المسلمين بقوة شخصيته، وقد افتقر أبناؤه إلى هذه الشخصية، لذا حاول قبل وفاته أن ينظم دولته بنفسه، وأن يجعل أمراءه وخاصته يقبلون حلّه.

بقى السلطان صلاح الدين أمينًا لما كان معروفًا من قبله من التقاليد والأعراف، ولما استقر من النظم، وهى بمجملها تذهب إلى اعتبار الملك إرثًا خاصًا يوزّع أنصبة متساوية، أو غير متساوية بين أبناء البيت الحاكم. لذا حرص على أن تكون أهم أقاليم الدولة الأيوبية لأبنائه دون سواهم من أقربائه. ففى عام ١١٨٤م، أعلنت فى دمشق نصوص وصيته القاضية بأن تؤول مصر لابنه العزيز عثمان، وأن تكون الشام لابنه الآخر الأفضل على، ويكون له لقب السلطان. ونصّت الوصية أيضًا على أن يكون صاحب حماة تقى الدين عمر وصيًا على العزيز، وأن يكون العادل أخو صلاح الدين، الذى أعطى حلب وصيًا على الأفضل حتى يبلغا سن الرشد ويصبحا قادرين على تصريف الأمور. ثم أجرى تعديلاً أولاً على الوصية عام ١١٨٦م عملاً بنصيحة أحد المقربين من قادته، وهو الأمير سليمان بن جندر، أعيدت حلب بموجبه للظاهر غازى ثالث أبناء صلاح الدين، وأرسل العادل إلى مصر ليكون بجانب العزيز عثمان أتابكًا له. وبعد وفاة تقى الدين عمر، صاحب حماه عام ١١٩١م، أجرى السلطان صلاح الدين تعديلاً ثانيًا على وصيته، انتزع بموجبه من ابنه المنصور بن تقى الدين، وكان يكن له الكراهية، حران والرها وسمياط وميافارقين وأعطاها لأخيه العادل، إضافة إلى ما بيده من بلاد وهى الكرك والشوبك والبلقاء وبعض جهات مصر.

وبوفاة صلاح الدين تقسّمت الإمبراطورية الأيوبية بين أبنائه وإخوته وكبار قادته. فاستقلّ الملك الأفضل على بدمشق وما يتبعها، واحتفظ الملك العزيز عثمان بمصر وكان ينوب عن والده فى حكمها، فى حين أخذ الملك الظاهر غازى حلب وشمال الشام. وأصبحت بصرى من نصيب الظافر خضر وهو أحد أبناء صلاح الدين، وأما الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين فقد أخذ الكرك والشوبك فضلاً عن بلاد الجزيرة وديار بكر، وهى أملاك متناثرة لا اتصال بينها، كما لا تتناسب مع أهمية العادل الذى ستزداد مطامحه وضوحًا مع مضى الوقت. كما ملك سيف الإسلام طغتكين، الأخ الآخر المتبقى على قيد الحياة للسلطان، اليمن وجزيرة العرب، وكان قد

خلف أخاه تورانشاه عليها، وأخذ الأمجد بهرامشاه ابن أخ السلطان بعلبك، واستقل المجاهد شيركوه الثانى ابن محمد بن شيركوه بحمص، أما حماة فكانت من نصيب المنصور بن تقى الدين عمر، كما حاز بعض القادة كثيراً من المدن والحصون، وعلى هذا النحو كان لا بد أن يظهر بعد وفاة السلطان صلاح الدين حرص أفراد أسرته على امتلاك البلاد، ووصل أملاكهم المتناثرة. وقد طفح تاريخ الأيوبيين فى هذه المرحلة بالمؤامرات والحروب الأهلية المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية، كلٌّ يريد أن يتوسع على حساب الآخرين ما وسعه جهده، لكن من الغبن أن لا نرى فى تاريخ الأيوبيين، فى هذه الفترة، سوى المنازعات والخلافات الأسرية، فتاريخهم حفل أيضاً بالجهاد ضد الصليبيين مقتفين بذلك سيرة سلفهم السلطان صلاح الدين، بيد أنهم، وبسبب تشتت صفوفهم، لم يحسموا الأمر بوحدتهم. ولو توحدوا لعجلوا فى إسدال الستار على آخر فصل من رواية الحروب الصليبية. لكن التوتر الذى ساد العلاقات بين هؤلاء الورثة، كان نعمة على بقايا الوجود الصليبى الذى كان يشغل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا.

وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التى أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهى فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التى مرت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين فى بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة لنجدتهم.

ورغم أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعاً من الوحدة على الأيوبيين فى مصر والشام ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين، بعد صلاح الدين، كان يميل إلى مهادنة الصليبيين، ويعنى هذا فى التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخى الذى هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التى ظهرت على مسرح التاريخ مثلها مثل دولة آل زنكى، لأن مؤسسها صلاح الدين قد التزم بهذا الدور التاريخى، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك وسلاطين بنى أيوب يتخلفون عن هذا الدور بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من جهود البعض منهم، كالعادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب، العسكرية ضد الصليبيين، فإن سقوطها فى مصر أولاً، ثم فى بلاد الشام، جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخى للدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب. وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل به الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية فى مواجهة الصليبيين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم، ومن الرشد ما يكتب سلامة نيّاتنا فى الطريق إلى كرمه وإنّه لكريم، ونشكر بسرّ القلب وجهر اللسان إحْسَانَيْه إلينا بأنهما حادث وقديم، ونستزيده ونستديمه نعَمَه ولن يخيب على الشكر والرضا مُسْتزِيد ومُسْتَدِيم، ونستعين به على الدهر وقد فَعل فاداً وهو الذى بيننا وبينه عداوة كأنه ولى حميم، والحمد لله الذى بدأ بنعمه متطولاً، وبمزيده متفضلاً، وعلمنا شكر فضله الموفور، وقبل منا عفو خواطرنا المنزور، فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة، ولا يطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه.

وقد وصف المشكورُ منه نفسُه بأنه شاكر عليم، فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم، فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيًا وداعيًا، ومستيقظًا وساهيًا، وصامتًا ومتقاضيًا، لنا منه على كل حال كلٌّ حال من مواب ربما عطل عنها، لسان شكرنا وضمير ذكرنا وباتت سارية إلينا لا طيفًا بل حقيقة على نوم فكرنا، ثم إن الله سامحنا فى حقه من الشكر فقبله من عيّينا وبليغنا، ومتجرعنا ومسيغنا، فتارة يقبله ضميراً مجمجماً، وتارة يحيط به قولاً مترجماً، ومرة يعلمه نظراً من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه، ومرة يسمعه همساً من لسان يناجى مُلْكه بنغمات مسموعه.

وكيف لا يعلم السر وأخفى من بعينه مسارحه، وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه، ونرغب إليه فى أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فإنا لا نرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا، فنصلٍ إليه صلاتنا ونؤدى إليه ودًّنا، ونعظِّم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى، ونشكره على أن فتح علينا الدار التى كانت إلى الله طريقه ليله أسرى به، فانبعث ﷺ سهمًا فكان كقاب قوسين فى اقترابه، ما كذب الفؤاد، ولا خاب المراد، ولا صدق المُرّاد.

وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى امتن عليه بأنك بالواد، فمن كان فى روض القرآن يسرح، فرّق بين المنزلتين من رب أشرح وألم نشرح، ونصلى على آله وأصحابه ولاة الحق، وقضاة الخلق، ورتقة الفتق، وغرر السبق، وألسنة الفرق، وفتحة الغرب والشرق، منهم من رد ردة العرب على إسلامها. ومنهم من استنزل أرجل

العجم عن أسرّتها وتيجانها عن هامها، وأخمد عبدة نيرانه أن يطعموها حطبًا ولو وصلت إليهم لأكلتهم. وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجداً ولو وقعت عليهم لقتلتهم. ومنهم من أنفق فى سبيل الله وجهّز، ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز، ومنهم الأشداء على الكفار، ومنهم الأسدّاء إذا زاغت الأبصار، ومنهم الساجدون الراكعون، ومنهم السابقون ومنهم التابعون، ومنهم نحن أهل الزمن الآخر، وقد سلّم علينا سلام الله عليه فى ذمنه الحاضر، وسمانا إخوانا، واشتاق إلى أن يلقانا، فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والبادئ أكرم، وإنما نرجو شفاعته بالمودة التى قدمها والفضل للإقدم.

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجليّة، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول، فإن فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها، ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانًا من ألسنة العجائب التى نوردها، وإنما بدأنا بالتأريخ به لاستقبال سنة ثلث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى. فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام، ولولا ذلك لانقطعت الوصل، وجهلت الدول، ومات فى أيام الأخر ذكر الأول، ولم يعلم الناس أنهم لعرق الثرى، وأنهم نطف فى ظلمات الأصلاب طويلة السرى، وإن أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم، وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم لما أراده من ظهورهم.

فليعلم المرء قبل انقضاء عمره، وقبل نزول قبره، ما استبعده أهل الطى من حقيقة النشر، وتقبل فى واحدة من الأطوار شهادة عشر، فقد قطع عمراً بعد عمر، وسار دهراً بعد دهر، وثوى وأنشر فى ألف قبر.

وإنما كان من الظهور فى ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر، ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هى الفاصلة، ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها، فأرّخ بنو آدم بيومه، وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه، ثم أرّخ الأولون بالطوفان الذى بلل الأرض وأغرقها، ثم بالعام الذى بلبل الألسن وفرّقها.

وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها، أولهم كلشاه ومعنى هذا الاسم ملك الطين، فإليه ترجع الفرس بأنسابها، وعليه ينسق عقد حسابها، وهى

الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذى بزه الإسلام تاج إيوانه، وأطفأ نور الله بيت نيرانه.

وأرّخ اليونان من فيلبس أبى الإسكندر وإلى قلوبطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون.

وأرّخ الروم بالإسكندر لعظم خطره، وشهرة أثره.

وأرّخ النبط بالعراق.

والقبط بمصر بتواريخ موجودة فى الكتب التى خلدوها، والأزياج التى رصدوها.

وأرّخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم، وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيْل.

وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل.

أرّخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه.

وأرّخت معد بغلبة جرهم للعماليق وإخراجهم عن الحرم، ثم أرّخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع فى الديار فنقلوا منها، وافترقوا عنها. ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابنى وائل وهى حرب البسوس، ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابنى بغيض وهى حرب داحس والغبراء وكانت قبل المبعث بستين سنة، ثم أرخوا بعام الختان. قال النابغةُ الذبيانى:

فمن يك سائلاً عنى فإنى من الفتيان فى عام الحنان

وأرّخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخانق وعام الذنائب ويوم ذى قار وبحرب الفجار، وهى أربع حروب ذكرها المؤرخون، وأسندها الراوون، وأدنى ما أرّخوا به قبل الإسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الضول، ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الإسلام.

وبعده خرج إمام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام، وأظهر الله على الأديان الدين القيِّم، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم، فأمِّن وقوع الخلف الواقع فى تواريخ الأمم، وجبِّت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلم، ودفع الله الناس بعضهم ببعض، واستدار الزمان كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض، وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفًا من القرض، ووقّت هذه الهجرة الوقت الذى أمر به أمر الإسلام، ويومها اليوم الذى ما ولدت الليالى مثلها من بينها الأيام، وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام.

وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة معذوب، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق، وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق، وتسفر عن أهلتها دآدىء المداد وتنشق. وهى وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية، فقد كان انثنى عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية. وهذه الهجرة أبقى الهجرتين، وهذه الكرّة بقوّة الله أبقى ا لكرّتين، فإن العرب كانت إذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت: كأنه كسر ثم جبر، والحق أن نقول: إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر، والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر.

والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر وبين فتوحه فى أول الأمر فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول ﷺ فغير بعيد، والوحي ماكاد يتعطل فى طريقه من السماء إلى الأرض يريد، والعيون التى شاهدت رسول الله ﷺ تسل سيوفها من أجفانها، والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها. ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة، ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزّلة ومسوّمة ومردفة، وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها، وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها، والروم حينئذ بغاث ما استنسر، والفرس يومئذ رخم ما استبصر، والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعة ولا طبعت سيوفه هذه القاطعة ولا نسجت ثيابه هذه المانعة، والبروج لا تعرف إلاّ مشيدة لا مجلدة، والمنجنيقات لا يتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة، والأقران لا تتراجم بالنيران المذكاة، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة، وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلاً، والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة غرْلاً، وكانوا أحرص على الموت منّا على البقاء، وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء.

والشام الآن قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا، وأهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبًا كما بدأ غريبًا، وقد أطلع شرف الستمائة وهى للملك المعترك، وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك، وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب، وذوى غصنه وكان الرطيب، ونصلت كفه وكانت الخضيب، وطال الأمد على القلوب فقست ورانت الفتن على البصائر فطمست، وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه، ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الحظ الجزيل فى

الآخرة كسبه، والكفار قد خشنت عرائكهم، واتسعت ممالكهم، واستبصروا في الضلال، واستبضعوا للقتال، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت، وقاتلوا جنداً ورعية، واستباحوا الأنفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية. وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون، وأمدهم في طغيانهم يعمهون، ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح، واستشعروا لبوس البؤس فلم يلبسوا وجهاً إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولا مزح، شقراً كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون، زرقاً كأنما عيونهم من حديد هم فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون، قد نزع الله الرقّة من قلوبهم، ونقلها إلى غروبهم، وعذّب بهم لما يريده من تعذيبهم، واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم تستعيذ المردة من مردتهم ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم، فظاظ غلاظ، جهنميون، كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هل أضلّ أولئك هم الغافلون، خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقوقود جهنم حين قال: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة: ٢٤] وإلا فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود.

ومضت ملوك الإسلام ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الأظلام، وزارت أيامهم الأيام خيالاً فتنازع الناس طرائف الأحلام، وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين، وبذلوا جهدهم فلا نقول إنهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين.

اللهم غفراً، لكل أجل كتاب، وكل يوم هو في شأن، ولكل مقدور أجل، ولكل ما خلق له تيسير، ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير، والأيام تمخض وتمطل بالزبده، والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة، والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدّوا له عدّة، والعذر على كل لسان لكل قوم مدة:

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت وما العجز إلا ما تجرّ المقادير

وأبى الله من يقبل عذراً صحيحاً، وكفى بلفظة النبوّة لوماً صريحاً، فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها وأظهر الآية التي لا أخت لها، فنقول: هي أكبر من أختها أفضت الليلة الماطلة في فجرها ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد، ومالكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد، والشمس دينار والقطر دراهم والأفلاك خدم والنجوم أولاد، صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كوناً، ورأينا بين منانا

وبين كرمه بونًا، فهو سبحانه أكرم بالنوال منا بالسؤال، والكريم بكرم الله مجزى، والساكت عن الدعاء له مكفى، فإن قلنا: أحسن الله إليه، فقد قال: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، وإن قلنا: جزاه الله بالإحسان، فقد قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وإن قلنا: هداه الله سبيله، فقد قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وإن قلنا: لا ضيّع الله عمله، فقد قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وإن قلنا: لا جعل الله لدهر عليه سبيلاً فقد قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وإن قلنا: زاده الله هدى، فقد قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

كل مسؤول سائل ... فى معاليه قد كمل
لا يسل فيه سائل ... سبق الجود ما سأل
وليصحح تأملا ... يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعزّ الله ذكره فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل، وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل، فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو إلا فتحان، فتح والدم ذائب، وفتح والذهب جامد. فما البلاد التى جمعها فاتحًا بأغرب من البلاد التى فرّقها مانحًا، فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جديداً وزاد لأنه ضرب بالسيوف التى كسرها ثم ضربها، واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهبًا وزاد لأنه نقل إلى ا لأعداء ثمن سلع ثم نهبها فوهبها، فكل معاد معاديً إلا هذا المعاد، وكل مداد يكتب به إسود إلا هذا المداد ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟! أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح، وما على يد الجود من قبل المدائح؟!.

الناس أكيس من أن يمدحوا ملكًا ... ولم يروا عنده آثار إحسان

وإنا لنرجوا أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا أن يكونوا معهم. وأن نكون قد كُتبنا مع المحسنين لأنّا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم. وإنّا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكًا ونرى الملوك وهم له سوقة. وإن القلم فى أيدينا ليهتزّ طربًا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بأنه فروقه، ولسنا نسميه قصيراً وإن جدع أنفه، ولكننا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه، ونقول للقلم إذا فاخره السيف: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونريد إذا أوردناه وصف مولانا بـ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

[الكوثر: ١] على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه، ويقبّل بين يديه كما يقبّل حامله الأرض قرطاسه، ولست ببعيد فى تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه، وأوجبوا الحق عليه بل حقى من حقوقهم أوجه وأوجب، وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ومن رماحهم أخطى وأخطب ومن سهامهم أنجى وأنجب ومن قسيهم أكسى وأكسب ومن جيادهم أسرى وأسرب، ومدادى من نقيعهم أغلى وأغلب، وقرطاسى من راياتهم أجلى وأجلب، وسيوفهم قد أُغمدت وجُردت منه ما لا يغمد أو لا يعمد، وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثارى من الذكر لا تخمل ولا تخمد:

وما السيف سوى ضربة من لسانيا

فكل أثر خبَّر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته، والذى أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحباً، ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً. فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتى فى غد إلا جاهله، فهذه الكتب تهب الأعمار الثانية وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدى الكاتبة البانية. فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه تجدوا الإيوان قد خرَّت شعفاته، وعفّرت شرفاته، وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها اسم كسرى فى ديوانه أضعاف ما بقى شخصه فى إيوانه، وإنما نراوح بين الأوصاف الغادية ونناوب بين السمات السامية للإشارة إلى من ينبه على مسماه وينوه بسيماه.

فأما من يقول الله لاسمه: أنت من معقبات حمدى، ويقول الدهر لذكره: أنت الباقى من بعدى، فإنما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم، ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم.

ويسّر الله هذه الفتوح وأنزل بها الملائكة والروح فى أيام سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد ابن الإمام المستضىء بالله أبى محمد الحسن ابن الإمام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ابن الإمام المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد ابن الإمام المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن الإمام المقتدى بالله عبد الله ابن الذخيرة محمد ابن الإمام القائم بأمر الله عبد الله ابن الإمام القادر بالله أبى العباس أحمد ابن الأمير إسحق ابن الإمام المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن الإمام المعتضد بالله أبى العباس أحمد ابن الموفق بالله أبى أحمد طلحة ابن الإمام المتوكل على الله أبى الفضل جعفر ابن الإمام المعتصم بالله أبى إسحق محمد ابن الإمام الرشيد بالله أبى جعفر هارون ابن الإمام المهدى بالله أبى عبد الله محمد ابن الإمام المنصور أبى جعفر

عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين.

وهى الأيام التى زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربها للقضاء مضاه، فما أجلّها فضلاً وأفضلها جلالاً، وأقبلها جداً وأجدها قبالاً وأقربها ندىً ونوالاً، وأبعدها مدىً ومنالاً. وما أعلى سنى مجدها، وأحلى جنى رفدها، وأفغم ريا رياض فضائلها، وأنعم حيا حياض فواضلها، وأسح سماء سماحها أمطاراً، وأصح جناح نجاحها مطاراً.

والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته، وداعى نصرته، ووليه الطائع، وسيفه القاطع، والمحكم بأمره، والمؤمر بحكمه، فرأيت إبداء ميامن هذه الأيام الغر على الآباد بغرر الآداب، وقيدت شوارد معانيها وسيّرت محامد معاليها بهذا الكتاب وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتؤام در السحاب ودر السخاب، وسميته «الفتح القدسى» تنبيهًا على جلالة قدره وتنويهًا بدلالة فخره، وعرضته على القاضى الأجّل الفاضل، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل، فقال لى: سمه «الفتح القسى فى الفتح القدسى» فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته.

ولما كان هذا الفتح فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها وأنشأت رياضى بسحبها، وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته، وما استمطرت إلا عهاد العهد الذى عهدته، وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته، ولا بنيت القاعدة إلاّ على أُسّ ما تبينته فبينته، وما توخيت إلا الصدق وما انتهيت إلا الحق، ولاذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت إلا ما يرضى الله ولا يسخط، وبالله التوفيق والعصمة وله الحمد ومنه النعمة.

* * *

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهّل للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضر والبدو، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود، واستحشاد الحشود، وإصحار الأسود وإحضار البيض والسود، مضىء العز، ماضى العزم، صائب السهم، ثائب الفهم، ثابت السعود، كابت الحسود.

وخيّم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى، وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج وقد رتّب الفرنج من الأرصاد أفواجا على تلك الفجاج لا سيما ابرنس الكرك، فإنه كان حريصًا على الدرك ناصبًا شر الشوك نصب الشرك. فلما شمّ ذلك الذئب رائحة الأسد، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد، ووصل الحاج فى أول صفر وقد قضوا حاجهم، ورضوا منهاجهم، وخرجوا عن فرضهم، ودخلوا إلى أرضهم، وفرغ القلب من شغلهم، وخف ما لزم من ثقلهم، وانتظر السلطان وصول العسكر المصرى المستدعى، ورعى منه حصول العدد المسترعى، فأبطأ عليه وروده واختلفت فى الإسراع وعوده، فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا، ولم يزل مكانه عنده عليًا، أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء، وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء، وتقدم السلطان فى أتباعه وأشياعه، إلى الكرك وضياعه، فأقام عليها يرهق ويزهق ويجرب ويحرق ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتى ألحق الموجود بالمعدوم، وأتى بالقطع على البساتين والكروم، ورعى الزروع وعرى الضروع، واستأصل الأصول والفروع، حتى أقوت من الأقوات، واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات، وحلّت آجال الأرزاق، وانحلت عرا الأرماق، واقفر بلد الشرك، وامتلأ من الكرد والترك، وسار إلى الشوبك فأسار به شوبًا، وألحفه من عريه ثوبًا، وأخلاه من زرع ونبات، وفرّغه من أقوات وقوات، وأذهب ضياء تلك الضياع، وأزال بقاء تلك البقاع، وجاس الخلال، وداس الغلال، وقشر الثرى وبشره، وحشر الردى ونشره، وسلب قرار القرى وسكون مسكونها، وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها، فقد عدم ليلها المصباح، وصباحها الأصباح.

ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرّقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين. والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء فى جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة، والحواصل الواصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، والبواتر الواترة، والخضرم الضرم، والعرمرم العرم، واللهام الملتهم،

والجيش الجائش، والترك والأكادش، والجنود والبنود، والأسود السود، والفيالق الفوالق، والبيارق البوارق. وبنات الأغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلى نجيع الكفر على عرائس الهدى، والعزم يستنهضه، والعز يحرضه، والدين يستبطيه، والنصر يستعطيه، والقدر يحركه، والظفر يدركه، والكفر قد مات من ذعره، والإسلام قد متّ بعذره، وهو ينتظر أمراً من أبيه يأتيه بما يأتيه، ويكتب إليه ويفتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه.

ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير، وقدم في الإقدام التبكير والتكبير، وانتهز الفرصة وأحرز الحصة، وانتخى وانتخب الأجناد الأنجاد، وجرّد الجرد واستجاد الجياد، وسرى السرية السرية، وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية، ومظفر الدين بن زين الدين على كوجك المقدام المقدام، والهمام الهمام، والأسد الأسدّ، والأرشد الأشدّ وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في جمع شاك، وجمر ذاك، وقنطاريات طائرات، وسابريات سابغات وللداوى دوى وللاسبتارى هوى، والباروني يقدم على البوار والتركبلي يلقي نفسه على النار، وقد ثاروا والثار قد وُقدَ، والجو قد عقد، وقد انصدع زجاج الزجاج، وارتجز عجاج العجاج، وانفضّ الفضاء وانقضّ القضاء، وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل، ويحلون العقد ويعقدون ما انحل، فثبت قايماز النجمي في صدورهم، وأشرع الأسنة إلى نحورهم، وروى اللهاذم من تامورهم، وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم، ولا يكترث بكثرتهم ويستقلّهم.

ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض، والعزم الأنهض، والجد الأجد، والحد الأحد. وانجلى الغبار، وقد عمّ الفرنج القتل والأسار، وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص، وأخلفت رنة السراء أنة الإسراء، وكانت هذه النبوة بلا نبوّة، والهَبَّة فلا هَبْوَة، وسكنت القلوب بهذه الحركة وركنت النفوس إلى هذه البركة، وسارت البشرى وسرت، ودارت النعمى ودرت، وعدّ ذلك من إقبال الملك الأفضل، وفضل الملك المقبل، وحسنت السنة بالنصر وأحسنت الألسنة في الشكر.

هذا والعساكر في كل يوم يفدون ويفيدون، وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يجدون ويجيدون، وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك، فأيقينت الآمال بالنجح والدرك وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرى، واجتمع له ولده، وقرّ عيناً بشبل العرين أسده وما رأيت عسكراً أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرث للكفر ولا أكثر. وكان يوم عرضه

مذكراً بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] فى ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها، وبيارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها، ويوم كالليل عجاجاً، وليل كاليوم ابتلاجاً، ومناصل بالمنى صلت، وقساطل بالقسى طلت، وفيلق لهام اللهام يفلق، وقلوب يمانية رقاق فى صدور الأغماد تقلق، وطيور وسهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق، وسوابغ مفاضة، وسوابق مرتاضه، وهضاب راسيات، وهواضب ساريات.

ولما تمّ العرض، حمّ الفرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، واضطربت السهول والوعوث، وانبعثت الهمم وهمت البعوث، وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم، وزخرة اليوم الخضم، وبروز التوحيد إلى التثليث، وانتهاض الطيب لإدحاض الخبيث، فخافوا وخابوا، وهبوا وهابوا، وعرفوا أن حزبهم مخذول، وأن غربهم مفلول، وأن حدهم مثلوم، وأن جندهم مهزوم، وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله، وأن الإيمان كله برز إلى الشرك كله، وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث، وحلف منتكث، ووقوع نفار بين الأنفار، ووقود شرار بين الشرار.

ولما استدانوا حين حينهم سعوا فى إصلاح ذات بينهم، ودخل الملك على القومس ليتقمص له بالود الأخلص، ورمى عليه بنفسه واستبدل وحشته بأنسه، فاصطحبا بعدما اصطلحا، وأصحبا بعدما جمحا، وتزاور الفرنج وتوازروا، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا، وقالوا: هذا دين متى دنا منه الوها هوى، وعود إذا عاده الأذى ذوى، فالمسيح لنا، والصليب معنا، والمعمودية عمدتنا، والنصرانية نصرتنا، ورماحنا مراحنا، وصحافنا صفاحنا، وفى لوائنا اللأواء، ومع أودائنا الداوية الأدواء، وطوارقنا الطوارق، وبيارقنا البوائق، وسيف الاسبتار بتار، ولقرن البارونى من مقارنته بوار، ومعنا الدلاص والصلاد، والصعاب والصعاد، وفى كل قنطارى قنطار، ولكل سابرى من اسنتنا مسبار، وقد عمّ بحرنا الساحل، وشددنا به المعاقد والمعاقل، وهذه الأرض تسعنا نيفاً وتسعين سنة وما تضيق بنا فى هذه السنة، وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والأمكنة، وسلاطين الإسلام ما صدقوا أن يسلموا إلينا ويسالمونا، ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا، وطالما ناصفونا وما صافونا، وهادونا وهادنونا، وفى جمعنا تفريقهم، وفى وقعتنا تعويقهم.

فقال القومص - وكان محرباً مجرباً، متدبر متدرباً: هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه، وإقدامه على المخاوف وتورطه، وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر وليس إلا المراوغة والمغاورة والصبر، والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه، ولا نخالفه ونقبل شرائطه.

فقال له الملك: أنت قد قلبتك الآفة، وفي قلبك المخافة، وأنت للخور رخو، وللخشية حشو. وأنا لا بد أن أصدمه وأصده، وأكدمه وأكده، وأرادده حتى أرده، وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد، وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد.

فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض. ولما أحسّ منه الملك بالوفاء والوفاق، وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق، اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر.

* * *

ذكر ما كان بين ملك الإفرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أمراي بن فلك في آخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، خلف ولداً مجذوماً وكان مع الوجود معدوماً، قد أعضل داؤه، وأيس شفاؤه، وسقطت أعضاؤه، وطال بلاؤه. فوضع الفرنج التاج على رأسه، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه، ونفخوا في ضرمه، وتسمنوا بورمه، وصحوا بسقمه، ورقوا في سلمه، ورضوا بتقدمه، وأكبروه وأركبوه، وأقدموا به وقدموه، وهم يكثرون بجذا ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه، ويحمون حماه أن يحم حلول حمامه.

وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، معاراً من أشفاقهم واتفاقهم مراعى، فلما أحس بهلاكه وسكون حراكه، أحضر البطرك والقسوس والمقدمين والرؤوس، وكان له ابن أخت صغير، عن التطاول إلى الملك قصير. وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص يكفله مدة سنى صغره وهو يستقل به بعد كبره، فهو الآن لا يستبد، ومن أمر القومص يستمد.

فقبل القومص بالوصية، وجمع إليه الأطراف الدانية والقصية، وسكن بطبرية. فإن صاحبتها كانت تزوجت به وطمعت في قوته وقربه.

وهلك الملك المجذوم، وظهر السر المكتوم، وطمع القومص في الملك استقلالاً فعدم موافقة الداوية، وقالوا: يلزمك العمل بشرط الوصية. فكفل بالأمر وهو مغلوب وتفقد اختياره فإذا هو مسلوب ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدنيا والدين ليقوى بجانبه ويحظى من مواهبه. فاشتد أزره واستدّ أمره واستقلّ بنفسه واستولى على جنسه، حتى مات الملك الصغير فانتقل الملك منه إلى أمه وبطل ما كان في عزم القومص برغمه، وانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالت لهم: زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر. وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه وعاش رجاءه بعد بأسه، وراش غناه بعد إفلاسه، وانتاش إبليسه بعد إبلاسه.

وقامت قيامة القومص بإجلاسه، وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه فما أجاب دعوته ولا لباه، واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر وأقام بطبرية فى زى المتطاول المتقاصر وضمّ إليه من الإفرنجية من استرغبه بما استماحه من سلطاننا واستوهبه، وحثّ العزم السلطانى على قصدهم ليرد إليه الملك ويجد له فى نظم أمره السلك.

فلما اجتمعت العساكر الإسلامية وتألفت منها الجزرية والديار بكرية والمصرية والشامية، جاء الملك إلى القومص بنفسه وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه، وقال أصحاب القومص له: إن لم تنصره فنحن ما نخذل الدين، ولا نكون بأيدينا مسلمين إلى المسلمين. وتمتّ بينهم ليوم المصاف المصافاة، وزالت المنافرة والمنافاة.

* * *

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج

أصبح بالمخيم عارضًا من العسكر لعارض شجاج، وبحر بالعجاج عجاج، وخضم بالصواهل السوانح والمناصل والصفائح ذى أمواج. وقد رتب أبطاله وأطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابة، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه، وأطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه، وقد فضّ الفضاء ختام القتام، وشدت للشدائد كتب الكبت على حمم الحمام، وحنّت ضلوع الحنايا على أجنة السهام، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة، وضمت المنفلتة إلى المنفتلة، ووفت الأوتار بالأوتار، وثار كل طلب لطلب الثار.

ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبًا، ويبوّبه تبويبًا، ويعبيه بعيدًا وقريبًا. وقرر لكل أمير أمرًا، ولكل مقدام مقامًا، ولكل موفق موقفًا، ولكل كمين مكانًا، ولكل قرن قرانًا، ولكل جمر مطفئًا، ولكل جمع مكفئًا، ولكل زند موريًا، ولكل حد ممهيًا، ولكل قضية حكمًا، ولكل حنية سهمًا، ولكل يمين مقضبًا، ولكل يمان مقبضًا، ولكل ضامر مضمارًا، ولكل مغوار مغارًا، ولكل رام مرتمى، ولكل نام منتمى، ولكل سام مسمى، ولكل اسم مسمى.

وعيّن لكل أمير موقفًا فى الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه. وأخرج الجاليشية والرماة الكماة من كل طلب، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب. وقال: إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيأة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا، ومصارع أسنتنا، وشوارع أعنتنا، وميادين جردنا، وبساتين وردنا، ومواقف صروفنا، ومصارف وقوفنا، ومرامى مرامنا، ومجالى مجالنا. وقوّى الآمال بما بذله من الأموال، وحقق فى إنجاز المواعد وإنجاح

المقاصد رجاء الرجال، وجمع العدد، وفرّق العدد، ووهب الجياد وأجاد المواهب. ورغّب فى العطايا وأعطى الرغائب، ونثر الخزائن، ونثل الكنائن، وأنفق الذخائر، واستنفد كرائمها والأخابر، وقسم أحمال النشاب، فتفرّق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب، وأجرى الجرد وأجنى الأجناد، وأذكى المذاكى وأشهد الأشهاد، وأذال مناقب المقانب، واستمال معاطف المعاطب، وقوّى القواطع، وروى الروائع، وعاد إلى المخيم مسروراً محبوراً مقبولاً مبروراً موفوراً مشكوراً، وقد رتّب وربت وقنب وكتب وثبت ونبت. قد برّ عمله وأبرّ أمله وفاح نشره ولاح بشره وتأرج رياه وتبلج محياه وأيقن بالظفر وظفر باليقين وأمن إلى الدعوة المستدعية للتأمين، وتيمن بأوضاح عرابه الميامين وإيضاح أعرابه فى اقتضاء دين الدين، وأنس ببهجة الخيل ولهجة الخير، وسر سره بما سرى له من وجه السير، وشد حزم الحزم، وجدّ فى العزم الجزم، وقدم الإسراج للإسراء وألجم العراب للعراء، ورحل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايره، والتأييد موازره، والتمكين مضافره، والسعد مظاهره ، والجد مكاثره، والثمن محاضره، والعز مسامره، والظفر مجاوره، والإسلام شاكره والله عزّ وجلّ ناصره.

وسار على الهيأة التى قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة، والكتائب المكتبة، والمراتب المرتبة، والمذاهب المهذبة، والسلاهب المجنبة، والصوائب المجعبة، والقواضب المقربة، والثعالب المذربة، واللهاذم الهاذمة، والصلادم اللازمة، والضراغم الضاغمة. وخيَّم على خسفين وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه وكسف الكفر وكسوفه، وبات والوجوه سافرة والعيون فى سبيل الله ساهرة، والأيدى لسيوف الأيد شاهرة، والألسن لأنعم الله شاكرة، والقلوب بالإخلاص عامرة، والأنفس للأنس مسامرة، والأقدام بالأقدام متضافرة متظاهرة.

ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة بعزم الصيال وعزّ الصيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، وبرزت الأرض فى قشب أثوابها وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ورست سفن المضارب على تلك الأثباج وطمت الأطلاب أمواجًا على أمواج وانعقدت سماء العجاج وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج، وأعاد الأقحوانة رياضًا نضرة وحدائق مزهرة من فرس رد وفارس كالأسد الورد ومشرفيات كطاقات الرياحين ويزنيات كأشجار البساتين ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين وألوية حمق كشقائق النعمان. وموضونة زغف كالغدران، ومصقولة بيض كالخلجان ومريشة زرق كالأطيار ومحنية عوج كالأفنان، وبيض تلمح كثغور الأقحوان، وحبب ترائك على بحور الدارعين، وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين.

والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية، ولووا الألوية ومدوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات، وأوقدوا فى ظلام القتام الثائر سروج السريجيات وصوبوا إلى صوب قرا الأقران نيات اليزنيات، وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم وحاطوا بواترهم بواترهم، وجمعوا الأوشاب والأوباش ورتبوا الجيش وثبتوا الجاش، وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل، ونشروا ذوائب الذوابل وحشروا أبطال الباطل ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا فى نوادى أقاليم أهل الأقانيم، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم وما عصاهم من له عصا، وخرجوا عن العد والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا فى زهاء خمسين ألفًا أو يزيدون، ويكيدون ما يكيدون، وقد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لا يرومون حركة ولا يريمون.

والسلطان صلاح الدين فى كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم وينكى فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله. فربضوا وما نبضوا، وقعدوا وما نهضوا، فلو برزوا لبرز إليهم القتل فى مضاجعهم وعاينوا مقام مصارعهم فى سوقهم إلى مصارعهم، وفزعوا مما فيه وقعوا، وجنبوا عما له تشجعوا. فرأى السلطان أن يطيب ريه من طبرية ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية، ويحوز حوزتها ويملك مملكتها، فجر على الأردن أردان الردينيات، وأطلع النقع المثار من البحر بحوافر الأعوجيات، واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات، فأمر عساكره وأمراء جيشه وأكابره أن يقيموا قُبلة الفرنج ويضيِّقوا عليهم واسع النهج، فإن خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف، وإن تحركوا إلى بعض الجوانب وثبوا بهم وثب الأسود بالأرانب، وإن قصدوا طبرية لصونها وأن يكونوا فى عرونها عجلوا الأعلام ليعجل عليهم الإقدام.

* * *

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية فى خواصه وذوى استخلاصه، وأحضر الجاندارية والنقابين، والخراسانية، والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع فى هدم معمورها، وصدقها القتال، وما صدف عنها النزال. وكان ذلك يوم الخميس وهمو يؤُمّ الخميس، وأخذ النقابون النقب فى برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر. وامتنعت القلعة بمن فيها من القومصية ست طبرية وبنيها.

ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده، سقط فى يده، وخرج عن جلد

جلدَه، وسمح للفرنج بسَبَده ولَبَده، وقال لهم: لا قعود بعد اليوم ولا بد لنا من وقم القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد وما بقى لى صبر وما بعد هذا الكسر لى جبر.

وكان الملك قد حالفه فما خالفه، ووافقه فما نافقه، وماحضه فما ماذقه، ووادده فما رادده، وواعده فما عاوده، ورحل بجمعه وبصره وسمعه وثعابينه وشياطينه، وسراحيبه وسراحينه، وأتباع غيه، وإشباغ بغيه، فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غبرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا وثابوا عن ثُبات ثَباتهم ووثبوا وعبوْا وعبُّوا، وذبوا حتى يذبوا، وشبوا النار، ولبوا الثار، وقدموا للنزول بالدار الدار، وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر، فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه بما سبق به حكمه، وسر حين أحاط بمسيرهم علمه، وقال: قد حصل المطلوب وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحت كسرتهم، وقتلت وأسرت أسرتهم، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع. واستخار الله وسار، وعدم القرار.

وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وكأنهم على اليفاع فى حضيضهم، وقد ماجت خضارمهم وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثارت غماغمهم، وسدت الآفاق غمائمهم، وشاقت ضاربيها جماجمهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة، وأعلاجها مصطلمة، وقد جوى الجو، وضوى الضو، ودوى الدو، والفضاء منفض، والقضاء منقض، والثريا قد استزار الثرى، وجر ذيل الخيل قد برى البرى، والحوافر الحوافز للأرض حوافر، والفوارس اللوابس فى البيض سوافر، وذئاب الذياد وأجلاد الجلاد قد حملوا كل عُدة، وكملوا كل عِدة، فرتب السلطان فى مقابلتهم أطلابه، وقصر على مقاتلتهم آرابه، وحصل بعسكره قدامهم، ورقب على الحملة إقدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، ومنع ذمامهم على الذماء، وحلأهم عن الورد، وصدعهم بالصد، ذاك واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وقد وقدت الهاجرة، فوقدتها غير هاجرة، وشربت ما كان فى إداوتها فهى على الظمأ غير صابرة.

وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وبات الإسلام للكفر مقابلاً، والتوحيد للتثليث مقاتلاً، والهدى للضلال مراقباً، والإيمان للشرك محارباً. وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك واستبشر رضوان. حتى إذا أسفر الصباح، وسفر الصباح، وفجَّر الفجر أنهار النهار، ونفَّر النفير غراب الغبار، وانتبهت فى الجفون الصوارم، والتهبت فى الضوامر الضوَارم، وتيقظت الأوتار،

وتغيّظت النار، وسلّ الغرار، وسلب القرار، خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسى وغنت الأوتار، ورقصت مران المراد لجلاء عرائس الجلاد، وبرزت البيض من ملائها فى الملأ عارية، ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية. فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طلبهم المحرج مخرجاً، فكلما خرجوا جرحوا، وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وحملوا وهم ظماء، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمّتهم، وأعجزوا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا. وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا وشدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة ولا ذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فآووا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشفتهم الظبا، وفرشتهم على الربا، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، وصاروا للردى درايا، وللقضايا رمايا.

ولما أحس القومص بالكسرة، حسر عن ذراع الحسرة، وافتال من العزيمة، واحتال فى الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، واحتداد الحرب واحتدام الحر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، واعوج إلى الوادى وما ود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت فى عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وغاب حالة حضور الوغى، ونابه الرعب الذى نوى الهزيمة به وما ونى. ثم استحرت الحرب، واشتجر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا إليهم، ودارت دائرة الدوائر عليهم، وشرعوا فى ضرب خيامهم، وضم نظامهم، فحطوا على حطين مضاربهم، وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم، وأعجلوا من نصب الخيم ورفعها، وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها، وترجوا خيراً فترجلوا عن الخيل، وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل، وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها، ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطُّبْيَيْن من سهلها، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى، فقدم بدائه مقدم الداوية، ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية، وأحضر الملك كى وأخوه جفرى، وأوك صاحب جبيل وهنفرى، والأبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع فى الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال: لأعجلن عند وجدانه عدمه.

فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض،

وتقبل على الوفاق ثم تعرض. فقال الترجمان عنه أن يقول: قد جرت بذلك عادة الملوك، وما سلكت غير السنن المسلوك. وكان الملك يلهث ظمياً، ويميل من سكره الرعب منتشياً، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذى ساوره، وسكن رعبه، وأمن قلبه، وأتى بماء مثلوج أزال لهثه، وأزاح من العطش ما كرثه، وناوله الابرنس ليخمد أيضاً لهبه، فأخذه من يده وشربه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ منى في سقيه إذناً، فلا يوجب ذلك له منى أمناً. ثم ركب وخلاهما، وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقة، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت عن الحومة إلى الحمى فيالقه، فلما دخل سرادقة، استحضر الابرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع، أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حين أخرج، فارتاع وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له ذاك رداءته أودته، وغدرته كما تراه غادرته. وقد هلك بغيّه وبغْيه، ونبا زند حياته ووردها عن وريه وريّه، وصحت هذه الكسرة وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلات إلا آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى، وقيدت الأسارى فى الحبال واجبة القلوب، وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة، بالعراء عراة، ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، معضاة الأعضاء، مجزأة الأجزاء، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، مخضوبة الضفائر، معضوبة المرائر، مبرية البنان، مفرية اللبان، مقصومة الأضالع، مفصومة الأشاجع، مرضوضة الصدور، مفضوضة النحور، منصفة الأجساد، مقصة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، قانية الذوائب، دامية الترائب، مشكوكة الأضلع، مفكوكة الأذرع، مكسورة العظام، محسورة اللثام، بائدة الوجوه، بادية المكروه، مبشورة الأبشار، معشورة الأعشار، منشورة الشعور، مقشورة الظهور، مهدومة البنيان، مهتومة الأسنان، مهرقة الدماء، مرهقة الذماء، هاوية الذرى، واهية العرى، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، مفتونة الأفلاذ، مبتوتة الأفخاذ، مشدوخة الهامات، مسلوخة اللبات، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرة لأولى الأبصار.

وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء، وعادت الغبرة حمراء وجرت أنهار الدم المنهر، وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر. فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وما ألهب عذابات العذاب فى تلك الجثث، وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده.

وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهنالك العتاة عناه، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس وغوالى الأرواح رخائص، ووجوه الدوايَّة الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخلص فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، ومشرك مكشر وكافر مفكر، ومثلث منصف، ومكيّف مكتَّفْ، وجارح مجروح، وقارح مقروح، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، ومتبر مبتور، ومحسر محسور، وكاب فى الكبول، ومغتال فى الغلول، وحر فى الرق، ومبطل فى يد المحق.

* * *

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت، وهو الذى إذا نصب وأقيم ورفع، سجدله كل نصرانى وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف. وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك وهو أشد مصاب لهم فى ذلك المعترك، فإذا الصليب السليب ما له عوض، ولا لهم فى سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم وتعفر له جباههم، وتسبح له فواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لأبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلباناً يعبدونها، ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها. فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً، ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر، والقمر المبدر.

ذكر فتح حصن طبرية

وندب إلى حصنها من تسلمه أمانًا، وأسكنه بعد الكفر إيمانًا، وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته، ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته، فأمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان، وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمى وهو من الأكابر الأعيان، هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية وعسكره طبق البرية.

* * *

ذكر ما اعتمده فى الأسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم وإعطاء بشر الوجوه بأعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشرى شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الداوية والاسبتارية وقال: أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين. وجعل لكل من يحضر منهما أسيرًا خمسين. فأحضر العسكر فى الحال مئين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على استرقاقهم.

وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف، وعدة من ذوى التعفف والتعيف، فسأل كل واحد فى قتل واحد، وسلّ سيفه، وحسر عن ساعده، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء فى السماطين وقوف. فمنهم من فرى وبرى وشكر، ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعد أنجزه، وحمد أحرزه، وأجر استدامه بدم أجراه وبر أعنق إليه بعنق براه، ونصل خضبه لنصر خطبه، وأسل اعتقله لأسد عقله، وداء داواه لداوى أدواه، وقوة أهداها لهداة قواها، ولواء نشره للأواء طواها، وكفر أماته لإسلام أحياه، وشرك هدمه لتوحيد بناه، وعزمة مضاها لأمة أوضاها، وعدو قمصه لولى عصمه.

وسيَّرَ ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون، وتستبدل حركاتهم السكون. وتفرّقت العساكر بما حوته أيديهم من السبى أيدى سبا، وخمد جمر جمع الكفر وخبا.

* * *

ذكر فتحِ عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرًا على أهل التثليث مديلاً للطيب مزيلاً

للخبيث . وسار عسكره وثار عثيره وظهرت راياته وبهرت آياته، ونعرت كوساته، وصاحت بوقاته ، وجالت خيوله، وسالت سيوله، وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه، وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد الصلاب، وفصحت بإعراب الحماحم صواهل الجياد العراب، والأسنة مشرعة، والأعنة مسرعة، وبور السوابح متموجة، وغدران السوابغ مترجرجة، وبوارق البيارق متبوجة، وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة.

ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبياً، ولجيش النصر معبيًا، ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربياً . وبات بها معرساً بانياً على عروس الظفر البكر، جانيًا ثمار الأماني من غروس البيض والسمر . وأصبح وقد أصحب جماح الدهر، وصح نجاح الأمر، وحص جناح الكفر، وأسفر فجر الفرج، وسفر وجه البهج . وسار سارا سره باراً بأرباب الدين بره، زائرة أسوده، طائرة بنوده، ظاهرة جنوده، زاهرة جدوده، سامية أضواؤه، هامية أنواؤه، رائعة مواكبه، رائقة مراكبه، مجنبة عتاقه، مذربة رقاقه . وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه فكأنّ رسول الله ﷺ سير للفقير إلى نصرته من يثرى به من يثر به، وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنى الحسيني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج . وما برح مع الملك الناصر مأثور المآثر، ميمون الصحبة، مأمون المحبة، مبارك الطلعة، مشاركًا في الوقعة . فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايراً، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما .

ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيرات تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وعرها وسهلها . فلما قرب منها خيم وراء تلها، وآذنت عروش معاشر الشرك بثلها . وعقود معاقدي الكفر بحلها، وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه، ووقف كالأسد في عَرِّيسه . فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبى ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أيامًا حتى ينتقل من يختار النقلة، واغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ما صدقوا من الخوف المزعج، والفرج المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون . فترك معظمهم المدينة وعندهم أنه ما كسب السكينة إلا من ركب السفينة

وذلك أن الجند لما دخلوها استولوا على الدور ونزلوها، وركز كل منهم بيرقه على داره، وقال صاحبها : كيف يصح المقام مع الأسد فى غابة ولا مقام على زار.

وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكارى كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع، ووهب عكاء لولده الملك الأفضل، فأجراها من نظره على الأحسن الأجمل. ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فأقمنا بها الجمعة، ووصلنا فريضتها المنقطعة، وأعدنا الكنيسة العظمى مسجداً جامعاً، وعاد نور الهدى الخافى بالضلالة لامعاً، وحضر القاضى الأجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة و المنبر، وتبسم بميامنه للإسلام بعد الإظلام سنى الصبح المسفر.

وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبى النجيب السهروردى فإنه تولى بها القضاء والخطابة، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة، وخلى سكان البلد دورهم، ومخزونهم ومذخورهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها. وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عدّة ليوم الشدائد وعمدة لنجح المقاصد. فرتعت فى خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الأطماع، وطال لمستحليها ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع.

وأقام السلطان جانب عكاء على التل مخيماً، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، ولمملكتها متمماً، وكان قد كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر وهو بمصر، بما أتاحه الله من النصر، وقيّضه له من افتضاض الفتح البكر فوصلت البشرى بوصوله باشراً، وللواء الحمد ناشراً، ولاستفتاح ما فى طريقه من الحصون مباشراً. وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة، وتسلمها حظوة، وفقصده من عساكرنا القصاد، ووفد إليه من عندنا الوفاد، فحباهم بالحباء من السبايا وآتاهم المرباع والصفايا، وخصهم من الحاصل بالنقود ووعدهم مما سيحصل بالنسايا. وشرع يستضيف حصناً فحصناً، ويستفيض حسنى وحسناً، ويستزيد بلداً، ويستزير مدداً، ويستزيل من الكفر يداً، ويستميل إلى الهدى هدى. والدين بسيف سيفه منصور والإسلام بنصر ناصره مسرور، والملك العادل يعد له مسالك نهج النجح بفضله، فائز العزيمة، حائز الغنيمة، ماضى الضريبة، قاضى الكتيبة، ميمون النقيبة، مأمول الرغبة.

* * *

ذكر فتح عدّة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ظافراً بمغنمه ظاهراً بكرمه، شاكراً عرام عرمرمه، ملهباً ضرام مخذمة، مروياً أوام لهذمه. وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاورة، وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة.

* * *

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبورى إلى الناصرة فاستباح حماها واستبى دماها وحلها واستحلها وأزلها وأزلها وخفّ إليها واستخفها، واستشفها وشفها، وشافهها بشفار البواتر، فشفه منها موارد الذخائر، واجتلى عرائسها، واجتبى مغارسها، وجمع نفائسها ونزع ملابسها، واستدر طيبها، واسترد سبيها، واستقل منها بما استقل به من كل غانية عالية ورقيقة رقيقة ومصابة مصبية، ومسبية مصبية، ومجلوة مجلوبة، وسالبة مسلوبة، ودمية دامية، وجارية لطيفة بالعنف جارية، وأسيرة من أسره، وحاسرة عن حسره، وثاكلة لواحدها، وآكلة لساعدها، وعاضة على يديها، وفاضة ختم الدمع على خديها، وناهدة متنهدة، وفريدة متفردة، وناعمة شقية، وقينة نقية، وعذراء مفترعة، وحسناء منتزعة، ومخطفة مختطفة، وقوية مستضعفة، وعزيزة ذليلة، وصحيحة عليلة، وساجية عبرى، وصاحية سكرى، وغريرة غراء، وظبية ظمياء، وغضيضة غضة، وفضة منفضة، وخمارة مخمورة، وسحارة مسحورة، ومخدرة مهتوكة، وموقرة منهوكة.

وجاؤوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد، مقودين فى الأقياد، مسوقين إلى السوق. والحديد منهم فى الأعناق والسوق وصفرت صفرية من سكانها فلم يوجد بها صافر. وكان بها من الذخائر مبلغ وافر.

* * *

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وسلطوا على الأنفس والنفائس بها حاكمي الحتف والحيف، وسبوا، وحبوا، وسلبوا، وجلبوا، وجالوا، ونالوا، ووقذوا، وأخذوا، واحتووا، وارتووا، وربطوا، وضبطوا، واستفادوا، واستقادوا، وفرسوا الفوارس، وكنسوا الكنائس، واستبوا الأبكار العرائس، والعون العوانس، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف.

* * *

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسمًا بحسامه داء الشرك، مالئًا بسهام الفتك جعاب الترك، تاليًا آى الفتح، جاليًا رأى النجح. ووصل إلى سمسطية فتسلمها، وتعجل مغنمها، ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة، وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسة، فاستخرج المصونات والمصوغات، واستوعب العدد والآلات، وأعاده مشهدًا، ورده مسجدًا، ووضع فيه من بره بالإسلام منبرًا، وأصبح الدين به مثريًا والكفر مقترًا.

ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب، وطرف جده غير كاب، وحد بأسه طرير، وناظر الدولة به قرير، وكان من قبل سلب كنوزها من الفرنج والنصارى السكون، وأيقنوا أنهم إن أقاموا لا يأمنون المنون. فإن المسلمين بها وبأعمالها نهضوا إليهم فى مواطنهم، فأجفلوا من مساكنهم، وانتقلوا من أماكنهم، وخلوا دورهم وأخلوها، وتسللوا منها وسلوها. وتحول الأقوياء إلى قلعتها، وتحصنوا بتلعتها.

ونازلها حسام الدين وحاصرها، وطال عليه حصرها وصابرها، ولم يزل عليها مقيمًا، ولقتالها مديمًا إلى أن وثقوا بأمانه وعلقوا بإحسانه، وسلموا وسلموا، واستأمنوا وأمنوا. وخلصت له نابلس وأعمالها، وحليت به أحوالها، ولكون معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم إلا أن يكونوا لحصنهم مسلمين، فانمحى بالسعود رسم النحوس، ونزعنا عنها لبوس البؤس، واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس. وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس.

* * *

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة أحسن قلعة وأحصنها، وأملأها بالرجال والعدد وأشحنها، وهى للداوية حصن حصين، ومكان مكين وركن ركين، ولهم بها منبع منيع، ومربع مريع ومسند مشيد، ومهاد مهيد، وفيها مشتاهم ومصيفهم، ومقراهم ومضيفهم، ومرابط خيولهم، ومجر ذيولهم، ومجرى سيولهم، ومجمع إخوانهم، ومشرع شيطانهم، وموضع صلبانهم، ومورد جمتهم، وموقد جمرتهم.

فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم، واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم، فلما كسروا وأسروا وخسروا وتحسروا، خلت طلول الفولة، بحدود أهلها المفلولة، ودماء داويتها المطلولة، ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة، ولم يبق بها إلا رعايا رعاع، وغلمان وأتباع، وأشياع شعاع، فعدموا إمكان حماية المكان، ووجدوا أمنهم فى الاستئمان. فسلموا الحصن بما فيه

إلى السلطان، وكانت فيه أخاير الذخائر، ونفائس الأعلاق، فوثقوا بما أحكموه من الميثاق، وخرجوا ناجين، ودخلوا فى الذمام لاجين، وللسلامة راجين، وتُسلم جميع ما كان فى تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون، وبيسان والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة ومنوات.

* * *

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال، وقلصت من الضلال تلك الظلال، وصفت الممالك، ووفت المدارك، أوعز السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر عمر بن شاهنشاه تقى الدين بقصد حصن تبنين، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين. فألقى عليه جران بأسه، ولقى بالتذليل حران ناسه، وأخذ فى مضايقته بأنفاسه ولمح ما لمع من قبس فتحه فشغف باقتباسه، وسنح له قنصه فأشرأب باقتناصه وافتراسه. وكتب إلى السلطان يبعثه على الوصول إليه بعسكره، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره. فضرب الكوس، وسمت النفوس، وأنارت فى ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس، واشتعلت من شبيب البيارق فى شعاع تلك البوارق الرؤوس، وتحرك السواد كمهيل النقا، واشتبك على الآساد غيل القنا، وسالت الأودية بالسابحات العتاق، وطالت على السير أعناق الأعناق، ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق. وجرت الفجاج، وتموجت الأفواج وتفوجت الأمواج وتحركت غدران السوابغ، من رياح السوابق، وتدركت ضوامن الضوامر بالأرفاد فى أرداف الحق اللاحق، وأسفر من بريق البيض والبيض فلق الفيالق، وترنمت الصواهل، وترنحت الذوابل، وساح الساحل، وراح الراحل.

ووصلنا إلى تبنين فى ثلاث مراحل، فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الأثافى، وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الأشافى، ونزلنا عليها بالنوازل، وبسطنا من المجانيق عليها أيدى الغوائل، فتبلدوا من الرعب، وتجلدوا على الحرب، ثم خاروا وحاروا، وجأروا وجاروا، ورغبوا ورهبوا، وصحوا من سكر الجماح واصحبوا، وعجزوا فجزعوا، وفزهم الحصر وفزعوا، وشكوا الندوب وندبوا فدانوا ودنوا، وأذعنوا أذعنوا، واعتذروا مما جنوا، وراسلوا السلطان وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا، وأقلع من بالقلعة عن الجهلة، وتعلق لبت العلق بالمهلة، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلّمين، فخرج المأسورون مسرورين، وأصبح الصحب المكسورون مجبورين، محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين، وسر بهم السلطان وسرَّبهم، وأقرهم

وقربهم، وكساهم وحباهم، وآتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه وملك يربحه، إنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، ويحيى بعد اليأس آمالها، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها. فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير للقيود ألف، ووقع فى أسرنا من الكفار مائة ألف.

ولما خلوا القلعة وأخلوا البقعة، سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، ورتب فى الموضع مملوكه سنقر الدووى، فأرشد به ذلك الصقع الغوى، فإن أعمال جبل عامله مجبولة على الشر، وأهلها وإن كانوا مسلمين كانوا أعوانًا لأهل الكفر. فوصى سنقر بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وتأليف الجافل، وتعريف الجاهل، وقال له: تبنى بتبنين ما هدم بالمنجنيق، وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق.

ورحل ومعه رفيق التوفيق، وكان النزول على تبنين يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه.

* * *

فتح صيداء يوم الأربعاء الحادى والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها

وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها، وكانت همته فى قيدها، وبادرها إشفاقًا من مكر العداة وكيدها، وسرنا وسرُنا مرتاح، ونصرنا متاح. والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم، والحكم حتم، ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى تفوح، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح، ونص النصر قد تنزل، وقصد الصدق قد تعدل، وفكر الكفر قد تزوع، وشَرَكَ الشرك قد تقطع وتقلع، وظل الظفر ضاف، وسر السرور غير خاف، والقدر عون والمعين قادر، والنظر سعيد والسعد ناظر، وأوجهنا وأوجه البشائر باشرة، ونيوب النوائب فى أوجه المشركين كاشرة، والألسن لحديث الفتح الحديث ناشره، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة، واتصلت للمالك من الملائكة أمداد النصرة المتواتية المتواترة.

ووصلنا فى يومين إلى صيداء، إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادّين. ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ما توعر، وصفا من الأمر ما ظن أنه تكدر. فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وأسمنا فى مسارحها الجند، وهى مدينة لطيفة على الساحل، موروده المناهل، ذات بساتين وأزهار ورياحين وأشجار النارنج والأترج، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج فجسنا خلالها، وكل قلب مشغول خلالها. وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية.

ولم تعرج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها، وخلصنا من كيدها، وانطلقت هممنا من قيدها. فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وأذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها، وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها، وفتحت أبوابها، وأنجحت آرابها، وعز مسلموها، وذلّ مشركوها، وسكن ساكنوها، وهلك أهلوها، وعادت معالمها مأهولة بعد أن كانت مقفرة مجهولة، وصدح منبرها، وصدق مفخرها، وربح متجرها، ووضح منظرها، وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

* * *

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني عشرى جمادى الأولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين، وجمع لهما التحصين والتحسين، قال لعصمة الله: شيدى ما بصيداء وتبنين تبنين، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ولا يطرق ما تحمين. ثم صرف عنانه، وأرهف سنانه، ورحل على سمت بيروت مالئًا بعسكره الآكام والمروت. وسار على الساحل بتلك الجحافل، ببحر على البحر مائج، ومجر مجر إلى الهياج هائج، ونقد من عقد الجد رائج، وعزم على صدق القصد عائج.

ووصل إليها ونزل عليها، وبنيت القباب، وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب. وزحف إلى الأعداء الأحباب، وضويق البلد، وفورق الجلد، وأحاط الرجال بأرجائه، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال فى سمائه، وانقضت نجوم السهام من أبراجه، وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه، وترجل دونه الناس، وتعجل نحوه الباس، واصطفت التراس، واشتد المراس، واحتد القتال، واحتدم النزل، وامتد المصاع والمصال، واتصل خروج الجروخ للجروح، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح، ومدت الجفاتى، كأنها أعناق البخاتى، وأتى العاتى وعتا الآتى، وأحمد النصر الموافى المواتى، ودارت كؤوس المنايا للأروح بخذى وهاتى، وطارت القوارير، وثارت المساعير، واشتعل النفط، واشتغل الرهط، والتهم الزراق والتهب الحراق، ومرق الشهم الكمى مروق السهم من الرمى، وأتى الوادى فطم على القرى، ودبت الدبابة بليوث الرجال، وصبت الصبابة غيوث النبال، وارتجزت رواعد الأبطال، وانتجزت مواعد الآجال، وجالت فى الضمائر ضوامر الأوجال، وهالت بالنوازل نوازى الأهوال، ورعدت بوارق البوار، وأسعدت الأقدار بالأقدار، وشغلت الرقاب، قواضى القواضب،

وحملت العدد النواكب على المناكب، وخفت للأثقال أكتاف الفتاك، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الأشراك، ودام القتال أياماً يتضاعف اصطلاءً واصطلاماً، ويتظاهر اضطراباً واضطراماً، وبنات الحنايا هائجة، وأمات المنايا ناتجة، ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة حتى خرق الخندق وطرق، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق. وكاد النقب يتسع، والبرج يقع، والجدار ينقض، والحجار بالحجار تنقض وترفض، وسوار السور ينكسر، وقناع النقع لاينحسر.

خرج من البلد رجال إلى الموت عجال، وقفوا دون الباشورة مباشرين، ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين. فتلاقوا بسلام السلام، وكلام الكلام، وتصافحوا بالصفائح، وتجاروا بالجرائح، وتواصلوا بالقواطع، وتعانقوا بالمقامع، وتصارعوا على المصارع، وتجلدوا وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا، والبيض يقد، والبيض تقد، والباسل يرد، والباس يرد، والصقيل الصادى يصدأ بالدم ويروى، وحزب الكفر يضعف وحزب الإسلام يقوى.

ثم انحصروا فى البلد، وانحشروا على اللدد، وضافهم الرعب، وضاق بهم الرحب، وذلوا وخاروا، وضلوا وحاروا. ولما خام المقاتلة وخذلوا، ظن أهل بيروت أن المسلمين دخلوا فأجفلوا إلى البحر إذ عدموا سكينتهم ليركبوا سفينتهم، ويخلوا مدينتهم. فخرجِ أحد المقدمين يستدعى الأمان، ويستعدى الأيمان، ويطلب مثالاً يعصمهم وذماماً يحرمهم وعهداً يسلمون به ويسلمهم، وعقداً فى عقد الأمن ينظمهم.

وكنت يومئذ فى مرض قد أزعجنى وأعجزنى، ومضض أخفانى ولعيون العواد أبرزنى، وانقطعت عن الحضور عند السلطان، وضعفت عن تحرير كتاب الأمان. فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه، وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه. فلم يرضه ما كتبوه، ولم يكفه ما رتبوه، فجاءنى فى تلك الحالة من استملاه منى ومرضت أذهان الأصحاء ولم يمرض ذهنى. فتسلم بيروت بخطى وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى. وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره، وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره، وألفوا الصحة فيه فألفوه، ولقوا السقم فى غيره فأنفوه. فلم يكن فى ذلك التوقيع تعويق، بل كله بتوفيق من الله توثيق، فما فتح إلا بمفتاحه، ولا رتق فتق إلا بإصلاحه، ولا جلى ظلام إلا بإصباحه، ولا ورى زند إلا باقتداحه.

وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة، ووقدة القيظ متأججة، وضرم مرضى ملتهباً، وروح روحى منتهباً. وبقيت مضطراً مضطرباً، ولقيت من ذلك الوصب نصباً

وحصلت من الإقامة أو السفر على الخطر أو الحذر، وتعذر المقام لعذر السقام، واشتغلت عن آلاء شغلى بالآلام، وحملنى اختلالى بنصبى، على إخلالى بمنصبى. وعزت عليَّ مفارقة السلطان، وهو بإعزازى على مواصلة الإحسان، فمضيت على مضض، وانصرفت بمضرة ومرض، وحملت إلى دمشق فى محفة، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل بخفة، فتفضل الله بالشفاء، وبدل الكدر بالصفاء، وعدت إلى السلطان يوم فتح القدس، وانتهت الوحشة إلى الأنس.

وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الأمر، مشاع النصر، مذاع السر فى تضوع النشر وتوضح البشر، مستفيض السيادة، مستضيف الزيادة، ناجح الإرادة، راجح العبادة، رابح المتجر، واضح المفخر، قد شب غرب الهدى، وجب غارب العدى، واستجدى من منّ الله منحاً، واستجد باستفتاحه فتحاً، واستفاد مُلْكًا واستزاد ملْكًا، وبر بيروت إذ برت، وانبرى لبرى قوسها فأبرت، وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت، وحفلت له أخلاف الفتوحات فدرت، واستمرى صواب الصواب من عزائمه وصرائمه فاستمرت.

* * *

فتح جبيل
يوم الثلاثاء سابع عشرى جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفى ابن القابض، وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق إلى الكافى النهاض، يتضمن أن أوك صاحب جبيل أسره إليه فى أسره، واستشاره فى أمره. وقال له: إن قنع منى بتسليم جبيل سلمت وسلمت، وأبحتها لكم وتحرمت، وأخرجتها من عصمتى وخرجت واعتصمت، فأنا أطلقها إن أطلقت، وأزيلها من وثاقى إذا وثقت. فأجيب باحترازه من كيده، وإحضاره فى قيده. فأحضر فى صفده وسمح ببلده، فخلص ناجيًا وملص راجيًا، وملكت مدينة جبيل، وجرت عليها الفتوح الذيل، ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون، ولأعداء الله مصابرون مكابرون.

وكان معظم أهل صيداء وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلّة، وفاقوا الكثرة بعد القلّة. وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وترنمت المحاريب، وترنحت المطاريب، وتليت الآيات، وجليت الغابات، وخربت الكنائس، وعمرت المدارس، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرئ القرآن، واستشاط الشيطان، ولطفت الأعواد، وحقت الأعياد، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤسهم، وعرفوا نفوسهم، وانتعشوا من شَكاة عثارهم، وانتقشوا من شوكة عارهم، وقرّوا فى ديارهم، وقروا أبصارًا بأنصارهم. وكان كل من استأمن من الكفار يمضى إلى صور محمى الذمار.

وصارت صور عُش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، ومأمن خاشيهم، ومكمن عاشيهم، وهى التى فر القومص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حسرتهم.

* * *

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس إلى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها، فما متع بما ملك. وكان كما قيل:

راح يبغي نجوة من هلاك فهلكْ

فما أنجاه الفرار من القضاء، وفر من البلاء إلى بلاده فوقع فى البلاء. وظن أن صور خلت وأن مجانيها حلت، وأن جماحها أذعن، وأن كفاحها أمكن، وأن فرصتها انتهزت، وأن حصتها أحرزت، وأن قيادها أطاع، وأن مرتداها استطاع. لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس، كما يتعوّض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذَماء الكفر بعدما أشفي، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها من مهزومى الفرنج وبمنفييها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغرى شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وأنهش صلاله، وأفحش ضُلاّله، أعوى أعوانه، وأخون إخوانه، وأبغى بغاته، وأجفى جفاته، وأرعى حماته، وأحمى رعاته، وشر شراره، وأنكر نُكاره، وأفجر فجاره، وأروغ ثعالبه، وألسب عقاربه، وأحنث معاهديه، وأنكث معاقديه، وهو الطاغية الداهية الذى خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى بلاد الساحل قبل هذا العام، ولا خلف مقدمى الكفر غيره فى الإقدام على خلاف الإسلام.

واتفق وصوله إلى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل. فعزم على إرساء الشينى بالمينا، ثم تعجب وقال: ما نرى أحداً من أهلها يلتقينا. ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه، فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها، ففكر فى النجاة وكيف يتعلق بسببها، ثم وقف بالقرب، فلبث على الرعب، والهواء راكد، والقضاء عنه راقد. فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه.

فاحتال كيف يخرج بسفينته ولا يدخل مع فقد سكينته. وانتظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب، وما تم له الإفلات على ما أحب، فسأل عن البلد ومن إليه أمره، ومن بيده نفعه وضره، فقيل: هو الملك الأفضل، والمالك الأكمل. فقال: خذوا لى منه أمانًا حتى أدخل وأرفع إليكم ما معى من المتاع وأنقل. فجيء إليه بالأمان وقيل هذا بعلامة السلطان، فقال: ما أثق إلا بخط يده ولا أنزل إلا بعهده إلى بلده.

فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع.

وصار فى صور، فزم الأمور وأجم الجمهور، وجرأ الكفر بعد خَوره، وبَصّر الشيطان بعد عماه وعوره، فاستعلى بالخزى، واستولى بالغى والبغى، وأرسل رسله إلى الجزائر، وذوى الجرائر، يستعدى ويستدعى، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعى، ويستثير، ويستنزير، ويستنفر، ويستنصر.

وثبت فى صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، وما فتح بلد بالأمان إلا سار أهله فى حفظ السلطان حتى يصيروا فى صور، ويأمنوا المحذور. فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلقة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتشأت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، وتسددت وكانت مختلة. ولم يحتفل بها فأخر فتحها، وما ظن بها الضن حتى علم شحها، فاستجدت رمقًا بالمهلة، وتصعبت بعدمقادتها السهلة، فقضى إمهالها بإهمالها، وعادت عيونها إلى الإغفاء بإغفالها، وألهى عن طلبها طلب ما هو أشرف، والعزم بفتحه أشعف، وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس. والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه، ويعقد المَوْثقة ويبرمه، ويجمع المفرق وينظمه. وسنذكر ما تجدد منه فى أوقاته، وما فات من فرصة الإمكان فى دفع آفاته.

* * *

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التى يأتى ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة.

ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل، ثنى عنانه يجر ويجرى من العسكر والعِثْيَر على السماء والأرض الذيل والسيل. وعاد عابراً على صيداء وصرفند، وقد أورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند.

وجاء إلى صور ناظراً إليها وعابراً عليها، غير مكترث بأمرها، ولا متحدث فى حصرها، ولا معتقد فى تعقدها، ولا متئد فى توردها. وعلم أيضًا أنها ممتنعة، وعن سومها مرتفعة، فعمل بالحزم، وعمد إلى العزم. ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن. فعطف الأعنة إلى ما هو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداويّة، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية.

وعبر والعيون صُوْر إلى صور، والمركيس ما شك أنه بها محسور محصور. فلما

أرخى من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق فى مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره. واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل، واتفقا على طى المراحل ونشر القساطل. وحل معاقد المعاقل، وسل قواصم القواصل، ونزل على عسقلان، وشديدها قد لان، وقد آتاها الله الخذلان، فتجلد من بها على الحصار، وتحوفت أسودها الخادرة من الإصحار، وتربصوا وتصبروا، وتترسوا وتستروا، وحاصوا وصاحوا، وحانوا وناحوا، وأبلسوا وأسبلوا، وأوعلوا مما عليه عولوا، وشبوا وشابوا، وخبوا وخابوا. لكنهم استقبلوا الموت واستقتلوا، وتعقدوا على الفتح وما تحللوا، وأحزنوا فى الأباء وما أسهلوا، وجهدوا وجهلوا.

فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها، وفرجت بالحجارة طريقها، ورجت بالتفريق فريقها، ووسعت بالتضييق ضيقها، وأضعفت بالتوثيق وثوقها، وجمعت شمل الحجارة بالنار التى وقودها الناس والحجارة، ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة الشرارة، وخربت منهم العمارة، ووجبت بالجسارة منالهم الخسارة، وتهدمت الصخور بالصخور، ولزم عبث بورهم بالثبور، وجسر النقاب فخسر النقاب، وباشر الباشروة فرفع الحجاب، واشتد القتال، واحتد المصال.

وراسلهم عند ذلك الملك المأسور، وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات. وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا ما به أشير، وأطيعونى ما استطعتم، واسمعوا منى إذا سمعتم، واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم، وحلية حالكم، ولا تخطروا غيرى ببالكم فإنى إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنفذت.

وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا فى التسليم نهجًا سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. وتلألأت السعود فى أوجها بالأوجه السافرة.

وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكبراء إبراهيم بن حسين المهرانى، وهو أول أمير افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة.

وكان السلطان قد أخذ فى طريقه إليها الرملة ويبنى وبيت لحم والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية غزة والنطرون وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه. فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه.

واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان، على عسقلان، بشارة وبشارة،وراية وآية، وهيأة وهيبة، وثرّة وثروة، وهزة وعزة، وعدة وعدة، وجدة

وجدة، وشد وشدة، وحد وحدة، وضوغة، وروعة، ونخوة، وسطوة، وصوت وصيت، ومصاعيب ومصاليت، ومساعير ومغاوير، ودهم ودهم، وشهب وكمت وصلاب وصلاد، وأنجاب وأنجاد، وجلب ولجب، وبيض ويلب، وبيض وسود، وأساود وأسود، وجرد، ومرد، وكهول، وفحول، ورقاق، وعتاق، وقود، وقيدود، وأطلاب وأبطال، وفوارس ورجال، وخفاف وثقال، وعراب وأعاريب، وسراحين وسراحيب، وحد لا يكل، وجد لا يمل، وجمر يتقى، وجمع لا يلتقى، ومعه رماة الأحداق كماة الأتراك، وهداة التوحيد عداة الأشراك.

فقرّت عينه بولده واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله فى يده. وكان قد استدعى الأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر، بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواجًا تلاطم أمواجًا، وأفواج تزاحم أفواجًا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل صحائبها، وتجر بالذوابل ذوائبها، وتزاحم مناكب الأطواد مناكبها. والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها. فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه. وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه، ويظهر فى وقائعه حسن موقعه.

* * *

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبًا، وبالعزم غالبًا، وللنصر مصاحبًا، ولذيل العز ساحبًا. وقد أصحب ريّض مناه، وأخصب روض غناءه، وأصبح رائج الرجاء، أرج الأرجاء، سيّب العرف، طيب العرف، ظاهر اليد، قاهر الأيد، سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملأ فأفاض الآلاء، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق. فالأرض شاكية من أجحاف الجحافل، والسماء حاظية بأقساط القساطل.

وسار سارًا بالأحوال الحوالى، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى، مطوية مدارج مناجحه على ما تنشره الآمال من الأمالى، وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعة المجانى والمجالى. والإسلام يخطب من القدس عروسًا، ويبذل لها فى المهر نفوسًا، ويحمل إليها نعى ليحمل عنها بوسى. ويهدى بشرًا ليذهب عبوسًا، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لأعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، وإطلاع زهر المصابيح فى سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه ورده إلى سكونه وسكنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذى استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان. وكفّ كف الكفر عنه بإيمان

الأيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى الناس، وإفحام الأفهام بإخراس الأجراس.

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبًا وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفًا من جيش الإسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت. وكان به من مقدمى الإفرنج باليان بن بارزان والبطرك الأعظم، ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك. وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وأيس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج.

* * *

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا: ها هنا نطرح الرؤوس، ونسبك النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحًا بمحل الروح، فهذه قمامتنا فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا، وبها غرامنا وعليها غرامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفى استدامتها استدامتنا، وإن تخلينا عنها لزمت لآمتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموه والمذهب، والمطلع والمقطع، والمربى والمربع، والمرخم والمخرم، والمحلل والمحرم، والصور والأشكال، والأنظار والأمثال، والآساد والأشبال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح.

وفيها صور الحواريين فى حوارهم، والأحبار فى أخبارهم، والرهابين فى صوامعهم، والأقسّاء فى مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلم، والمهد والصبى المتكلم، وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار، والنواقيس، والنواميس.

قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرّب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزل الديجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج

الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع وما لنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا ننازل، ولأى معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق أمات الأسواء على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، ونشرت طواميرهم، وتسعرت مساعيرهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، ودعت دواعيهم، وعدت عواديهم، وسعت أفاعيهم، وحضتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم.

وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم بإقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود، منشورة البنود، موصولة القواطع بالأشاجع مهجورة الغمود، مشهورة القواضب، مشهودة الكتائب، مقودة الضوامر إلى نار العدى، موقدة الضمائر بنار الهدى، مشبوبة المزائم مجنوبة الصلادم، مسلولة الظبا، مطلولة الربا، مجنونة أجنة أغمادها، مسنونة أسنة صعادها، مطلقة أعنة جيادها، محققة مظنة طرادها، قد سالت الوهاد بآكامها، وجالت الأعلام فى أعلامها، وسدت الفجاج أفواجها، ومدت العجاج أمواجها، وحجبت الغزالة عقبانها، وألهبت الذبالة خرصانها، وجرت بالجبال رياحها، وجرت كالجبال رماحها، واشتمل على الضراغم غيلها، وأقبل بالعظائم قبيلها، ووافى كل واف بعهد ربه، كاف لكف خطبه، شاف لهم قلبه، ضاف بفيض شربه، خاف فى لبوسه، ناف لبوسه، باسل بباسه، عاسل بأمراسه، ناسل بنت الغمد من جفنه، غاسل نبت الحد بدم قرنه، واصل بيض الهند بسواعده، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده، جاد بحده، وكل شاب لنار الحرب شاب، ورب دين لدين الرب راب، وكل جيش كالبحر عبّاب، وكل سال ذى ذباب عن الهدى ذاب، وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال، مائل فى سبيل الله إلى إنفاق مال.

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه، وأبطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه، وعظام أوليائه، فى مقانب بالمناقب مقنبه، وكتائب بالمواكب مكتبه، وذوابل بالكواكب منصله، وجحافل بمضاء المضارب محفله، وألوية صفر للأواء بنى الأصفر، وبيض وسمر ترزق زرق العدى من الموت الأحمر، وقباب وقبائل، وقنا وقنابل، وصوافن وصواهل، وعوامل وعواسل، وفوارس فوارس، وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس، وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى وفريقه الأسنى، وبذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسن.

وقال : إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا، وأى يد له عندنا إذا أيدنا، فإنه مكث فى يد الكفر إحدى وتسعين سنة، لم يتقبّل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخلية، وحلّت الفرخ به متولية، فما ادَّخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقبول القلوب، وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار.

وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدّس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر. وفيه الصخرة التى صينت جدة إيهاجًا من الأنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشماء التى على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق، ومن أبوابه باب الرحمة الذى يستوجب داخله إلى الجنبة بالدخول الخلود، وفيه كرسى سليمان ومحراب داود، وله عين سلوان التى تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أول القبلتين، وثانى البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد إليها الرحال، ويعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره، وقال عزَّ من قائل: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا** ﴾ [الإسراء: ١].

وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء. وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا ﷺ بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا** ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولنهاره التعبد ولليله المحيا، وهو الذى أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه، وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسماه وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه.

وقد أظهر الله طوله وطوله، بقوله: ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١]. وكم

فيه من الآيات التى أراها الله نبيه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه، ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه وآلاه، وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، ويصغى إلى صرخة الصخرة، ويبغى بالبشرى بشر أسرّة الأسرة.

وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسرة، وحسر الفرنج قناع الحسرة. ونزل على غربى القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب، والقدر قد أظهر العجب.

وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاس عاسل بالعاسل. قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون ويرمون ويدمون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذوبون، ويشبون ويسبون، ويصرخون ويحرضون، ويلهثون ويتغوثون، ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون، ويقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون، ويتعاوون ويتضاعون، ويحترقون للبابا، ويقترحون المنايا.

وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحدّ نضال، ونازلوا أجد نزال، وطافوا بصحاف الصفاح، لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال، والتهموا، والتهبوا، وتأشبوا ونشبوا، واستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئين، ودون القمامة تقوم القيامة، ولحب سلامتها تقلى السلامة.

ودامت الحرب، واستمر الطعن والضرب، فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب الشمالى وخيّم هناك، وضيّق على الفرنج المسالك، ووسع عليهم المهالك، ونصب المجانيق، ومرى من آفاتها الأفاويق، وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حشر السوء منهم وراء السور، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس إلا ويلقون البوس، واليوم العبوس، ويلقون على الردى النفوس، فللداوية دوى، والبارونية من البوار فى الهاوية هوى، وللاسبتار تبار، وما للفريرية من الموت فرار، وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى إليهم حجاب، وفى كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب، إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدى على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم فى الاهتمام مهمومة، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة. فكأن المجانيق مجانين يرامون، ومناجيد لا يرامون، وجبال تجنبها حبال، ورجال تنجدها رجال، وأمات الدواهى والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حجر عليها فى حجر، ولا أمن عندها

من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر، ولا خطر مرورها إلا مرارات ذوى الفطر. فكم من نجم من سمائها ينقض، وصخر من أرضها يرفض، وجمر من شرارها ينفض، وما شيء كآفات كفاتها، وآيات نكاياتها، ودركات إدراكاتها، ولفتات فلتاتها، وجذبات عذباتها. فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها، وتمتح بأشطانها، وتمرح فى أرسانها، وتصدم، وتهدم، وتصرع، وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتفل شمل المبانى بتفريقها وتبديدها، وتقوض القواعد بضربها من أساسها وتنقض المعاقد بجذبها فى أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها، حتى تركت السور سوراً، وجعلت الذاب عنه محسوراً، وعاد العدو من نظمه المبتور مبتوراً، وخرق الخندق وحفز الزحف وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف، وأخذ النقب، وسهل الصعب، وبذل المجهود، وحصل المقصود، وكمل المراد، وكلم المرّاد، ويثغر الثغر، وأمر الأمر، وأربى الأرب، واستتب السبب وخاف القوم الوقم، واستعاضوا من الصحة السقم.

وأسلم البلد وقطع زنار خندقه، وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى فى سومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هو إلا أن نديم لكم الهوان، وغداً نملككم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى فى تأمينهم إلا الإباء، فتعرضوا للتضرع، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا: إذا آيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنّا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجود بالعدم، ونقدم إقدام المستشرى بالشر، ونقتحم اقتحام المستضرى من الضر، ونلقى أنفسنا على النار، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة، ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى أيدينا بالفتك منتشرة، وإنا نحرق الدور ونخرب القبة، ونترك عليكم فى سبينا السبة، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف، وقد عرف أن كلامنا من الذل عزوف وللعز ألوف، وأما الأموال فإنّا نعطبها ولا نعطيها، وأما الذرارى فإنّا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فأية فائدة لكم فى هذا الشح وكل خسر لكم فى هذا الربح، ورب خيبة جاءت من رجاء النجح، ولا يصلح السوء سوى الصلح، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل أسفار الصبح.

فعقد السلطان محضراً للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم فى الأمر، وحاورهم فى السر والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا

سرائرهم، واستورى زندهم، واستعلم ما عندهم، وراوضهم على المصلحة المترجحة، وفاوضهم فى المصالحة المربحة، وقال: إن الفرصة قد أمكنت فنحرص فى انتهازها، وأن الحصة قد حصلت ونستخير الله فى إحرازها، وإن فاتت لا تستدرك، وإن أفلتت لا تملك، فقالوا: قد خصك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العبادة. ورأيك راشد، وعزمك لضالة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلنا لك فى اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد، واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق، وثبت فى تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران.

ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار فى الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً. وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير، ومقدم كبير، يحصر الخارجين ويحصى الوالجين فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ هذا المال حق حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكنما تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفياً فى الرحال، ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزى الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة، فى عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها به متلهبة، وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وأشياء وأشياع ومتاع وأتباع، فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن فى إخراج كل مالها فى الأكياس والأخراج، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قرحى.

وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك أمارى مقيمة فى جوار القدس مع ما لها من الخدم والخول والجوارى، فخلصت هى بمن معها ومن تبعها، ومن ادعى أنه ممن صحبها وشيعها. وكذلك الابرنساسة ابنة فيليب أم هنفرى أعفيت من الوزن، وتوفر

مالها عليها فى الخزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمنى ذكر أنهم من بلده، وإن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده.

وطلب مظفر الدين بن على كوجك زهاء ألف أرمنى ادعى أنهم من الرها، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى. وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، فى كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين. فمن أخذ من أحد الدواوين خطًا بالأداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر لى من لا أشك فى مقاله، أنه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطًا لمن نقده فى كيسهم، ويلبس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقى من بقى تحت رق وأسار، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

* * *

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب

واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال والالتهاج، وجلس السلطان للهناء، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيأة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، ومحبته تروق ومهابته تروع، وآفاقه تضىء وأخلاقه تضوع، ويده لفيض أمواء السخاء، وفض أفواه العطاء، ظاهرها قبلة القبل، وباطنها كعبة الأمل، قد حلت له حالة الظفر، وكان دستة به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزير لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، والكاتب ينشى ويوشى ويوشع، والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع، فما شبهت قلمى إلا بشائر أرْى البشائر، ولا وجهت كلمى إلا لطائف وحى اللطائف، وما أرسلت يراعى إلا ليراعى الرسائل، ويشيع الفواضل، ويشبع القول، ويسبغ الطول ويطول بالحجة وإن كان فى حجمه قصر، ويصول باللهجة وإن كان فى هجمه حصر، ويسمى الملك به وهو نحيف، ويثقل الجيش به وهو خفيف، ويبدى بياض الغرة من سواد الدهمه، ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة، ويجرى بالآجال والأرزاق، والمنع والإطلاق، والخلف

والوفاق، والإرقاق والإعناق، والعدة والإنجاز، والجدة والإعواز، والفتق والرتق، والرقع والخرق، وهو الذى يجمع الجيوش، ويرفع العروش، ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش، وينعش العاثر ويعثر المنتعش، يجرى بالأعداء على الأعداء وبالإيلاء للأولياء، فبشرت بأقلامى أقاليم البشر، وعبرت بأعاجيبى من عجائب العبر، وملأت البروج بالدرارى والدروج بالدرر، ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا الرى وسمر سمرقند، وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند، وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت، وشرحت فضيلتها وبينت، وأديت فريضة زيارتها وتعينت.

* * *

ذكر حالى فى العود إلى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لى فى المرض من النوبة، فأقمت بدمشق أداوى مزاجى، وأدارى منهاجى، وأعالج تدبيرى وأدبر علاجى، إلى أن وصل الخبر بأن السلطان نزل على القدس، فوجدت خفة فى النفس، وأنست بإبلالى بعض الأنس، وأمنت لوثوقى بالصحة والاستقامة من النكس، فأوجهت إلى تلك الجهة، وسرت بطاعة النفس المتنزهة، وعصيان الطبيعة المتكرهة، واخترت تعب السفر على راحة الإقامة، ورأيت فى ركوب طريق العطب وجه السلامة، ووصلت بكرة السبت ثانى يوم الفتح، بالسعد واليمن والنجح، فوصلنى السلطان عند وصولى بأجلى بشاشة وأحلى هشاشة، وسرى عنه وسر، وأبر وبر، وقال: أين كنت ولم أبطأت؟ وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت، وقد كنا فى انتظارك، والسؤال عن أخبارك، وهذا أوان إحسانك، فأين إحسان أوانك، فأجر بنانك بجرأة بيانك، وأجر فى ميدانك، وما للبشائر إلا واصفها، وللفرائد إلا راصفها، وللفصاحة إلا قسها، وللحصافة إلا قيسها.

وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على إنشاء كتب ما ارتضاها، واقتضاب معان ما اقتضاها، وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال: لهذا من هو أقوم به، وعنانى، فلما رآنى نادانى واستدنانى فصرفت إلى امتثال أمره عنانى. وسلم إلىّ الكتب التى كتبوها، بالألفاظ التى رتبوها.

وقال: غيّرها، ولا تسيرها. وغرضه أنى أعدل معوجها، وأبدل مثبجها، وأفترع المعنى البكر للفتح البكر، وأوضح ذكر آياته بآيات الذكر، فاستجديتها فما استجدتها، واستلمحتها فما استملحتها، وشممتها وبها سهك، وكشفتها وسترها هتك، وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك، فشرعت فى افتضاض الأبكار، واقتضاء الأفكار، واقتراح القريحة، واقتراء رحاب الكلم الفصيحة الفسيحة.

وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز، وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز، ووشحت ووشعت، وشعبت وأشبعت، وأطلت وأطبت، وصبت وأصبت، وأعجزت وأعجبت، وأطريت وأطربت، وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت، وطابقت وجانست، ووافقت وآنست، وبينت فضل عصر الإمام الناصر على الأعصار السابقة، بالأبصار الصادقة. وإن هذا الفتح أدخره الله لزمانه ومكّن منه لمكانه وسلّط عليه بسلطانه وحسّنه لنا بإحسانه فقد عبرت القرون الماضية على حسرته وظفر وهو وأشياعه بمسرته وما حصل لنا إلا ببركة أيامه وحركة اعتزامه. وذكرت من هذا كل ما راق وشاق ونوّر الآفاق، وإن هذه الفتوح تفوح بأرج نشره وتحيى بحيا بره فما أيمن أيامنا بأيامه، وما أسعد آمالنا بإنعامه.

وكتبت إلى كل ذى طرف بمعنى طريف ولفظ فصيح حصيف، وسهرت تلك الليالى حتى نظمت اللآلىء وحليت المعالى وقرحت المعادى وفرحت الموالى وسارت شواردى إلى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى وتلوت شرع لكم من الدين ما وصى وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء ومقام إبراهيم بموضع قدم محمد المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بيتيه مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا لزيارة من كل فج عميق وسلكوا إليه فى كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق وتنزهوا من أزهار كراماته فى الروض الأنيق.

* * *

ذكر ما جرت عليه حال الفرنج وخروجهم من القدس

وشرع الإفرنج فى بيع الأمتعة واستخراج ذخائرهم المودعة، وباعوا بالمجان فى سوق الهوان. وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان، وباعوا بأقل من دينار كل ما يساوى أكثر من عشرة، وجدوا فى ضم ما وجدوا من أمور لهم منتشرة، وكنسوا كنائسهم، وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الأوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل، ونقضوا من الكنائس الكنائن، واستخرجوا من الخزائن الدفائن.

وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر، من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين، وجمع ماكان فى قمامة من الجنسين والنسجين، فقلت للسلطان: هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة، تبلغ مائتى ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها فى أيدى هؤلاء الفجار. فقال: إذا

تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الأمر، فنحن نجريهم على ظاهر الأمان ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان.

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم إلى صور، وكتفوا بالديجور الديجور، وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفًا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق. فأما الرجال وكانوا فى تقدير سبعة آلاف فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بألآف ، فاقتسمتهم أيدى السبى أيدى سبا، وتفرق الغانمون بجمعهم فى الوهاد والربا، وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة، عادت بيننا مقتسمة، وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة، فكم محجوبة هتكت، ومالكة ملكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسمحت، وخيبة توقحت، ومجدة مزحت، ومصونة ابتذلت، وفارغة شغلت، وعقيلة امتهنت، وجميلة امتحنت، وعذراء افترعت، وشماء فرعت، ولمياء رشفت، وظمياء فرشت، وريضة أصحبت، ورضية أصحبت، فكم تسرى منهن سرى، وتجرأ عليهن جرى، وقضى وطره عزب، ونفى نهمه سغب، وفثأ سورته شغب، وكم غانية استخلصت، وغالية استرخصت، ووالية اعتزلت، وعالية استنزلت، ووحشية صيدت، وعرشية قيدت.

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز، وخلع لباس الذل ولبس خلع العز، أبى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا، وتضرعوا فى أن يسكنوا ولا يزعجوا، وبذلوا خدمًا وخدموا ببذول، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وشحت أفواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون، ودخلوا فى الذمة، وخرجوا إلى العصمة، وشغلوا بالخدمة، واستعملوا فى المهنة، وعدوا المنحة فى تلك المحنة.

* * *

ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وحتم به أمر الإيجاب. وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدارًا وتركوه للغلة هريًا، وقيل: كانوا اتخذوه مستراحًا عدوانًا وبغيًا. وكانوا قد بنوا من غربى القبلة دارًا وسيعة، وكنيسة رفيعة، فأوعز برفع ذلك الحجاب، وكشف النقاب، عن عروس المحراب، وهدم ما قدامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس فى الجمعة فى العرصة المتسعة،

ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر. ونقض ما أحدثوه بين السوارى، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى، وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحق الحق وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلّت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانتابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى وطنه، وطلب الفضل من معدنه. وورد القراء وقرىء الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والأبدال والأوتاد، وعبد الواحد ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهى والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد الساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر، وأملى الحفاظ، وأسلى الوعاظ، وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء، وتحدث الرواة، وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة فما فيهم إلا من خطب الرتبة ورتب الخطبة وأنشأ معنى شائقًا ووشى لفظًا رائقًا وسوّى كلامًا بالموضع لائقًا، وروى مبتكرًا من البلاغة فائقًا.

وفيهم من عرض علىّ خطبته وطلب منى نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيته فيها أمنيته. وكلهم طال إلى الالتهاء بها عنقه، وسال من الالتهاب عليها عرقه، وما منهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب فى أخماسه أسداسه، ورفه لهذه الرياسة راسه، والسلطان لا يعين، ولا يبين، ولا يخص، ولا ينص. ومنهم من يقول: يا ليتنى خطبت فى الجمعة الأولى، وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت بطالع سعدى، فما أبالى بمن يخطب بعدى.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتلفت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقّة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع، وغصّت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم

تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الإسلام وارتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والأمة الظاهرة، وما أكرم هذه النصرة الناصرية، والأسرة الإمامية، والدعوة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية. وهل فى بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التى شرّفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة.

وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا فى التفويض، وتحدثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعرافين من الضجيج ما فى عرفات للحجيج حتى حان الزوال، وزال الاعتدال، وحيعل الداعى، وأعجل الساعى، فنصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختياره بعد فحصه.

أوعز إلى القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى، فأعرته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافة، حتى تكمل له شرف الإفاضة والإضافة. فرقى العود، ولقى السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف المعشر، وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ فى خطبتيه، وخطب بموعظتيه، وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل: ٩٠].

ونزل وصلى فى المحراب، وافتتح ببسم الله من أمّ الكتاب، فائتمّ بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة.

ولما قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع واطرد القياس. وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير، ليرفعه كبير. فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علىّ بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا، وخوف بالحجة ذوى الحجا، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا، وأتى بكل عظة، للراقدين موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون، وعجّ المتشاكون، ورقّت القلوب، وخفت الكروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون، وأناب المتحوبون، وصاح التوابون، وناح الأوابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت،

وضراعات قبلت، وفرص من الولاية الإلهية انتهزت، وحصص من العناية الربانية أحرزت. وصلى السلطان فى قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصلة، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة، والأيدى إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة. ثم رتّب فى المسجد الأقصى خطيبًا استمرت خطبته واستقرّت نصبته.

* * *

وصف الصخرة المعظمة عمّرها الله

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحًا، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسًا ولا مطمحًا، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبة، وقالوا: محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكانت فيها صور الأنعام، مثبتة فى الرخام. ورأيت فى تلك التصاوير أشباه الخنازير، والصخرة المقصودة المزورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة.

فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها، وقشر رخامها، وكسر رجامها ونقض بنائها، وفض غطائها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، ونزع لبوسها، وزفاف عروسها، وإخراج درها من الصدف، واطلاع بدرها من السدف، وهدم سجنها، وفك رهنها، وإراءة حسنها، وإضاءة يمنها، وإبداء وجهها الصبيح، وجلاء شرفها الصريح، وردها إلى الحالة الحالية، والقيمة الغالية، والرتبة العالية. وهى التى حليها عطل وعطلها حلى، وعريها كسوة وكسوتها عرى، فعادت كما كانت فى الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وسيم بهاء حسنها الوسيم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء أهل الكفر فى نحتها، وظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نورًا على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد. ورتب السلطان فى قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة، وأينهم طلاوة، وأنداهم صوتًا، وأسماهم فى الديانة صيتًا، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر، وأطيبهم فى العرف والنشر، وأغناه وأقناه، وأولاه لما ولاه، ووقف عليه دارًا وأرضًا وبستانًا، وأسدى إليه معروفًا دارًا وإحسانًا، وحمل إليها والى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة. ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس

عامة، قومة لشمل مصالحها ضامة، فما ترتب إلا العارفون العاكفون، القائمون بالعبادة الواقفون. فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واستعرت من العارفين الضلوع. فهناك كل ولى يعبد ربه ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، وهناك كل من يحيى الليل ويقومه، ويسموا بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله، ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأذكار، وما أسعد نهارها، حين تستقبل الملائكة زوارها، وتلحف الشمس أنوارها أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها، وتضع الجناة عندها أوزارها، وتستهدى صبيحة كل يوم منها أسفارها، وما أظهر من تولى أطهارها، وأطهر من باشر إظهارها، وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل: باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكسباً.

ولما ظهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها. فهى الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام فى خدرها وحرزها، وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع فى العمران، وأمر بترخيم محراب الأقصى، وأن يبالغ فيه ويستقصى، وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة. فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلى وبيّن وحلى وزين، وأشفق وأنفق، وأغنى وأقنى، واعتنى وابتنى، ووفى وأوفى، وأصفى وأضفى.

وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر بكل صنع بكر، موجب لكل شكر، وكل فعل جميل، ورفد جزيل، ومن جلى ومنح جليل، ومكرمة حميدة، ومحمدة كريمة، وفضيلة بها ترجح، ووسيلة بها نجح.

[وأتى الملك المظفر تقى الدين عمر، بكل ما عم به العرف وغمر، ونهى وأمر، وبنى وعمر].

ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوماً فى قبة الصخرة مع جماعة من السراة الأسرة، ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال. فانتهز فرصة هذه الفضيلة التى ابتكرها بالافتراض، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صباً حتى تعطرت، وكذلك طهر حيطانها، وغسل جدرانها. ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت، وتضوعت وتعرفت، وفغمت مناشق أهل الهدى، وأرغمت آناف العدى، وما زال مع قومه فى تطهير البقعة المباركة طول يومه، حتى تيقنت طهارتها، وبينت عمارتها،

وراقت نضارتها، ووقفت عليها الاستحسان نظارتها، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين على، بكل نور جلى، وكرم ملى، وإحسان سنى، وإنعام هنى، وعرف زكى، وعرف ذكى، وعطاء مبتدع، وسخاء مخترع، وجود مبتكر، ورفد معتبر، وأتى بكل ما خلد أثر الحسن، وأنطق بحمده الألسن، وبسط بها الصنيعة، وفرض فيها البسط الرفيعة، وهدى وأهدى، وأعاد بعدما أبدى، وأنار وأسدى، وأفاض الندى، وفض الجدا، ونفض الأكياس، حتى خلنا به الإنفاض والإفلاس، وسيأتى ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، ما لم يشق أحد فيه غباره، ولا ملك سابق فيه مضماره.

وأما الملك العزيز عثمان، فإنه أتى بالإحسان الذى استظهر به الإيمان، وذلك أنه لما عاد إلى مصر وقد شاهد الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقية، ودروعًا سوابغ، ونصولاً دوامغ، وخوذًا وترائك، ورماحات ونيازك، وقنا وقنابل، وصواقل وذوابل، وجروخًا وقسيًا، ويمانيًا وهنديًا ويزنيًا، ودرينيًا ومشرفيًا، وجفاتى وجنويات، وطوارق وقنطاريات، ورانات حديد وزانات، وآلات وزيارات وزرافات، ونفاطات وقطاعات، وعدد النقوب، وجميع أدوات الحروب، فاستظهرت بها المدينة، وتوثقت بها عراها المتينة.

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، ويخرجوا قبل أن يستوفى الباقون فى أداء القطيعة مدتهم. فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى بذلك عما يصل من المدد.

* * *

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس وإنشاء المدارس

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى فإنه فى حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذى يقيم به الوالى. فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى، ورتب له إمامًا، ومؤذنين وقوامًا، وهو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيها الأنام.

وكان الملك العادل نازلاً فى كنيسة صهيون، وأجناده على بابها مخيمون،

وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، فى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية، فعيّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهى بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفًا، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفًا، وارتاد أيضًا مدارس للطوائف ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف. وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإلمامة. وتفاوض الناس عنده فيها. فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وإزالة تماثيلها، وإزاحة أباطيلها، وإطفاء قناديلها، وإعفاء أناجيلها، وإذهاب تساويلها، وإكذاب أقاويلها، وقالوا: إذا هدمت مبانيها وألحقت بأسافلها أعاليها، ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت، ومحيت رسومها ونفيت، وحرثت أرضها، ودمر طولها وعرضها، انقطعت عنها أمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة.

وقال أكثر الناس: لا فائدة فى هدمها ولا هدها، ولا يؤذن بصد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء.

ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان.

* * *

ومما كتبته إلى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى من رسالة

«قد سبقت البشائر بما منّ الله به من الفتح العظيم، والنصر العميم، والعرف الجسيم، والفضل الوسيم، واليوم الأغر الأعز الكريم، والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار، فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته، وافتضاض عذرته، وخص من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته، وأعاد به القدس إلى قدسه، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس. وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين. وقال المحراب لأهله: مرحبًا وأهلاً.

وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً، ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين. وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدى، وصافحت الأيدى منها موضع القدم، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم، فهو ثانى المسجدين، بل ثالث الحرمين، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس، وتضوّع أرج الرجاء فى أرجائه بعد اليأس. فالحمد لله الذى أبدل الإيحاش بالإيناس، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس، وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الأعصر مفضلاً، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملاً، ويسر ببركات إيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها، ولقد حل الكفر عروة عروة، وهد ذروة ذروه، وعادت حباله رثاثًا، وعقوده أنكاثًا، ومساكنه أجداثًا، وصار حديثًا بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثًا، فالرتاح مستفتح، والرجاء مستنجح، والبلاد مستخلصة، والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصة، والعقائل مقتضه، والمعاقل منفضة، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة، والثغور مبتسمة، والأمور منتظمة، والحصون متسلمة، والخصوم مذعنة مستسلمة، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها، بل يستولى على أوساطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها.

ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها، والنعمة بحمد الله عظيمة، والموهبة وإن خصت هذا الإقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمة، ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ فى مضمار البيان ولم يبلغ مدى ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ [الكهف : ١٠٩].

والقاضى ضياء الدين القسم الشهرزورى قد توجه لهذه النعمة واصفًا، وعندما يأمر به من إنهاء البشر بها واقفًا، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفًا، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور مصادر شرحه، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه.

عاد الحديث إلى ما جرى بعد فتح القدس

وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون. ورحل ولده الملك الأفضل قبله إلى عكاء عائداً، وعن حوزتها ببأسه وجوده ذائداً. ثم تبعه الملك المظفر فرحل، وسار إلى عكاء وبها نزل. ثم عمد السلطان إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه فى ذوى الاستحقاق وأنفقه، وفرضه بعوارفه، وفضه فى مصارفه، فسد خلة المعيل، وأسهم منه ابن السبيل، وحمل به عن الغارم، وأحيى به سنن المكارم، ووضعه فى أهله، وأحله فى محله، وصرفه فى حله، وقدم التوسعة على ذوى الإضافة، والإنفاق فى أهل الفاقة، وأجنى الأجناد منه مقاطف، وجعل للمجاهدين منه وظائف، وأبقاه بإفنائه زخراً للآخرة، وكسباً للمحامد الفاخرة. فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا ما فضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذى أ نفقه هو الذى أبقيه، وإذا قبله منى المستحق فالمنة له على فيه، فإنه يخلصنى من الأمانة ويطلقنى من وثاقها، فإن الذى فى يدى وديعة أحفظها لذوى استحقاقها، فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر، والإفاضة فى نظم من حمده ونثر، وحاز كل ذى فضيلة منه فضلاً، وتفيأ كل فئة من فيئه ظلاً. وكثر السائلون بالفضائل والقائلون بالوسائل، والقاصدون بالقصائد، والوافدون بالفوائد، والواردون بالفوارد، والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق، والسالكون للطرائق، والمالكون للحقائق. فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً فى مسألة، ومتفحصاً فى مشكلة، وموردا لحديث نبوى، وذاكراً لحكم مذهبى، وسائلاً عن لفظ لغوى، ومعنى نحوى أو مقرضاً بقريض، أو معرضاً بتصريح أو مصرحاً بتعريض أو جالباً لمدحه، أو طالباً لمنحه، أو مستضعفاً بفاقة، أو مستسعفاً بإفاقة، أو ناشداً بنشيد، أو مسمعاً بتغريب وتغريد.

وما فيهم إلا من أحظى بسهم، أو أرضى بقسم، وأصيب بنصيب وأجيب، وأجيز بتقرير وتقريب، فقيل له: لو ذخرت هذا المال للمآل، لشفيت به ما يقع من الاعتلال، وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال. فقال: أملى قوى من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الأسراء المطلقين. وكانوا ألوفاً من المسلمين فكساهم وأساهم، وواساهم وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره ناجياً من ضرره ووضره.

ومكث السلطان عليه مقيماً، للنظر فى مصالحه مستديماً. فقيل: ما قعودك عن صور، فانهض إليها عسكرك المنصور وأنت تدخلها يوم وصولك وتحظى منها بمرادك وسؤلك.

فانو السير، وأحو الخير، وأحصر الخير، وأحظر التأخير، وفى تعجيل النهضة تحصيلها فى القبضة، وفى بدار الإلمام بدارها، بشرى أهلة الفتوح المقمرة بإبدارها، فأسر بالعسكر وأسرع، وأقطع عن الكفر تلك الأعمال وأقطع.

وأكثر من كان يستحثه وعلى النهوض يبعثه الأمير على أبو أحمد المعروف بالمشطوب، وكان من أكابر الكافين للخطوب، الكافين فى الحروب. وكانت معه صيداء وبيروت، وهما بقرب صور وقد أشفق أن فتحها يفوت، فرأى الحظ فى الحض، وحرض على الفرض، ولم يفكر فى قوتها بانتقال رجال الساحل إليها وإنه يشق فى هذا الوقت النزول عليها. وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس بأحكام صور مشتغلاً، وعلى الاستهتار بتحصينا مشتعلاً، وقد استجد قدامها من البحر إلى البحر خندقًا وجعل الطريق إليها مضيقًا وأحكم أسباب الأحكام وأخذ بالحزم فى الاهتمام.

* * *

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وقد عنا لأمره كل قاص ودان وداد، وودعه ولده عزيز مصر فى أول منزله وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة، ثم أوصاه وشيعه واستصحب أخاه الملك العادل معه مستظهرًا بأخائه، مستبشرًا بآلائه، مستبصرًا بأرائه، مستنصرًا بمضائه مستغنيًا بغنائه، موفيًا بوفائه، وهو بعقده يعقد وبحله يحل، وبشده يشد وبحلوله يحل، والعساكر بالفضاء فائضة، وللخطوب الريضة رائضة، وإلى استنهاض النصر لأنصارها ناهضة، ومن هواها أنها فى دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة، فوصل إلى عكا فى أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرًا بخيمه، باهرًا بتأخيره وتقديمه، قاهرًا بشباه المبير، زاهرًا بسناه المنير، جاهرًا بسره ظاهرًا فى بحره.

وأقام أيامًا يتفكر ويتدبر، ويستشير ويستخبر، والمشطوب يستعجله، ولا يمهله، ويحرض بالبعث ويحذر من المكث، ويقول: الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث.

فسار لندائه ملبيًا، ولجيش النصر معبيًا، ولرأيه مقلدًا، وبالله عزّ وجل متأيِّدًا، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة، بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة، فنزل بعيدًا من سورها سعيدًا فى ترتيب أمورها، مضروبة قبابه، مجنوبة عرابه، محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه، منشورة راياته منصورة آراؤه، خافقة على الأعداء عذبات عذابه، دافقة فى ثرى النجح فى الأنحاء ثَرَّاتُ صوب صوابه قد كست خيامه عرى العراء، وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء، واحتوت مضاربه

المضيئة بآلائه وآرائه على مضارب المضاء، وباحت استباحة حمى المشركين للموحدين بسر السراء. فمكث أياما حتى تواصل المدد، وتكامل العدد، واستحضر آلات الحصار، واستكثر من المجانيق الصغار والكبار. ثم تقدم إليها وخيَّم عليها الثانى والعشرين من الشهر يوم الخميس، فى خميس يسير فى الوشيج كالأسد فى الخيس، ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس، فوقع فى الدردبيس، والعذاب البئيس، فكأنما نفخ فى صور صور، فحشر أهل جهنم وملؤا السور، واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروخ، وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ، وأرسلت الحجارات حاجرة حاجزة، وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزة، وكانت صور على السوء مستوية، وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية. فضجوا وارتجوا، وعاجوا وعجوا، ولجؤا ولجوا، ونصبوا على كل نيق منجنيقًا، وشدوا من كل جانب ركنًا وثيقًا، وشدوا فى الجبال، ومدوا فى الحبال، ورموا من الشرافات، بالشرور والآفات، وسلب الحجار حجاها، وأمت الأمة وجاءها وجاها. فكم من رؤوس أطارت، ونفوس أبارت، وبر خسفت، وبدر كسفت، وبحر نزفت، وطود نسفت.

فحوَّل السلطان إلى قربها له خيمة صغيرة، وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة، وصف الجفائى، فصدف أتيها الآتى، وعارض بحرها بعرض بحره، ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق فى نحره، فأحبط أعمالهم بأعماله، وأهبط رجالهم برجاله، وقابل الأبراج بالأبراج، وحاول بالردى علاج الأعلاج، ووالاها حجارات وصخوراً حتى جعلت سور صور سوراً، وجدّ فى أمرها، وأجاد فى حصرها.

ووصل إليه فى تلك الأيام من قوى به ظهر الإسلام، ولده الملك الظاهر غياث الدين غازى، وهو الذى جلّ فى سماحته وحماسته عن الموازن والموازى، فقدم مبارك القدم متدارك النعم عالى الهمم غالى القيم، ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب. قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب. فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب، وأغرى بسفك دم الكفر المطلول المطلوب.

ورأى نصب خيمته وراء خيمة أبيه المنصوبة، وجدّ فى استرجاع مدينة الإسلام المغصوبة، وقدم بين يديه كل حجار راجح، وكل نقاب ناجح، لصم الصفاح مصافح، وكل جاندار جان در الردى للكفار، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار، وكل منجنيقى من جنانة تقتبس ذبالة البسالة، وكل جرخى رخى البال بالهدى لأصماء أهل الضلالة، وكل رام رامَ النجم فى الأفق فراماه، وكل همام همّ بالخطب النازل فتحاماه، وكل مقدام قرنه دام، وكل ضرغام صريعه فى رغام، وكل قمقام ضارب بصمصام، وكل حام شارب بكأس حمام، وكل ذمر مشيح، لذمار الكفر

مبيح، ولروح الجد مريح، ولذماء المزاح مزيح، وكل فاتك لحبل الوريد باتك، ولستر الحياة هاتك، ولدم العداة سافك. وكل شجاع إلى الموت داع، وإلى المجد ساع، وللإسلام راع،وللإشراك ناع.وكل فارس للفوارس فارس، وللذوابل فى النحور غارس.

وفى اليوم العابس غير عابس وكل راجل لقهر العدو راج، وبسر البأس مناج، ومن شر الناس بشجاعته ناج، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج، وكل عتال عات، ونجار ونشار ونحات، وحداد وقين. وكل زائر للعدى بحين. فاجتمعوا وزحفوا، وجفوا على القوم ورجفوا، وأصموا وصمموا، وأوقدوا ناراً وأضرموا، وأطاروا من أعشاش الأقواس إلى أوكار الأحداق أفراخا، واستصرخوا الأقدار لأقدارهم فحبتهم حين أحبتهم أصراخاً. وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرفاق، وأولوا الشقاء لأولى الشقاق، وتساعدوا وتناصروا، وتطاولوا وما تقاصروا، وما فيهم إلا من أبان عن جد، وأبان بحد، وألان الشديد، وأعان السديد، وأفلح ففلح الحديد بالحديد، وجدّ الجديد، ومدّ المديد، وصور مرتجة أبوابها، مرتجة أربابها، مغتصة جوانبها، مرتصة عصائبها، مشحونة أبراجها، مسجونة أعلاجها، محصورة كلابها، محسورة ذئابها، محشورة ثعالبها، محشودة كتائبها.

والمركيس بها متجهم، وإبليس عليه متحكم، وقد سقط فى يده، وسخط لبلده، وارتبط بجلده، واختلط بكمده، وغلت مراجل غلوائه، وعدت غوائل عدوائه، وطاش وجاش، وأوخش الأوباش والأوخاش، وتوشح بالشر وتوحش، وترشح للردى وتحرش، واشتغل بجمره، وبعل بأمره، وضرى بضره، وجال بوجله فى مكر مكره، وكر فى وكره، وعشا عشه، وغشى غشه، وثبت على لجاجه، ونبت فى أجاجه، وتسعر وتعسر، وتربص وتصبر، والسلطان مصيب حكمه، صائب سهمه، ماض عزمه، قاض حزمه، بار جده، جار حده، وار زنده، سار وفده، باتك غربه، فاتك ضربه، قاطع شبا باسه، ساطع سنى إيناسه، قد اتسقت أسبابه، واتسعت رحابه، وأجتمع أصحابه، فازدحم على بابه وحول قبابه كل مبارز بار، وكل ضارب ضار، وكل حجار جار، وكل رامح ورام، وكل حامل سلاح وحام، وكل سائف حائف، وكل عاصف قاصف، وكل آكل للحرب شارب، وكل طالع بالضرب غارب، وكل هاجم هائج، وكل راجم رائج، وكل معتقل متقلد، وكل مجرب مجرد، وكل ذكر مذكور، وكل غضنفر مشكور، وكل ليث ملاث، وكل غيث غياث، وكل سفاك لدم الكفر سفاح، وكل جراد لسيف الفتك جراح، وكل مكتتم فى درعه، مكتمن فى نقعه، ملتم بزغفه، مثلم بحرفه، مقنع بلامه، ملفع بقتامه، سابح فى بحر الموت بسابحه، سامع فى الصباح صوت صائحه، فجمع إليه أمراءه، واستحضر عظماء ملكه وكبراءه،

وقالوا: هذا بلد حصين، ومكانه من الأرض مكين، في البحر ثلاثة أرباعه، وفى السماء ارتفاع يفاعه، وطريقه الذى يسلك من البر إليه، قد أحاط به البحر من جانبيه، وقد قطعوه بخندق فى عرضه، وعمقوه ونزلوا فى أرضه، وكان من إحكام الحزم، وإتمام العزم، تكميل الآلات وتتميمها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها، وتقريب الجفاتى والجنويات وتصفيفها، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها، وتنحية أثقال العسكر وتخفيفها، وتنحية نخب الرجال وتصريفها، وتسنية الأسباب، وتهيئة الأخشاب، واستحضار كل ما يراد للحصار، واستنفار كل من يرام من الأنصار، فإذا حضرت هذه الأشياء والأشياع، وتيسرت وتوفرت الأصول والأتباع، رحب الذرع فى الحصر والمضايقة وطال الباع، وإذا حالت الأحوال وضاعت الأوضاع، اختلّ واعتلّ النزال والنزاع، وأمر السلطان بإزاحة العلل، وإزالة الخلل، وشغل الصناع بالعمل، ونقل الأمل إلى طريق الأجل، وتقدم بقطع أشجار الغياض، وحمل ما بتلك النواحى من الأنقاض، فاجتمع هناك كل أَلَّة وآلة، وذباب وذبالة، وقضيب مقضب، ومجرب ومحرب، وسهم وشهم، وشهب ودرهم، وأحمال وأثقال، ونظمت الستائر من القضيب، وصفت من سور صور بالمكان القريب، وكمت من ورائها الكماة، واستترت بالجفاتى قدامها الرماه، واشتغل كل صانع بصنعه، وكل جامع بجمعه، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه، فمن جان بمنجنيق، ودان إلى نيق، وداب بدبابه، وذاب بذبابه، ونازع فى حنيه، وناز بمنيه، وقاذف بشراره، وحاذف بحجاره، وهاتك من ستاره، وفاتك بجساره، وجاذب فى حبال وجالب لوبال، ومرو فى قلع ومسو لمقلاع، ومدبر بإيجاف ومدمر بإيجاع.

ولم تزل المنجنيقات ترمى، والحجارات تدمر وتدمى، والدبابات تطير من أكارها عقبان الجروخ، وأطباق البرج تبنى وتغطى بالسلوخ، حتى امتد الزمان، واشتد الحران، وضاق الحصر، واعتاق النصر، وكان العسكر قد ألف تيسر الفتح، وتسرع النجح، فصعب عليه حين صعب، وتبع هواه لما تعب، ولم يألف الناس إلا إرواء ظمأهم بنهله، والحصول على أكساب سهله، وفتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهله.

فلما توقف هذا الفتح توقفوا، وملوا وضجروا وتأففوا، والسلطان مع ذلك يزداد فى حده حدة، وفى شده شدة، وفى جده جدة، يثبتهم بحثه، ويحثهم على الثبات، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات. ويقول: إن الله أمر بالمصابرة ولا مصابرة إلا بالمثابرة، فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا.

* * *

ذكر ما تم على الأسطول

وكان السلطان قد نفذ من صور، وأحضر إليها من عكاء ما كان بها من مراكب الأسطول المنصور، فوصلت منها عشر شوان، على العدى جوان وللردى لهم جوان. فعمرها بالرجال، وجهزها للقتال، واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل، فاستشعر المركيس وأشياعه منها الويل، وعمروا لهم مراكب، ورفعوا بها مناكب، وسفننا بالساحل عندنا مربوطة، وبحفظنا مضبوطة محوطة، ودامت تدب عقاربها، وتذب سواريها، وتجرى سواريها وتسرى جواريها، وتطير للقنص بزاتها، وتغير للفرس غزاتها، وتكسر بكواسرها، وتدور بدوائرها، وتلاطم الأمواج بأمواجها، وتزاحم الأثباج بأثباجها، وترفع شرع الهداة بشراعها، وتقلع عرش الغواة بإقلاعها. وتنقض على شياطين الكفر شهبها، وترفض بشآبيب الذعر سحبها، فكأنها الأساود السود، ركبتها الأسود من كل أفعوان يحمله أفعوان، وشجاع امتطته شجعان، وغراب بشتات العدى ناعق، وسحاب بوميض الهدى بارق، فيا لها من أغربة دارت بعقبان، وأجنحة طارت بظلمان، ورواس سوار، وغواز بغوار، وقد ملئت برمات الحدق، وحماة الحلق، وزراقى النار، وطراقى الثار، والخاطفين بالخطاطيف، والقاذفين بالمقاذيف، والكالمين بالكلاليب، والسالبين بالأساليب، والحاربين بالمحاريب، والراجمين بالرجام، والمعلمين على الأعلام.

فانشقت مرائر الفرنج، وأزاحت سفنها عن النهج، وقرنصت بزاة البيزانية، وتقلصت جناة الجنوية، وكرثت أدواء الداوية، وكثرت أسواء الاسبتارية، وزادت آلام الألمانية، وعادت أسقام الإفرنسيسية، وصارت مراكبهم فى المينا لا تبين، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين، وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت جبالاً نسفن، وأنس أصحابنا بعلو الأمر، وخلو البحر، وأمنوا من الخوف، وأدمنوا على الطوف، ودام تطوافهم ، واستقام إيجافهم، واغتروا بالسلامة، وسروا بالاستقامة، وباتت لنا شوان خمس لها بزوال الوحشة أنس، وربطت بقرب مينا صور راصدة، ولأخذ ما يخرج من شوانيها قاصدة، والدياجى مدلهمة، والدواهى ملتمة، وعيون الزهر راقدة، وعيون الكفر ساهدة، وللمكايد مصايد، وللعوادى عوائد، وللغوائل طوائل، وللمسائل دلائل، وللمقادير مقاد، ولأولئك المراد مراد.

فحفظ أصحابنا إلى السحر الحرس وسهروا إلى أن شارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس، وغاص فى النوم وما تنفس. فما انتبهوا إلاّ وسفن الفرنج بهم محدقة، ونيرانهم محرقة. فولجوا فى البحر والتجوا، وتظافروا إلى الماء لينجوا وعدت العداة، وأخذت تلك الشوانى الشناة، وأسروا منها عدة، ولقى الباقون شدة. فاغتم السلطان

بسبب هذه النكبة، وفرح الكفار بتلك الضربة. وكانت تلك أولى حادثة كرثت، وكارثة حدثت، ونائبة رابت، ورائبة نابت، فضاقت القلوب، وضافت الكروب، وحصلت تجربة الغارين، واتصلت حركة القارين، واستيقظ الناعس واستوحش الآنس، وهب الراقد، ودب الراكد، وذاب الجامد، وشب الخامد، وهاج الزائر، وماج الزاهر، وتحرك الساكن، وتورك الراكن، وعقل من غفل، وذهن من ذهل، وتيقظ من غفا، وتحفظ من هفا، وتقبض من انبسط، وتقيد من نشط، وهم من عف، وألم من كف، ورجفت الآفاق بالمرجفين، وطالت ألسنة المعنفين، فمنهم من يؤنب ويذنب، ومنهم من يقول ويطنب، والعاقل ينجنب ويقيم العذر لمن يذنب، ويقول: هذه من الله موعظة، وآية لنا موقظة.

وأشار الناس بإنفاذ الشوانى البواقى، وقطعوا بأن هذه القطع لا تكفى لملاقاة من يلاقى، فجهزوها نهاراً وصيّروها سرهاً جهاراً، وأمروها بتسييرها إلى بيروت. ورجوا أن تسبق وتفوت. وركب العسكر فى الساحل يباريها وهى بالقرب تجاريه فى البحر وهو فى البحر يجاريها، فأبصر ملاّحوها شوانى الفرنج لمبارزتها مبرزة، وللإجهاز وراءها مجهزة، وكانوا رجالاً من بحرية مصر مجمعة. وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروّعة. فتواقعوا إلى الماء، وخافوا على دمائهم فى الدأماء، وخرجوا إلى البر على وجوههم، وخافوا مكرهم فى مكروههم، وفروا وفاروا، وطاروا وثاروا، ولم يلفت أحد منهم لبتا، ولم يزدهم دعاؤهم إلى التجمع إلا تشتيتا. فظهر بهذه النوبة الواقعة، والنبوة الرائعة أن نوّاب مصر لم يجر منهم بالأسطول احتفال، ولم يرتب فيه على ما يراد رجال، وإنما حشدوا إليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة، ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة. فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا، ولما ألزموا بالطاعة ما استطاعوا.

وكان فى جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل كأنها جبيل، وفيها بحرية من ذوى التجربة والتجرى والتجربة ما لها جبن ولا ميل، فطال بأسلحة الدفاع، وطار بأجنحة الشراع، وفاز بالسبق وفات، وهيهات أن يدرك هيهات، فنجا النجباء، وآب بهم الإباء، فبقيت المراكب الباقية وقد أخلاها حماتها الواقية فرفعناها إلى البر ورأينا الصحة منها فى الكسر، وفرغنا من شغل المراكب فى البحر، هذا والمنجنيقات ترميهم، والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم، والقتال قائم، والنزال دائم، والصخور تفلق، والصدور تقلق، والأحجارة تقلقل، والأسوار تحلحل، والأطواد تضعضع، والأبراج القيام تسجد وترجع، والأصلاد تقدح، والأجلاد تقرح، والألواح تصدع، والأرواح تودع، والخدود بشفاه الشفار ملثومة، والحدود بضراب الأضراب

مثلومة، والجروح بين أكفاء الكفاح مقسومة، والقروح بها قوارح القوارع موسومة، والحنايا واترة موترة، والمنايا مأثورة مؤثرة، وظعائن الضغائن تحدى بصليل البواتر، وصهيل الضوامر وحقوق الحقود تقتضى بألسنة الأسنة وعنت الأعنة من الغريم الكافر، والأوداج شاخبة كالعيون البواكى، والأبشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكى.

وهناك العقل معزول بالتهور، والرأى مشغول عن التدبر، والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخى يبتدئ بسم الله ، والمنجنيقىّ يختم بلا إله إلا الله، والزراق بالنار يطيب القارورة، وبحرق الساتورة، والسباق إلى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة.

* * *

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة ظنوا فينا الفتور لأجل تلك الفترة، وقالوا: مراكبهم انحل تركيبها، وكتائبهم اختل ترتيبها، وستجرى بها عنا الندامة التى يحدثها تجريبها، وهم الآن على صوت لهم مخيف، وفوت بهم مطيف، فلا معنى لتقاعدنا عنهم، ولا وجه لتباعدنا منهم. فلو خرجنا صدمناهم ، وأقدمنا عليهم وهزمناهم.

وخرجوا يومًا قبل العصر فى عدّة كالليل خارجة عن الحصر، قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا وتقدموا، وأقدموا للطوارق جاملين، وللجمالات مطرقين، وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين، وبالرهق جادين، وبالجد مرهقين، وللعقود حالين، ومن الغمود سالين، وللمناصل منتضين، وللطوائل مقتضين، وللسيوف مجردين، وللسيول مجرين، وبالزغف ملتثمين، وفى الحتف مقتحمين، وبالقنطاريات طائرين، وبالزيارات زائرين، من كل مغوار وار، ومحضار ضار، وفجار جار، وجبار بار، وعدو عنود، وكند كنود، وداوى ذى دوى، وباروني غوى، ومن كل مصمم إذا وتر، مصمم إذا أوتر، مصمم إذا نعر، مصر إذا ذعر، هائج إذا استعر، مائج إذا ذخر، متنمر إذا زأر، متذمر إذا زحر، فتناوبوا وتواثبوا، وتجاولوا وتجاوبوا، ودنوا من متارس المنجنيقات، وجنوا من مغارس الجنويات، وبنوا أمرهم على أن الناس ناسون غارون، وأن أهل البأس فى خيمهم هاجمون قارون، فتلقاهم منا كل ضارب للهام، ضار بالحمام، جار إلى الأقدام، ملب للصوت، محب للموت، مشتهر بالغناء، مشته للقاء، مستهتر بالبلاء، ماض بالمواضى، متقاض بالقواضب القواضى وكل أبيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض، وأغلب المغلب قضقاض وإلى الحرب نهاض، وكل

معتقل رماحه، معتقد مرحه، معتقد مراحه، مهتز لطرب الشهادة، معتز بأرب السعادة، متمن للمنون، متجن على الحنون، مضرم نار الحديد فى ماء الوريد، مغرم فى تفريق العدى بجمع العديد، مفرغ ماء الظباء على نار النجيع، مبلغ تلبية الهدى إلى الصريخ السريع، وقد تلثم باللام، وتلفع باللثام، وتقنع بالزرد، وتدرع بالجلد، وتجوشن بالصبر، وتخشن بالزبر، وصال بالقضب، وجال بالهضب، وطال بالهندى على الفرنجى، وخاض من دم الشرك فى البحر اللجى، فلم يسمع إلا أنين الحنيه، لحنين المنية، ورنين الأوتار، من كنين الأوتار، وخفيف السهام، لذفيف اللهام، وصليل بنات الغمود، من غليل أبناء الحقود، وهمهمة الأبطال، وغمغمة الأقتال، وزئير الضرغام، وزفير الضرام، وقرع الظبا بالظبا، ووقع الشبا على الشبا، وضجة الحديد من الحديد، وعجة الشديد من الشديد، وجعجعة رحى الحرب، وقعقعة أداة الطعن والضرب، وجرجرة الفحول، وزمجرة الذحول، وهديل حمام الحمام، وهدير قروم الأقدام، ووعوعة ذئاب الوغى، ومعمعة التهاب اللظى، ودعدعة صاع المصاع، وجلجلة سباع القراع، وصلصلة الزبر، وولولة الزمر، وحيعلة دعاة النصر، وهيضلة رعاة الكفر، ورفرفة المريشات الراشقة، وهسهسة الطعنات الفاهقة، وهزهزة أعطاف المران، وزهزهة أصوات الشجعان، ونعير الغالبين، وصخب السالبين، ولجب الجالبين، وزحير الطالبين، ونهيت الأسود، وقصيف الرعود، وهدة الأركان، ودهدهة الرعان، وقهقهة الأقران، وقرقرة كوم الكماة، وصرصرة بزاة الغزاة، وكشيش صلال الضلال، ونشيش مراجل الرجال، وهزيز ريح الباس، وهزيم رعد المراس، وأرنان المعاجس، وأرزام القناعس، وهيعة الصارخ، وصيحة النافخ، وزعقة المستفزع، ونعقة المستنزع، وشعشعة الخرصان، وزهزمة النيران، وهينمة الأجل، وجمجمة الزجل، وتكبير المؤمنين، وتهليل المؤمِّنينْ، وصرير أبواب الجنان للشهداء، وصريف أنياب الجنَّان للأعداء، والدعاء إلى اللقاء، والنداء إلى الأرداء.

وارتفعت الأصوات، واشتبهت الأحياء والأموات، ووقع أصحابنا فيهم وقوع النار فى الحطب، وأروهم فى مرايا البيض وجوه العطب، وولوا مدبرين، بعدما تولوا مدبِّرين، وجنودنا تشلهم، وحدودنا تفلهم، ولتوتنا ترضهم، ولبوثنا تفضهم، وعادوا إلى البلد، عادمى الجلد، وفيهم ندوب وعليهم نوادب، وأيدى الردى بهم لواعب ومنهم لواغب، ودخل الليل، وعمهم الويل، وأسرنا منهم مقدمين، ثبتوا على الموت مقدمين، وممن أسر فخسر قومص عظيم، بل شيطان رجيم، فترك فى قيد الأسار، ليكشف عن حاله بالنهار.

وكان الملك الظاهر غازى لم يحضر فيما تقدم من المغازى، فرأى أن يحقق

اسمه بقتله، فضرب عنقه بحد نصله، وكان للمركيس شبيهًا، وفى الفرنج وجيهًا، فظنوا أنه هو للشبه، وبات أهل الكفر بالعمى والعمه. ثم عرف أن المركيس فى نفسه لم ينكأ ولم ينكب، ولما عطب أشياعه لم يعطب، وندم على ما قدم، ومن تقدم على غرة تندم.

* * *

ذكر ما دبروه من الرأى ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد، وارتدع الجلد، وارتتج العدو ولج، ضجر العسكر وضج، واجتمع أمرا، يحبون الإفلات، ولا يكرهون الفوات. وقالوا: مطاولة ما نقصر عنه تتعب ومزاولة ما لا يزول تصعب، ومحاولة الممتنع محال، ومطال غريم هذا الفتح مُطال. وما يتسع لنا فى هذه الحلبة الضيقة مجال، وهذا السلطان جلد على المصابره، مجد فى المكابره، لا يكترث بالكارث، ولا يدخل سمعه حديث الحادث، ولا يبالى بمن بلى، ولا يفكر فيمن ولى أو ولى، ولا راحة له إلا فى التعب، ولا يعلم له نصيب سلامة إلا من النصب، وكل ما جرى إلى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم يردعه. وقد قيل: إذا لم تستطع شيئا فدعه، فكيف السبيل إلى استعطافه، وما التدبير فى استسعافه، وبم نتوسل ونتوصل، وإذا عرفناه أن الداء يعضل والخطب يشكل لعله يحتوى الإقامة ويرحل، فاطلع على ما أسروه، ومر به ما أمروه، وهمه ما به هموا، وآلمه ما به ألموا، فراسلهم بالهبات، وواصلهم بالصلات، ورغبهم فيما عند الله من الزلفى، ووعدهم بكل ما على أملهم أوفى، وقال لهم: كيف نخلى هذا المكان وما استفرغنا فى شغله الإمكان وما استفدنا فى مضايقته الوسع، ولا أحسنا بعد فى محاصرته الصنع، ولا زحف إليه الجمع، ولا حفز منه المنع، ولا أصابنا من مكر أهله مكروه، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه، وكيف تجرى بنا الخيل عنه قبل التجريب، وهذا الإرب ما يخطر بخاطر الأريب، وما عذرنا إلى الله وإلى المسلمين إذا تركناه، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما أدركناه والفرصة إذا فاتت لا تدرك، والبغية إذا واتت فحقها تملك، ونواظر الناس إلى ما سيكون منا فى صور صور، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها إلا نور، ومن لا يتعب لا يسترح، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح، وإن تجدوا تجدوا، وإن تردوا عن المنهل العدى تردوا، وإن تصبروا تصيبوا. فارجعوا إلى الله وأنيبوا، وهذا الراجل متواصل، والغرض به حاصل، ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها، ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التى هو بها، وهذا البرج قد ارتفع، والوسع قد اتسع، وقد امتلأت بالرجال طبقاته، وتوالت منها فى الكفر رشقاته، والنصر قد آن أن تطيب نشقاته، والمركيس أبعده الله قد قرب أن تخونه ثقاته، ورأينا طول الأرواح لا التطاول إلى الرواح، وفى التثبت على المقام التوثب على المرام.

ثم أخرج المال وصبه من أكياسه، وفرّقه على ناسه، وأنفقه فى أهل باسه، وواصل البذل، وهجر العذل، وملأ الأيدى بالغنى، وروج للرجاء نجح المنى، وأمر فامتثل وقال فقبل، ونادى فسمع، وحشر فجمع، وعادت عادة الحصار، وأسعدت سعادة الأنصار.

* * *

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين أنها هانت، ودنا أمرها ودانت، وأن طريق فتحها بانت، وأنها عنت فإن ألطاف الله أعانت، أنها بذلت ما صانت، ولم تبق للكفر على ما كانت وإن شدتها لانت.

وكان السلطان قد وكّل بها بعض أمرائه، وأمده بمددى جنده وعطائه، فلبث إلى هذه الغاية، يصمها بسهام الشكاية، حتى طلب أهلها الأمان على الوفاء بما يشترطون، ويشطون منها ولا يشتطون، فأول ما قالوا: أمهلونا حتى نعلم ما يكون من صور، ونكشف هذه الأمور، فإن أخذتموها أخذتم هذه، وشفعنا أمر السلطان بنفاذه، وإن خليتموها فيا هوان هونين، ونحن نجعل على هذا عدة من الأصحاب مرهونين، فندب السلطان بدر الدين دلدرم الياروقى وهو من أكابر عظمائه، وأكارم أمرائه، وأمره باستنزالهم واستذلالهم، والأمان لنسائهم ورجالهم، فمضى ورغبهم فى الأمن والسلامة، وخوّفهم عقبى الحسرة والندامة، وقال لهم: أنتم بين حصنين هما تبنين وبانياس، وماذا تصنعون إذا خاب رجاؤكم وبان الياس، وإذا أبيتم التسليم عدمتم سلامتكم، وأقمتم قيامتكم، واستباحكم السلطان واستباكم، وكرهكم وأباكم، وحلّ بالقتل حباكم، وفل سباكم، فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا، وأخذوا الأمان على أن يذهبوا، ووصل الخبر إلى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم، ولمقاتلة أهلها مستديم، وإلى ما عند الله من نصره مستنيم.

وتسلمت هونين بما فيها من عدة وذخيرة، وقوة وميرة، وآلات وأدوات كثيرة، وتسلمها بيرم أخو صاحب بانياس، واستشعر الفرنج منها الياس، وكانت قد بقيت من الحصون التى تعذر فتحها، وبرح بالقلوب برحها من عمل صيداء قلعة أبى الحسن وشقيف أرنون، ومن عمل طبرية والغور صفد وكوكب وهما من أحكم الحصون، وقد وكل بهما أميرين، من خواصه كبيرين، وقد ضيقا على من بهما من العلوج، ومنعا من الدخول والخروج.

وأقام السلطان على صور محاصراً، وللدين الحنيف ناصراً، وليد الشرك بمطاولته قاصراً، يقاتلها بكل سلاح، ويقابلها بكل كفاح، حتى كادت تستكين، وشدّتها

تلين، وأبيتها تدين، وسريرها يبين. وكان قد دخل كانون وظهر من سر الشتاء المكنون، وقبض البرد الأيدى عن الانبساط، وأعدم الهمم دواعى النشاط، وعادت العزائم المتوهجة تبرد، والصرائم المتأججة تخدم، والنخوات المتحركة تجمد، والحميات المتيقظة ترقد. والضرام المحتدم يخبو، والحسام المخذم ينبو، والطباع تتكره، والسباع تتأوه، ومناوبة القتال تختل، ومعاقدة النزال تنحل، فلحاهم السلطان على ما لاح، وعرفهم أن فى الصبر الفلاح، وأمرهم بالمقام والاستقامة على الأمر وأنه لا ظفر إلا مع الصبر، وأن الظلم تتجلى عند تجلى الفجر.

وكان فى الأمراء جماعة منتخبون منتخون، أبت أماناتهم فى حمية الدين أن تخون، مقيمون على الكريهة ولا كراهة منهم للمقام، ويحبون أن تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون بأنفسهم فى طاعة الله وموافقة السلطان، وعصيان الشيطان فى مفارقة المكان. فإذا أرجف بالرحيل رجفوا، وسخفوا رأى المشير به وضعفوا، واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا، وقالوا: كيف نترك ما حويناه، ونعوج ما سويناه، وننشر كفراً طويناه ونهجر خيراً نويناه، وندوى توحيداً شفيناه، ونشفى إشراكًا أدويناه، وما للراحة اليوم طالب إلا وهو غداً بالتعب مطلوب، ومن أمسى وهو الآن غالب يوشك إذا ولى أن يصبح وهو مغلوب.

وهذه صورة صور قد تشوهت ومواد قوتها شفهت، وإذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفرهت، وإذا حلمنا عنها سفهت، وهبت من غشية خشيتها وتنبهت وتارك المصابرة مصاب، والآخذ بالمثابرة مثاب، فمنهم الأمير طمان بن غازى ما اطمأن يومًا فى الغزو ولا سكن. وعز الدين جرديك النورى كم جرّد على أعناق المشركين سيفه الذى به تمكن، وهما هممان مقدمان مقدامان، من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولا يريمان، وجماعة أُخر بهما يتشبهون، وبالكريهة لا يتكرهون، وأما الباقون فإنهم أحبوا البقاء وأبغضوا اللقاء، واتقوا الاتقاء، وأبوا إلا الإباء، وقالوا: قد لغبنا وما بلغنا، وجرحنا وما رجحنا، فلو رحنا استرحنا، ثم عجنا ورجعنا، وما نحن بأول واضع للأصر، راجع عن الحصر، معتف للعقل، مستعف من الثقل، عامل بمحض الحزم، عالم بوقت العزم.

هذا وقد علم ما عرا من ضروب الكروب، وثلم ما برى من غروب الحروب، وبقدر ما هدم من مبانى البلد هدم أكثر منه من مبانى الجلد، فقال السلطان: بل نجد فى القتال أيامًا، ونقدم بأسًا وإقدام، ونزحف بجميع رجالنا، ونصدقهم فى نزالنا، ونقاتلهم من جميع النواحى، فإن تعذر لاح العذر اللاجى. وأصبح العسكر وقد استعد، وامتد قبالة البلد من البحر إلى البحر والنصر استمد.

وركب الأمراء بأجنادهم ووقفوا، وأثمر لهم ورق الحديد الأخضر فقطفوا، وتناوبوا فى الزحف، وتعاقبوا على الحتف، وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت. وجاءت الطائفة الأخرى فصدقت وصدعت، وقارعت وقرعت، وصارعت وصرعت، فلم ير أشد من ذلك اليوم، فى وقم القوم، واجترأ أصحابنا، وراض جماحهم إصحابنا، وخاضت خيلنا فى البحر خلف منهزميهم، وأقدم من أحجم منا لإحجام مقدميهم، فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها، وأسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها، وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت: هل من مزيد. وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت: هل من شهيد.

وانقضى ذلك اليوم وقد كلّت الأسلحة، وملّت الأجنحة، وانهاضت قوادم الأنهاض، وانفضت الجموع من إقواء القوى والأنفاض، وبات الناس على ضجر وشجاج، ولجب ولجاج. فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم أياماً، لنلنا من فتحه مراماً، لكنهم أصبحوا على سأم، وألموا بإبداء ألم، وقالوا: قلّت كثرتنا، فلو أقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا، وفينا الجريح والطليح، وحتى متى لا نستريح، وقد توالت الأمطار فلا مطار، وعلينا هذا الحصار صار، وكانت الجراحات كثيرة والاجتياحات بها مثيرة، ومنع البرد من العمل، وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل.

وما زالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل، ويقولون: لا تتعب على تحصيل المستحيل، ولا تذهب الأيام فى إبرام السحيل، ودعنا نستجد دعة، ونسترد قوى عند لطف الله مودعة، ونشتغل بفتح الأيسر وهو أكثر، ونؤخر التشاغل بما لعله يتعسر. وكان السلطان فى تلك المدة أنفق أموالاً كثيرة على تلك الآلة والعدة، وما أمكن نقلها، ولا مكّن من نقلها ثقلها، ولو أبقاها لقوّى بها الكفر، واشتغل بسببها الفكر، فرأى نقضها، وفكّ بعضها، وأحرق منها ما تعذر حملها، وشتت بعد التجمع شملها. وحمل بعضها إلى صيداء وبعضها إلى عكا. وجرت أعاجيب ما تكاد تحكى، وسر ذلك الرحيل قوماً وساء قوماً فأضحك وأبكى.

وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور إلى المنزلة الأولى، ويد أيده على جميع الأحوال طولى، فشرع العسكر فى الانصراف، وتزود للانفكاء والانكفاف، وأخذ الجمع فى الافتراق، وانتشر فى الآفاق، وذهب من ذهب على مواعدة فى المعاودة، ومسارعة فى الرجوع إلى المساعدة. وودع الملك المظفر تقى الدين من هناك، وأوعد بوعد عوده الإشراك، وسار على طريق هونين إلى دمشق مغذاً، وفارق الغزو وكان له ذلك المغزى مغذى. وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر، وكل طير منهم اشتاق إلى وكر، وما عرفوا أن هذه الراحة الليلة تعقبهم تعباً كثيراً وأن هذا الهدوء الذى مالوا إليه يصير لحثيث حركتهم مثيراً.

وبقى السلطان يتلهف على ما تركه ويتأسف على الفتح الذى ما أدركه، والذين أشاروا بهذا الرأى يسهلون الصعب، ويهولون الخطب، ويقولون نمضى ونعود، وتساعدنا السعود، وتنجدنا الجنود، وتتجدد الجدود، ويورق العود، وتصدق الوعود، وإذا أقبل الربيع، أقبل الجميع، وطاب الزمان، ووفى الضمان، وأمكن الإسعاد وساعد الإمكان، وما زالوا بنا حتى رحلنا، وعلى الرأى الرائب منهم أحلنا، ولو أقمنا لنقمنا، وقمعنا العدو ووقمنا، لكن الله قدر وقدره محتوم، وسر غيبه المكتوب فى اللوح المحفوظ مكتوم، وأراد ولا مرد لمراده، وقضى ولا محيد لما قضاه فى عباده، أن تبقى صور فى تلك الحالة للكفر وكرًا، وللمكر مكرًا، وللشرك شركًا، ولنار جهنم دركًا.

وقدمنا عن صور الارتحال، آخر شوال، غرة كانون الثانى وعم البرد فى القاصى والدانى، وتوحمت السماء من حوامل السحائب، وتوحلت الأرض من سوائل المذانب، والنكب الرياح عواصف عواسف، قواصم قواصف، والسحب الدلاح هوامل هوامر رواعد رواعف، والبرد قارص قارس، والماء جامد جامس، والشتاء شتات بتات، وما مع مقامه وثباته مقام وثبات، وسرنا عباديد فى لبابيد، وبين جليد وجلاميد، على الناقورة وطريقها، والأثقال قد ازدحمت فى مضيقها، والأحمال تتواقع، والأجمال تتقاطع، والسبل تنسد، والسابلة ترتد، وسلكت الخيل الجبل، وقطع العسكر طريقه إلى المخيم ووصل، وتأخر الثقل إلى أن تخلص، وتقدم من سبق وتملص، ووصلنا إلى عكاء فى ثلث مراحل، وقد غطى بحر عسكرنا الساحل، وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل، سامى المحل، نامى الفضل، دائم الفكر فى تدبير الأمر وتدمير الكفر، واثقًا من الله بإنجاز عدة النصر.

* * *

ذكر الحادثة التى تمت على محمود أخى جاولى حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعى محمود أخو جاولى، وكان من جملة الأمراء أعف ولى ولى، وعاش مجاهدًا زاهدًا وعيشه زهيد، وقضى صابرًا مصابرًا وهو سعيد شهيد، وسبب ذلك أن السلطان لعلمه بديانته وأمانته، وبأسه وبسالته، ويقظته ونهضته وحزامته، وكله بحصن كوكب الذى على الغور، وكانت فيها جمرة الاستبارية القريبة الجور البعيدة الغور، وقد تمنعوا بشدتهم، واشتدوا بمنعتهم، وهو حصن لا يرام، وركن لا يضام، ومعقل لا يسامى ولا يسام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب.

ولما ملك الساحل، وهلك الباطل، ونظمت الحصون فى سلك الحصول، وظفر

الإسلام بالفتح المأمول، وافتتحت طبرية وأعمالها، وتملكت أغوار تلك البلاد وجبالها، تمنعت قلعتا صفد بالداويه، وكوكب بالاسبتارية، وتعذر فتحهما، وتعسر منحهما، ووقف أمرهما، وأعدى البلاد ضرهما، فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية، من أهل الأبية والنخوة والحمية، ومقدمهم مسعود الصلتى أصلتت سعادته منه سيفًا إصليتًا، لا يلفت عن لقاء العدو ليتًا، ورتب على كوكب هذا محموداً، وكان بهما أمر الحفظ محموداً، وذلك بعد الكسرة، وصحة النصرة، فأحاطا بالحصنين واحتاطا، وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى، وكان الحفظ مستمراً، والاحتياط مستقراً، حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن، وظن أنهم فى غاية الوهن، وسكن إلى سكونهم، وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم، واسترسل فيما حزب، واستسهل ما صعب، وأخلّ بالحزم، وخلا من العزم، واحتقر عدوه، وحسب من العجز هدوه، وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفربلا قد أقام به جاماً جامعًا فيه ما أمر وحلا، وكان ذا دين متين، ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، وأصحابه من حوله يحفظونه بقوّة الله وحوله.

فلما كان آخر الليل من شوال، وهى ليلة ذات أهوال، مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة، ليلاء قتماء، باردة مقشعرة، أنوارها بائدة، وأنواؤها جائدة، وهزيع جنحها دجوجى، وهزيم ودقها لحى، وسحبها سحم، وأقطارها دهم، وصبيرها صيب، وصنبرها مشيب، لا يفرق فيها السماء من الأرض، ظلمات بعضها فوق بعض، خرج أهل كوكب وقت السحر ومضوا إليه وقد رقد بعد طول السهر، والناس رقود، والحراس هجود، والجنود جمود، والأنفاس خمود، والهمم ركود، والسيوف أسرار، أضمرتها الغمود، والعدم قد دنا منه الوجود، فما أحس محمود المحمود، وأصحابه الهمود، إلا بالفرنج وقد سلكوا إليهم وبركوا عليهم، فقصروا عن الامتناع ولم يقدروا على الدفاع، فجاءتهم السعادة وفجأتهم الشهادة، وبقى الأمير حتى استشهد محصوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع، فلما عرف السلطان ما أصابهم احتسب عند الله مصابهم وأحمد إلى الجنة مآبهم، فندب إلى كوكب صارم الدين قايماز النجمى الصارم المخدم، والحازم المقدم، والعضب البتار، والندب المغوار، والأسد الأسد، والأحمى الأحمد، فى خمسمائة فارس من ذوى النجدة، والبأس والشدة، فسد الطريق بمضايقتها عنها، ومنع من الدخول إليها والخروج منها، ولم يزل عليها مقيمًا، ولحصرها مستديمًا، إلى أن يسّر الله فتحها وسهّل للآمال فيها نجحها، وسنذكر ذلك فى موضعه وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه.

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكاء بعد عوده من صور

استأذن الملك الظاهر والده فى العود إلى حلب فأذن له وودعه. بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعدادات فامتثله واتبعه، وودع الملك العادل وأوجه إلى مصر مستقبل الظفر والنصر، وأقام الملك الأفضل بعكاء مستقلاً بالآراء، مستهلاً بالآلاء مستبداً بتدبير أسباب الهدى، مستعداً لتدمير أحزاب العدى.

وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين، ولإقامة شرائطها مداومين، وكل يطلب إذناً فى الانصراف، ويستقيم على نهج الانحراف، حتى خف من عندنا من الجند، وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج، وتراوحت الثلوج، ورجت الدروج، ونجت النؤُوج، وارتجز عجاج الودق، وارتجس نجاح البرق، وجفت الحرجف، وطفح الأوطف، وتقطعت الخيام وتقلعت الأوتاد، وتجللت بأبراد الجليد من البرد الأكام والوهاد، ومال بل وقع عمود السرادق، ودام تواصل البوارح والبوارق.

ودخل السلطان إلى المدينة وسكن بها فى كنف السكينة، مستقيماً على المحجة المستبينة، مقيماً للحجة المتينة. وشرع فى إعداد العدد، واستمداد المدد، وإبرام معاقد الحل والعقد، وإحكام قواعد الدين والمجد، وإحياء سنة السماح والفضل، وإعلاء سناء الإحسان والعدل، وإفادة الكرام وإكرام الوفود، وإعادة ما بدأ به من إفاضة الجود، وإجازة الراجين، وإجارة اللاجين، وإسعاف العافين، وإبعاد العادين، وإدناء أهل العلم، وإغناء ذوى العدم، وإنجاح المقاصد، وإنجاز المواعد.

* * *

ذكر رسل وردوا فى هذا التاريخ

وكانت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق، عاكفين على بابه، قاطفين جنى جنابه، واقفين لرفع حجابه، مستسعفين لنعمائه، مستعطفين لإبائه، متعرضين لثوابه، متضرعين فى خطابه، وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته، وخصه بنجح وسيلته، وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك، وهداه إلى سبيله وقد تعذر بهم إليه السلوك. وهو فتح القدس الذى درج على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب الصداقة ويخاطب فى الصدق، ويحقق المظاهرة لإظهار الحق، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق. ومن جملتهم رسول صاحب الرى قتلغ أينانج بن بهلوان، ورسول قزل أرسلان المستولى على ممالك همذان وأذربيجان وأران، وهو عز الدين الطالب الطالب للعز، الراغب فى

الفوز. فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول ويتصل به سول، وتنجلي غمة، وتتجلى نعمة، وتتجه بشرى وتستبشر وجوه، ويكف مكر ويكفى مكروه.

ونظر في أحوال عكاء فرتبها، وفي أمورها فهذبها، وفي مضارها فأذهبها، وفي منافعها فقربها. وولى عز الدين جرديك بها واليًا، وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الأفضل حاليًا، ووقف بها وقوفًا، وأجنى المستحقين منها قطوفًا، وأسدى معروفًا، وأعطى ألوفًا، وأرغم من الأعداء أنوفًا، وكانت فتوحه لهم حتوفًا، ووقف نصف دار الاسبتار رباطًا للمتصوفة، وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة، ونصفها مدرسة للمتفقهة، وللطلبة المتعففة المتنزهة، فجمع بين العلم والعمل، والنجح والأمل، وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل، واتخذ لطلب مرضاة الله دار الأسقف بيمارستان المرضى، وأتى بكل ما يحبه الله وبه يرضى، فلم يبق سنّة إلا خلدها، ولا منّة إلا قلدها، ولا أجراً إلا أجراه، ولا هدى إلا أهداه، ولا أمراً إلا أمره، ولا داراً إلا أدره، ولا فريضة إلا أداها، ولا فضيلة إلا أتاها، ولا فرصة صواب إلا انتهزها، ولا حصة ثواب إلا أحرزها، ولا رم فواضل إلا أنشرها ونشرها، ولا أم فضائل إلا حشدها وحشرها، وما ترك قارئًا إلا قراه، ولا راويًا إلا أشبعه وأرواه، ولا حافظ حديث إلا حفظه من الحدثان، ولا محسن صنعة إلا اصطنعه بالإحسان، ولا ناظم مدائح، إلا نظم له المنائح، ولا موافيًا بقريض إلا وفى قروضه، وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه، وتقدم إلى الوالي بالتردد في الأعمال، وتفقد الأحوال، وسدّ الخلة وتسديد الاختلال، وتعليل السقيم وتسقيم المعتل، وتحليل العقد وتعقيد المنحل. فاستقرت بولايته الولاية، واستمرت لرعيته الرعاية، ودرت أفاويق الآفاق، ودارت أسواق الأرزاق.

* * *

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت وأرثت، وسعايات في السلطان عثت، في الأحوال وشعثت وذلك في شوال، ونحن على حصار صور ونزاع ونزال ذكر السبب في ذلك

لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت: هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، وملك عقيم، وسمو وسيم، فلا يجب أن يكون مبشر دار الخلافة، بما أنزله الله لنا الرحمة

والرأفة إلا من هو عندنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل، فلا توجه بهذه الكرامة إلا الكريم الوجيه، ولا تنبه لهذه المقامة إلا القويم النبيه، ولا ترفع العظيم إلا بالعظيم الرفيع. فإن الشريف يتضح شرفه بمقارنة الوضيع، فقال: هذه نصرة مبتكرة بكرت، وموهبة ميسرة بدرت وندرت، فنحن نعجل بها بشيراً ونؤخر للإجال كما ذكرت سفيراً.

وكان فى الخدمة شاب بغدادى من الأجناد، قد هاجر للاسترفاد، وتوجه بعد وصوله، ونبه بعد خموله، فسأل فى البشارة إلى بغداد، وزعم أنه يداوم إليها الإغذاذ. وشفع له جماعة من الأكابر حتى خص بأشرف البشائر، فقلت: هذا لا يحصل له وقع ولا يصل إليه نفع، والواجب أن يسير فى هذا الخطير خطير، وفى هذه النصرة الكبرى كبير فإن الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم ويرتب فى الأمر العظيم للتعظيم.

ثم سار المندوب، وشغلت عن إرسال سواه الفتوح والحروب. ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب، ونفذ بها كتاب. ووصل البشير الجندى فلم تجل به على كفوء الجلالة من الهدى الهدى، وحقروه وما وقروه، فإنه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين. ونقم على السلطن إرسال مثله، وأنه لم يعصب المنصب فى تلك الرسالة بأهله. وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه، وقال فى سكره وحالة نكره ما يعرض عن ذكره، فخيل وموّه، وتنكَّر وتكرَّه، وظن أن لكلامه أصلاً ولقطعه منا وصلاً. وأُنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهالاته، وتجنى على السلطان بإرساله، وطرق إلى هداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله.

ووجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقًا، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقًا، واختلقوا أضاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا: هذا يزعم أنه يقلب الدولة ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر نعت الإمام الناصر ويدل بما له من القوة والعساكر. فأشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الأمر المطاع بإرسال أخى وإنفاذه، وقالوا: هذا تاج الدين أخو العماد يكفل لنا فى كشف سر الأمر بالمراد، فإن أخاه هناك مطلع على الأسرار وهو منتظم فى سلك الأولياء الأبرار. وعول عليه الديوان العزيز فى السفارة ورد معه جواب البشارة، وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الإمامية لينة. ونشر الأعتاب فى طى العتاب، وروح الإرضاء فى شخص الإغضاب، وبرد الموهبة فى برد المهابة، يرد ظن الخطإ إلى يقين الإصابة، وشرف من الديوان الأخ، فسار وهو يبذخ، وقد أصحب خيلاً وأسحب من التشريف والإنعام ذيلاً، وألحف من نور الأهبة العباسية نهاراً وليلاً.

فوصل السير بالسرى، وقطع الوهاد والذرا، وجاء إلى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة، وإشارة رادعة، وشعار مهيب، وشرع مصيب، وهيبة روعة إماميه، وهيأة عصمة عصاميه، وفرند نبوى لا ينبو، وزند ورى لا يكبو، ولسان فى الصرامة جرى، وجنان بالشهامة حرى، وبلاغة بإبلاغ، ما ليس بلاغ، وفئة وافية، وصيغة بصياغة كل غريبة قول، ورغيبة طول، كافلة كافية، وسنى نور وقار يستعير منه سنير، وثبات خلق يتخلق به ثبير، وكان قد عاد المندوب نادبا عاديًا جاحدًا للنعمة شاكيًا، ذاكرًا أنه عدم الحفاظ ووجد الإحفاظ، وأكثر الكلام فما حرك شمام.

وقال أخو العماد: قد وصل بكل عتب ممض، وخطب مقض، وغضب مغض، ولفظ فظ، وحض على غير حظ، ومعه الملامات المؤلمات، والظلامات المظلمات. فقلت له: اسكت واصمت، وبما لك من وسم الوصم مت، ولا تدخل هذا الباب واخرج، وليس هذا بعشك فادرج. وقلت للسلطان: سمعًا وطاعة لأمر الديوان فإن إظهار سر العتب لك من غاية الإحسان. فقال: نعم ما قلت وقد طلت بإرسال أخيك وطلت، وما أسعدنى إذا شرفت بالعتاب، وأسعفت بالخطاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أننا لم نأت إلا بكل ما قوى الهدى، وأضعف العدى، وكف الكفر وأدنى الدين، وما زلنا فى طاعة أمير المؤمنين مجدين.

أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعى وفرخت، أما استأنفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما استخلصت اليمن وللدعى بها داع، وللهدى فيها ناع وللضلال منها راع، أما أرحت من رق الشرك الساحل، أما أزحت عن حق الملك الباطل، أما فتحت البيت المقدس وألحقته بالبيت الحرام، وألحفته رداء الإكرام، وأعدت إلى الوطن منه غريب الإسلام، أما رعت الغرب برب عزمى ووزعت الشرق بشرع حكمى، وما تعبدت إلا بالعبودية للدار العزيزة، وهذه الفطرة متمكنة منى فى الغريزة، فأهلاً وسهلاً بالرسول وبالسول، وحبًا ومرحبًا بالإقبال والقبول، وما أتى إلا بالحب والحبور، ولإمرار الأمور ولإظهار سر السرور، والبارق يشام إذا رعد، والصادق يرام إذا وعد، وما أسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسره، وأبرنا بالجد وأجدّنا بالمبرة. وسمعت منه كل ما هدى سمعى، وأبدى لمعى، وجمع شملى، وشمل بالعز جمعى.

ولما قرب أخى أصبحت لقدومه أنتخى. فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله. ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصار الكفار، ومواطىء أقدام ذوى الإقدام، ومواطن بسالة أهل الإسلام. ثم نزل وأنزله بالقرب، وعقد له بالحياء حبى الحب، وسفر

وجهه لوجاهة السفير، وأحل محل التوقير والتوفير، وتبلج له صبح التبجيل، وتأمل منه نجح التأميل. ثم حضر عنده وقد أخلى مجلسه لى وله وحده، فأدى الأمانة فى مشافهته، ووجه مقاصده فى مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها، وألزمته حكمى عمومها وخصوصها ووقفته على ظواهرها ونصوصها. وكانت فى الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطة، وجلبت سخطة، وقال: إن الإمام أجلّ أن يأمر بهذه الألفاظ الفظاظ والأسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعانى فى أرق منها لفظًا وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، ومعاذ الله أن يحيط عملى، ويهبط أملى. وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف، وقال: أما ما تمحله الأعداء وعداً به المتمحلون، وتنفق به المتقولون، وتسوق المبطلون، فما عرف منى إلا الاعتراف بالعارفة، وما هزرت منذ اعتززت أعطاف العز إلا لما يعزنى من العاطفة. وإن شرفى بالنعمة السالفة، يوجب أنفى من هذه الآنفة. وأما النعت الذى أنكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضىء رضوان الله عليه وجرى لتحققه منى على الألسنة، ومتى عدى سيئة ما عد من الحسنة. والآن كل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فإنه أسمى الذى هو أسمى وأشرف، وأطرأ وأطرف، وأرفع وأعرف، وما زاده ذلك العتب إلا خلوص ولاء، وخصوص اعتزاز واعتزاء. ثم قال: كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر أعداء أمير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه ما تعبدت به سواه، فإنى أفترض الطاعة الإمامية للدين لا للدنيا، وما أتقوى فيها إلا بالتقوى، وما فى عزمى إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين، وإذا عادت عواطفه عطفت على فى الحسن العوائد، وقطفت الفوائد، وصفت الموارد، ووفت المقاصد، وبعد الأباعد، وبعد الحاسد الحاشد، وهجر هجر الساعى، وأجرى أجر الداعى، وعلم جهل الواشى، وعذر ذعر الخاشى، وجرب غش الغاشى، وخرب عش العاشى، وذوت هموم ذوى الهمم، وأوليت كرامة أولى الكرم.

وما زال السلطان مدة مقام أخى عنده، يورى فى إعظامه زنده، ويأمر بإكرامه جنده. فكنت أشفق من تكدر ذات البين، بعود الأنس والوصلة إلى الوحشة والبين. وأن جماعة من الأكابر اجتمعوا بالسلطان، وقالوا له: قد نسب حقك إلى البطلان، ورميت بالبهتان، ولحت طاعتك بعين العصيان، فكيف خفت وما عفت، وألفت وما أنفت، ورغت وما غرت، وصبرت وما سبرت، وأغضبت لما أغضبت، وأعتبت لما عوتبت، وراقبت وما روقبت. فقال: تذللنى للديوان العزيز تعزز به أدين، وتوسلى إلى مرضاته توصل بالله فيه أستعين، فتواضعى ترفع، وتخشعى تورع، وحبل حبى

متين، ومكان قربى مكين، ومما قلت له وأوضحت له سبله، أنا كنا بطاعة أمير المؤمنين نطول ونصول، ونزاول بها الملوك وعنها لا نزول، وهذه فضيلتنا التى رجحت، ووسيلتنا التى نجحت، وكنا بها معودين، وعليها محسودين، وقد شملت بها بركاتها، وكملت حسناتها، وصفت مشارع يمنها، وضفت مدارع حسنها، فلا تلتفت إلى من يلفتك، ولا تتثبت لمن لا يثبتك، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف، وانهض لمن ينهضك للائتلاف. فقال: هذا دينى وديدنى، وبه أعنى وأعتنى، ولنوره ولنوره أجتلى وأجتبى.

ثم ندب مع أخى من سار فى خدمته لزيارة القدس، وأمر بأن يقف به على مواقف الظهر التى طهرت من أهل الرجز والرجس. ثم ودعه وأودعه من شفاهة كل ما فى النفس، وبالغ فى إبداء التضرع والتذرع وإظهار التخشى والتخشع. وأنشأت عنه إلى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ما حلا وجلا جدة وجده، وكل ما يبطل سوق المتنفقين، ويعطل نفاق المتسوقين، ويهجن خلق المختلقين، ويزيل تلفيق الساعين، ويزيح سعاية الملفقين، ويتعرف إلى العوارف الغزر بالشكر، ويستعطف العواطف الغر بالعذر، ويجتهد فى استفراغ المجهود للاستغفار وينفض عن وجه البشر ما عليه من الغبار. وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا، ومضى ما مضى، وقضى القدر من إعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى.

وفى هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف فى عرفة لإبداعه رسماً ما عرفه، فذهب غلطًا، وعطف فرطًا، وذلك أن أمير الحاج طاشتكين، أنكر عليه ضرب الطبل فامتنع، فندب إليه من به وبأصحابه وقع، فتمت من هذه الفتنة فترة، ونمت نفرة. ولما نمى الخبر إلى السلطان، لم يبد منه سوى الإذعان، وقال: لا شك أن طاشتكين طاش، وقصد بعد الإيناس الإيحاش، وعدّ الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين.

*　*　*

نسخة كتاب جامع للفتح القدسى الأيمن أنشأتها إلى سيف الإسلام أخى السلطان باليمن

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى ضاعف الله علاءه، وظاهر آلاءه، وضافر نعماءه، وأظفر بالنجح رجاءه وأضعف حساده وأعزّ أولياءه، وأذل أعداءه، ولا زالت أيامه بالأيامن مسفرة، ولياليه بالمحاسن مقمرة، ومكارمه بالمحامد مثمرة، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة؛ دالة على ا لبشرى بالفتح الأكبر، والنجح الأزهر، والنصر الأشهر، والعصر الأبهر، والفضل الأكثر، والإفضال

الأوفر، واليوم الأنور، واليمن الأنضر، والفجر الأسفر، والفخر الأظهر، والجد الأشم الأشمخ، والمجد الأبلج الأبلخ، والعز الأسمق الأسمى، والنور الأتم الأنمى، والظفر الأجل الأجلى، والوطر الأحل الأحلى، والشرف الأسنم الأسنى، والعزم الأغنم الأغنى؛ والسعد الأجد الأجدى، والصيب الأبدى الأبدى، وهو الفتح الذى تفوح بمحابه مهاب الفتوح، وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح، وتروح وتغدو غوادى النعم وروائحها إلى روض الهدى المروح، وتلوح تباشير بشراه فى لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح، وتنوح ناعية الكفر فى كل ناحية ولكل نادية للأسى على قتيلها وأسيرها ندوب فى القلب المقروح، وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفًا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال فى أسره سجنه واستحكم وهنه وقوى نكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه، وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الإسلام السبية وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد، الذى تعالى عن الولد، أن المسيح ابنه، وأربع فيه التثليث فعزّ صليبه وصلبه، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهى متنه؛ ودرج الملوك الأقدمون على تمنى استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان فى بغيب الإلهى أن معاده فى الآخرة إلىّ معاده، وإن نفا دليل الشرك بإسفار صبح أمرنا وإشراق مطالع نفاذه؛ وذخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر؛ وأنزل على نصلنا نص النصر ولطلع الليل عزمنا فجر الفخر.

وفِّقنا لوصل أسباب الإسلام وقطع دابر الكفر؛ وذلك أنّا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث وأصرخنا الإسلام بالجد المنجد والعزم المغيث، وخرجنا من دمشق فى المحرم فى العزم المصمم، والرعب المجهر إلى الكفر والبأس المقدم. وكنا أشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج، فشغلناهم عن القصد بقصدهم! وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك، وقدمنا الطلائع إلى المناهل، ونظمنا سلك أمدادهم فى ذلك المسلك، حتى وصل الحاج سالمًا وذلّ الكفر عن قصده راغمًا.

ولما فرغ القلب من شغله، وفاز كل بجمع شمله بأهله، سرنا إلى الكرك فى الأمراء والمفردين الخواص، وشفعنا للجهاد فى سبيل الله الفاتحة بالإخلاص، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات، وترقبنا توافيهم للميقات. وأمرنا ولدنا الملك الأفضل أن يقيم برأس الماء ويكون فى خدمنه جميع الأمراء، وسرنا إلى الكرك والشوبك فأخربنا عماراتها، وأحرقنا غلاتها، وقطعنا ثمراتها، وأزعجنا ساكنيها، وأخفنا آمنيها، وأجلينا عنها فلاحيها، وأقمنا النوائح عليها فى نواحيها؛

ووصل إلينا ونحن بالقريتين لعسكر المستدعى من الديار المصرية، فقويت به قلوب الأمة المحمدية، واجتمع بالمخيم الأفضلى برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية، والجزرية والموصلية والديار بكرية، فانتهز ولدنا هناك فرصة الإمكان، وأنهض إلى الكفر سرية سرية من أهل الإيمان، فساروا سارين، وأغاروا غارين؛ وأخذوا ونهبوا، وسبوا وسلبوا فلم يشعروا إلا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق، وأخذت دون خروجهم إلى السعة المضيق، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح العواصف، وشرعوا إلى عرانين الكفر أسنة الرماح القواصف.

وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه مملوكنا قايماز النجمى صارم الدين، فلقيا بصدريهما صدور العوامل، وحملا فى عسكرنا على الفارس والراجل، وحصل الفرنج منهم فى دائرة الردى؛ وخذل الضلال ونصر الهدى، وكثر من الفرنج القتلى والأسرى، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى، واتصلت بنا ونحن فى بلاد الكرك البشرى، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا: هذه مقدمة الأخرى.

ولما قضينا الوطر من تلك البلاد، ووفينا بإحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد، فاجتمعنا بأصحابنا القادمين مصر، وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر. عدنا إلى الشام وقد تكاملت به جموع الإسلام وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام، وطفا على أتباع لجه حباب الخيام وقد فضّ العضاء ختام القتام، وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام. فخيّمنا بعشترا شهراً، وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهراً، وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهراً.

وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا، ونادوا فى بلادهم فأسمعوا، واجتمعوا على صفورية من صفر، وحشروا فى تلك الأشهر من جمعهم فى المحشر جموع سقر، وأخرجوا صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت. فتهافت إلى شعلة ناره فراشهم، وتوافى إلى ظله ضلاله خشاشهم. وقاموا وقيامة رعبهم قائمة، وسوابح جردهم فى بحر العجاج عائمة، وطلائعهم سارية وسراياهم طالعة، ومقدمات رعبهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضّة خالعة. فلما تكامل منا الجمع، وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع، عرضنا عساكرنا فى يوم يذكر بيوم العرض، ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة ولله جنود السموات والأرض، فى رايات خافقة كقلوب الأعداء، عالية كهمم الأولياء. وسرنا فى جموع ضاق بها واسع الفضاء، وسار فى كتائبها نازل القضاء، وسحب ذيل الأرض بمثار نقعها على السماء، وقطعنا الأُرْدُنَّ وتأييد الله مواصل، وقدره بإقدارنا على الأعداء كافل، فما ألمنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف،

ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف، وتسلمنا المدينة، ونازلنا قلعتها البكر الحصينة، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس، وأسد الوغى قد اتخذت من وشيجها العريس.

هذا والملك العادل عنا غائب، ومعه أيضاً بمصر كتائب، وتوفيق الله له مصاحب. وكنا عزمنا قبل قصد طبرية أن نلاقى الفرنج على صفورية فى مركزهم ومجتمعهم ونلابسهم فى مخيمهم، فحين نزلنا من الثغر بالأقحوانة وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة، ركبنا قبل قصد طبرية إلى الفرنج فى مجمعهم، وأشرفنا عليهم فى موضعهم، فما برحوا من مكانهم ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم.

وارتدنا فى صحراء لوبية موضعاً للمصاف واسعاً، وفضاء لمأزق الجمعين جامعاً، وبتنا هناك بأطلاب الأبطال ميمنة وميسرة، ووجدنا بتأييد الله أسباب الظهور ميسرة، وجئنا فى خواصنا والجاندارية ونزلنا فى العدة المجردة على طبرية. وأخذ النقابون ساعة النزول فى النقب فصرع قائم سورها للجنب، ودخل الناس إليها ليلاً للنهب وكانت ليلة مدلهمة معتمة وأرجاء المدينة مظلمة، فأشعلوا وأوقدوا، ودخلوا الدور وتفقدوا ما لم يفقدوا وكان بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار فاحترقت تلك المساكن والديار، وتحصن أهلها بقلعتها، وتمنعوا بمنعتها، فأصبحنا على حصرها وسلكنا جدد الجد فى أمرها.

فجاءت رسل الأمراء أن الفرنج قد تحركت وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت، وأدركهم الندم كيف تركت وما أدركت، وأنها قد عبت جنودها، وشبت وقوها، ولبت نداء جموعها، وصبت عليها ماء دروعها، وغاضت فى غدران سوابغها السابرية وفاضت ببحار سوابحها الأعوجية، وأن جمرهم قد استعر، وأن بحرهم قد زخر، وأنهم قد أتوا فى عددهم وعديدهم وحدهم وحديدهم وخيلهم ورجلهم وطلهم ووبلهم وفارسهم وراجلهم، وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم. وإنهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية وسبقنا بفضيلة فتحها البرية، غاروا على العقيلة السبية وأشعلت نخواتهم نار الحمية، وساقوا إلى معترك الردى وملتقى المنية.

ولما عرفنا قربهم قصدنا حربهم وزحفنا إليهم وأشرفنا عليهم، واللجب السارى كالجبل الراسى، وقد أفاض الحديد من قلبه على الحجر القاسى ولمعت بوارق بيارقه، وراعت طوارق طوارقه، وبرقت قوانس قوامصه، وارتعدت فرائص فرافصه، وأمكنت قرائس فوارسه، وباح الحديد على عوابسه بوساوسه، وماجت بحار سلاهبه، واشتعلت نيران قواضبه، وشدت الأجادل دون صوار صوارمه، وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه، وقرنت الألفات بلاماته، وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته.

فاغتنمنا الفرصة فى اللقاء وهجنا إلى الهيجاء، وأسرعت الأعنة، وأشرعت الأسنة، ونقع النقع أوام الجو، وأجاب الصدى دوى الدو، وجال الجاليش، وطار السهم المريش، وعصفت رياح السوابق، واستعبرت عيون البوارق، ولقيناهم فى عرمرم عارم، ومجر جارم، وعوامل جوازم، وصواهل صلادم، وضراغم ضوار، وجوارحٍ جوار، وأسود قد اعتقلت أساود، وجياد قد حملت أجاود، وسوابح قد أقلت بحوراً، وصقور قد ركبت صقوراً، وواقفناهم، نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك، وبازلهم لا يبرك، وصفهم لا ينفض، وجدارهم لا ينقض وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران محصوص، حتى دخل الليل، وقر فى الوادى ذلك السيل، وبات الفريقان على تعبيتهما وإجابة داعى الموت بتلبيتهما.

وأصبحنا يوم السبت وأهل الأحد على حالهم، لم يريموا موضع قتالهم، وما زالت الحملات تتناوب، والأسلات تتواثب وتتثاوب، والسواعد بقرع الظبى سواع، والرواعف فى زرع الطلى رواع، والمنايا تئن، والحنايا تحن، والبيض تصافح البيض صفاحها، والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها والذوابل فى أشاجع الشجعان ذواب، والصوارم لجوامح النيران شواب، وضمائر الغمود قد باحت بأسرارها، ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها.

ولما أحسوا بأسنا، وإمرار أمراسنا، والهجير يتلظى وقد وُقدَ عليهم بناره، والأوام يتوقد ولا يتوقى إحراقهم بأواره، مالوا إلى طلب الماء وأخذوا طريق البحيرة للارتواء فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم وحلأناهم عن الورد وألجأناهم إلى الردى بالرد، فاعتصموا بتل حطين وصرنا بهم محيطين، وتحكمت فيهم قواضى القواضب، ونشبت من النشاب بهم نيوب النوائب. وكان جمعهم جمراً وقد وُقدَ، فصب عليهم السيف نهراً فخمد، وفضوا بالفضاء وفرشوا بالعراء، وعب دأماء الدماء، وغصت الفجاج بالقتلى والأسراء، وأسر الملك وأخوه والإبرنس الكركى ومواررُوه، ووجوه الكفر ومقدموه، ومقدم الداوية وأعوانه، وصاحب جبيل وأعيانه، وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية، ولم يفلت إلا ابن بارزان والقومص، وتم لهما من الورطة المخلص، وكان كلاهما ملهماً عند اللقاء بالقتال وعند الفرار بالاحتيال.

فأما القومص فإنه لما مر بطرابلس أدركه الموت فى برجه المشيد، ونقله القدر المبيد إلى عذابه المؤبد، وذلّ ذلك اليوم أهل الجبروت، وحيز صليب الصلبوت، وبار وباد أولياء الطاغوت، وهلك عبدة الناسوت واللاهوت، وملك عليهم القدر كتاب الأجل الموقوت، وقدمنا الإبرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر، وعجلنا به إلى النار مأوى أهل الغدر، وألحقنا به الداوية والاسبتارية وأدرنا عليهم صبراً كؤوس المنية وروينا ظماء الظبى من نجيعهم، وقرينا سيد الفلا من صريعهم.

وعدنا إلى طبرية فتسلمنا قلعتها، وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها، وافترعنا عذرتها. ثم سرنا إلى عكاء ففتحناها بالأمان وأعلنا بها شعار الإيمان. واستقرينا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس إلى الداروم غير صور فإنها امتنعت بسورها، ولم يبق فى كأس الكفر غير سورها، وإنها وجدت فسحة فى أيام اشتغالنا بفتح أخواتها، وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها.

وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول إلى القدس وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب، فرجف بها قلب الكفر ووجب وظن أهلها أنهم يعتصمون وأنهم من بأسنا يسلمون، فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها وآذن ركوعها بسجود الأبراج فى إجبار، ووفت الصخور بأصراخ الصخرة وعثرت تلك القلل لإقالة ما دام بها من العترة وكشف النقب ونقب الأسوار، ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار، وعلم الكفار لمن عقبى الدار، وأيقنوا بالقتل والآسار، فخرج مقدموهم متذللين بالإذعان، مبتهلين فى طلب الأمان، فأبينا كل الأباء إلا سفك الدماء من الرجال وسبى الذرارى والنساء، فخوفوا بقتل الأسراء، وإخراب العمران وهدم البناء، فأمنّاهم على قطيعة موازية لأثمانهم لو أسروا أو سبوا، فأمنوا من أن يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا. ومن وفّى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق، ومن عجز عن أدائه دخل تحت الرق.

وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت قبة الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدى الأولياء آثار القدم النبوية بتجديد عهودها وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه، ورئى نور الإسراء ومطلع إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفاً لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح. وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لأجلها من تبار التباريح، فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس، مفدى منا كلاهما من المهج والأنفس بالأنفس، وإنه من المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال الرجال، ويضيف عن وصف شرفها فى حلبة البيان المجال، وهو للحرمين ثالث ولا تثليث فى حرم توحيده، فتجدد جد الإسلام بتجديده.

ولما فرغ البال من تدبيره، وقضينا حق تقديسه وتطهيره، صرنا إلى صور ونازلناها بعسكرنا المنصور وفى صور سور الكفر وبقيته، وقد تحصن بسورها ومنعته

شرذمته، وهى مدينة حصينة متوسطة فى البحر كأنها سفينة، وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها ورمت من أعاليها وهدمت من مبانيها، ولم يبق فى جعبة الكفر سوى نشابها، وإن جمحت علينا فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن بأصحابها، وإذا تسلمناها تسلمنا بإذن الله كل بلد للفرنج باق، وما لهم من عذاب الله الواقع بهم واق. ثم رأينا أن حصار صور يطول، وإن مسألة بيكار العسكر فيها تعول وإن فتحها لا يفوت، وله وقته الموعود ووعده الموقوت.

وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكلّ، وقد دخل الشتاء وبرد الهواء وجادت السماء وتواترت الأنواء وتواصلت الأنداء، ولا بد من استئناف جمع العساكر فى أيام الربيع، واستمداد النصر الذى يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع.

ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها فى الثغور المجاورة لها من يديم شنّ الغارات عليها ويواظب على النهوض إليها، وفسحنا لأجنادنا فى الاستراحة مدة شهرين إلى النيروز فإن فى تلك الأيام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز، وقد جرت المواعدة على المعاودة والمعاقدة للمعاضدة والمعاهدة للمساعدة، فليس فى الفرنج من يقاتل الآن على الخيل، والنهار عليهم فى إظلام الليل، والعز متقلص الظل عنهم والذل ضافى الذيل، وقد حزب حزبهم من حربنا مثير للحرب والويل، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة والمعاقل المبينة وهى طبرية عكاء، الزيب، معليا، اسكندرونة، تبنين، هونين، الناصرة، الطور، صفورية، الفولة، جينين، زرعين، دبورية، عفربلا، بيسان، سمسطية، نابلس اللجون، ريحا، سنجيل، البيرة، يافا، أرسوف، قيسارية، حيفا، صرفند، صيدا، قلعة أبى الحسن، جبل جليل، بيروت، جبيل، مجدل بابا، مجدل حباب، الداروم، غزة، عسقلان، تل الصافية، التل الأحمر، الأطرون، بيت جبريل، جبل الخليل، بيت لحم، لد، الرملة، قرتيا، القدس، صوبا، هرمس، السلع، عفرا، الشقيف، ولم نذكر ما تخللها من القري والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع، ولكل واحدة من البلاد التى ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع، قد جلس المسلمون خلالها واسترعوا ثمارها وغلالها.

وقد كنا عند قصدنا البلاد وعرضنا للجهاد الأجناد كاتبنا أخانا الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا والظفر الذى أضحك الأولياء وأزعج الأعداء وأبكى، وتلى عليه قد أفلح المؤمنون وقد أفلح من تزكى، كان وصل إلى السوادة فى سواده وبياضه، وبحار جيشه وبراضه، وورد من مورد النصر إلى حياضه، فجاش بجيوشه وجاز العريش بعريشه، وزار دار الداروم بدمورها، وأجفلت

قدامه البلاد فى كل من اعتمد عليه بأمورها، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوة. ثم حضر مجدل يابا وحصرها وطلبت منه الأمان فأنظرها، وكتبنا إليه بالإقامة فى ذلك الجانب ماضى العزائم قاضى القواضب، وأن يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه، ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه، إلى أن نفتح ما فى جانبنا من البلاد ونتسلمه، وننتهز فرصة الإمكان فيما نحن بصدده ونغتنمه. وقد كنا أنهضنا إلى كل بلد من الناصرة وصفورية وحيفا وقيسارية من يتولى افتتاحه ويستقبل من مهب النصر أرواحه، فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية وقسراً وتسلمت البواقى سلماً، ورأى من كان فيها سلامته غنماً ورضى بالغرم رغماً، وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالأمان بعد أن قاتلنا أهلهما قتالاً شديداً ألجأهم إلى الإذعان. فأما صيداء فإن صاحبها أذعن إلى التسليم بعد أن بات منا بليلة السليم. وأما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الأسر ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر، وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان وهان لنا كل ما استصعب منها ودان، وظهر لنا منها وجه الفتح وبان، وأمكن كل ما تعذر واشتد ولان، وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب وأصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب، وأصمينا مقاتل الأسوار بسهام قسيها، وعاقبناها بحبالها وعصيها، واقتدنا بخزائم الكره أنف الطاعة من عصيها، وصافحنا بيض الصفائح يد الرضا من أبيها. وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها، ونهضت أحجار الرماة إلى أحجار البناء فهدتها وهدمتها، وغنى فيها معول النقاب فرقصت للاضطراب لا للإطراب، وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب.

ولما أيقن أهلها بالعطب لاذوا بالضراعة والطلب وخرجوا مسلمين مستسلمين وانقادوا مستكينين مذعنين، وأسلم البلد وأسلم وجدع أنف الكفر وأرغم، وعاد منه الإيمان الغريب إلى وطنه، وقر منه الإسلام القريب من مسكنه. وعند ذلك تسلمنا غزة وأعدنا إليها العزة وأتينا على الرملة ولد والنطرون، وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل، وجميع المعاقل والحصون، ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الأرض المقدسة والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب وألطافه المنفسه، وقد جعلنا هذه البشارة القدسية بما هناه الله من الموهبة السنية وسناه من المنحة الهنية، لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطى وأمرناه أن يسيِّر فيها من أصحابه من يقوم فيها بحقى منابه، والمجلس السامى يشيع ميامنها ببلاد اليمن ويجلو عروسها البكر فى حسنها الحالى وحليها الحسن ويشكر نعمة الله التى خصنا بها وعمت الأمة ويديم شكرها، فإن دوام الشكر يديم النعم، لا زال المجلس مشكور الشئمة، عالى الهمة، منصور العزمة إن شاء الله.

ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكاء ورببيب الربيع رضيع، ووشى الروض وشيع، وصنيع القدر نصيع، وشمل الظفر جميع، وفضاء الفضائل وسيع، ومراد المراد مريع، ونسيم الإسحار لأسرار الأزهار مذيع، وأزيج الجو العليل فى شفاء غليل الجوى شفيع، والدهر قد ثمل وأفاق، والزهر قد شمل الآفاق، وللمحاب مهاب. وفى الشعاب أعشاب، وخدود الشقائق محمرة، وثغور الأقاحى مفترة، وعيون النرجس مصفرة، وشفاه المنابع مخضرة، وأحداق الحدائق الناضرة ناظره، ووجنات الجنات الزاهية زاهرة، وعذبات المنابت متموجة، وحافات المناهل متدبجة، وجباه الغدران متغضنة، وجفون النوار متوسنة، والأفنان مورقة والورق متفننة، وخد الخيرى مورد، وحد العرار مجرد، وعرف البهار قد تأرج، ووجه الجلنار قد تضرج، وعذار البنفسج قد بقل، وعذر الزمان قد قبل، وشارب النبت قد طر، وهارب البرد قد فر، وسر الصيف قد سرى وسر، وطبى الطيب قد حفل ودر.

وتقاضى السلطان غريم عزمه بدين الدين، وآن أن يصحو ليث بأسه الخادر من العرين، فأبرز مضاربه، وجهز كتائبه، وضرب سرادقه، وعرض فيالقه، ونشر بيارقه، وحشر رواعده وبوارقه، وأنفق خزائنه، وأنفد دفائنه، وبذل فى صون الدين ديناره، وأشعل فى حفظ ماء الهدى على العدى ناره، وسار على سمت حصن كوكب، وعن قصده ما تنكب. ونزلنا عليه فى العشر الأوسط من المحرم وما منا إلا من له بقتال العدو فيه لهج المحب المغرم ولعزمه وهج اللهيب المضرم، ووجدنا كوكب فى سمائها كأنها الكوكب وظن الفرنج أنها لا تنكأ ولا تنكب، وهى من المصاعب التى لا تبرك ولا تركب. فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله، واستمددنا قوة الله وحوله، وزحف إليه الرجال وتناول عليه القتال، وركب إليه السلطان ورازه، واستصعب احتيارزه، ورأى أن مقاتلته تطول وأن مسألته تعول، وأن محاولته فى مطاولته ومصابه فى مصابرته وإضافته فى مضايقته، وأن ما فى هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرته ولا مطمع الآن فى فرع ذروته، ولا قرع مروته، وكان فى خواصه وأهل إخلاصه، لم تتجمع عساكره ولم تتموج زواخره، فأقام هناك بالتدبير مشتغلاً وللأشغال مدبراً، وبالاستظهار متأيداً وبتأييد الله مستظهراً حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس من كل محْرَبٍ للحرب ممارس وسلمهم إلى طغرل الجاندار لمرابطتها بالليل والنهار ووكل بكَوكَب قايماز النجمى فى خمسمائة مقاتل من كلٍ ناصر للحق وللباطل خاذل، وكان سعد الدين كمشبه الأسدى بقلعة الكرك موكلاً وبحفظها مكفلاً.

ذكر حال الكرك من أول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك فى الشرك بمعتكر يومه فى ا لمعترك، وافتتاح الفتح بحتفه وبسط كف الانتقام عليه بقبضه وكفه، وإنه أخذ رأسه وقطعت أنفاسه وقلعت أساسه. وكانت زوجته ابنة فليب صاحبة الكرك بالقدس مقيمة ولحفظ معاقلها مستديمة، وحصل ولدها هنفرى بن هنفرى فى قبض الأسار وقيد الخسار وغمه الانكساف والانكسار. فلما يسر الله فتح البيت المقدس وأصبح الإسلام عالى اليد والكفر راغم المعطس، خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع متضرعة بالخشوع وبرزت مسكينة مستكينة مستعطفة مراحم السلطان مستلينة، رافعة عقيرتها بالابتهال شافعة فى فك ولدها من الاعتقال معفرة خداً من شأنه التصعر، مسفرة عن وجه من عادته التخدر، حاسرة حسرى، باسرة لحزنها بأسرى، والدة تنشد ولدها والهة دخل الرعب خلدها، مطلقة ميسورها، مستطلقة مأسورها، ثانية عطف العطف لواحدها، رانية بعين الذل فى خلاص ساعدها، سائلة فى فلذة كبدها جائلة بجذوة كمدها، باسطة يدها لقبض يدها نائرة خرزات دموعها، عاثرة بحزازات ولوعها، خافضة جناح استعطافها، ناهضة فى نجاح استسعافها، راجزة بنوحها، عاجزة عن بوحها.

وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك كأنها من بنات الفلك، باديًا صبح وجهها اليقق فى ليل شعرها الحلك، مشرقة من أوجها، مشفقة على زوجها، محترقة على فداء الحليل مقترحة به شفاء الغليل، خادرة قد اصفرت من مطالعها وأصحرت، حادرة عبرة فى مدامعها طحرت، ناهدة متنهدة، واجدة متوجدة، معتزة متذللة، مهتزة متململة، باكية متلهفة، شاكية متأسفة، مستدعية مستعدية، عاطية مستعطية، ساكبة عبراتها، راكبة عثراتها، خامشة وجناتها، خادشة بشراتها.

وحضرت الملكة فى زوجها الملك خاطبة، ولقرمها الندب نادبة، قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها، وطلبت بطلها الذى هو عامر دار عزها وبانيها. فأكرم السلطان وفادتهن، ووفر إفادتهن، وقرب إرادتهن، وقرر زيادتهن، ووهب لهن ولأتباعهن وأشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة، ووصلهن بصلاته الرفيعة، وخصن بما لاق بكرمه من حسن الصنيعة، ووثقهن بنجح الذريعة.

وأما الملكة فإنه مكّن محلها وجمع بالملك شملها وتقرر مع صاحبة الكرك إطلاق ابنها على تسليم قلعتى الشوبك والكرك ودخولهما فى معاقلنا وخروج أصحابهما منهما فى الدرك، فاستحضر ابنها هنفرى من دمشق إليها وأقرّ برؤيته عينيها، وسار معهم من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل ويحوز من تلك

العقيلة العاقلة تلك العقائل فمضت إليها مع ولدها حسنة الظن بأهل بلدها، فلما وصلت قاطعوها، ودافعوها عن حصونها ومانعوها، وأخلفوا ظنها وخالفوها، حيث ما ألفوها كما ألفوها. وجنحوا وجمحوا، واجترأوا عليها واجترحوا، وعصوها وأقصوها، وعددوا عليها الذنوب وأحصوها، وأفحشوا لها فى خطأ الخطاب، وأوحشوها بالتنحى عن صوب الصواب، وسبعوها وسبوها، وإلى موافقة الإسلام نسبوها، وكلما لاينتهم خاشنوها، وكلما قاربتهم باينوها فوجدت نبوة نوابها، وعدمت إصحاب أصحابها وذكرتهم بحقوقها وحذرتهم من عقوقها ولاطفتهم فغلظوا، واسترضتهم فأحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا، ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا، وانفصلت عنهم خائبة مخفقة، هائبة مشفقة، تخشى من رد ولدها إلى السجن وعودها من الإصحاء إلى الدجن.

ومضت إلى الحصن الآخر فحصلت منه على صفة الخاسر، فإنها لما ألمت بالشوبك ألمت من شوب كدرها وأملت نفعها فعادت بضررها ولقيت من نوائبها نوائب، وفى موارد المراد منها أقذاء وشوائب، فآبت بالأمل الخائب والعمل العائب، والخوف الصادق والرجاء الكاذب. فلما رجعت قبل السلطان عذرها، وأزال ذعرها، وأعلمها بأن ولدها محفوظ وبالرعاية ملحوظ وبالعناية به محظوظ، وهو فى حصن السلامة إلى أن تتسلم الحصون وإذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون. فسكنت إلى الوعد، وسكنت بعكاء فى ظل الرفد والرفد. ثم انتقلت قبل خروجنا من عكاء إلى صور واستودعت السلطان ابنها المأسور.

وأمد السلطان سعد الدين كمشبه فى حصار الكرك والشوبك بأمراء يساعدونه فى الحفظ واليزك. فأقام على كل قلعة من يكفى لمحاصرتها، ويقى بمصابرتها، ويلبث فى مقابلتها، ولا يعبث بمقاتلتها، فأنها تبقى على قوتها ما لم تقو من قوتها، وتدوم على طغيانها ما لم يذل عز طاغوتها. فلما رتب السلطان هذه المراتب ورب هذه المآرب، أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حق استقرارها.

* * *

ذكر ما دبره فى عمارة عكاء

اختلفت الآراء فى أمر عكاء، فإنها كانت مدينة متخرقة وبيوتها متفرقة وسورها غير معمور ومعظمها بلا سور. وأروا أن فى إبقائها خطراً، وإن فى إخلائها ضرراً، فمن أصحابنا من أشار بخرابها وحفظ الحصون، وبناء قلعة القيمون، ومنهم من قال: إذا صينت عكاء ملك البحر، وهلك الكفر وكانت على البلاد الساحلية قفلاً، وكانت بها بلاد الكفر غفلا. فمن قائل بإبقاء برج الداوية لحفظ ميناها، ومن قائل نختصرها

من أدناها، ومن قائل نجدد سورها ونحكم أمورها ونبقيها بحالها ونعمرها بكمالها. على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التى هى عند الفتوح مفاتيح أقفالها، وأجالوا الفكر فيمن يجلى غوائلها، ويحلى عواطلها، ويتوحد بتدبيرها، ويتفرد بتعميرها ويجتهد فى تسويرها.

* * *

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولى عمارة عكاء

فقال السلطان: ما أرى لكفاية الأمر المهم، وكف الخطب الملم، غير الشهم الماضى السهم، المضىء الفهم، الهمام المحرب، النقاب المجرب، المهذب اللوذعى، المرجب الألمعى، الراجح الرأى، الناجع السعى، الكافى الكافل بتذليل الجوامح، وتعديل الجوانح، وهو الثبت الذى لا يتزلزل، والطود الذى لا يتحلل، بهاء الدين قراقوش الذى يكفل جأشه بما لا تكفل به الجيوش، وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة وفات وفاق الفحو بأثار مساعيه الظاهرة، فنأمره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة، ونؤمره لهذا الأمر فهو جدير بالأمر والإمارة.

وكوتب بالحضور لتولى الأمور وعمارة السور. فوصل متكفلاً بالشغل، متحملاً للثقل، منشرح الصدر بالعمل، منفسح السر والأمل، مبتهجًا بالأمر، ملتهجًا بالشكر. وقد استصحب معه كل ما يفتقر إليه من أسباب العمارة وآلاتها وأدويتها وأدواتها، وأنفارها وأبقارها، ورجالها وعمالها وعمارها، ومهندسيها وماسيها، وحجاريها ومعماريها، والأسارى والصناع، والنحات والقطاع والمال الكثير للنفقة، والذهب الإبريز والرقة. ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب، وحضر الموكب وشرف بأسنى الخلع وأعطى الملبس والمركب، وفوّض إليه وقلده، وأسعفه من عنده وأسعده، وقوى جانبه، وأعذب مشاربه، وأوضح مذاهبه، وأنجح مآربه، وأيّد يده، وأجد جدده وكثر مدده، ووفر عدده وعدده، وخصه بعطاياه واستخلصه لوصاياه.

فتوجه إلى عكاء وشغله متوجه، وعزمه متنبه وسره مترفه، وفكره فى رياض الهدى متنزه، وأمره ماض وحكمه قاض، والله عنه راض. وقام بما أقيم له ونهض بالعبء وحمله، ومشى بكفايته عمله، وشرع فى التعمير والتسوير، وتسوية الأمور بحسن التدبير. وسيأتى شرح ما جرى بعد ذلك فى مكانه وما ظهر من حسن إيالته وإحسانه.

* * *

ذكر وصول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد واستعلائه فى الجهاد وتأرجت

الأرجاء بعرف عرفه وأرخت السير بمحاسن وصفه، عنت الأمصار لمصره وأذعنت الأملاك لملكه وانقادت الأمراء القادة لأمره عادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح وشروح إيراده وإصداره تحل فى صدر الزمان المشروح، فتهيبه بالضراعة كل عظيم وتأهب له بالطاعة كل إقليم، ورهبه ملوك الأطراف وتعلق باستزادة الشرف منه أمل الأشراف، فكاتبوه مستسعفين، وخاطبوه مستعطفين، وراسلوه بالتحايا وواصلوه بالهدايا، ورغبوا فى امتراء خلف الامتزاج، والاتشاح والالتحاف بحلف الاتشاج، وخطبوا الوصلة وطلبوا الصلة، وكل يطلب لبلده منه أمانًا وليده وقدمه من تمكينه وتأييده إمكانًا ومكانًا، ويتوصل ويتوسل، ويتلطف ويتطفل، ويرسل ويسترسل، ويترجى مواهبه، ويتخشى عواقبه، ويديم التردد للتودد، والقصد لبلوغ المقصد، فما يعود رسوله إلا بسوله، ولا يقبل عليه منه إلا بقبوله.

ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد، المنتسبين إلى حصول الاتحاد، سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، فإنه بذل الإذعان، وسأل الإحسان، وأدى فى المودة الأمانة، وأبدى للرغبة الاستكانة، واستنهض فى سفارته السفير الألب وندب الندب وأنفذ أكبر أمرائه وأعظم سفرائه وهو اختيار الدين حسن بن غفراس وكان فى دولته مقدمًا وفى مملكته محكمًا وعند أهل ولايته معظمًا، وقد استعلى عليه واستولى واستبد بالتدبير عليه كأنه بملكه أولى. ولا ترف له فى ملك ولا مال إلا بتصريفه، ولا تعرف له عن حادث وخال إلا بتعريفه.

فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد وتشييد المقاصد وتجديد العهود وتأكيد العقود، وقدم مكرمًا وأكرم قادمًا، وخدم حاضرًا وحضر خادمًا، وقبّل البساط وبسط وجه القبول، وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول، وحيا تحية المماليك للملوك، وحفظ الأدب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك. فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب، والبر والتقريب، وأعزه بنزوله فى داره، وأوعز بنزله وقراه، ووسع عليه من الأنعام مما ضاق عنه أمله، وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله، وشفع رسالته بالإصغاء، ورفع مقالته عن الإلغاء، وسمع ما جاء به وأجابه، وأبعد بإدناء مآربه ما رابه، وشافهه بشفائه، وأرواه بروائه، وأولاه لولائه، وعرف بالتعرف إلى آلائه.

ونصبت له خيمة مسردقة، شهادات الإقبال الناصرى لها مصدقة، ووجوه الكرامات بها محدقة، وسحب المبرات لها مغدقة. فأقام أيامًا بأيامن مقيمة، ومحاسن من إحسان الشيم السلطانية مشيمة. فلما استقام أمره استقل، واستدر له بارق البر من سماء السماح واستهل، وما رام حتى نال ما رام، ووثق لأحكام المواثيق الأحكام، ووصل فى تلك المدة أيضًا الصلاح قُتْلُغْ أبه وهو أتابك قطب الدين سكمان

ابن محمد بن قرا ارسلان، وافيًا موفيًا بإحسان الخطبة وخطبة الإحسان، راغبًا في تتميم الوصلة، وتعميم الصلة، آخذًا لصاحبه ملك ديار بكر عهدًا محكمًا، وعقدًا من الميثاق مبرمًا. وقد أحضر قضاة بلاده شهودًا، واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودًا، وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل، ومت بكثرة الشوافع والوسائل، وكان خائفًا على آمد فإنها من فتوح السلطان، ووهبها لأبيه نور الدين بن قرا أرسلان، فأشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده، ورأى الأمن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده، ورغب في المصاهرة للمظاهرة، وأن يفتح بها باب المزاورة للموازرة. فآواه الملك العادل إلى ظل هذه المواشجة، وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة، فتم أمنه، وعم يمنه، وزاد قربه، وزال رعبه، وجلس السلطان، وحضر عنده الأماثل والأعيان، ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب، في إنشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب. فلما تم العقد بأركانه، اعتضد ملك ديار بكر بمكانه، وسار صاحبه بالمسار مصحوبًا، وعاد ذيله بالفخار مسحوبًا، وقال له: قد وجدت الحزن فلا تحزن، واشتد ركنك فإلى سواه لا تركن، وما من كبير أو أمير إلا وقد وصل منه أكبر أمرائه، لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه.

* * *

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب إلى آخر صفر، ننتظر منها بمن كفر الظفر. ثم رأينا أنه يطول حصرها، ولا يفوت أمرها، وإن الفتح يبطيء، وإن كان السهم لا يخطيء، فأمر الأمراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون بالمقام عليها وابتذال سرها المصون.

ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة، سامي اللواء، هامي الأنواء، نامي الأنوار في مطالع المضاه. ودخل إليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول بالصدر الأرحب والباع الأطول، وتلقاه أهل البلد بوجوه لإقباله متهللة، وألسنة بالدعاء له مبتهلة، وعيون لأنواره مجتلية، وقلوب بولائه ممتلية، وأسماع لأمره مستمعة، وأيد إلى الله في نصره مرتفعة، وصدور بأيامه منشرحة؛ وآمال في إنعامه منفسحة، ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة، وأعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة.

ودخل المدينة وأدخل إليها السكينة، فوجدت الروح بسلطانها، وعادت الروح إلى جثمانها، وقرت به عيون أعيانها، وأقرت له بحسنها وإحسانها، وابتدأ بالجلوس في دار العدل وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل، واسترفع قصص المتظلمين وأستمع غصص المتألمين، وكشف الظلامات المظلمة وفصل الحكومات المستحكمة،

وقرأ كل قصة وقرأها بكل حصة، وحقق الحقوق، ورتق الفتوق، وأقام للشرع السوق. وأتمّ لرجال الرجاء بعدله الوثوق، وحل بإنصافه كل مشكلة وطب بإسعافه كل معضلة، وأصحت سماء السماح، وأصحب جماح النجاح، وأعدى المستعدى، وأروى الصدى، وحيا الحيى وأردى الردى، ومجد المجدى ومهد الحق حتى قيل هو المهدى.

فما انقضى ذلك اليوم وانفض أولئك القوم إلا عن مظلوم أُجير بالحق، ومعلوم أجرى من الرزق، وعالم أعين، وظالم أهين، وهاد زين، وعاد شين، ومختل سدد، ومنحل عقد، ومعتل شفى، ومعتر كفى، وماحل جيد، وآمل زيد، وركن حق شد وشيد، وخدن باطل أبير وأبيد، وراج أدنى فوزه ولاج أسنى عزه.

وجلس يوماً آخر للأكابر والأماثل والأكارم والأفاضل، فأضاء النادى وفاضت الأيادى، وغدق الندى وصدق الهدى وكر الكرم، وفر العدم. وحفل الدر ودر الحفل، وشمل النظام وانتظم الشمل، وصان العلماء بالبذل، وأعان بأفضاله أعيان أهل الفضل، وفاز بالحمد وحاز الثناء، وأجاز الشعراء وأكرم الكرماء، وروّج الرجاء، وأولى النعماء، ونعم الأولياء وتقاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة، واستضافة المملكة إلى المملكة، فلم تستقر به دار ولم يدر به قرار، ولم يثبت فى جفنيه غرار، ولم يبت إلا وبين جنبيه لحب لقاء العدى أهل النار نار.

وكان الصفى ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة داراً، وأذهب فى نضارتها ذهباً ونضاراً، وهى متطاولة بين البروج، مطلة على المروج، مشرفة على موازاة الشرفين، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين، صحيحة البناء، فسيحة الفناء، بهية البهو، شهية الزهو، مجدة لأهل الجد ذكرى اللهو. فرشها بماء الورد، وفرشها بالورد، وبسط بسطها وعلق ستورها، وأعلى نورها، وحبر حبورها، وسرى سرورها، وسنى أنواع نمارقها، وأسمى أنوار مشارقها، وتوصل إلى حضور السلطان بها وجلوسه وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه.

وأحضره كل مقرظ بقريض، وكل مؤمل بتصريح وتعريض، وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد، وكل قاصد جلالة أرجائه بقصيد، وكل مغرد مغرب، وكل مطر مطرب، وظن أن السلطان تروقه تلك الحيلة والحالة، وتلك الجلوة والجلالة، وتلك البقعة المؤسسة، وتلك الرقعة المقدسة، وذلك المشرف العالى، وذلك المشرف الحالى، وانتظر نظر استحسانه لإحسانه، وتوقع تمكينه لموقع مكانه، فما أعاره لحظاً ولا أزاره حظاً، ولا لمحه بطرف استطراف، ولا منحه حرف استعطاف، بل أعرض بنظره عن تلك النضارة، وأغضى عن تلك الغضارة، وغضّ عن تلك الغضاضة، واشتغل عن تلك

الرياض بالرياضة، فالعاقل من لا يتخذ فى دار الدوائر معقلاً، ولا يجد فى منازل النوازل منزلاً، ولا يركن إلى فناء الفناء لبيب، ولا يسكن فى غار الغرور أريب، وكيف يبنى العمران والعمر إلى الهدم، والغنم فى الدنيا الدنيئة عين الغرم.

وقال: السعيد من يبنى دار الآخرة، وينجو من أمواج الدنيا الزاخرة.

ثم صرف فى تلك الأيام الصفى عن ديوانه، وأبقاه فى شغل الخزانة على مكانه، وسمعته يقول فى بعض محافله وقد أجرى له حديث من يفرح بمنازله: كان من ذنوب الصفى عندى أنه بنى لى تلك البنية. فدل على أنه لم يوافق منه الأمنية، وقال: ما يعمل بالدار من يتوقع المنية، وما خلقنا إلا للعبادة والسعى للسعادة وما يخطر لنا فى هذه الدار خلود بالخلد وما لنا وللمقام فى البلاء والبلد وما جئنا لنقيم وما نروم (إلا) أن لا نريم وما تحركنا إلا للسكون وما أسلهنا إلا للعود إلى الحزون، فما يجنى ثمر الراحة إلا من مغرس التعب وما يجبى نصيب المغنم إلا من مغرم النصب، فأين الابن الذى تقر به العين وما يحصل السكون فى المسكن ولا يكمل الوطر فى الوطن لا سيما والدين يطالبنا بدينه، والكفر يستقرب منا حين حينه، والبلاد سائبة، وللبلاء هائبة، فلا تفوح الفتوح إلا بهبوبنا، ولا ينزل النصر إلا بركوبنا.

وغدا للحزم متمماً، وللعزم مصمماً. ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق بالغرب المعاضى والحد القاضى، والجمع الوافر الوافد، والجمر اللافح الواقد، وأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قد أقبل بقبيله، ووصل برعيله، وقدم بجده، وأقدم بحده، وأنه حل بحلب ثم سار عنها مسارعًا، وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعاً، فأرهف العزم السلطانى خبر وصوله، وحل بالشد للرحيل عقد حلوله.

وكان القاضى الأجل الفاضل ذو الجلالة والفضل والنباهة والنبل، متأخراً فى بيته بدمشق لشكاة أقام فى غيرها، واستقام مزاجه الكريم منها وهو فى ترقب زوال أثرها. والسلطان بنجح سعيه متبرك، وبنصح رأيه متمسك، وبطوله عالم وبقوله عامل وبعبارته قائل ولإشارته قابل، فأراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع وبرأيه الانتفاع، ويستنير بنوره ويستشيره فى أموره ويفاوضه فى تفويضاته، ويقلده فى تقليداته، ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته، فإنه طالما اجتلى سنى السعادة من مطالعه، واجتنى جنى الإرادة من صنائعه، وافتتح الأقاليم بمفاتح أقلامه، وأحكم المملكة بثبوت أحكامه، ووافاه بأمداد السؤدد الوافى سواد مداده، وجاءه بالوجاهة فى دينه ودنياه بإسعافه وإسعاده.

وكان قد خرج إلى جوسق بالشرق الغربى الأعلى، ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى، فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول على الرحيل،

فقصده لإبرام ما وجده فى مملكته من الأمر السحيل، وأقم عنده فى الجوسق إلى الظهر مستظهرا به على الدهر، حتى كشف مبهمات مهماته، ورشف شفاه مشافهاته، وانتجى معه فى الآراء والآراب، وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب، وارتجع وديعة سر الغيب ممن عنده علم من الكتاب، ثم استودعه الله وودعه ودعا له الأجل الفاضل وشيعه.

وبات تلك الليلة مخيماً بالعرادة، محتماً بالسعادة راجح السيادة ناجح الإرادة، ثم سلك فى جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهمية على البقاع، وهو مطيع أمر الخالق ومتبعه والخلق تابع أمره المطاع، وأتى بعلبك المحروسة، وخيم بمرج عدوسة، وأقام حتى أمر أمرها وأدر درها وقسم لها من عدله وعدل بها من قسمه، وحكم فيها بفضله، وأفضل عليها بحكمه، وكشف الظلم والمظالم، وصرف المكاره وصرف المكارم، ورفع من المعالى المعالم، وأجرى رسوم الأجر والمراسم، وأمر الرعاة برعاية أمر الرعية، وحكم على القضاة بالحكم فى كل قضية بالجهة الشرعية المرعية. ثم رحل على سمت اللبوة معصوم النوبة من النبوة، مصون الكتيبة من الكبة والكبوة، ثم أوجه إلى الزراعة وزرع الظفر قد توجه، وشرع النصر الصافى الشرعة من الكدر قد تنزه، وقد كحل عتير العسكر طرف الجو الأمرة، وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة أن تعاود الهبة وتتنبه، وزرع بالزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الحظ وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط.

* * *

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به

ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وصل جامع من الأدانى والأقاصى؛ ونزل طائعاً على العاصى، وخيم على قدس وخيمه قد تقدس، والدين بدنوه تأنس، والكفر بقدومه تعكس، وإنه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الإيمان.

فركبنا وابن ذكاء فى أسفاره، والصبح قد زحف على الليل برايات أنواره، والفجر قد فجر أنهار نهاره، وسرنا بصدق النزاع، وقصد الاجتماع، فلقيناه قد ركب مستقبلاً وقرب مقبلاً، ولما رآه السلطان حياه ولقيه بالكرامة وأكرم ملقاه، ونزلا فتعانقا ثم ركبا وتواقفا وتساوقا، وخيّمنا بقرب مخيّمه، وجثمنا عند مجثمه، وحططنا هناك رحالنا وخلطنا برجاله رجالنا، وتساعد الجندان، وسعد الجدان وجد السعدان، وانتظم الجمعان، واجتمع النظمان، واتحدت الكلم واتّأدت الهمم. وسأل السلطان أن يوازره ويزوره، ويحضره بحضوره حبوره، فساق معه إلى، وارتفع فى صدره، ورفع من قدره.

وصار العسكران مختلطين، وجلسا منبسطين، ووقف الأمراء والعظماء سماطين كالسمطين. وقرأ القراء وأورد الشعراء، وتجاذب بينهم أطراف الطرف والآداب الفضلاء والعلماء.

وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم، ومن عادته إيراد المدائح في مثل تلك المواسم، فأنشد مدحًا ونشد منحًا. ثم بسط السماط، وسمط البساط، ومدت الموائد، وعادت العوائد، ونضد الخوان، وكونت الألوان، ولونت الأكوان، وصفت الجفان، وأحضر الطهاة من كل حاجة وباجه، وخروف ودجاجة، وحلو حامت وحامز وحامض، وتفه وقابض، ومطبوخ ومشوى، ومصنوع ومقلى، ما طاب مذاق مذقه ومحضه، وطالت الأيدى فى بسطه وقبضه. فلما رفع من ناديه القرى، وفرع بأياديهالذرى، قدم ما أعده للهدايا والتحف السنايا من الجياد المقربة والثياب المذهبة والعدد المعجبة والأسلحة المذربة وكل ما يروق ويروع ويضيء ويضوع. ثم انفض النادى عن ندى منفض، وسدًّى لبكر الشكر مقتض، وعين السلطان يومًا لحضور عماد الدين عنده، وأنه يستضيف فيه خواصه وأمرائه وجنده، فوسع سرادقه، ووشع نمارقه، وضرب بيت الخشب له الحسب بيته، وأسميت الحسنى بحسن سمته وسمته، واحتفل بحفله، وأجل لأجله، وأرجت أرجاء النادى بالند، وراق مد النواظر النواضر فى ذلك الرواق الممتد ، وبسط على البسط ما حضر من الياسمين والورد وفاح النشر ولاح البشر، وفرش الثرى، وشرف البرى، ورفع الحجاب، وأشرعت القباب، وتوجهت الأسباب، وتنزهت الألباب، وتضوعت نوافح النوافج، ووضحت مناهج المباهج، ووضعت المطارح والمساند، والأسرة والوسائد.

وجاء عماد الدين فى خواصه وأمرائه وصحبه، فتلقاه السلطان برحبه، وقرّب له السرير وسرّ بقربه، وأجلسه إلى جنبه، وحباه بحبه، وأقبل عليه بوجهه وقلبه، وجلس من جرى بالجلوس رسمه، وسما فى الرؤوس اسمه، ووقف الأمراء والحجاب والعظماء والأصحاب على مراتبهم في مواقفهم، ودب للاعتزاز الاهتزاز فى معاطفهم، وكان النادى مهيبًا، والندى مجيبًا، والذرا رحيبًا، والقرى قريبًا، والظل ممدودًا، والفضل موردًا، والحفل حافلاً، والشمل شاملاً، والبساط مقبلاً، والنشاط مقبلاً، والمرئي حاليًا، والمروى عاليًا، والمسموع مطربًا، والمجموع مغربًا، والمنظر والمخبر جليلاً جميلاً، والمطلع والمطلب منيرًا منيلاً، والمكان عليًا، والزمان جليًا، والربيع فى انتهائه، والصنيع فى اشتهائه، والمصيف فى ابتدائه، والمضيف فى انتدائه والنعيم فى نضرته، والكريم فى نصرته، والأريب فى أربه، والطرود فى طربه، والضريب من الخلق الحسن فى ضربه.

وكانت أيام المشمش وقد وصلت من دمشق أحمالها، وحلت فى تلك الحالة حالها، وأقدم الجذل قدومها وطلعت فى أبراج الأطباق نجومها، كأنها كرات من التبر مصوغة، أو بالورس مصبوغة، صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلا ذوقًا، وأحل شوقًا، ولو نظم جوهره لكان طوقًا، وهو أحلى من السكر، وأعبق من العبهر، وأحسن هيأة من النارنج الأحمر، والليمون المركب المدور، وقد زفت عروسه فى الثوب المعصفر، والخمار المزعفر، كأنما خرط من الصندل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، فهو الذى يضرب بضربه مثل النمل، ويقضب من قضبه لقب القبل، ونظر منه ما نضر، وما حظر ما حضر ورئى هناك لقطوفه قطاف، ولطوافيره طواف، ولعقوده مصارف، ولنقوده صيارف، فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفراراً أو جمرات تشتعل ناراً وتبدى شراراً، وقد أعاد لجينها صواغ القدرة الإلهية نضاراً، بل هى أحداق الحدائق، وقلوب البوارق، ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق، لا بل اصفرت من مهابة الجنات الجناه، وانتظمت من جواهر الحيا للحياه، واضطرمت لهاها شوقًا إلى فتح اللهاه، ثم صرفت الأطباق، ونظفت الآفاق، وبسط المكان، وسمط الخوان، ونبهت أجفان الجفان للقدور الرقود، وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوى الحقود، وتزيد مقال المقالى النشاشة، وتزينت مقار المقارى بالبشاشة، ومادت أعطاف الموائد بالألطاف، وتهادت أكناف السرادق بمواشى الأفواف، وهناك المسموط والمسلوخ، والمخطوب المطبوخ، والمقلو المقلوب، والمحبو المحبوب، والأغذية واللحمان، والأشوية والحملان، والألبان والألوان، والجوابى والروابى، والصوانى والأوانى، وقد صفت البوارد، وصفت الموارد، وتنوقت الطهاة، وتنوعت المشتهاة، وحلت الأطعمة، وعلت الأسنمة، وجاش جاش الجاشنكير الرابط، وعاش إخوان الخوانسلار الغابط، وتداولوا وتناولوا النوالات والحوالات، والحلاوات والحالات، وكان يومًا مشهوداً، وحوضًا موروداً، وروضًا معهوداً، ورواقًا ممدوداً، ورواء مودوداً، وجمعًا مسعوداً، وصنعًا محموداً.

ولما فرغت الموائد، وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه وحباه بأحسن من تحاياه، من خيل صفون، وحصن كحصون، وعراب جياد من طوائف الطريفيات، وسوابق سوابح من العتاق الأعوجيات، والمذاكى المنسوبات، من كل مطهم مطهر الخيم، وكريم من نسل الكريم، وصافن صافى الأديم، ومعرب مقرب، ومجنب مكرب، وسكب مشذب، وفيض سلهب، وبحر جموم، وطرف لهموم، وسرحوب شيظم، ويعبوب صلدم، وأجرد قؤدد، وضامر قيدود، واقب نهد، وجواد ورد، ومسح رفل طمر، وأشق أمق غمر، ومفرع طموح، وعتيق غير جموح، وهيكل

عال، وعنجوج ذيال، فاختار منها كل طرف، قد حط من قدره إذا قوّم بألف من كل أشهب قرطاسى، وأشعل سوستى، وأغر صنابى، وأدهم غيهبى، وأحم أحوى، وأشقر مدمى، وأبرش مدثر، وكميت مضمر، وأخضر وأدبس، وسمند أغبس، ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللائقة، والطرف الرائقة، والعدد الرائعة، والأسلحة المانعة، والسابريات السابغات، والدروع والزرديات، والرؤوس والرانات، والخوذ والترائك، والبواتر البواتك، والدلاص الموضونة ، والنصال المسنونة، ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية، والملحم والدبيقى، والمصمت والمغربى والعراقى، ومن نسج تونة وتنيس، كل ثمين ونفيس، وما شاكله من أنواع الطيب على النمط والترتيب، ثم انصرف وعَرْف حمده متضوع، وعُرْف جده متنوع، وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح، وأمره متحبر متربح، ووده مترج مترجح، ودعاؤه صالح، وثناؤه صادح، ولسانه داع، وجنانه واع، وعهده راع، وسعده ساع.

وتصاحب هو والسلطان فى الركوب والجلوس، والتناجى بما فى النفوس، والتدبر فيما يقدم ويؤخر، ويقرب ويقرر، ويورد ويصدر. وتكررت المشاورة فى الموضع الذى يبتدأ بقصده، ويوفى العزم فيها الجهاد حق جهده، واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها، والنزول بعقرها، وإنها إذا ملكت ملكت طرابلس.

وأسفر عن صبح فتحها الغلس، وأقام العسكر أياماً على قدس، وبقبس النصر قد تأنس، ولسناء الظفر قد توجس. وأتى العرب وواتى الأرب، واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع. وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع، ونبعت الفيوض من النعم وفاض الينبوع، وأينعت ثمار المبار وطابت الينوع.

ثم رحلنا أول شهر ربيع الآخر إلى البقيعة تحت حصن الأكراد، وخيّمنا على الربا والوهاد، وصوننا إلى الجهاد هوادى الجياد. وأدنينا قطاف ألطاف الله لاجتاء الأجناد، وكانت الأعشاب بالشعاب واصية، والشوائب من المشارب قاصية، والقضيب للقرب فى طاعة الله عاصيه، وطار الرعب، وثار العجم والعرب، وخاف الكفر، وطاف الذعر، وقال نفر الشرك: نفر ولا نستقر. وتشوروا وتشاوروا وحاروا وتحاوروا، كأنهم فى قبور حصونهم أموات لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات. وأجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب، وجوس خلال البعيد والقريب، ثم تجرّد العسكر عن الأثقال، وتجرأ على أخذ أهبة القتال.

وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكى وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر يبكى، ومظفر الدين كوكبورى، وهو الذى حين يوارى صارمه المشهور فى نجيع العدى لزند الظفر يورى، وصحبه من فرسان العرب كل فارس معرب، ومن شجعان

الأكراد كل فاتك مجرب، ومن فتاك الأتراك كل قسور قاسر، ومن صيد الصناديد كل كسروى كاسر، وكل كمى كميش، وأكديش على أكديش، وقارح على قارح، وخضم على سابح، وجرى جار جارح، وبهمة وبطل، وجبل على جبل، وفحل على فحل، وذمر نكل، وورد على ورد، ومرد على جرد، وحلس وحلبس، وباشر بالموت معبس، وأهيس أليس وأحمى أحمس، وغشمشم همام، وأيهم مقدام، وباسل ذى باس، وعاسل عاس، ورئبال على رئبال، ومشتمل على شمال، وبحر على بحر، وصقر على صقر، وركبوا سلاهبهم، وجنبوا جنائبهم، وجروا على الساحل سيولاً، وجروا بالذوابل ذيولاً، وطار إبليس طرابلس بخوافي الخوف، ودام الجوى فى رعب أهلها بدم الجوف، وماسار إلا من خف فى نهضته ونهض بخفته.

وأحس حصن الأكراد بالأكدار، وصفت على صافيثا بوارق البوار، وقطع عرق عرقا وعقرت، وتعرمت العريمة وتعرقت، ومزعت تلك الأعمال ومزقت، وأرهقت وأزهقت، ونفرت أنفارها، وبقرت أبقارها، وملئت بالدوائر ديارها، وسيقت مواشيها، وحشيت بالنيران أوساطها وحواشيها.

ونزل السلطان على حصن يحمور فما قدروا يحمونه، وابتذل مصونه واستخرج مكنونه، وفتحه ومتحه، ومساه بالدمار وصبّحه، وأقام فى تلك الديار عشرة أيام يجوسها ويدوسها، وقد حيزت له نفائسها ونفوسها. ثم رحل بمغنمه وقفل إلى مخيمه، وعاد العسكر مسروراً منصوراً محبوراً موفوراً، قد اطلع من تلك البلاد على العورات، واضطلع بالغنائم من تلك الغارات، ونكا منها فى الأعمار والعمارات، وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يموج بالعساكر موج البحر الزاخر، وقد وصل قاضى جبلة يحث على قصدها، ويحض على إنجاز وعدها، ويحرض على إعذاب وردها، ويحقق أن الظفر فى هذه السنة يبتدىء من عندها، ويقول: إن الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها، وكثرة ناسها، وتدرعها بلباس باسها، واستعدادها للحصار، وتجنبها على الإصحار، يذهب الزمان ويفوت الإمكان وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل، قنيصة للحابل، وفرصة للمتناول، ولهنة للآكل، ونغبة للناهل، وأمنية للعاقل، فما دونها مانع، ولا عنها مدافع، وهى على غرتها وغرورها، وغفلتها وفتورها، لم يفترع عذرة أمنها ذعر، ولم يفثأ سورة نفعها ضر، ولم يقرع باب يسرها عسر، فإن سلكنا سبيلها ملكنا سلسبيلها، وإن جزنا ساحتها حزنا راحتها، وإن استقدنا ملكها ملكنا قيادها، وإن اعتدنا حواءها حوينا عتادها، وإن افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم، فعرفناه بصحة نصحه، ورفعناه بحجة نجحه، وأصغى السلطان إلى قوله،

وأصفى له ورد طوله، وأقبل عليه وقبله، وأجزل له العطاء وأكمله، وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا فوفر لهم رواتهم وأجرى، وخلع عليهم وشرفهم وأسعدهم بالمواهب وأسعفهم، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأول، حافل الجحفل سامى القسطل، وماضى المنصل، فسرنا فى آجام مؤتشبه، وآكام معشبة، وحزون وسهول، وشعاب وتلول، ومعالم ومجاهل، ورواب وهواجل، ومغايض وغياض، وارتفاع وانخفاض، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحى ر سوم تلك النواحى المواحل، ومعنا أحمال وأوساق، وأثقال وأسواق، وأواد وأمداد، وعدد وأعداد، والخيل عرمرم، والسيل عرم، والمجر لجب، والغيل أشب، والأسد فى عريس من الأسل العراص، والفوارس الصلاد فى غدران من السوابغ الدلاص. وقد كنشأ العجاج كعجاج النشاص، فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل، واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل، وحلت لخطبة سيوفنا كرائم الحوالى والعواطل، ونحن فى استباحة واستباء، واصطلام واصطلاء، وارتياد وارتياء، وفتك بأعداء، وسفك لدماء، وبتك لرقاب ذوى الفجور، وهتك لحجاب ذوات الخدور، ننال من العدو كل نيل، وندير عليه فى داره دائرة كل ويل، فما نقطع إلا واديًا يغيظ الكفار، ولا نحضر إلا ناديًا نزيدهم به الدمار.

وسرنا الساحل الساحل فى ثلاث مراحل حتى وصلنا إلى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر، فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، وزحف إليها الناس وحفز عليها الباس، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس، وقاتلناها ساعة فلم يجد أهلها للدفاع استطاعة، ودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها وأصابتها نوائبها، ونابتها مصائبها، وفلّ غربها وجب غاربها، وقتل من لحق من رجالها، ونهب ما وجد من أموالها ونقل ما صودف من غلالها، وسبى من أخذ من نسائها وأطفالها، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع وهما هناك من أحكم القلاع، وفى أحدهما الداوية جمرة الكفر ومعهم مقدمهم الذى أطلق من الأسر، وفى البرج الآخر المنهزمون الناجون، والفارون إليه اللاجئون، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين، وحركهم إلى الخروج بالتسكين، ووثقوا بأمانة وأمنوا بميثاقه ومكّن كل منهم لسلامته من تسلّم مكانه، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده وحل من أحكامه ما الكفر شده وركب النقب على ركنه العالى ونكبه فى ذلك اليوم بما تنكب عنه نواكب الليالى، وخرب إلى أساسه سوره ورمى إلى البحر صخوره، وامتنع برج الداوية بدائها الدوى، واتبع مردتهم فى التمرد هوى طاغوتهم الغوى، وأقام العسكر حتى نقض أسوار الطرطوس وقوضها، وربضنا بها إلى أن عفينا ربضها.

ولما امتنع البرج تركنا، وما كانت فيه فرصة لو أدركنا، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن فتح البلاد وللفرص أوقات هى لها بالمرصاد، ومن يسلك الجدد اللاحب لا يعرج على بنيات الطرق، ولا يستغنى مدلج الليل بالدارى عن الفلق. ورحلنا عنها رابع عشر الشهر، شاهرين على الأعداء سيوف القهر، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت، وتشعثت عمارتها واختلت، وكان جوازنا إلى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب، وهو معقل للاسبتارية عالى المنكب، سامى المرقى والمرقب، ضيق المذهب، عسر المطلب. فلم يكن بد من عبور ذلك المضيق وسلوك تلك الطريق، وقد صفت الفرنج فى البحر المراكب وسدوا المذاهب وردوا الراجل والراكب، وفوقوا الجرخ للجرح وسددوا الزنبورك للقرح والطرح، فعسر العبور، وكثر العبور، وامتنع الجواز، ووجب الاحتراز، وأعوز الظهور وظهر الإعواز، وذلك أن صاحب صقلية رام أن يكشف عن الفرنج البلية، فجهز أسطولاً بجهازه مستطيلاً، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئًا ثقيلاً، واتفق وصوله فى تلك الأيام فى ستين قطعة تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة، من كل شينى من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة، مع طاغية يقال له المرغريط، قد عرف منه التوريط، من أرجس الطواغيت، وأنجس العفاريت، فوصل إلى طرابلس بطوله وأسطوله، وصولة وصوله، فما أحلى ولا أمر، ولا نفع ولا ضر، ولا استقل ولا استقر، ولا نقض ولا أمر، بل صار على الفرنج وبالاً، وأحدث لهم بما يسومهم من مؤونته إمحالاً، وما خفف عنهم بل زادهم على الثقل أثقالاً، ووجد الكفر فى أوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شأن شوانيه.

وصار إلى صور ثم رجع إلى طرابلس، وتردد فى البحر وتلدد وأبلس، وتفرقت جماعته، وتجبنت شجاعته، واضطرب فى البحر أشهرًا لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهرًا، فتقطعت أقطاعه، وتتابعت فى الفرار أتباعه، حتى عاد فى عدة يسيرة، وشدة عسيرة، وكان هذا الطاغية قدحضر يوم عبورنا تحت المراقب بمراكبه ، مصفوفة فى البحر من جوانبه، قد ضيق الطريق، ولم يطرق المضيق، فأمر السلطان بحمل الجفاتى إلى هناك وتصفيفها، والستائر وتأليفها، والتراس وترصيفها، وأقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وإزائها، ا لكماة النخية، والرماة الجرخية، حتى تباعدت تلك السفن ودبّ إليها الوهن، وتمت عليها المحن، وأنحت الأحن، ورحل العسكر فعبر آمنًا وأمن عابرًا، وسار ظاهرًا وظهر سائرًا، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس، وقد أجفل عنها الناس، ونزلنا فى أرضها، وخيمنا فى طولها وعرضها، وأنسنا بنهرها وزهرها فى الإرواء والرواء، وحبسنا على نواضر رياضها نواظر الارتضاء، وبتنا ونفحات النادى

مريضة، وجنبات الوادى مريضة، والنسيم العليل بليل، والعزم الصحيح دليل، ورسم العدو محيل، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل، وأصبحنا على الرحيل مبكرين، فساءَ صباح المنذرين، وسرنا وسرنا فى سرور، وسفرنا فى سفور وجمعنا فى اجتماع، وجدنا فى ارتفاع، ونهجنا فى اتساع، وركننا فى امتناع، وعارضنا نهر عريض عميق، ما فيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر، فازدحم العسكر عند ذلك النهر، وتواقعت الأحمال والأثقال عند العبر، وليس عليه إلا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر.

وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر، واستتبع من عسكره بعد الزمر الزمر، ونزل عشية الخميس على بلده، وعانت الأثقال فى تخلصها من الشدة الشدة، وتكامل نزولها حين انتصف الليل، ووصل إلى القرار السيل، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطيء هذا النهر، وساحل البحر، حصينة البناء، مصونة الفناء، قد حصنها الأسبتار، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق، بتعميق ذلك النهر المخترق، وألفينا بلدة أيضًا خاوية على العروش، حاوية للوحوش، خالية من الأنس والإنس، كأن لم تغن بالأمس، وقد انزعج أهلها ، وتشتت شملها، وتخوف آمنوها، وعدم السكون ساكنوها.

* * *

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وقد اشتهر موسم النصر، واشتد على الكفر رهق القهر، وكان قاضى جبلة قد تقدم فى السابقة وسبق فى المقدمة، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح فى الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد، خرجوا مستسلمين مسلمين، مستمسكين بعز الإسلام معتصمين، وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة، وتحصن الكفرة من الحين ولجؤوا فى التحين إلى الحصنين.. فمن لاذ بالحصن الذى على الميناء قال إنه بحصانته ومنعته يحمينا، وعاد معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل الأكبر، وتوسط لهم قاضى جبلة فى أخذ الأمان بعد قبض الرهائن على أن يعيدوا من استرهنوه فى أنطاكية من أهله، ويجمعوا شملهم بشمله، ويسلموا إلينا كل ما لهم من سلاح وعدة وخيل وذخيرة وغلة.

وتسلمنا الحصنين يوم الخميس وعادا مأهولين من الإسلام بالأنيس، وكرمت بالكرام جبلَّة جبلة، ونفت عنها بالفئة المقبلة الفئة الشقية المختبلة، وسعد أهلها بعد الشقاوة وتَعوضوا من الشدة بالرخاء، وأفضى اليأس بهم إلى الرجاء، وفاؤوا إلى الوفاء.

وانتقل أهل الجبل إلى جبل طائعين بعد العصيان، مصافحين بالمصافاة بالأيمان أيمان أهل الأيمان، وكان حصن بكسرايبل قد تسلم من قبل، واتصل بفتحة الحبل، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضى جبلة مذعنين بإيمانه مؤمنين، ولدعائه ملبين، ولبقائه محبين، ونجوا من العار والتبار، وضيم الكفار، وتناجوا بالاستبصار والاستنصار والاستغفار والاستنفار وآضت تلك الولاية لإحسانها والية، وتلك الناحية على سكانها حانية، وتلك المدينة لأهل الدين دائنة دانية، وتلك الجنة العذبة الجنى لورد دم الجناة من شوك القنا جانية، وتلك البنية لمعالم المعالى فى هدم أساس الإساءة بانية، وتلك الهضبة راسية، والتربة كاسية، والرتبة سامية، والربوة رابية، والذروة عالية، والحالة حالية، وأقام السلطان بها أياماً حتى أزال شعثها، وأزاع خبثها، ورأب صدعها، ورب ربعها، وشاد ركنها، وشد حصنها، وجب كفرها، وجبر كسرها، وجذبها جدبها، وخص بها خصبها، وبالعدل عمرها، وبالفضل غمرها، وبالرعاية ملأها، وللرعية كلأها، وبجل قاضى جبلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرّفه فى أملاك آبائه، وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه.

* * *

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الأربعاء، منشور اللواء، منصور الأولياء، مشكور المضاء، عالى القدر، قادر العلاء، ناجح الآراب راجح الآراء. وسار برعب إلى العدو يقدمه، وعزم على الغزو يصممه، وأمر لإمرار الأحكام يحكمه، وجد على تدبير الدين يقفه، وحد فى تدمير الماردين يرهفه، وسعادة تؤيده، وتأييد من الله يسعده، وسطوة على الكفار يرسلها، وجذوة فى أهل النار يشعلها، وجيش للوثبات ينشطه، وجأش بالبات يربطه، وهيبة تروع الخواطر، وهيأة تروق النواظر.

وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين، وبات الكفرة مبلسين، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم وعروة كل قلب لهم من الرعب فى يد فاصم، والخوف عليهم مستول، والذعر فيهم مستعل، والأفئدة منهم خافقة، والأندية بهم متضايقة، والمهج فى سوق الردى نافقة. ونحن طول الليل من السوابغ فى جر الذيل، ومن السوابق فى إجراء الخيل، ومن نشاط العزم فى اهتزاز، ومن احتياط الحزم فى احتراز، ومن انتخاب الأجواد والجياد فى انتخاء، ومن انتقاد العتاق والرقاق فى انتقاء، ومن انتهاض الرياح بالهواضب فى انتهاء، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضب فى اقتضاء، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب، والمقانب تكتب والكتائب تقنب، والصوارم تنتضى، والصرائم تقتضى، والقوارح تضمر، والقرائح تخمر، والضوامر تجرى،

والبواتر تعرى، والصلاد تلجم والدلاص تستلأم، والحنايا توتر، والمنايا تؤثر، والجاليشية تعبى، والجاوشية تلبى، حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح، والمتجر مربح، والمفخر متوضح، وللجأش فرح، وللجيش مرح، وقرح العدو مقترح، وزند الفتح مقتدح، وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح. وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الأحداق، وخطنا بإبر السهام من موقها الآماق، وأخرجنا منهم بالإرهاق الأرماق، وأنهضنا إليها الحجاز والنقاب والزرّاق، وأطرنا النشاب إلى أوكار المقل، وأزرناهم رسل النصال بكتاب الأجل، وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل. ورأينا (هم) تغلى من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل، وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين ما بين تلك القلل، وجدوا فى القتال، وشدوا على الرجال، ومدوا ظلال الضلال، واحتدوا بالنصال فى النضال، وردوا النبال بالنبال، وسدوا مذاهب الأهواء بالأهوال، وهناك فى الزنبورك بورك، فإنه بالجرخ دورك، وقلنا للكفر: أخرج لندخل إلى دورك، وأى دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك، وطالما سكنت دارنا فاخرج، ودرجت إليها فادرج، وما زلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار، ونغطى سنى يومنا بليل الغبار، ونرفع من السور حجابه بالحجار، حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار، وأخذت عليهم النقوب، ووقذت منهم القلوب، وبلغ النقب من الشمال فى الطول ستين ذراعًا، وأربع أذرع فى العرض اتساعًا وهى ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات كأنهن على رأس راس راسخ، وذروة أشم شامخ. فسهّل الله لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، وناوبنا عليه القتال وجاوبنا بالنصال النصال، وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن، وأثارت من مكامن الأحقاد كوامن الدفائن، ودام الرماء، ومريت الدماء، وانتجع النجيع، ووقع ذلك الرفيع، فاستبطىء السريع وتخطى الصريع، وأبصروا ما لا عهد لهم بمثله وعاينوا ما عانوه من غريم الموت المطل فى مطله، وفتح الحتف بابه وحفز الزحف أصحابه، وكشر الشرك نابه، وصادف الكفر لدمه المطلوب مصبه ومصابه، ونفر الناس إليهم واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم، والأجل يظهرهم والوجل يخفيهم، وهم من وراء أسوارهم فى بوارهم ووبل النبل هام، وأهل الجهد فى ضراب وضرام، وجمر الجمع فى التهاب والتهام، ووقع منهم الزمع، ومنا فيهم الطمع حتى ازدحم على التل الصغار والكبار، واستشعرا منا وزال منا الاستشعار.

وكان لى مملوك صغير قد زحف وأرهق وأرهف فقبل خده سهم فرجع، وإذا وجهه طلق لا جهم، وهو بقرحه فرح، وللفرح بالشهادة مقترح، وقد عدله الجرح وحسنه القبح فلما عرفوا أنهم مدركون وأنهم يؤخذون ولا يتركون، صاحوا: الأمان، واستماحوا الأيمان وذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشيه.

وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيئة فإنه موضع ما فيه مطمع ولم يكن للكفر غيره مفزع.

وصعد إليهم قاضى جبلة يوم السبت غدوة، وكان ذلك الفتح صلحًا أشبه عنوة، وطلع السنجق المنصور وانجلت الظلمة وتجلى النور وأشرق الفلق وزهق الديجور، وبدا الفجر وباد الفجور، وسرت القلوب وأقبل السرور، وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة وأسلحة وخيل ودواب كثيرة، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم، وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم فى عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية وأيقنوا أنهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية.

ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها الوحيد مصونًا من الإشراك وتشريكه، ثم ولى بها سنقر الخلاطى مملوكه وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه، فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية، وانتهى إلى الغاية فى نهى أولى الغواية، وأقام جاليًا للغاية، عالى الرأى والراية، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه، وأدنى إلى عدله قطافه، ووفر ألطافه، وأصفى نطافه، وأمنه بعدما أخافه، ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسبة المعانى، متناسقة المغانى، قريبة المجانى، رحيبة الموانى، فى كل دار بستان، وفى كل قطر بنيان، وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان أمكنتها مخرمة وأروقتها مرخمة وعقودها محكمة ومعالمها معلمة ودعائمها منظمة ومساكنها مهندسة ومهندمة وأماكنها ممكنة ومحاسنها مبينة ومراتبها معينة وسقوفها عالية وقطوفها دانية وأسواقها فضية وآفاقها مضية ومطالعها مشرقة ومرابعها مونقة وأرجاؤها فسيحة وأهواءها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، وأذهب نضارتها، وأزعج ساكنيها، وأخرج قاطنيها، وملك دور المشركين للموحدين، وطهرها من رجس الكفر وأظهر الدين، ووقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن ومحوا سنى المحاسن، وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، بأجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعة، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهى متوازية الزوايا، متوازنة البنايا، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصورت فيها أمواج الأمواه، وزينت لإخوان الشيطان وعينت لعبدة الصلبان.

ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها وشوهوا أعلامها، وحسروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد

الغنى بإفلاسها وافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت. ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بفتحه البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس وهى متشوهة متشعثة مستمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للإسلام مرابع ولسروحه مراتع ولجموعه مجامع ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت وكما أفاقت فاقت وشأت البلاد إذا شاءت لكنها ساءت لما أساءت ثم أعادها الإسلام إلى أحسن حاله وجلا لها فى السناء أسنى جلاله ورغب فى إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حبًا للوطن وسكونًا إلى السكن، فآض مأمول الجنى مأهول الجناب وعاد بتجار البحار مملوء الرحاب، وتبدل بالأبدال الأخيار والأرباب الأبرار من بعد الكفار الفجار والأشرار أهل النار، وكانت شوانى صقلية قد قابت فى البحر اللاذقية طمعًا فى امتناعها، وطلبًا لذيادها عنها ودفاعها، فلما خابت خبت نارها وباخ أوارها وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها فامتنعوا عن الانتقال وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال.

وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبًا عند ميناها وقد حصل من ترتيب العمارة مناها، فطلب مقدم تلك الشوانى أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه حتى صعد ولو أسلم ذلك الشقى لقلت سعد، ولما حضر الكافر عفر وكفر وتروى ساعة وتفكر، وأحضرنا الترجمان وأدى عنه البيان، وقال: أنت سلطان عظيم وملك كريم وملك رحيم، وقد شاع عدلك، وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر إحسانك فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها وأحسنت لملكت قيادها إذا أعدت بلادها وصاروا لك عبيداً وأطاعوك قريبًا وبعيداً وإن أبيت غير الغيرة والإباء ودمت على إرهاق الدهماء وإهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق، وثار الروم لروم الثار، وخرج الفرنج أنفاراً للاستنفار، وسار ملوك ذوى الأقانيم من سائر الممالك والأقاليم، وأتى الآتى، ولا يقاوم القدر المأتى، وهؤلاء أهون منهم، فاتركهم واصفح عنهم.

فقال السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون فى طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد فى الجهاد، وامتثال أمره فيه بالانقياد، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد، ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد، ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله فى اللقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء. فلما سمع ما فهمه من نهجه ذهب بعد أن صلب على وجهه وركب بكربه وكر بركبه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى، والهدى فى نصره بين أنصاره يتهادى، وقد تيقنا إن الفتح لا يتمادى، وإن العزم عن الفداء بالمهج فى سبيل الله لا يتفادى. وأخذنا على سمت صهيون، وهو حصن يفوق الحصون ويفوت العيون، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون، ونحن للكفر مميتون وللإسلام محيون.

وكان الطريق إليه فى أودية وشعاب ومنافد صعاب، ومضايق غير رحاب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار، وقطعنا تلك الطرق فى يومين، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيّمنا على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرون، ورزقنا الله التأييد والتمكين، وهى قلعة على ذروة جبل فى مجتمع واديين بها محيطين من جانبين، والجانب الجبلى قد قطع بخندق عميق وسور وثيق، والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع، وهى ممتنعة علينا بالركن الأمنع والسمو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل بكرة اليوم وشرع فى محاصرة القوم، وقامت أسواق الأقواس للمنون فى مغالاة السوم، وتوفرت سهام السهام من المقل، وتبدت بنات الكنائن من الدم القانى حمر الحلل، وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور، وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور، وظهر سر السراء، وكثر مراء الرماء، وزخر دأماء الدماء وطارت الحجارات، وحجرت الطيارات، ودارت حميا الحمام على أولئك، واستنجدت ملوكنا الملائك، وأدامت إليهم المجانيق والجروخ والقسى الرمى المتدارك.

وأقام الملك الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ونهج بهما من جانب الوادى إلى ردى الأعادى طريقين، وكان له فى فتح هذه القلعة الجد العالى، والجد الوالى، والعزم الماضى، والحزم القاضى، والسعى الناجح، والرأى الراجح، والبأس البالغ، والسطو الدامغ، فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماه وقد استصحب الكماة الحماه، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخية، والجاندارية والخراسانية، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وكسب الذكر والثناء، وأنار فى فضاء الفضائل وأضاء، ودام القتال على المكان من جانبه ومن جانب السلطان، والملك الظاهر فى تظاهر ملكه، وتضافر سلكه، وريعان إقباله، وعنفوان جلاله، وشباب رهان مجاراته وشبا برهان مباراته، وإيراق عوده، وإشراق سعوده، وغرة عزته، وميعة منعته، وصدر تصدره، وشرخ تأمره وتشمره، وقد وصل فى أول نشاطه ونشوء اغتباطه وفتاء فتوته ورواء رويته وارتقاء ارتفاعه وإيفاع يفاعه وترعرع سنه وتعرعر ركنه وتسامى سيادته وتراقى سعادته، وأجد لعز العزم الجد، وأعد لرى الرأى العدّ، واستلذ فى سبيل الله

نصبه، ورفع المنجنيق ونصبه، وجعل لرجاله نوبًا، ولأحواله رتبًا، وألقم أفواه كفاته جحرًا، وأجرى فى الحق من الحجارات الجاريات من منابعه نهرًا، ورجم الحصن الزانى رجم المحصن، وأحسن إلى الإسلام وأساء إلى الكفر فللّه در المسيء المحسن، وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى، والحنايا بسهام المنايا تصمى، حتى قتلت مقاتلة الحصن، وهان بما دب فيه من الوهن.

وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة وطما بحر العسكر بأمواجه الزاخرة، وازدحم الناس فى الزحف كأنهم فى الحشر بالساهرة، وهاج الشباب، وماج العباب، وتسابق ذوو الجرأة والقوة؛ وتلاحق ذوو الحمية والنخوة؛ وكان فى قرنة الخندق عند خرقه إلى الوادى موضع لم يكمل تعميقه، ولم يتم توثيقه، فتطرقوا من تلك القرنة إلى القنة، وتسوروا السور وتسلقوا، وتقلعوا إلى القلعة وتعلقوا، وتملكوا الذروة، وأمسكوا العروة، واستولى على أهلها الرعب، واستشرى بهم الكرب، فتعادوا إلى القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وملكت عليهم ثلاثة أسوار بما فيها من متاع وشوار، ونعم وأبقار، وصاحوا الأمان وبذلوا الإذعان ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما أمنوا على المال والنفس، حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب وسير إليهم النواب وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار وحبى الدرهم والدينار، وعم الكبار والصّغار الصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله، وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله، إلى الأمير ناصر الدين منكورس ابن خمارتكين، أسد العرين وأمير المجاهدين المقدام الهمام والمطعان المطعام، فألفى الثغر سداده بسداده، وأمرع به مراد مراده.

* * *

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلّم يوم السبت قلعة العيْذُ، ويوم الأحد قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب إلى كل حصن من تسلّمه، وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه.

* * *

ذكر فتح حصنى بكاس والشغر

وسار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشية، ومشيئة الله جارية على موافقة ما له من المشيئة، ونزل على العاصى فى طاعة الله والنصر قد نزل، والكفر قد انخذل، يوم الثلاثاء سادس الشهر، وبحور السوابح فى غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر، وحكم السلطان فى القهر ماض بإذن الله على الدهر.

وتسلّم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور، وشكا الشرك نكاية حد

بأسنا المشكور. وحول خيمة خفيفة إلى الجبل، لحصار قلعة الشغر، وهى قلعة شامخة من أعلى القلل على هضبة منقطعة عالية مرتفعة ومن نواحيها واد خاف من العمق غير باد فى أعماق وهاد، وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادى خندقها، وأخذ من العوادى موثقها، فما إليها طريق ولا عليها طروق، ولا فيها للطمع علوق، ولا للسهم إليها مروق، ولا للزحف فيها مطمع، ولا للذر نحوها مطلع، ولا للطير فى مراحها وكر، ولا للمكر فى افتتاحها مكر، ولا للوهم فى توقلها مجال، ولا للفهم من تصورها منال، ولا لها بمن يحتفل بها احتفال، وما عليها للنازلين عليها قتال ولا نزال، ولا يتغير لها مع تغير الأحوال حال، وصعب شغل الشغر، واشتغل فكر الكفر، ولم ير السلطان طريقًا غير الرمى من المنجنيق لعله ينال جمعها بالتفريق وداومها بالحجارات أيامًا ولكم سدد بها مرمى ومرامًا، فلم تعبأ بأعبائها، فإنها ترامت عن رمائها، وأبت إلا ثباتها وثبتت على إبائها، واعيًا إعضال دائها، واستفحال بلائها، وخام الرجاء بالأرجاء عن أرجائها، ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها، وسئم سائمها لتساميها، لكنه وهى جلده، وهوى جلده، وخار قلبه، وحار لبه، وخاف من الإقامة وخاب من السلامة، وارتاح إلى الراحة، وسما إلى السماحة، وعاج إلى الانزعاج، وعاد لداء خوفه فى الاستئمان يطلب العلاة، ودعا إلى الدعة، والخروج من الضيق إلى السعة.

فبينما نحن فى ترو وتفكر وتخيّر للرأى وتدبّر، ونقول هذا حصر يشتد وأمر يمتد وعمل يصعب وأمل يتعب، ومعقل لا يختل ومعقد لا يحتل، ومقصد لا يدرك، ومورد لا يملك، ومكان لا إمكان لفتحه، ورجاء يطول الزمان فى تطلب نجحه، إذ خرج من الحصن، من يضرع فى الأمان ويمترى ضرع الأمن، فشكرنا الله على تسهيل المتوعر وتيسير المتعسر، وتحصيل المتعذر، وتلقيح الرجاء من اليأس، وتنقيح مناط حكم الصحة عند اضطراب علة القياس. وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء، وسألوا فى مهلة ثلاثة أيام والإرجاء، ليخبروا صاحب أنطاكية ويستأذنوه ويبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه. فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر والكفر صاغر وفم القهر منا لهم فاغر والإسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر والحصن البكر مفترع، والدين المتأصل بشعب النصر متفرع، وطلع العلم إلى ذلك العلم الطالع، وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع، وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعين، وعاد الحصن آهل بأهل الإحصان، وصافح بأيدى الأيد إيمان ذوى الإيمان، فابتسم عن النصر ثغر الثغر، وفرغ القلب من شغل الشغر، وسلم هو وحصن بكاس إلى غرس الدين قليج الساقى عدوه الموت بكأس الباس.

وانتقل السلطان يوم السبت إلى مخيمه والإقبال جاثم فى مجثمه، وسرى ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية، وأرهق فيها الفجرة الجانية، واستطلق منها البررة العانية، وقطف مجانيها الدانية، وأخلى مغانيها الغانية، وما قطع قرارها حتى قرر عليها قطيعة، وكلفها ما كانت له من المال مستطيعة، ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرهًا مطيعة، ثم خربها حتى خربها عاليها، وعطل حاليها، وانجلى ثاويها، وانتأى جاليها، وبقيت دمنة دائرة، ودمية عاثرة، ورسمًا عافيًا، ورقمًا خافيًا، وربعًا باليًا، وصقعًا خاليًا، وعادت دار دارسة مستوحشة بعد أن كانت آنسة.

وكان فتحها فى يوم الجمعة الثالث والعشرين، فأخلى الله من السباع الضوارى ذلك العرين، ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية فى أيام الجمع الخمس المتوالية، باءَ فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد ظاهر اليد.

* * *

ذكر فتح حصن بُرزيه

وسرنا إلى قلعة برزيه وسرنا سار، ودر الظفر لنا دار، وهى أحصن القلاع وأفرعها، وأحسن التلاع وأرفعها، وأسمق الرواسى وأسماها، وأسنم الرواسخ وأسناها.

وكان السلطان سبق إليها وأشرف عليها، ثم استدعى الثقل واستحضر، وجمع بالفضاء تحتها العسكر، وذلك رابع عشرى الشهر يوم السبت وقد تهيأت فى العدو أسباب الكبوة والكبت ثم تجردّ يوم الأحد فى العدد والعدد، ورقى إلى الجبل مع أبطاله النبل، فرأيناها قلعة شماء فى الذرى لا تكاد من سموها ترى وهى على سن من الجبل عال مترامية فى السماء ارتفاعًا، وقيل قدر علو ثلثه فكان خمسمائة ونيفًا وسبعين ذراعًا. فأحدقنا بها وبالجبل، وقطعنا عنها متصلات السبل ونصبنا عليها المجانيق فى ذلك السفح فلم تصافحها صفائحها وأبدت لها صفحة الصفح فقد بعد مرام مرماها، وحارت الأوهام فيها وقلنا: ما أعلاها وما أسماها، وتحاجزت عنها الحجارة فلها من إجازتها بها الإجارة، فما بلغت إلى القلعة قلائعها ولا طلعت إلى التلعة طلائعها، هذا والنجم يلامع بلامعها وتقارن طوالعه طوالعها، فكأن الصخور سلم نحورها، فإن سورتها تنكسر دون الوصول إلى سورها.

ولما رأى السلطان أنه لا وصول إلى نيقها بالمنجنيق، وأن الاشتغال به يطيل زمان التعويق، مال إلى الزحف، ولاحف جموعه فى ذلك اللحف، وذلك فى السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء، فقسم الناس ثلاثة أقسام على السواء وجعل النوبة

الأولى لعماد الدين صاحب سنجار، الليث الهصار، والغيث المدرار، والبحر الزخار، والسيد الحلاحل، والملك العادل فى صحابه الصباح، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح، ونفاة الهام، بثبات الأقدام فى الإقدام، وشفاة الأوام بعلة الانتقام من الأقوام، وإساءة ذوى الإساءة بإحسان الحسام، وكساة عرى العراء أردية القتام ورقاة أراقم اللهاذم وسقاة حوايم الصوارم، والمزاق فى حومة الردى رداء المآزق، والسباب فى حلبة الهدى بهوادى السوابق، من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار، وضارب هام المريد ببتار التبار، ولاسع بحمة الحمام فى الأسل العاسل عاسل، ولابس لباس الباس كالأسد الباسر باسل، ومعتقد للدين للردينى معتقل، ومعتد على العدو بعادى معتدل، ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز، ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز، فانقضوا على الهضب، وعضوا على العضب، ودام الصفا يدهده، والصدى يقهقه، والزاحف يتقدم ويتقهقر، والحافز يخفى ويظهر، والرجال تتعالى، والحجار تتوالى والمصاعد تترقى، والمصاعب تلقى، والمضايق تولج، والبوائق تحرج، والأكام تفرع، والرجام تقرع، وللصخور ترديد، والجلاميد تميد.

وما زالت هذه النوبة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول، وترمى وترمى، وتدمى وتدمى، وتصمى وتصمى، وتَرد وتُرد، وتَصد وتُصد، وتَصدم وتُصدم، وتقدم وتحجم وتصدع وتُصدع، وتحمل وترجع، وتذكو وتنطفى، وتبدو وتختفى حتى كلّت وملّت وانحلت وتخلت، وكانت غلبت لولا أنها لغبت، وسمت ، لولا أنها سئمت وألفيت هذه النوبة خاصة لأهل الحصن خاصة، فإنهم تولوا بأجمعهم القتال ولم يقصدوا للتناوب الاستبدال.

ولما ظهرت فى النوبة النبوة وكاد جوادها تناله الكبوة، تقدم السلطان بنفسه فى النوبة الثانية والسطوة الدانية، والعزمة الناوية غير الوانية وخف فى الثقال من الرجال، وزحف إلى الجبل بالجبال وتضافروا فتظافروا فى الأوعار كالأوعال، وجروا كالسيول فى تلك المسائل، وجروا ذيول السوابغ، على تلك الهواجل، وترقوا فى ذراها، وقروا على قراها، وتلبسوا بجوانبها، وتوجسوا من مثاعبها، وتدرجوا فى مدارجها، وعرجوا فى معارجها، وخرجوا فى مداخلها، ودخلوا فى مخارجها، وصارت الجروخ تجوزهم، والجروح لا تحوزهم، والسهام تعبرهم والآكام تسترهم والنخوة تحميهم، والحمية تنخيهم، وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم، فمن انقبض بسطه، ومن أعرض ضبطه، ومن أقبل أغبطه، ومن أدبر أسخطه، ومن تقدم قرظه، ومن تقاعس أحفظه، ومن تناعس أيقظه، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا، وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا،

فمنهم من تمكن من الطلوع، ومنهم من تكمن للولوع ، وتقلبوا فى تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع، وعرا أهل الحصن العنا والعياء، وعمهم البلاء وأدركهم الشقاء. فإنهم ما زالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعاً، فمنهم من صد صديعاً ومنهم من صار صريعاً.

وظهر فيهم الفتور، وبدا منهم القصور، وجاءت النوبة الثالثة تالية، وأقدمت أمدادها متوالية متعالية، وعادت النوبة الأولى لنشاطها، وزادت فى انبساطها، فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا، وتعلقوا بالسور، وتسلقوا كالنسور، وطلعت القلعة، وقلعت الطلعة، واقتضت العذرة، واقتضيت النصرة، وأعان القدر فقد الأعوان، ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان.

وإن أهل القلعة لما أيقنهم أنهم ملكوا طلبوا الأمان حتى لا يهلكوا، فلما سمع أصحابنا بالأمان صياحهم وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم، كفوا عنهم انتظاراً لما يأمرهم به السلطان وإشفاقاً من سبى من يشمله الأمان، وكان جماعة من دهاة الخواص عارفين بطرق الاقتناص، فأظهروا أن السلطان آمن أهل القلعة وإنه يدافع عنهم فى هذه الدفعة، وجمعوهم فى مواضع وكنائس وأحرزوا النفوس والنفائس، وعاد عنهم من حضرهم على ظن أن السلطان آمنهم وحظرهم، وبقى أولئك الأفراد بهم متفردين ولتجريدهم للسبى متجردين، وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسباً وسبياً وما رأوا الحق من شاركهم فى السعى رعياً، وحرموا ما ارتفقوا به وحرموا الرفقاء، وحازوا دون الغانمين النهب والسباء. وملك واحد مائه وحاز الرى وحلا عنه رفقة ظمئه.

ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا، وتسهل ذلك الصعب وتهيأ، عاد السلطان إلى خيامه، وعاذت الأيامن بأيامه، وكانت صاحبة حصن برزيه أخت زوجة الإبرنس صاحب أنطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها وكانوا بعد هتك سترها ستروها، فمنّ عليها بالإعتاق من الإرقاق، وحلّ عنها وعن زوجها قيد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدّة من أصحابهم وأدخلهم معهم فى الإطلاق، وجمع شملهم بعد الشتات، ووصل حبلهم بعد البتات، وشعبهم وقد تصدعوا، وأشبعهم وقد تجوّعوا، وحظرهم وقد استحلوا، وكثّرهم وقد استقلوا، وحرمهم وقد استبيحوا، ومنعهم وقد استميحوا، وأحياهم بعدما هلكوا، وعصمهم بعدما هتكوا، وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا، وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا، وسيّر معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها فسرت بأختها، وأعلنت بمقتها من سر مقتها، وأذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها، وجاءها الفرح فى غمها والفرج فى كربها، وتشكت لأخذ بلدها، وتشكرت لترك أختها وولدها.

وأنعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين ابن المقدم، الكريم المكرم والمقدام المقدم، والعظيم المعظم، والماجد الممجد، إبراهيم بن محمد. فإن هذه القلعة لثغر أفامية الجارية فى أقطاعه متاخمة وهى لها فى السلم مقاسمة وفى الحرب مزاحمة، وسرت هذه البشرى وسارت، ودرت هذه النعمى ودارت، وطارت كتب البشائر وسرحت على جناح الطائر، وفيما كتبت إن هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيز والنصر الوجيز بفتح حصن برزيه الذى برزت له الأرض فى قشب أثوابها، وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها، بل سفرت به عرائس الأيام فى حلى أيامنها، وأشرقت منه أقمار الليالى فى أنوار محاسنها، وهذا الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة، وكأن حجره فى حجر حضن للحضانة، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون، وسلبنا أهل الكفر بها من السلامة والسكون، وفتحها كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى، ولم يجد من حصل فى أسر الدهر به مخرجًا حتى أتت أيامنا ودانى فيه مرامنا، فجاءه عصرنا، وفجأة أمرنا ووصل إلينا ما هو فى الأزل ذخرنا، وكمل بهذه الفتوحات فخرنا وذلك أنّا فتحنا من حدود طرابلس إلى حد أنطاكية وسقينا بماء الحديد الجارى فى أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكية، وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية، وهذه الحصون التى فتحناها والمعاقل التى استبحناها لو وكلنا الله إلى اجتهادنا فى فتح أحدها لتعذر، ولو أنجدت عساكر الدنيا بمددها لكن الله سهل ويسر، وفتح ونصر، وأنزل الظفر، وإن حصن برزية لم يكن عليه قتال ولا للوهم فيه مجال، ولا منصب عليه لمنجنيق، ولا مسلك إليه لسالك طريق، وحضرنا لحصره متوكلين على الله فى أمره غير طامعين فى فتحه ولا راجين لنجحه، فانقاد جماحه وانخفض جناحه وساء صباحه وكلّ سلاحه، وتوقل الرجال فى ذروته توقل النجوم فى الأفلاك، ونصر الله أهل التوحيد على أهل الإشراك وفتحناه بالسيف عنوة، ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوة.

فإنا لما توكلنا على الله فى منازلته واستعنا به فى مقاتلته، نظر الله إلى النيات وأعان ذوى العزائم والثبات، فتعلقوا فى الجبل، وتسلقوا إلى القلل، وسعوا إلى الأجل فى طلب تسنى الأمل، فكان كما قال الله تعالى ﴿**وما أَمْرُنا إلاَّ واحدةٌ كَلَمحٍ بالْبصرِ**﴾ [القمر: ٥٠] حتى منّ الله بالظفر وأصفى الورد والصدر من الكدر، وقد بقيت أنطاكية وما لها بقاء ولا لها فى الاعتصام رجاء، وقد نقصنا أطرافها واستبحنا أكنافها، وشفهنا نطافها، وعضدنا من رؤوس أهلها بحدود الصوارم قطافها، ولم يبق من معاقلها إلا القصير ودرباسك وبغراس، وقد تقدم إليها الفاتحان الرعب والباس.

* * *

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت آماله ورجحت أعماله، وجلّ إقباله، وأقبل جلاله، وعبر عند شقيف دركوش إلى شرقى العاصى، وقد دانت ودنت له المقاصد العواصى القواصى، وأقام أيامًا على جسر الحديد حديد الجسارة، شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح وللمشركين من الخسارة.

ثم قصدنا دربساك، وجددنا بتأييد الله فى حصره الاستمساك، ووجدناه حصنًا مرتفع الذرى، ممتنع الذرا، قد جاوز الجوزاء، وناجت أرضه السماء، وكان عش الداوية بل عرينهم، وطالما أطال فى التعدى أيديهم وعرانينهم، وكانوا قد نزلوا منذ أنزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون، وركنوا بسكنى هذا المعقل إلى السكون. فلما أشرفنا عليهم أشرفوا على المنون.

ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب وقلب الكفر قد وجب، ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها، وصوبت إليهم مسددات مراميها ومرامها، وراميناهم بها ليلاً ونهاراً وأرسلنا إليهم أمثال قلوبهم ووجوههم أحجاراً. وكدنا لا نذر فى أرضها التى هى فى السماء من الكافرين دياراً، وتركنا ناسه بالحجارة صرعى، وأسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال فى حمر المرعى.

وأصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا والشجب، ووجه نجاتهم قد احتجب، وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج، فطلبوا على مراجعة أنطاكية الأمان وأن ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان، فأُجيبوا إلى ذلك على قطيعة، وردوا ما كان للإسلام معهم من وديعة، وتسلم الحصن بما فيه ثانى عشرى الشهر يوم الجمعة وأصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة.

* * *

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت إلى بغراس وقد ضايقنا الأعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والأنفاس. وهى قلعة من أنطاكية قريبة وإنها فى الشدائد لدعائها مجيبة. ورأيناها راسخة على رأس راس، شامخة على عاص عاس، أرضها فى السماء، وجوازها على الجوزاء، متوغلة فى الشعاب متوقلة على الهضاب، منسحبة فى السحاب مضببة بالضباب، مربة على الرباب، متعلقة بالنيرين، متسلقة إلى الفرقدين، محلقة إلى النسرين، ولا مطمع نحوها لطالع، ولا مطلع فيها لطامع، ولا مطمح للامح، ولا ملمح لطامح. وهى للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، ودار دوائرها،

وغار مغاورها، وغيل غوائلها، ومنزل نوازلها، وجعبة نبالها، وهضبة رئالها، ومذب ذئابها، ومدب ذبابها، وكوارة زنابيرها، ومغارة خنازيرها، ومرقب صقورها، ومرقد نسورها، ومكنس وحوشها، ومعرّس جيوشها.

فخيّمنا بقربها في المرج، وقد أنارت من مشروعات أسنتنا في ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج، وتقدم من العسكر جمع كثير وجمع غفير، وخيّم بين أنطاكية وبينها ووكل بها ناظر يقظته وأرقد عنها. فأقام على سبيل اليزك، ودخل في حفظ جانبها في الدرك، وصار يركب كل يوم ويقف تجاه أنطاكية صفًا، ويسومها من الغارات عسفًا، وليس بينه وبينها إلا النهر، ومقابل رجسها منه الطهر. وصعد السلطان في جريدة عسكر إلى الجبل، ووقف بإزاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل، فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته وصوّب لقم الحجر إلى لهاته، ووافق آمريه بالإذعان على خلاف نهاته. وقلنا للمقيم به: خذ الأمان وهاته. وما زالت الحجارات تناوبه، وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه، والصخور فيه تتواقع، والبلايا إليه تتابع. فما شعرنا إلا بانفتاح بابه، وألجأ جماح أصحابنا عليه جماحه إلى أصحابه، وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور، ويسأل الأمن من المحذور، والحل من المحظور، ويقول: إنما قنينا بغراس بغراس القنا، وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى، والمعاقل لا يحميها إلا معتقلوها، والبلاد لا يحفظها إلا أهلوها، وما في هذا الحصن إلا مقدمان، وما لنا بمقاومتكم يدان، وعاد إلى أصحابه من السلطان بالأمان. وتسلّمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالأمس، وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد أولئك الشمس، وأباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس، وأنار في مطلعها سنى السنجق المنصور، وآذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور، وذلك في ثاني شعبان وسر النصر فيه شاع وبان.

وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس إلى علم الدين سليمان، وكان صاحب حصن عزاز، وقد حاز الغنى به وفاز، وما كان في الأمراء الأكابر من لا يدعي سواه الإعواز فألزمه بهما ليعتني بحفظهما، وحضه من عصمتهما على حظهما، فتسلمهما بذخائرهما واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما.

وكانت حينئذ أنطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغلة، وقلّ ساكنوها لما كانوا فيه من القلّة، والغرارة تساوي اثني عشر ديناراً والقوم قد شارفوا فيها تباراً وبواراً، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة سوى ما فيها من تفصيل الأقوات والجملة، فكان تقدير اثني عشر ألف غرارة، فحصل سليمان من منبع هذا الملك على غزارة عن غراره، فقلت: كأني به وقد نقل هذه الغلة إلى أنطاكية وباعها، وأعرض عن متاعب

الآخـرة وحـوى من الدنيـا مـتـاعـهـا، وأذهـب الغلة بذهـب الغلة، ويسـتـحلى مـر هذا السحت ويستحله، ثم يستعفى من حفظ الثغر ويشير بتخريبه. ووقع لى فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه.

* * *

ذكر عقد الهدنة مع أنطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصن، عول على قصد أنطاكية فإنها كانت مريضة على شفا، ورسم قوتها قد عفا، وخلق ثيابها قد انتفى، والدهر قد انتقم منها واشتفى، ووجه الفلاح عن أهلها قد اختفى، فلو صدقها وقصدها لحص دعائمها وحصدها. وكان الإبرنس صاحبها قد عجل بإرسال أخى زوجته يسأل فى سلم تعود ببقاء بهجته، وسلامة مهجته، وعقد الهدنة على بلده، وأمن على ما فى يده، وذلك لثمانية أشهر من تشرين إلى آخر أيار. ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها وإعدادها، ولم يكن له رغبة فى إتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا فى الحرب ووفور الربح.

لكن العسكر الغريب مل الإقامة وأبدى السآمة وأراد السلم والسلامة، وقيل: بهذه المدة من الهدنة لا تزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جدة، ولا ترجوا لها عدة منجدة. ونحن نضرب للعود إليها مع انقضاء عدتها عدة. وأما حصونها فقد حصلنا على عسلها وقتلنا نحلها وأما هى فنعمل فيها بقول الله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

وشرط على صاحب أنطاكية إطلاق من فى الأسر من المسلمين، واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين، وسار رسولنا معه شمس الدين ابن منقذ للأسارى منقذاً، وللأوامر منفذاً، وعلى المقاصد مستحوذاً. وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب والإسلام قد غلب وفاز من الفتوح بما طلب، واستغنى بما جمعه من السبى والغنيمة وسلب وخلب.

* * *

ذكر وداع عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وعساكر البلاد وعود السلطان إلى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه وشيعه بكرامة كرام أشياعه، وخصه بعدما سير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه، ولم ينفصل منهم إلا من وصل بصلة، وخلعة مجملة،

وحرمة مكملة، ووعد جميل يرغب فى العود وجود جزيل منسكب الجود. وذلك سوى ما غنموه من كسب وكسبوه من غنم، واستطلقوه من رسم واستجزلوه من قسم، وملكوه من رق سبى، وأدركوه من حق سعى، وأجدوه من غرض، وأدوه من مفترض، وأحيوه من حسنة النصر، وأماتوه من سيئة الكفر، واستضافوا من فتح، واستفاضوا به من نجح.

وسار السلطان فى عسكره حامداً لله فى مورده ومصدره، وارتاح إلى العبور على أرتاح، وامتار لها باليمين بافتقادها وامتاح. ووصل إلى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل، والملك بها للاهتزاز بقدومه فى ملابس البهاء رافل، وشاهدنا من النظارة عيونًا للمحاسن ناظرة، ووجوهاً ناضرة، وقلوباً حاضرة، وألسناً شاكرة، وأيديًا فى بسطها إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة، واقتضت حركتنا إلى الشهباء لساكنيها سكون الدهماء، وأقام بقلعتها أيامًا يسيرة وألفى ولده الملك الظاهر أسر إحسانًا وأحسن سيرة.

وقام به وبالعسكر مدة المقام واتسقت الأمور بأوامره على النظام، ولم يرحل إلا وقد خص عوامنا وخواصنا بالإنعام الخاص والعام، وأبان عن كل منقبة، وأعان بكل موهبة، فما رآه والده مذ حل بحلب إلا فى أجمل حلية وأكمل حالة، وأجلى بهجة وأبهى جلالة، وقد أجدّ لعينه ولنفسه قرة وقراراً: وأعد لعزمه ولحزمه استنصاراً واستبصاراً. ثم انفصلنا عن حلب منقطعين إلى مواصلته بالدعاء، قاطعين طرقنا المتصلة بدليلى الشكر والثناء. وتنكبنا طريق المعرة بسلوك طريق المعرة، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة، وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقى أبى زكريا المغربى، وهو مقيم فى مسجده عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده.

وقصده السلطان على فراسخ، ولقى منه فى الحلم والوقار الطود الراسخ، واهتدى بسجاياه، واقتدى بوصاياه، ووصلنا إلى حماة وبتنا بها ليلة واحدة ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جاحدة، فإن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، قد كشف عنها بأيالته الكروب، وملك القبول من أهلها والقلوب، وأعاد لها بالعمارة العمرية عمراً جديداً، ومد عليها من مهابته ومحبته ظلاً مديداً.

وكانت قلعة حماة لا تعد فى القلاع المعدودة المحمية، ولا تذكر مع المعاقل المرعية المرضية. وهى ذات تل متبطح، غير مترفع ولا متسفح، فلما تولاها تقى الدين قطع من التل ما كان متواطيًا، وأتلع من التلعة جيداً عاطيًا، وعمّق خندقها فى الصخر وحصنها على الدهر وبنى فيها الدور المرخمة والأروقة المهندسة المهندمة، وحصنها وأعلاها، وحسنها وحلاها، وزينها بكل زينة، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة، فاضلة

فى الشـام كل مـدينة. فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعـة، وسـر بما رأى لهـا من الحصانة والرفعة، ووقف الملك المظفر لعمه وجرى فى الخدمة على رسمه، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا، والنادى قد جمعنا والشادى قد أسمعنا والأغاريد تطرب والأناشيد تعرف، بما انفصلنا تلك الليلة إلا عن علم نشر، وشرف أنشر، وفضل سنى، وعدل أحيى، ورسم نائل للسماح أجرى، وزند سائل بالنجاح أورى، وسنى جد أعلى، وجنى جود أحلى، وقرأ لذوى الحاجات القصص، وأزال من الظلامات الغصص، وأنال لذوى الخصاصات الحصص.

وأصبحنا على الرحيل، ووصلنا العنق بالذميل، وعبرنا مغدين على حمص وزدنا فى الوصول إلى دمشق على طريق بعلبك الحرص، وجئناها قبل شهر رمضان بأيام، وركنا إلى ما أنسنا به من مقام، وتجمع بنا شملها، وتهلل باستهلالنا أهلها، وقلنا: نصوم مع القوم ونقيم مدة الصوم. فما لبث السلطان ولا مكث، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث، وقال: لا نبطل الغزوة ولا نعطل هذه الشتوة. وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها وبطول مضايقتها فنيت أقواتها وقواتها، فننتهز فرصة فتحها التى لا يؤمن فواتها.

وخرج من دمشق فى أوائل شهر رمضان وحد عزمه وميض، ولبارق سعده وميض، وفضله مستفيض، ووجوه الأيام لأياديه البيض بيض، ولسان الدهر فى ذكر سيره وتسيير ذكره مفيض، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه مهيض، وحديث إقدامه القديم والحديث طويل عريض.

* * *

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك فى تسلم حصن الكرك. وذلك أن مدة غيبتنا فى بلاد أنطاكية لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيماً بتبنين فى العساكر محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته فى الأمور عادة السكون. وكان صهره سعد الدين كمشبة الأسدى بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، وقد غلق رهنه وبقى داؤه معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل، وتذرعوا بوسائل الرسائل. فما زالت الرسالات تتردد والاقتراحات تتجدد والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا فى الحكم وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة.

وكتبت عن السلطان فى بعض البشائر ما ألهى بحلاوته عن أرى الشائر، وهو أنّا لما عدنا إلى دمشق رأينا أن لا نستريح ولا نثنى عن كسر العدو عزمنا الصحيح. فقلنا: نغتنم هذه الشتوة وسنتكمل الحظوة ونواصل بالغزو الغزوة ونستخلص هذه القلاع التى شغلت منا فى هذا الجانب قلوباً وعساكر وأبقت هل البلاد فى طريقها ندوباً ومعاثر، وبيمن صدق هذه العزيمة والاستمرار فى الجهاد على الشيمة، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب، وهو الحصن الذى كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب أشراك إشراكه منه على طرق الاجتياز، فأذقناه عام أول كاس الحمام، وملكنا حصنه الذى كان يعتصم به فى هذا العام. واضطر الكفر فى إسلامه إلى الإسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام. وقد كان هذا الحصن ذنب الدهر فى ذلك الفج وعذر أهله فى ترك الحج وابتسم الإسلام حيث زيد ثغراً، وساق إلى عقائله الرجال مهراً، فالحمد لله على ما قدر من الحسنى، ويسّر من النعمى حمداً يكون لما قدر إزاء ولما يسر جزاء، والحمد لله الذى أنجز صادق عداته فى كاذب عداته.

* * *

ذكر محاصرة صفد وفتحه وإدراك السعى فيه ونجحه

وقطعنا مخاضة الأحزان خائضين فى بحار المسرات المتواصلة، راكضين إلى مضمار المبرات الحافلة، والسلطان سائر والجنة تحت راياته مفتوحة أبوابها، والنصرة فوق ألويته ممدودة أسبابها، فى أطلاب أبطال إذا أوعاها الفجر لم يسعها إلى عشائه، وإذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه، ونزلنا على صفد، والصبر قد نفد، والنصر قد وفد، والقدر قد وقد، والعزم قد وقد.

وجاء الملك العادل وظاهر أخاه، وضافره فيما توخاه، وشد بالرأى والحزم ما الزمان أرخاه، وبعث كل ذى عزيمة على التصميم ونخاه، وشرعنا فى مراومة القلعة، ومساومة السلعة، وجثت المجانيق لاجتثاثها وحدثتها بألسنة أحداثها، ورمتها عن قسيها بالقاسيات، وسمت إلى هضاب تلك الأ[illegible]ج الراسيات، وأمطرت عليها حجارة ولم نعطها من العذاب الواقع بها إجاره، فما رفع بها الحصن الراسى رأساً، ولا الحجارة مست منه ركناً ولا النقوب باشرت أساساً. ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها، والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها، ودمنا عليها إلى ثامن شوال ونوعنا فى افتتاحها الاحتيال، حتى أذن الله فى الفتح فسهل ما تصعب، وحضر ما تغيب، وظهر ما تحجب، وتيسر ما تعسر، وأمكن ما تعذر، وتأتى ما تأتى، وأجاب نداء الإسلام ولبى، وعلموا أن صفد إن لم تخرج من أيديهم دخلت أرجلهم فى

الأصفاد، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد، ونزلوا من سماء العز إلى أرض الهوان، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالإذعان، وأخرجوا أسارى المسلمين ليشفعوا لهم فى طلب الأمان، وصارت صفد للمسلمين صدفًا، وكانت بالمشركين هدفًا، وعادت للإسلام سدًا بعد أن كانت للكفر رداء ومردًا، وطالما مكث فيها المشركون وقالوا: اتخذ الرحمان ولدًا، لقد جئتم شيئا إدًا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا، ولقد كانت مارنًا للكفر جدع، ومرفقًا للشر قطع، وناظرًا للعدو غض وقد شخص، وجارحًا له هيض وقد قنص، ويدًا للباطل شلت وقد امتدت، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت، وتخلصت الداوية بأدوائها، وتملصت بأسوائها، وصاروا فى صور وأبدوا بعد استطالتهم القصور.

* * *

ذكر ما دبره الفرنج فى تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج أن صفد لنا صفت، وأنها على الفتح الذى يشفى أشفت، قالوا: لم يبق لنا إلا كوكب، وإن صلاح الدين عن قصدها لا يتنكب، وقد أقوت من القوة، وهى تهى إن لم نعاجلها ونعالجها بالنجدة المدعوة، وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها، وقلّ ظهورها لظهور إقلالها، وهذا أوان إنجائها وإنجادها، وهى مشرفة على العدم فدبروا فى إيجادها، فإذا قويناها وحميناها بقيت عدة فى العواقب، وعصمة فى النوائب، فقال مقدم الأسبتار: هى كوكبنا المتلالى، ومنكبنا العالى ومعقلنا المحكم، ومعقدنا المبرم، وحصننا الحصين، ومكاننا المكين، ولنا منه المربع المريع، والمنبع المنيع، والمحل المحلى، والمعلم المعلى، وهى قفل من البلاء على البلاد، وموئل من الخطوب الشداد، ولعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا، وتعود إلى عادة الانتظام سلوكنا، فما تبطىء جداتنا، وما تخطىء نجداتنا. وأجمعوا على تسيير مائتى رجل من النخب، المعدين لدفاع النوب من كل جرخى نخى، وكمى أكمى، وجهم جهنمى، وسقر سقرى، ووعل جبلى، وبطل باطلى، وكلب كلب، وذئب سغب، وعاسل معاسر، وباسل باسر، ومغوار مغو، ومتلوم متلو، وذمر متذمر، ونمر متنمر، وسبع ضار، وشواظ من نار، وجمر من الجحيم، وخام من الحميم، من شياطين يجنون الجنون، ويمنون المنون، ويشينون الشؤون، ويهدون الهدون، ويحزون الحزون، ويفوتون الفتون، ويظنون بالله الظنون، وقالوا لهم: كيف تمضون وطريق السلامة مخيف وطارق الإسلام مطيف، والشجا منيف، والشجب مضيف، فقالوا: نحن نسير ونصير فى ضمائر الكهوف أسرارًا، وعلى أجياد الأطواد أزرارًا، وفى أوكار المغارات أطيارًا، وفى أعماق السيول أكدارًا، وعلى ظهور الربود أوزارًا، نسرى ليلاً ونختفى

نهاراً، والليل للعاشقين ستر ولكم أدلج من له وتر، والنهج وإن بعد فهو فى قرب عزمنا فتر، ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه فى الخطر، وطار إلى الوطر، وغرب إلى الغرر، ثم عزموا على ما زعموا، وعملوا بما عنه عموا، وخطروا إلى الخطر، وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر، وتوقلوا فى الأكم، وتوغلوا فى الأجم، وتبطنوا فى الأودية، وتكمنوا فى الأفنية، واحترسوا بالكمون، واحترزوا من العيون، وتحركوا على السكون، وكادوا يصلون إلى الموضع، ويحصلون على المطمع، ويدركون الطلاب، ويهتكون الحجاب، ويعيدون إلى الحصن روحه، ويأسون بعد اليأس جروحه. فعثر بواحد عثر منهم بعض المتصيدين فتصيده، وقاده وقيده، وأتى به إلى صاحبه صارم الدين قايماز، واستغرب من الإفرنجى هناك الجواز، فأخبره بالحال، وإن بالوادى مكمن الرجال، فركب إليهم فى أصحابه، والتقطهم من سرر الوادى وشعابه.

وركب الشجاع مسعود فى طلب أولئك الأشقياء، وانتشر الناس فى تلك الأكناف والأرجاء، فما نجا منهم ناج، ولا نجح راج، ولا عاش عاش، ولا حصل عاثر بانتعاش. فما شعرنا ونحن على صفد للحصار، والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الأنصار حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مقرنين فى الأصفاد، مقودين فى الأقياد، وكان فيهم مقدمان من الاسبتار، وقد أشفيا على التبار. فإن السلطان ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية، فأحضروا عند السلطان للمنية، فأنطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما، وقالا عند دخولهما وأمام مثولهما: ما نظن أننا بعدما شاهدناك يلحقنا سُوء. فعرفت أن بقاءهما مرجو، وانتظرت أمر السلطان فيهما، وأيقنت أن يبقيهما، فمال إلى مقالهما وأمر باعتقالهما، فإن تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقنت منهما الدم، واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفر من التدبير، وإتعاس من جردوه بالتدمير، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال، فشكرنا على أن مدد النصر متوال، وسلمت القلعة إلى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال.

* * *

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا إلى كوكب، ووجدناها فى مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء، ومنزل العواء، قد نزلتها كلاب عاوية، ونزعت بها ذئاب غاوية، ونزت فيها سباع ضارية، وحمتها بحميتهما وأبت النزول على أمنيتنا ولو بنزل منيتها، واختار العطب على العطاء، وأمترت خلف الخلف والشقاق للشقاء، وأبت غير الإباء، وبصرت بالأمر فصبرت على الضر، وأصرت على تحمل الأصر، وترامت على التعامى بالمصائب،

وتعامت على المرامى الصوائب، وقالوا: لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاسبتار وخلصه إلى الأبد من العار ولا بد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتجلد للاصطبار ونتشدد للانتظار. فقاتلوا أشد قتال، ونازلوا أحد نزال، وفوقوا الجروخ المصمية، وصوبوا الصخور المردية، ورفعوا المنجنيقات الموجية، وتواترت زيارات الزيارات الموترة، وتناوبت نوائب الزنبوركات المطيرة، واجترأوا على الاجتراح، وجرى سيل الجراح، ودمنا فى الدم، ورد الوجود إلى العدم، وتجزئة الرجال، والتجريد للقتال، وإيتار الحنايا، وإيثار المنايا، والرمى فى المنجنيق ، والجمع والتفريق، والرقع والتخريق، والنقب والتعليق، والحفر والتعميق، والحصر والتضييق ، والهد والهدم، والرد والردم، والصد والصدم.

وكان الوقت صعبًا والغيث سكبًا، وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم فى الطين غريقة، فلا لمركب مبرك ولا مربط، ولا لسالك مسلك ولا مسقط. وكنا فى شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الأقدام، ووهى الأطناب ووقوع الخيام، وكأن الخيم مناخل الأنداء، وعدمت الأنوار لوجود الأنواء، وفقد ماء الشرب مع سيل الماء، والروايا ما نهضت ، ولا نزعت ولا غمضت، والرواحل فى الطين باركة، وللحياة فاركة، وللعلف تاركة، والمطية مطينة، وسبل السيل مستبينة، وقد كشر البرد بالبرد، عن أسنان عضاضة بالدرد، والطرق زلقة لزقة، وهى مع سعتها ضيقة، وللثق ثقل، وللعلق عقل، وما ثم إلا ما نيط بالطين، وصعب علينا بصعوبة هذا الأمر أمر أولئك الشياطين، فنقل السلطان خيمته إلى قرب المكان، لتقريب وجوه الإمكان، وبنى له من الحجارة ما صار له كالستارة، فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تدعرنا، والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا، والنقاب قد قلع وعلق، والجرخى قد هتك الحجب وخرق، وتجرد الجند، وأنجد الجد، ونزلت الأثقال والخيم إلى أسفل التل، فخفت الثقل بنقل الثقل، وطاب المقام بالغور وسهل بالسهل، وتحولت الشدة إلى اللين، وتحللت إلى الطيب عقد الطين ، وما زال السلطان ملازمًا للحصن، وهناك ظاهرة له منه أسباب الوهن، حتى علق بعض جدرانه، وطرق الهدم إلى بنيانه، فتسلمه بأمانه وأذهب سكون سكانه، فأخرجهم راغمين، وأخرجهم غارمين، وتركوا الحصن بكل ما فيه، وأصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه، وذلك فى منتصف ذى القعدة، وانتصفت الأيام بحل تلك العقدة، ورجعت الليالى بالسكون إلى طيب الرقده، وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها، وخلوها وأبوا أن يلوها، وتخلوا عنها بهمم واهية فوليها قايماز النجمى على كراهية بعزيمة عن مهامها لاهية.

وانتقل السلطان إلى المخيم بالفضاء، وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة

القضاء، وودعه الأجل الفاضل على عزم مصر بعدما استكمل لنا مدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر. ثم تحول السلطان إلى أرض بيسان، وأزال البؤس وزاد الإحسان، وأقام بقية الشهر، فى تمهيد مجد يقيم باقى الدهر، وأظهر من الفضل ما لم يكن مستوراً، وأعطى الأمراء والأجناد فى انفصالهم دستوراً، وسار ومعه أخوه الملك العادل مستهل ذى الحجة واضح المحجة لائح البهجة، وأوجها إلى القدس فى طريق الغور، وزاراه للبركة وتبركا بالزور، ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى فى قبة الصخرة، وخص ذوى الخصاصة بعميم المبرة وعيّد بها يوم الأحد الأضحى، وأضحى بعدما ضحى، وقد أصحب مراده وأصحى.

وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر فى مهامها ونظم أسباب أحكامها وتدبير أحوالها وترتيب رجالها، وأقام أياماً يوضح الجدد، ويصلح ما فسد، وينشد من النفع ما فقد، ويخمد من الشر ما وقد، فإذا وجد شعثاً لمه، وإن ألفى نشراً ضمنه، وإن صادف فتقاً رتقه، وإن لقى حقاً حققه، وإن عثر على باطل عفى أثره، وإن بصر بآمل خصه بعرفه وأثره.

ثم ودعه أخوه الملك العادل واستقل إلى مصر بعسكره، ورحل السلطان على صوب عكاء موقفاً فى مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده، وكثر عدده، وواصل بالرجال مدده. وكنت انفصلت عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان، لعارض مرض سلبنى الإمكان، والحمد لله الذى وفّر حصة الصحة وحوّل المحنة إلى المحنة، وكمل الشفاء بعد الإشفاء، وأهدى عند اليأس أرج الرجاء.

* * *

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان فى عكاء مقيم، والأمر مستقيم، والنهج قويم، وهو يبوّب أسباب حفظها، ويسبب أبواب حظها، ويهذب مراتب مصالحها، ويرتب مذاهب مناجحها، ويعدل جوانح أمورها، ويذلل جوامح جمهورها، ويقوى ما وهى ويسوى ما هوى، ويحلى من الشأن ما عطل، ويعلى من المكان ما سفل، ويعيد نظم ما انتكث ولمّ ما تشعث، ويجيد كل ما دعا إلى بعث ما مات منه وبعث.

ومكث بها لا يريم القصر، إلى أن وصل جماعة من مصر فأمرهم فيها بالإقامة محافظة على الحماية المستدامة. فأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور، وإحكام أحكام الأمور، وولى الأمير حسام الدين بشارة بعكاء واليا، ولم يزل لآثار الدولة فى إيثار العدل تاليًا. ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر، وقد استكمل الظفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وحزب الهدى قد أنس ونفر الضلال قد نفر، وجلس على سرير السرور، ولبس حبير الحبور، وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادى والحاضر، وأقام سفور بشره للمقيم والمسافر، وأفاض الفضل، ومحا المحل، وأعلى أعلام العلماء، وأحلى أحلام الحلماء، وأمضى أحكام الحكماء، وقضى بإكرام الكرماء، وأسدى المعروف، وأعدى الملهوف، وأنكر المناهى، ونهى عن المنكر، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر.

وأقام مدة الشهر وأولياؤه جناة النصر، وأعداؤه عناة القهر، وأيامه مسفرة، ولياليه مقمرة، ومغارس أياديه بثمار المحامد مثمرة، ومجالس أعاديه فى ديار الشدائد مقفرة، والملك بزهوه زاه زاهر، والدين ببهائه مباه باهر، والآفاق منيرة والأنوار مفيقة، وللدولة حق مدال وحقيقة، وللجد وافى جده، وللجود وفى عهده، وللسماح سماء تهمع، وللمراد مراد يمرع، وللوجوه بالبشر بهجة، وللألسنة فى الشكر لهجة، وللهمم علو، وللشيم سمو، وللكرم نمو، وللفضل قيمة، وللأفضال ديمة، وللشريعة شرعة واضحة، وللحق سنّة لستر الباطل فاضحة، والصنائع راجحة، والذرائع ناجحة.

* * *

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولى العهد عدة الدين أبى نصر محمد ابن الإمام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد أمير المؤمنين

بتاريخ أوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة، ومقر الجلالة، ومربع الإمامة، وموضع الكرامة، ومطلع الهدى، ومنبع الندى، ومشرق نور الإيمان، ومشرع فيض

الإحسان، ومرجع المرجين، ومفزع الملتجين، ومنجى الناجين، ومنتجى المناجين، ومهبط الوحى، ومصعد الأمر والنهى، ومقصد نجاح السعى، ومخفض جناح الرحمة، ومقطف جنى النعمة، وجرد ذيول المناقب، ومجرى سيول المواهب، ومزار أملاك السماء، ومدار أفلاك العلاء، ومحج ملوك الأرض، ومحجة سلوك الفرض، وموطن التنزيل، وموطىء جبريل، ومقام الخلافة، ومرام الرآفة، ومحمل الأمانة، ومحل الديانة، ومطاف الطائفين، ومطار العاكفين، ومعرف الواقفين، وموقف العارفين، وقبلة المقبلين، وموئل المؤملين، وكعبة القاصدين، ومثابة الوافدين ومعفر وجوه العظماء، ومكفر ذنوب الكرماء، ومعصب السيادة القرشية، ومنصب الوراثة النبوية والسدة الشريفة الناصرية، ودار السلام، وقبة الإسلام، فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول، وسر سره، وأبر بره، وصدر بنشر الانشراح صدره، وقدر على الاتسام بالتسامى قدره، واحتفل بأسباب التلقى، والتحف بأنواب الترقى، وسأل عن الرسول المندوب، للسؤال المخطوب، فقيل: هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة، وصل بالضياء والسكينة والأحوال الحالية المزينة.

وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديدة، فعيّن لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف أراءه السديدة، فتلقاه يوم دخوله إلى دمشق السلطان وأولاده، وكان يوماً مشهوداً حضره أعيان البلد وأماثل العسكر وأشهاده، وأنزله فى دار الكرامة، ورتب له وظائف الإقامة. ثم جلس له فى يوم سعد صباحه، وبدت فى جبهة الدهر البهيم غرره وأوضاحه، وملأت ظرفى الزمان والمكان أفراحه، وجاء على وفق الآمال اقتراحه، وختم باليمن والإقبال رواحه، وورد بكل ما أبهج الأولياء، وأزعج الأعداء، وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه، وثنى عطف تباهيه وهزه، ورسا له طوداً بالوقار فى إيراد الرسالة، وجلاله فى مهب المهابة أنوار الجلالة، وتلفظ له بالتفضيل، وتطوق منه بالتطول، وبشر بأن أمير المؤمنين فوض ولاية عهده إلى ولده عدة الدين أبى نصر محمد من بعده، وأخذ بذلك العهد على من حضره من أعيان الأمة، وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم الله به من النعمة، وأمر بأن يخطب له بمصر والشام وجميع بلاد الإسلام فاستبشر بهذه الموهبة، واستظهر بما خص به من هذه المرتبة، وأمر بذكر اسمه ونقشه فى الخطبة وعلى السكة. وعاد الإسلام به ظاهر الشوكة والشكة، وخطبنا لولى العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ولم يبق من الأمراء والأماثل والأفاضل إلا من حضر، وأحضر معه الدنانير ونثر، وتولى ذلك الملك الأفضل فأظهر أبهة ملكه وبهاء فضله، وحصل الإسلام من ريّ رأيه على نهلة وعله، وندب للرسالة إلى الديوان العزيز ضياء الدين الشهرزورى القاسم بن يحيى، لينشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة

ويحيا، وسيرت معه الهدايا، والتحف والطرف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها الكوامل النفائس، وتاج ملكهم السليب والصليب، والملبوس والطيب، وأضيفت على رسول الإمام ملابس الإكرام، وقفل ناجح المرام، واصطحب الضيآن لإضاءة مطالع الإيمان، بسفارة سافرة عن سنى الإحسان، وبشارة شائرة جنى النحل من نحل الجنان، واهتزت الأعطاف، واعتزت الأطراف، وابتسمت ثغور الثغور لسدادها، وانتظمت أمور الجمهور لسدادها، وسرت القلوب، وسريت الكروب، وخزى الحاسد الحاشد، وقوى الساعد المساعد، وواصل فى طريقه الإغذاذ، حتى وصل إلى بغداد، فتلقى الرسول بالسول، وقوبل بالقبول، وخرج إليه الموكب الشريف، وأضيف له إلى تالد جده القديم جده الجديد الطريف، ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيأة يوم قراعها راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وأدراعها، وقد نكست بنودها واتعست أنوفها، وهيئت على هيأة فتوحنا حتوفها، ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها، ثم عطف به إلى دار الكرامة فنزلها.

وألفى الوزير ابن حديدة قد عزل، وأقام فى بيته واعتزل، وتصدر فى الدست للنيابة، وسماع الخطاب والإجابة، من له المجد الأثير الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الإنشاء، وقد خص بتولى الحل والعقد والأخذ والإعطاء، فتولى سماع الرسالة وجوابها، وأولى صوبها ووالى صوابها، وسيأتى فى موضعه ذكر ما انتهت إليه الحال وجرى به الفال، وكيف شغلت العوائق وعاقت الأشغال.

* * *

فصل مما كتبته فى المعنى عن السلطان إلى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال، وأداء من فرض الإعظام والإجلال وقام به من الأمر الذى قام به أمر الدين والدنيا، وبادر إليه من استثمار طاعته التى دامت لها من نعمة الدار العزيزة فى إزكاء مغارسها السقيا، وحل حبا الحب لما حل من حبائها، وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها، وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها، واستجد عهد الجد المورث المونق بما جاد ثراه من تراث عهادها. ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين، وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين، ووفق لما وافق المراضى الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا، واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء فى استيفائه بما قضى، وسبق إلى ما سبق به جواد صدقه فى جواد قصده، وافتتح فريضة طاعته فى حلاوة عبوديته بتلاوة فاتحة حمده، وانتهى إلى نهاية النهى، وأطاع

ما أطاق فيما أمر الله به ونهى، وما وضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده، وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافد النصر ومدده، وأن يعضده بولده ولى عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا والدين ويقرّ به عيون المسلمين.

فقد فاضت البركات، وآضت الحسنات، وأضاءت الكرامات، وراضت جماح الأمانى المبرات المبرّات، وهاضت جناح الكفر الفتكات الرديات، وعمت الميامن، وتمت المحاسن، ونمت ونمت النعم الظواهر والبواطن، وضمنت بسكون الدهماء أهلها المعاهد والمواطن، وصدحت المنابر، وصدقت المفاخر، وصدعت الأوامر، وصدفت الفواقر، وصدمت قلوب أهل النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر، ونقشت صفحات الدرهم والدينار، ونعشت عثرات الأخيار الأحرار، وفرشت مفوقات الأنواء والأنوار، وعرشت أسرة المبار والمسار، ورفعت رغبات الأبرار، وسمعت دعوات الأسحار، ونزل النصر، وفضل العصر، ووجب الشكر، وشجب الكفر، ورحب الصدر، وأصحب الدهر، وسحت سماء السماح، وصح إرواء الأرواح، وتضوع نشر الانشراح، وتوضح صباح الصلاح، وطال جناح النجاح، وطاب جنى الأفراح، وعظم القدر، ونظم الأمر وحسن الذكر، وأمن الذعر، واهتزت أعطاف الإسلام، واعتزت أطراف الشام، وتبلجت أيامن الأيام، وتروجت أمانى الأنام، وأرجت أرجاء الرجال، وثبتت بأسناء الإسناد رواية أمالى رى الآمال، وقرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع، وأقرت الألسن والتهجت بالحمد الجامع، وقرت الأنفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع، ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع فى نفع الأوام ونقع الأنام مناب المنابع، وأرخت السير وسيرت التواريخ، وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها التضميخ، وأشرق المغرب من بشر البشرى، وأنارت مصر من حسن هذه الحسنى، وبسمت بسمة الشرف منابر الأقاصى والأدانى موافقة لمنبر المسجد الأقصى، وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب، وفاحت فى مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب، وعاد الزمان إلى اعتداله وعاذ العدل بزمانه، وتاب الدهر من عدوانه، وآب إلى إحسانه، ورجع الدين إلى سناء سلطانه، وفجع الكفر بعبدة صلبانه، وبطش الإيمان بأيمانه، واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه، وتقاضى الربيع بقروضه، وضاقت ضيوف فيوضه، وعتب العزم على ربوضه، وحض الحظ على نهوضه، وحث الحب على إقامة سنن الجهاد وفروضه، فقد درت أفاويق الآفاق، وذرت أشعة الإشراق، وأفترت نضرة الحدائق لنظرة الأحداق، وراقت أوراق الألوية كالتواء الأوراق، وأزهرت البيض والسمر كإزهار الرياض، وأنف غرار الجفون فى الأغماد من الإغماض، وتيقظت الأقدار للأقدار على إيقاظ عيون

البيض لإجراء دم الشرك المطلول، وتنزل البركات فى انتجاع المراق من نجيع المارقين لإنزال نص النصر على النصل المسلول، وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعى الحشيش، ويطير إلى أوكار المقل طير السهم المريش، وترتع ثعالب العوامل فى عشب الكلى، ويطن ذباب المناصل فى لوح الطلى، وترن رقاق المرهفات فى رقاب رنين الخطب على الأعواد، وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد، وتحمل أشجار القنا بثمر الهمام، ويجيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام، ويقطف ورد الموت الأحمر، من ورق الحديد الأخضر، ويوقف حد الهندى الأبيض على قصر بنى الأصفر، ويجرى فى ورد الوريد جداول البواتر، وترمى من الحصون العاديات إلى حصون العدا جنادل الحوافر، وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر ضوامن الضوامر، وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتخ الكواسر، ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذى، وتعلق فى ملتقى التقى ألفات السمهرى، بلامات السابرى، ويظهر الحق بخذلان الباطل، ويحل بأيدى الأيد ما بقى مع الفرنج من معاقل المعاقل، ويغرق بحر المجر الجرار ما تخلف من ساحات الساحل، فلم يبق به من المدن المنيعة إلا صور وطرابلس، ومعالم الكفر بهما فى هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس.

وأما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة، وعند الاتجاه إليها مأخوذة، على أنها بوقم قومها عام أول موقوذة، وحدود العزائم إليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة، فإنها قد نقصت من أطرافها، ودخل عليها من أكنافها، وجدعت بفتح حصونها عرانينها وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها عرينها. فهى نهزة لمفترض، وطعمة لمقتنص، وسلعة لمسترخص، وبلغة لمستفحص، وقد خرج الخادم ليدخل البلاد، ويستأنف بجهده الجهاد، ويستقبل الربيع بربيع الإقبال، ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات النزال، وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله أن ينجد جند أرضه بجند سمائه، ويوفق الخادم لتصديق أمله فى تطهير الأرض من أنجاس أجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه، فالجحافل حافلة، وأسراب الكفر بين يديها جافلة، ومعاطف الإسلام فى لباس الباس رافلة، ونصرة الله بإنجاز عداته فى قمع عداته كافلة، والحمد لله الذى وفق عبد مولانا أمير المؤمنين فى طاعته لنصر أمره وإخلاص الولاء له فى سره وجهره، واقتناء كل منقبة حقق بها فضل عصره، وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما يفتح مربحاً إلا بتقليدها، ولا يستنجح مرتجى إلا بتأييدها.

* * *

ذكر خروج السلطان من دمشق لأجل شقيف أرنون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر فى دمشق، وقد أطاب لمناشق الآمال من نشره النشق، ثم خرج منها فى ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعة، متوجهاً إلى شقيف أرنون، ليقر بفتحه العيون، ويصدق فى استخلاصه الظنون. وأتى مرج برغوث وأقام به إلى يوم السبت حادى عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث، ثم رحل على سمت بانياس، وقد أوقع رعبه بين أهل الكفر اليأس. وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف وجمع على من به من آلات الحصار أسباب التخويف، وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول فى أواسط فصل الربيع. وأقام فى ذلك المرج الوسيع والروض الوشيع، وأسمنا الخيل فى أعشاب واصية، ورتعنا فى ألطاف من الله دانية غير قاصية.

وكان الشقيف فى يد صاحب صيداء أرناط وقد أكمل فى حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان لحكمه طائعاً، ولأمره سامعاً، ولرضاه تابعاً، وفى موضعه شافعاً، وعلى حصنه خاشياً ولأجله خاشعاً، وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس بحالة فلا يسلم من جهله. وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل فى طاعة السلطان ومراضيه ويخدمه على إقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه. فأكرمه وقرّبه، وقضى إربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً ما بذله بذَله، وأمهى غرب رغبه وأمهله، وأخذ له وما خذله، وخلع عليه وشرّفه، ورفعه فى ناديه بنداه وعرّفه، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه، ووجد إليه سكوناً وعنده سكينة. فشرع أرناط فى إزالة حصنه وإزالة وهنه، وترميم مستهدمه، وتتميم مستحكمه، وتوفير غلاله، وتوفية رجاله، وتدبير أحواله، وتكثير أمواله. ونحن فى غرة من تحفظه وفى سنة من تيقظه، وفى غفلة من حزمه وفى غفوة من عزمه.

وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة ويكثر فيه الذخيرة، وقد صدقنا كذبه، وحققنا أربه. وأنهى إلى السلطان ما هو مشتغل به من عمارة يجدها، وذخيرة يعدها، وثلمة يسدها، وقوة يشدها، وميرة يستمدها. وكان بالمذكور سديد الظن، شديد الضن، لا يقبل ما فيه يقال ولا يظن به عثوراً يقال. فلما كثر فيه القول وتمكن من مسألته العول لم يرد أن يبدى له ما قيل ولم يصدىء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل، فأمر بالانتقال من المرج إلى سطح الجبل وتحويل الخيم إليه والثقل وذلك ليلة الجمعة ثانى عشر جمادى الآخرة وأظهر أن المرج وخيم والمقيم به سقيم وأم الدهر فيه

بالصحة عقيم، وكان المقصود أن الشقيف من عيانه يقرب وأخباره عنه لا تعزب، فلما علم صاحب الشقيف بقربه شرع فى إزالة ما فى قلبه وجاء إلى الخدمة واستمسك بالعصمة وذكر أنه متعزز بذل الطاعة وبذل الاستطاعة وتضرع خاضعاً، وتعرض خاشعاً، وذكر أنه تخلف له أهل بصور وأنه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور، وإنه يترقب وصولهم ويأمل عنده حصولهم. وشرع فى تقرير هذا الحديث وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده النكير النكيث. وأقام يوماً وعاد إلى حصنه وقد وجد من السلطان دلائل أمنه.

وكانت المدة قد دنا انتهاؤها وقرب انقضاؤها فإنها إلى آخر هذا الشهر، ولم يجد بداً من التسليم أو الغدر، فعاد بعد أيام باكتئاب واغتمام، وحضر عند السلطان فقال ما أظهر به الابتهال واستزاد الإمهال، وذكر أنه رقيق الامتنان وعتيق الإحسان وإنه العبد القن، وقد دخل عليه الوهن وغلق به الرهن، وإنه يبقى أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن، ومن أنشأ غرساً سقاه فأبقاه، وأشكاه فأزكاه، وأسماه فأنماه، وقد اصطنعتنى ورفعتنى فلا تضع الرفيع ولا تضع الصنيع. وسأل أن تكون المدة سنة وأن يتبع الحسنة فى حقه حسنة، وأن يرخى بطوله طوله، وأن يشفى بشفاء ألمه أمله. فراقه قوله، فرّق له طوله، ثم أفكر فى أمره واستمر فى فكره فغادره على عزيمة غدره، وجاهره بسر شره بعد أن ماطله وطاوله، وزاوله على ما حاوله. وأقام أياماً يردده ويخصه من الكرامة بما يجدده، ثم كشف له الغطاء بعد أن أجزل له العطاء، وقال له: قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك، فجحد ما عنه رقى، وإنه كيف يلقى بالكفران ما من الإنعام لقى، وإنه إن لم يسعد بإمهاله فى الشقيف شقى. ثم سأل فى ندب من يوثق بأمانته ويؤمن إلى وثاقته ليدخل الموضع ويلمحه، ويحضر بوصف ما شاده ويشرحه.

فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه وذكر أن الحصن قد غيّروه، وإنه قد استجد فى سوره باب واستمدت له من أحكام أحكامه أسباب، فاستحكم به الارتياب، وعرف أن السرح قد حوته الذئاب. فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم وقيل: لعله يحسن فلا يحوج إلى مقابحته ويسلم. ثم قيل له: قد بقى يومان من المدة المضروبة والمهلة الموهوبة فتقيم عندنا حتى تنتهى المدة وتنقضى وتسلم الحصن وتسلم وتمضى. فأبدى ضرورة وضراعة وقال سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق وفى لسانه زلق، وما عنده من كل ما يفرق منه فرق، وقال: أنا أنفذه إلى نوابى فى التسليم. وهو قد تقدم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه وقالوا: يبقى مكانه، فقال: قد بقى من المهلة يومان فماذا العجلة التى يفوت بها الغرض ويطول منها المرض. فصبر عليه إلى

يوم الأحد ثامن عشر (ى) جمادى الآخرة وهو آخر مدته، وأول شدته، وأوان انقضاء عدة عدته. وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول والصعود والنزول ويضايق غريمه المطول قبل أن يمتد حصاره ويطول. وحمله جماعة من الأمراء ووقفوا به إزاء حصنه فناداهم فى دراك أمره وفكاك رهنه، فخرج إليه قس قاس باسر عن باس، فحادثه فى حادثة بلغته ونافثه فى كارثة بغلته، وتحاوروا فى السر وتشاوروا فى الشر وكأنما أمره بالتجلد وصبّره على التشدد. وعاد القس الشقى إلى الشقيف وترك صاحبه عانيًا بالعناء العنيف. فقيد وحمل إلى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضره فى سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ فى تخويفه، على أن يبلغ المراد فى شقيفه، فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيّره إلى دمشق وسجنه وألزمه شجاه وشجنه.

وتحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن ورتب لها عدة من الأمراء وأمرهم بملازمته فى الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

* * *

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الأحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته فى حرب الفرنْج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذى خلص من الأسر، وقالوا: نحن فى جمع جم خارج عن الحصر وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للثأر، وأعرنا من هذا العار. وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور وفارقوا بالاستطالة القصور. وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، وحالت بين اتفاقهما حالات، فلم يمكنه من دخول البلد ولج معه فى اللدد، واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر وإنه منتظر لما يبرمونه من الأمر ويصله من الأمر. ثم اتفقوا على أن يقيم بصور المركيس ويدوم منه لملكهم التأسيس ولملكهم التأنيس، وإنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم ويتساعدون على رم ما تشعث من أحوالهم، ويتعاقدون على حل إشكالهم، ويتعاضدون فى تسديد اختلالهم ويقصدون بلدًا إسلاميًا من الساحل ويقيمون عليه بالنوازل إقامة المنازل.

والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والأسلحة والعدد. فأجمعوا على هذا الرأى وبلغوا فى الغى إلى هذه الغاى وشرعوا فيما شرعوه وفرعوا ذروة الأصل الذى فرعوه. ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من اليزك إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر إلى المعترك وإنهم

على قصد صيداء للحصر وقد جسروا على عبور الجسر. فركب السلطان فى الحال فيمن خف من ثقال الرجال وأقتال القتال، وأطلاب الأبطال، وأنجاد الأجناد، وأجلاد الجلاد، والباذلين المهج للجهد فى الجهاد. ووصل الملتقى والشغل قد فرغ، والسيل قد بلغ، والصدمة قد وقعت، والوقعة قد صدمت، والنورة قد ثارت، والسورة قد أسأت فإن اليزكية لما شاهدت جاهدت، وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت، وخالطتهم وباسطتهم وواقحتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وحاردتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين، وصدتهم مهزومين مثلومين، وقسرتهم وكسرتهم وأسرت سراتهم، وبزت بزاتهم، وقنصت عقبانهم، وقصمت شجعانهم، وصادت صيدهم وفرست فرسانهم. ووقع فى الأسر من سباعهم سبعة وغودرت للنسور من أشلاء المارقين بالمازق شبعة، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الأخرش، وقد كان شهمًا بالوقائع يتحرش، وثبتًا بالروائع لا يتشوّش، وأنيسًا بالحوادث لا يتوحش، وكميًا كميشًا بالكوارث لا يتكمش. وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان وكانت الدائرة على أهل الشرك والطغيان.

وعاد السلطان إلى خيم ضربت له بقرب اليزك وقال: لعلهم يعودون إلى ذلك المعترك فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم، وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم. وأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشر الشهر والإسلام بقوة ظهوره على الكفر قوى الظهر. وركب فى ذلك اليوم ليطلع من الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال. وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال وعلى عزمه. وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه ثم ظنوا إن وراءه عسكرًا فى الكمين يحميه. ونفذ السلطان بعض الأمراء إلى الغزاة الرجالة يعودوا فلما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا وختمت بشهادة أولئك السعداء تلك العشية ونفذت من الله فى استشهادهم المشيه، وحمل الحاضرون من الأمراء والعسكرية على الفرنج حملة أردتهم وردتهم، وصدفتهم عن الجرأة وصدتهم، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين فى النهر. وكان يومًا علينا ولنا جنى المنا وأجنى أملنا، وللحرب رجال، والحرب سجال، ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربة، وإقدامهم على العدو لله قربة، فخاضوا من الدم فى اللجج واعتاضوا الجنة من المهج.

وممن لقى الله بالشهادة وختم به بالسعادة الأمير غازى بن سعد الدولة مسعود ابن البصارو، وكان شابًا لنار الحرب شابًا ولدين الرب رابًا، ولما شاهد ما تم من الغزاة انقض فى أصحابه على الفرنج انقضاض البزاة، فدعته جنته إلى طعنة لبتها لبته

فاحتسبه عند الله والده وكدرت عليه موارده . وأوجد جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد وساء عدم الساعد، وبتنا نشكر مساعى ذلك المساعد . وضاقت القلوب، وفاضت الكروب، وألمّ البؤس، وألمت النفوس، وهذه وقعة ندرت، وواقعة بدرت، ونذير حدث وحادثة أنذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة وأذاقونا بعد أن حلا لنا جنى الفتوحات مرارة هذه المرة فأيقظتنا من رقدة الغرة وأخذ الناس حذرهم ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم. ثم رجعوا إلى الله وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١] وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون .

ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم فى مخيمهم وكسبهم فى مجثمهم، وعبور الجسر إليهم والإحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته وأسرع الناس إلى موسمه وخشى فوته، وتسامع أهل البلاد بتصميم عزيمة الجهاد فتباشروا وتبادروا وتسابقوا وتسارعوا، وأتوا من كل فج وجاؤوا من كل نهج، وسالوا فى كل واد، وجالوا فى كل يفاع ووهاد، ووافت مطوعة دمشق وحوران يجرون إلى مر الموت ويجرون المران .

وتوافد من بالمرج والغوطة على الحالة المغبوطة، وقالوا: هذا أوان إحضار الضوامر المربوطة . واجتمعت بمرج عيون جموع مرجت العيون، فخافت الفرنج من هذا الجمع وأنافت على القمع وتعكست إلى سور صور، وعاين أولئك البور الثبور، وتحرزوا وتحرسوا وتوجلوا وتوجسوا، فاقتضت الحال تأخير قصدهم ليتمكن على غرتهم حشدنا من حصدهم .

وعاد العسكر إلى المخيم وسار السلطان إلى تبنين صبيحة يوم الخميس السابع والعشرون لتفقد أحوالها وتأمل أعمالها، وعرض رجالها، ثم سار منها إلى عكاء جريدة ورتب فى عمارتها وولايتها أحوالاً سديدة، ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ، والاستظهار والتيقظ، وأسرع عودته إلى المعسكر عظيم المفخر كريم المعشر، موفق المورد والمصدر، مقرظ المنظر والمخبر، وأقام إلى يوم السبت سادس جمادى الآخرة وبحر مخيمه يموج بأمواج العساكر الزاخرة .

* * *

ذكر ما تم من استشهاد عدة من أمراء العرب

وانتهى إلينا أن الفرنج ينتشرون فى الأرض، وينبسطون فى موضع القبض، ولا يتحفظون فى الرفع والخفض، ويحتطبون ولا يحتاطون، ويحتشون ولا يختشون، ويجنون ثمار الجبل، ويجنون على من يصادفونه بأنواع الغيل، وهم فى غرة من غارة،

وفي جسارة تعود عليهم بخسارة، وفي غفلة تجر عقله، وفي ضلة ترفع عليهم من العذاب ظله. وإنهم إذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب، وانتشروا لضم الأعشاب من الشعاب، خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد وتحفظهم من متعد.

ونفذ السلطان إلى خيل تبنين وأمرهم بأن يصبحوا أولئك الملاعين، فإذا خرجت الخيل إليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها الكمين وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور، وواعدهم على هذا السر المستور. ونفذ إلى عسكر عكاء ليمكن في موضع عينه ولا يظهر مكمنه حتى يكون من وراء القوم مستعداً لما ينالهم من الوقم. وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد، مصدقاً للمقصد، وصادف خيل تبنين قد أغارت وأنارت، وأبرت وأبارت، فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها وعين اليزكية وأوقد عينها، ورتب ثمانية أطلاب من الأبطال، وكمن بتلك الأرجاء كماة الرجال، وانتخب من كل طلب عشرين فارساً أجواداً على الجياد، وأجلاداً في الجلد على الجلاد. فأمرهم بأن يتراءوا للفرنج حتى تصل إليهم وتحمل عليهم، وهم يفرون قدامها ولا يقرون أمامها ويجذبونها إلى قرب الكمين ويوقعونها عليه، ويواقعونها إذا حصلت بين يديه. ففعلوا ما به أمروا ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا وأنفوا من أن يقال عنهم فروا، بل جالوا فيهم وكروا واتصل القتال واشتد، واحتدم المصال واحتد، وطال زمان الحرب وامتد، وطارت جمرات الصفاح، وفارت غمرات الكفاح وثارت غبرات البرى، ودار عثرات الثرى، وانحلت عرى اللمم، وانحطت ذرى القمم، وعدم كل قرن قراره، وكل جفن غراره، ودام نهارنا يجرى بأنهار الدم أنهاره، وعرفت من بالكمين أن الحرب قد اشتبكت وإن الأسد قد اعتركت، وإن البزل قد ارتبكت وابتركت، فتواصل إنجاداً للأنجاد، وتراسل أمداداً بعد الإمداد، فلما رأى العدو أن المدد يكثر والعدد يكثف، وإن عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف، صمم العزيمة على الهزيمة، وعلم أن النجاة عين الغنيمة، فثنى أعطافه، وضم أطرافه، ورد أحلافه، وجرت بين الفريقين مقتلة، عادت أرض المعركة بها وهى مثقلة، وكان قد حمل العرب على وعد العود إلى الكمين والرجوع إلى أسد ذلك العرين، ولم يكن لهم بالطريق خبرة، ولا عبرت من الطوارق بهم عبرة، فتطاردوا بين يدى الفرنج في واد ما له نفاذ، ولا لسالكه إلى منهج ملاذ، ورآهم العدو فعدا وراءهم وسار بجمعه إزاءهم، فلما انتهوا إلى الجبل أدركوا ولم يقدروا أن يسلكوا، فقاتلوا حتى قتلوا وأقبلوا على الله فقبلوا، وهم الأمير زامل بن تبل بن مر بن ربيعة أمير النقرة وسرى الأسرة، والأمير حجى بن منصور بن غدفل بن ربيعة والأمير مطرف بن ربيع بن بردويل بن مر بن ربيعة وآخر معهم فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع، وقدر لهم في رياض النعيم رتوع، وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز، وانتقلوا من العز الفاني إلى الباقي من العز.

وكان معهم من المماليك الخواص من ذوى الجد والإخلاص تركى عربى النخوة غضنفرى السطوة، فلما حصل فى المضيق، وأيس من الطريق، نزل عن فرسه على صخرة بنجوة ونثل بين يديه كنانته فارغًا لذروه، وقد أوتر قوسه وسدد إليهم سهمه، وقبل قضاء الله وحكمه، وحنّ إلى منيته من حنيته، وأصاب منيته من إصماء العدو فى المصاب بأمنيته. فوقفوا عنه بعيداً حين خافوا قربه، وما زالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا أنه قضى نحبه. فأصبح وقد نزف دمه، وترجح على وجوده عدمه. ولما قيل إنه استشهد وطلب ليلحد رمق وبه رمق، وهو فى دمه غرق. فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له فوات الوفاة فأحياه الله بعد أن أماته وجمع أعضاء عليه وقد شارف منها شتاته، وأنشأه خلقًا جديداً، وأوجده فى أجله مزيداً، وهو أيبك الساقى زاده، ما جرى اجتراء على الإقدام، وإجراء إلى مضمار الحمام، فما سمع بعد ذلك هيعة إلا طار إليها ولا أبصر للكفر ضيعة إلا أغار عليها.

* * *

ذكر مسير الفرنج إلى عكاء والنزول عليها ورحيل السلطان قُبالتهم إليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب أن العدو قد ركب وأجلب بخيله ورجله، وطار بجراد جرده ودب دباه فى رجله، وسرحت ذئابه، ونجت كلابه، وجاش عرام جيشه العرمرم، وطاش إلى أهل الجنة بأهل جهنم، ونوى القرب من النواقير، وأضرم بنار السعير مساعى المساعير، وهو على قصد عكاه يجرى إلى المدى برأى جمعه المدامير، وإن نفراً منهم نفر، وسبق إلى النواقير وعبر، ونزل بإسكندرونة، واستباح طرقها المصونة، وهناك من المؤمنين رجال يحمون من طرف الثغر، ويضمون نشر الأمر، ويصمون نحر الكفر، ويجبون غارب الشر ويجوبون جانب البحر، ويطوفون للحراسة، ويطولون بالحماسة.

فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها، وعاقروها وقارعوها، وأهلكوا عدة وملكوا عده، ولما تكاثرت أعداد الأعداء استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء، وتدافعوا بعدما دافعوا، وتراجعوا بعدما راجعوا، واطلع السلطان على خبرهم، وعرف نفور نفرهم. فكتب إلى العساكر الدانية بالدنو للعدو على العدو، فتوافدوا للميعاد وتوافوا للاعتضاد، وتوافروا للجهاد، وتوافقوا فى إدناء المراد بإبعاد المرّاد. ورحل الفرنج ثانى عشر رجب يوم الأحد وافية المدد وافرة العدد، ونزلت على عين بصة، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة، ووصل أوائلهم إلى الزيب، وأجابوا داعية الصليب، فأصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل، ووصل العنق بالذميل،

وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة فى الأودية جرى السيل، وسرنا على جب يوسف إلى المنية آخذين بالحزم تاركين للونية، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفركنا. وبتنا بها تلك الليلة وسكنا. ثم أصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة واطلع منها على الأسرار المحجوبة، وأشرف على العدو النازل ودنا حزب الحق من حزب الباطل. وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين للفرنج مقابلين مقاتلين، فوصلوا فى هذا اليوم وقد نالوا فى طريقهم من القوم، ونزلنا فى أرض صفورية بالأثقال، وتجرد الرجال منها إلى المخيم السلطانى للقتال. وكان من رأى السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكى، أن يسايرهم فى الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم وأتعب قتالهم، وإذا نبتوا تعذر حصدهم، وإذا ثبتوا تعسر قصدهم، وإذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد، وإذا حلقوا فى جو الدو طاروا كالجراد. فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم، فقالوا له: بل نستقيم على السنن القويم ونطلبهم طلب الغريم، وما أهون قطعهم إذا وصلنا وأعجل إدبارهم إذا أقبلنا، والطريق قبالتهم وعر، وللمقصر عن التطاول فيه عذر، فنمضى على أسهل الطرق، ونسد فلقهم بالفيلق.

وتبين لنا بالعاقبة أن الرأى السلطانى كان أصوب، فإن نزالهم عند نزولهم صار أصعب. ونزل الفرنج على عكاء من البحر إلى البحر محتاطين بالانحصار محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق كى خيمته على تل المصلبة، وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالآجام المؤتشبة. وبعث السلطان ليلة وصوله إلى مدينة عكاء بعثا دخلها على غرة من العدو، وتواصلت البعوث إليها التى هى على التزايد والنمو، حتى استظهرت بقوتها، وقويت باستظهارها. فلما اجتمعت العساكر واتصلت بالأوائل الأواخر، عبى جيشه طلبًا طلبًا وميمنة وميسرة وجناحًا وقلبًا، وسار بهيأته وهيبته، وأنزل العسكر على تعبيته، ونزل بمرج عكاء على تل كيسان فى ذوى اختصاصه، وقد نصب من خيامه عليه إشراك إقناصه، وامتدت الميمنة إلى تل العياضية والميسرة إلى نهر الماء العذب، فدارت رحى الحرب، ودام الكرب، وطاب طعم الطعن والضرب، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ما مضى الغرب، وصرنا محاصرين للمحاصرين، مكابرين للمكابرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، وأحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم فى وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً

يصدونهم عن سبلها، ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم، ونراوحهم ونغاديهم، ونعاودهم ونباديهم، ونقدم بعوادينا على عواديهم، ونصدهم ونصدمهم، ويوجدهم البحر ونعدمهم، وما زالت مراكبهم تتواصل، ومناكبهم تتواطل، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون، مترادفون مترافدون، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن، وألقوا على تياره بسط الطبس، وحملوا على البحر أوزار النجس، وتبًا لهم ونعسًا، فإنهم زادوا على رجسهم رجسًا، وبقى القتال بينهم وبين اليزكية كل بكرة إلى العشية، إلى أن وصل الملك المظفر تقى الدين عمر ومظفر الدين كوكبورى الأسد الغضنفر، فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم، ووصل مقدموا الرجال فى الجمع الجم، واستدارت الفرنج بعكاء كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا فى التحرس والتحرز، ومنعوا من الدخول والخروج، ولج أولئك العلوج فى ضبط طريق الولوج، وذلك فى يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه، والإسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته، واستقلت آياته، وعز عزمه، وعلا حكمه، وما منا إلا من أسرج الجرد وجرد السريجيات، وعاج بالأعوجيات، وأشرف بالمشرفيات، وبرز باعتقال الردينيات، ورديان العقيليات، وأزكى المذاكى وقرب المقربات، وقد سن سنان لدنه، وجن جنان قرنه، وساف سيفه ردع الدم، وضاف جوده مضيف العدم، وأقبلنا والنصر مقبل، والظفر متهلل، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان، واتفقت الآراء، وأجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة، عند قبول الدعوات المرتفعة، ومناب منابر الإسلام عن أهله فى جميع بلاده، وإجماع الألسنة والقلوب فى الضراعة إلى الله فى نصرة المجاهدين من عباده، وأحاط العسكر الإسلامى بجوانبهم وكدر عليهم صفو مشاربهم، وفلل مضاه مضاربهم وهم فى مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون، وفى مواطنهم ثابتون، وعلى مواطنهم نابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل، وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل، وكالسور المحيط ما عليه منسلق، وكالجبل الأشم ما فيه متعلق. فزحفنا إليهم فلم يبرجوا، وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها، ودامت الحرب قائمة، وديمة الدم دائمة، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر ما نجز، وحزب الحق ما عجز. فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا وزادوا على ما جرى أمس وألهوا عنه وأنسوا. فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور، وأصبحت شمس الجمهور، واستضاف نورها مستفيض النور، وحمل الناس

من جانب البحر شمالى عكاء حملة شديدة كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة، وفرشوهم على تلك التلول وردوا مضاربهم من فلهم بها بادية الفلول، وانهزم الفرنج إلى تل المصلبة نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة، وأخلوا ذلك الجانب، وخلوا تلك المذاهب، وقلعت خيامهم منها وقطعت أطماعهم عنها، وانفتح لنا طريق عكاء ودخلها الرجال وحملت إليها الغلال، ونقلت إليها الأحمال، ودخل العسكر إليها وخرج وانكشف ضيق حصرها وانفرج، وذلك من باب القلعة الوسطى إلى باب قراقوش، واستطرقت إليها العساكر والجيوش واطلع السلطان على الفرنج من سورها، وشرع فى تدبير أمورها. وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادى، وترك الهوادة فى قصر القصر، والهوادى والفرنج قد رهبوا، ولو قدروا هربوا، ولكن أصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، وأنهم أى وقت أرادوا كانت منهم عزيمة ومن العدو هزيمة، وتوقفوا عن الإتمام وتقدموا عن مقام الإقدام، ولو أنهم استمروا فى الحرب على هيأتهم وهيبتهم، لباء الأعداء لنُجْحنا بخبتهم، فإن الصدمة الأولى أخافت وحافت، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها أنافت، لكن تركناهم حتى عادت إليهم الأرماق، وعاود فرقهم الإفراق، وأبصروا ما بين أيديهم وما خلفهم، وأزالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم، وأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم، ورأوا أن الوقت قد أمهلهم، وقال أمراؤنا هؤلاء قد سهل أمرهم، وخمد جمرهم، وقد حص رياشهم حصرهم، وهم فى قبضتنا أى وقت أردنا، ولقصدهم تجردنا، وقالوا: نصبر إلى الظهر ونمضى ونسقى الخيل ونعود، وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود، فانصرفوا على وعد العود، وتفرقوا فى مراتعهم تفرق الذود، وبلغ العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، وجمع بعد التفرق فريقه، وضم عن الانتشار راجله، وزم رامحه ونابله، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات، والتراس والقنطاريات، وقد صوبوا الجروخ وفوقوها، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها، كأنهم فى الدروع أراقم، وفى المجان علاجم، وفى النهوض قشاعم، وفى الضراوة ضراغم، واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف، ونزورهم بالحتف، ويترجل الأمراء فيتبعهم الأصحاب، وتنشب من آسادنا فى تلك الخنازير من النشاب الأظفار والأنياب، ويتصل الطعان والضراب، فننسفهم ولو أنهم جبال، ونطفىء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال، ومنا من يقول: يدخل راجلنا إلى البلد مستعداً بالأهب متأهباً بالعدد، فإذا زحفنا إليهم، وأوجفنا عليهم خرج من فى البلد من العسكرية والراجل، ونازلناهم من أمامهم ومن ورائهم بالنوازل فلا تطرف لهم بعدها عين، ولا يبقى للدين بعد درك النار منهم دين، ومنا من يقول: لا بل نفرج عنهم ونبعد منهم،

فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة والمحاققة والمحاصرة، والمكابدة والمكابرة، فإنهم يتيقظون وينتبهون، ويتحفظون ولا ينتهون ويتحرزوا ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون، فإذا أرخينا طولهم وأوسعنا أملهم، استرسلوا بعدما استبسلوا، واستقبلوا لدعة بعدما استقتلوا، واطمأنوا فطمعوا وإذا أبطأنا تسرعوا واغتروا بأنا على غرة فأغاروا، وظهرت لهم آثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا، فحينئذ حينهم يحين، وشينهم يشين. وإذا ظهروا ظهرنا عليهم، ومتى أصحروا صحرنا إليهم، وإن بارزوا بارزناهم، وأنجزنا عدة أمانينا فيهم وناجزناهم، ومنا من يقول: هؤلاء فى عدد النمل وكثرة الرمل وظلام الليل وعرام السيل فما يقمهم إلا العدد الكثير ولا يقمعهم إلا الجمع الجم الغفير، والمصلحة أن تستنفر العساكر ونستحضر لإبادتهم البادى والحاضر، ونستجيش الجحافل، ونستثير الفارس والراجل، ونلقاهم بأمثالهم ونقدم عليهم مستظهرين فى قتالهم. ومنا من يقول: هؤلاء عالم لا يحصى قد حضروا من الأدنى والأقصى، وأزوادهم عن قريب تفرغ، وآمادهم فى الصبر تبلغ، وأمدادهم تنقطع، وأنجادهم تمتنع، وموادهم تقل، وجوادهم تضل، ولمراكبهم فى الشتاء شتات، ولحبائلهم وحبالهم انبتات. فإما أن يضطروا إلى الانفصال وإما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال، ويهون علينا حربهم فى تلك الحال، وكفى الله المؤمنين القتال، فهذا عسكر الإسلام وجند مصر والشام، وفى الإقدام به خطر، وفى المباشرة بحربه غرر، والمصلحة العامة تلحظ، ورأس المال يحفظ. ومنا من يقول: نستدعى من مصر الأساطيل، ونستدفع بحقها الأباطيل، ونستكثر من مراكبها ونستعدى على هذه الأفاعى بعقاربها، ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها، ونعدو على عوادى الأعادى بعواديها، وإذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر، وصلت لنا أسباب النصر، وحينئذ نقاتلهم براً وبحراً، ونوسعهم بمضايقتهم فيهما قتلاً وأسراً، وما زالت هذه الآراء بيننا متداولة، وخواطرنا فى تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفرنج جارية، وزناد الهيجاء لإشعال نارها وارية، وفى كل يوم نتصافح بالصفاح، ونتكافأ فى الكفاح، وننطق فيهم بكلام الكلوم، ونلحق منهم الموجود بالمعدوم، وللطلائع وقائع، وللوقائع طلائع، وللسهام أفواق فائقة، وللحمام أسواق نافقة، وسرايانا فى كل يوم وليلة تسرى وتأسر، وتبرى وتأبر، وتكبس وتكسب، وتسبى وتسلب، والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه، وهو يدأب فى يومه لغده مجتهداً فى الزيادة على أمسه، نائباً عن أعوان المسلمين وأنصارهم، ساهراً لهم فى ليلهم قائماً بأمرهم فى نهارهم، والعين الساهرة فى سبيل الله قريرة، وتعب يوم واحد لله فى اليوم الآخر ذخيرة.

* * *

ذكر وقعة تمت يوم الأربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج آخر يوم الأربعاء سادس شعبان بأجمعهم، وتقدموا من مواضعهم، واشتاقوا إلى مصرعهم، وفارقوا الحزم فى تسرعهم، وخرجوا عن رجالتهم وتجردوا بخيالتهم، وحملوا على الواقفين من أصحابنا حملة الرجل الواحد، فتحرك الصف الثابت الساكن أمامهم كالبنيان إذا تحلحل من القواعد، وتراجع عنهم المسلمون استدراجاً، وملأت الأرض السماء عجاجاً وعجاجاً، وزخر بحر الحرب على أمواج إمواجاً، فما قربوا من خيام اليزك إلا وقد اعتكر جو المعترك، وعساكرنا قد أوجفت عليهم وزحفت إليهم وأردتهم بعقابهم وردتهم على أعقابهم ووصلت إلى رؤسائهم فقطعت رؤوساً، وألحف بأسها ذلك الجمع بؤساً، وثنت وجه الكفر عبوساً، وولوا مدبرين، وأدبروا مولين، والجريح بالقتيل عابر عاثر، والذمر الباسل باسم الموت باشر.

فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل، وبات كل حزب على حرب، وإعداد عدد طعن وضرب، وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ، وهمة متنبهة للتحفظ، وحراسة وحماية، وسياسة ورعاية، فلما أصبحوا عادوا إلى عادتهم فى اللقاء، وهاجوا بعاديتهم إلى الهيجاء، هذا وأبواب البلد مفتوحة والصدور بطرق الظهر إليها مشروحة، والفرنج قد ندموا على ما قدموا، وعدموا بصيرتهم بما صدموا، وعادوا لا يفرطون ولا يتورطون، وينقبضون ولا ينبسطون.

* * *

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادى عشر الشهر إلى تل العياضية ليكون منه فى الجهة المرضية، فإن هذا التل بإزاء تل المصلبة منزلة العدو وهو مشرف عليهم للعلو. وضربت خيام الميمنة ممتدة إلى البحر، وخيام الميسرة إلى النهر، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر، وكان الأمير طمان صاحب الرقة مريضاً ولم تزل وجوه الأيام الغبر فى سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء، وهو الحسام الفاضل، والهمام الباسل، والقرم البازل، والندب الحلاحل، والمحترق لحمية الدين، والمقترح لحماية المسلمين. ولما وافت وفاته، وفاته رجاؤه لم يرجا فواته، أسفل على عمره وأسى على أمره، وحزن كيف لم يقتل شهيداً ولم يستشهد فى الجهاد سعيداً، وقال: قدموا حصانى حتى أشهد الحرب وأستشهد، وأجاهد إلى أن أقتل وأجهد فإنى أرى موتى على الفراش غبناً وقد عرفتم منى شجاعة لا جبناً.

توفى عصر الأربعاء ثالث عشر شعبان، وبوأه الله الجنان، وبشر به رضوان، وكان

قد توفى بالقرب الأمير الندب فارس الحرب ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب حسام الدين سنقر الخلاطى النجيب المنتخب، فنبت مضارب الدين بإغماد الحسامين، وجلت الهموم لأجل أجل الهمامين، فوجمت النفوس، وألمت القلوب، وفاضت لغروب فيضهما الغروب.

* * *

ذكر واقعة للعرب، أربت لنا بالأرب

انتهى إلينا أن الفرنج يتطرقون ويتطرفون، ويأمنون ولا يتخوفون، ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الأعشاب من الأعشاش، ويصلون إلى طرفى النهر، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر. فانتدب جماعة من العربان وضراغم فارسة من الفرسان فأغاروا وهم غارون وساروا إلى جمعهم وهم بتجمعهم سارون، وحالوا بينهم وبين خيامهم وحشروهم إلى حمىٍ حمامهم، وحملوا إليهم حين حملوا عليهم بؤساً، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوساً، وأحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء، وبعثهم على الحمية والآباء وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر. وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر، هذا والقتال بينهم وبين أصحابنا فى عكاء متصل، وشرار الشر مشتعل، والموت منهم منتقى وفيهم منتقل. وفى كل يوم تقوم الحرب على ساق، والأرواح فى مساق، والمصاع على اتساق، وكم قتل من حزب العدو وأسر وكم حمل ليكسر فكسر، وربما مل الحزبان وكلّ الغربان، فتوافقا على الأمان وتواقفا يتكلمان، وربما أقدموا ثم نكصوا وغنوا ورقصوا، وإذا لغبوا لعبوا، واستراحوا إلى الوقوف إذا تعبوا.

ومن نوادر ما جرى وغرائبه، وملح ما تمّ وعجائبه، إن الطائفتين فى بعض الأيام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام، فقال واحد من الفرنج: إلى متى هذا القتال، وقد فنى الرجالَ فأخرجوا صبيانكم إلى صبياننا وليكونوا فى أمانكم وأماننا، فبرز منهم صبيان. ومن البلد آخران، فقاتلوا ملياً، وألفوا نار الحرب صلياً، ثم وثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين وضرب به الأرض، وقفز عليه وانقض، وقبضه كسيراً وجذبه أسيراً فافتداه بعضهم بدينارين وعاد المسلم من ظهوره وسروره إلى جنتين، والعدو من كفره وفكره إلى نارين. ومن الاتفاقات النادرة وأمارات السعادة الظاهرة، أنه أفلت من بعض مراكب الفرنج حصان له عندهم صيب وشان، فلم يقدروا على ضبطه كما عجزوا عن ربطه، وما زال يعوم فى البحر وهم حواليه حتى دخل مينا البلد وتسارع أصحابنا إليه، وأهدوه إلى السلطان، وعده العدو من إمارات الخذلان، ورأيناه لنا من دلائل النصر والإحسان.

* * *

ذكر الوقعة الكبرى

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء العشرين من شعبان وقد رفعوا الصلبان، وزحفت أسودهم فى غاب المران، وطارت بهم خيولهم عقبانًا على عقبان، وجرت بالجبال منهم رياح، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح، وخرجوا على التعبية، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية، وشعفوا بالتبرية للتربية، وتقدموا معتزمين، وعزموا مصممين، وثاروا ثورة الشيطان، وفاروا فورة الطوفان، وقدموا الراجل أمام الفرسان، وزحفوا أطلابًا، وحفزوا طلابًا، ودبوا دبيب الليل إلى النهار، وهبوا هبوب الخيل إلى المضمار، وأجروا سيول السوابق إلى القرار، وجروا ذيول السوابغ إلى الغوار، وتحركوا وهم هضاب، وتدركوا وهم غضاب، وما زالت ميسرتهم تكثر وتكثف، وتعطوا وتعطف، وتفور وتثور، وترود وتدور، وتهم وتهمهم، وتدمدم وتدوم. وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وثبت قلبه وقلبه ثابت، وحزبه فى صف الحرب نابت، ورعبه لكبة العدو كابت، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، ويثوب للوثوب، ويندب إلى الندوب. ولما شاهد شروق بروقهم، وخروق مروقهم، وكثافة ميسرتهم وحشود حشود كثرتهم، أنهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب.

وكان الملك المظفر تقى الدين من الميمنة على الجناح، فى جمع يعثر بعثيره وارد الصباح، وكلما تقدموا تأخر يستجرهم، ويحذر مكرهم ومكرّهم، فعرفوا أنه لا قبل لهم بمقابلته، وإن هذا ليس ميقات مقاتلته، فتركوه واستقبلوا القلب وزخر بحرهم وعب، وحملوا حملة دوى منها الدو، واسود منها وجو الجو، ووصلوا إلى جموح ديار بكر والجزيرة وغاصوا فى لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغريرة، وكانت من القلب على الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجريان فعرفوها بالغر، واستضعفوها لدى الكر، وألموا بها فما ألمت، وهموا بها فما همت، اندفعت وما دفعت، وتراجعت وما رجعت، وتعكست وما عكست، وأدبرت وما تدبرت، ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وما هبت ولابت وما لبت، ورابت وما ربت، وجاؤوا إلى القلب وقلبوه، وحاربوه وحربوه وخربوا حزبه، وخرقوا حجبه. وهنالك استشهد كرام باعوا أنفسهم بالجنة، وأسنوا نحورهم نحو الأسنة، منهم الأمير مجلّى بن مروان، وكان مجليًا فى المروة، والظهير أخوا الفقيه عيسى وكان طاهر الفتوة وآخرون اعترفوا بذنوبهم فرضوا بماء الشهادة دون حوبهم، وصعدوا إلى مخيم السلطان طامعين فى استطالة حزب الصلبان، وكنت فى جماعة من أهل الفضل قد ركبنا فى ذلك اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر ما يكون من القوم، وما ظننا أن القوة بهى، وإن الواقعة إلينا تنتهى.

فلما خالطونا فى المخيم، وباسطونا فى المجثم، وكنا على بغال بغير أهبة قتال، استدركنا أمرنا وأخذنا منهم حذرنا، ورأينا العسكر موليًا والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليًا. فوافقنا فى الاندفاع، وألفينا الاستضرار فى المال عين الانتفاع، فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، مفكر فيما يكون من أمره، منكسر القلب لما تم على الإسلام من كسره، لا يألف مبيتًا، ولا يلفى بيتًا، ممسك بلجام فرسه قد آذن ضيق نفسه بضيق نفسه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق غير معرج على طريق. وأقمنا بموضعنا على الخوى والخيل واقفة بلجمها والطوى، والغمض غير طارق، والفرق غير مفارق، والقلوب مرتاعة مرتابة، والأدعية إلى الله مرفوعة مستجابة، وتحدث الناس فيهما بينهم بأن الإسلام عاد جدّه، وعدا جنده، وإن الكفر حاد فلّه وفل حده، وإن الميسرة ثبتت فثاب اليسر، والأسدية انتصروا فأسد النصر، وكان هذا الصدى يقوى والصدأ يروى، والبشرى تسرى، والبرد بها تجرى، والناس بين مصدق ومكذب، وذاهب فى مذهب من الظل مذهب مهذب، حتى عبر سحرًا علينا خادم اسمه صافى وقد ورد مورد الظفر الصافى، فنادى: أين العماد فقد جاءه من النصر المراد، فأسرعنا إليه واجتمعنا عليه فقلنا: ما الخبر وكيف صفا الظفر وصفا الكدر، وقدر السلطان وتسلط القدر، وإلى أين أنت سار بالنبأ السار وفى أية دار تنزل بمنزل النصر الدار؟! فقال: أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم، والخبر الكريم، فقلنا: أهلاً بشائر البشائر وطائر الأوطار والسائر بالمسار والأخ البار بالأخبار، والصديق الصادق، والموفق الموافق، ومرحبًا بالخصى الخاص لما مر حبا فحل بالخبر الفحل فحلا، وكم أم للنجم أملاً وجلا وجلاً، فأبنا محبورين مجبورين، وثبنا مثابين مأجورين، وندمنا على ما ند منا فى الهزيمة، وعز علينا ترك الأخذ بالعزيمة، ولقينا السلطان وقد فتك وقتل، وجد وجدل، وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل، وقد شل الجموع، وجمع الأشلاء وأدام الإجراء حتى أجرى الدماء.

* * *

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسرة
وكيف أدال الله الإسلام وأذال الكفر بتلك الكرة

لما تمت الكسرة، وعمت الفترة، وكرت الكرة، وأمرت تلك المرة، وصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وشيم من عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان، وجالوا جولة، وخالوا دولة، وصالوا صولة، ثم رأوا عنهم انقطاع أشياعهم، وعدموا اتباع أتباعهم، فشرعوا فى اندفاعهم، وهابوا الوقوف على اجتماعهم، فانحدروا عن التل

وقد جاءوا بقوة العز فآبوا بضعف الذل، واستقلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وردوهم وأردوهم، وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم.

وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا وما زلوا، بل وصلوا وصالوا وصلوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال الرياح، وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح، وعاد من كان الميمنة الإسلامية بالبعد، حاد المضاء ماضي الحد، مثل تقي الدين، وقايماز النجمي والحسام ابن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فعكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وأنهلوها من دمائها وأعلوها، ولفوها وفلوها، ولقوها وأقلوها، ووضعوا فيها السيوف وأوضعوا إليها الحتوف، وأوسعوها قتلاً ذريعاً، وما أبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعاً سريعاً، فلم يلفت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا الآحاد، وأمست لنار الحرب فراشًا، ولأرض المعركة فراشًا، وتبعها أصحابنا حتى كلت سيوفهم وكلوا، وملت لتوتهم وليوثهم وملوا، وفرس زهاء خمسة آلاف فارس من كل ممار ممارس، ومستوحش بالموت آنس.

وممن أودى في الإقدام مقدم الداوية، ولم تحمله من الحمام ناره الحامية لناره الحمية، وحكي عنه أنه قال: عرضنا في مائة ألف وعشرة آلاف أحلاف إلحاف وآلاف إتلاف بلا تلاف، فلما عجزوا وبالخندق احتجزوا، وقف عنهم أجنادنا وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا. ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لم يبلغوا ألفًا فردوا مائة ألف، وآتاهم الله قوة بعد ضعف، وكان الواحد منا يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين وتركتهم بالعراء عراة مصرعين، ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسومين، وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده، ويعهد إلينا بما عهده.

وحكي بعضهم قال: كنت على فرس قطوف، ما له منة سير ولا وقوف، وأنا منهزم من فارس مدجج، في بحر الحرب ملجج، وهو على جبل يجري به جري الريح، وينادي بشعار المسيح، وقد لزّ بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه، فما شككت أنه يشكني بلهذمة، ويفكني بمخذمة، وأيست من البقاء، وأنست للشهادة واللقاء، واستعذت بالله واستعنت، وتشاهدت مما شهدت، ثم أبطأت على صدمته وأخطأتني حدمته، فالتفت فإذا هو وحصانه ملقى كلاهما وما وجدت بالقرب أحدًا أقول إنه أرادهما. فعرفت أنه نصر إلهي، وصنع رباني في مذاق الإيمان شهي، وفي آفاق الإحسان بهي، فأيقنت أن النصرة ما ملكت إلا الملائكة نصرت، وإن الظهور ما سر إلا لأسرار لله ظهرت.

* * *

ذكر مكاتبة أنشأتها إلى بعض الأطراف
بشرح ما يسره الله فى هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الأحوال وذكرها، وشكر ألطاف الله الخفية وإبداء سرها. ونشر مطاوى النعم بإذاعة طيها وإشاعة نشرها. وذكر فيها ما الفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها، والاحتماء بخنادقها ومتارسها. وإن لنا كل يوم فيهم نكاية بالغة، وسطوة دامغة، وثعالب عوامل فى دمائهم والغة، ومضارب مناضل لرؤوسهم فادغة، ونيوب عواسل لمضغهم ماضغة، وذيول نقم عليهم فى تقليص ضلال ضلالهم سابغة، وأيدى أيد لصفحات البيض بنجيعهم القانى صابغة، وضمائر وضوامر عن كل شغل سوى شغل الجهاد فارغة، وهمماً وعزائم لا ترى عن وقم القوم أهل الزيغ زائغة، وما برح الفرنج فى برح شديد، وأمر غير سديد، وظل للذل مديد، وضيق حصر فى كل يوم جديد جديد، حتى ضاقت أنفسهم وأنفاسهم! وأخفق رجاؤهم، وظهر يأسهم، ووقع بينهم بطول المقام بأسهم.

فأجمعوا أمرهم على أنهم يجدون فى اللقاء ويهيجون إلى الهيجاء ويلقون الألوف بالألوف، ويصدمون الصفوف بالصفوف، ويعرضون نحورهم ووجوههم على الأسنة والسيوف، ويجمعون فى كلام الكلوم من الصواهل والصوارم بين الأصوات والحروف، ويكسفون بشبه التثليث أدلة التوحيد، ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد، والحد الحديد. وبرز ذلك الخميس يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان، ورفعوا الصلبان وأشرعوا الخرصان، واتبعوا الشيطان، ورتبوا الرجال، وطلبوا الفرسان، وحملت لهم أطلاب تضم أبطالاً، وتضمن بباطلها للحق إبطالاً، وتأمل لشملها المتفرق اجتماعاً، وترجوا للصليب السليب ارتجاعاً. وعصفت رياحها الهوج، وأقبلت بحار سوابحها وسوابغها تموج، وكاد أن يثبت للشيطان قدم، ويراق للإيمان دم، فإنها خرقت حجاب الصف، وفرقت شمل الجمع الملتف، وراع جنان الجبان وهمه وهمه، وأدبر مولياً وعزمه زعمه، فظن من لا يقين له إن الإسلام قد أسلم، وأن نصر الله الموجود قد عدم، وأن الكفر المتأخر قد تقدم، وأن الصبح المتبلج قد أظلم، وهناك عرف أهل الثبات وثبت أهل العرفان، ورقصت المران على أشاجع الشجعان، والتفت العنان بالعنان، والتقى السنان بالسنان، وخطبت الصوارم على منابر الطلى، ورتعت اللهاذم فى كلا الكلى، وفتحت اليغالق مغالق الحتف، وزحفت الفوارس إلى فوارس الزحف، وعطفت العساكر المنصورة طلاباً لتلك الأطلاب، ووصلت ضرب الأعناق بقطع الرقاب، وما زالت تشل الفرنج وتفلهم، وتحل بعقدهم الوهن وتحلهم، وتروى ظمأ الظبا من ورد وريدهم، وتخضب شيب البيض بدم طريدهم، حتى فرشت بعد

أن سلبت أشلاؤهم بالعراء عريًا وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع إجراء ولم تطق جريًا، حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح، ووقفت أشباحهم وقفة الوداع لفراق الأرواح. وأعرب حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح، وقتل من مقدميهم ومقدميهم زهاء خمسة آلاف، زهى الإسلام بما اتسع من عطن عطبهم، وحسن منقلبه بسوء منقلبهم، وعاش بما شاع من قتلهم، واشتغل العسكر المنصور بشغلهم، وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين، وقصم الهدى متن الضلال المتين، وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين، وانجلى الغبار عن كل قتيل ما لعاثره من مقيل، ولا لقائله من مقيل، وعادت أعلام الإسلام ظاهرة، وأيمان الإيمان باطشة قاهرة، وهدى الهدى على النصر مزفوفة، وعيون العدا عن النظر بالعمى مكفوفة، ولم ينج ممن حمل من حمل رأسه، ولم يقدم من أولئك الرجال إلا من فقد رجاؤه، ووجد يأسه، وعاد الفرنج إلى خيامهم وقد فجعوا بتلك الألوف، وأصيبوا بمن صفا فى تلك الصفوف، وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف ودخل الليل عليهم، ووقفت العساكر حواليهم وهم وإن وهنوا لما أصابهم من الكسرة، وأخطأهم من النصرة، وحل فيهم من الرزء، وسخر بهم الشيطان فى موقف الهزء، وفجع أكلهم بالجزء، ونقص منهم العدد الكثير، وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير، فإنهم فى حشد كالدبى، وجمع أغص الوهاد والربا، وقد أخلدوا إلى الأرض وشدوا على حب الموت الحبا، وودوا لو وجدوا مهربا، وتفرقوا أيدى سبا، وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا، وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا، وأوسعوا الخنادق وعمقوها، وأحكموا المتارس ووثقوها، وندموا على الحركة فإنها أفضت بهم إلى الهلكة وإنهم ما داموا رابضين وعلى يد الصبر قابضين، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم، وتطول أيام الإحاطة بهم من حواليهم.

وفى تلك الحركة التى حلا بها للشجعان طعم الطعن، وغلب فيها للجبناء وهم الوهن، وتجافى عن الثبات من محبى الدنيا جنب الجبن، ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب، وما ثبت إلا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للأمور، سديد ساد للثغور، ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين، وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين، وقرت عين طمان بالجنة بإقدام الولد، وماذا يقال فى شبل ذلك الأسد، وإنما الغرباء هابوا، وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا، والفرنج الآن فى ذل وخسر، وفى عسر بغير يسر، وفى حصر بغير حصر، والمرجو من الله سبحانه أن يقدر على قطع دابرهم وإهلاك سائرهم عن آخرهم، وتحريك همم المؤمنين فى تسكين سائرهم، وتخريب عمرهم وعامرهم، وإنزال دوائر

السوء بمنازل دوائرهم، وما دام البحر بمدهم والبر لا يصدهم فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم وأسوائهم ملازم، وتدبيرنا الآن فى التدمير على هذه الجموع، وسوقهم إلى مصارعهم فى ورطة الوقوع، فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين، وما ينقضى عجبنا من تضافر المشرك على شركه، وتظاهره فى اتساع مسلكه واتساق سلكه، وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم، وتعاضلهم فى تعاضدهم، وانحلال عقود تعاقدهم، فلا ملبى فيهم لمناد، ولا مثقف لمنآد، ولا مورى منهم فى إجابة داع لزناد، فانظروا إلى الفرنج أى مورد وردوا، وأى حشد حشدوا، وأية ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره فى مضمار الأنجاد، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد، واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد من يده، أو تمتد يد إلى بلده، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى والعياذ بالله للإسلام عنان، أو خبا سنى ونبا سنان، لما وجد فى شرق البلاد وغربها وبعد الآفاق وقربها من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التوانى واستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأدانى، على أنّا نحمد الله لنصره راجون، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون.

* * *

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر

وعاد السلطان إلى مضاربه وقد عادت مضاربه إلى عادة المضاء، وزادت مشاربه من مادة الصفاء، وأمر بمواراة الشهداء، ومن جملتهم الفقيه أبو على بن رواحة، وكان غزير الفضل قد أكمل الرجاحة والسجاحة، وهو شاعر مفلق، وفقيه محقق، من ولد عبد الله بن رواحة الصحابى الأنصارى فى الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم موته مع جعفر الطيار وطرفه الأقرب يوم عكاء فى لقاء الكفار، ومنهم إسماعيل الصوفى الأرموى المكبس، وكان سديداً عفيفاً عاريًا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس، ومنهم شيخ من الحاشية فى بيت الطشت، وغلام فى الخزانة أمين على البيت،

وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة، وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء إنه يصبح القوم ويباكر فى طلب أرواحهم السوم، وقال هؤلاء: قد أضعفنا قوتهم وأعجزنا قدرتهم، وفثأنا سورتهم، وأخمدنا فورتهم، وقتلنا مقاتلتهم، وأدوينا داويتهم، فإن تركناهم بلعوا الريق، وبلغوا فى الاحتراز والاحتراس الطريق، فنحن نوافيهم غداً، ونوفيهم ردى، ونكيلهم بصاع المصاع، ونذرعهم بباع السباع، ونقيسهم بذراع اليراع، ونوسعهم قرى القراع، ونذيقهم حر الحرب، ونسيفهم فى طعم الطعن ضرب الضرب، ونعين من عيونهم للسهام سهاماً، ونتخذ لأرواح النصال من أجسامهم أجساماً، ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات، ونحرقهم بنار زند اليمانيات، ونوجد من عدمهم النصر، ونطيب من نتنهم النشر، ونقطع دابرهم، ونلحق بأولهم آخرهم.

فلما اتفقت الآراء على إمضاء هذا العزم، وإجراء هذا الحكم تفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب، لما ناب من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية وصحابها وأوباش الجمع وأوشابها، ظنوا تلك الفورة هزيمة فنهبوا الأثقال والأحمال وعدوها غنيمة، وانهزم من انهزم من الجند، وثبت من ثبت من أهل الجد. فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوباً، فمضوا وراء الغلمان وبلوا بسوء دين السودان، وأصبحنا وإذا بالعسكر غائب، والعازم عازب ، والقاصم قاص، والطائع عاص، والجمع متفرق، والثابت قلق، والآمن فرق، والغنى معدم، والجرىء متندم، فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج فى تلك المدة وانتشلوا من تلك الشدة، واستطالوا بعد الإقصار، وفرغوا لشغل الحصار، وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عدم، وبنت ما هدم. فكمل بالمدد ما نقص من العدد، ولولا أن الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم، فإن الفرصة أمكنت والحصة تعينت والجو خال والضو عال والحال جميلة والجمال حال، فقضى الله بما قضى وعرانا المضض بما مضى. وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبتة مبتثة، وتلك الجثث محينة مخبثة مجتثه، تعرفنا أن نشورها من حواصل النسور، وإن قبورها بطون الضباع والنمور، فشكونا نتن رائحتها وشكرنا يمن جائحتها، فعجل السلطان حملها على العجل إلى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر، فحمل إلى الماء أكثر من خمسة آلاف جثة بعثت إلى النار قبل يوم البعثة، فما عبر بها إلا من اعتبر واستشفى من أقبل بمن أدبر، وسلم الله من أسلم وكف ورد بالردى من كفر.

* * *

ذكر ما اعتمده السلطان فى استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الأمر إلى المقدمين والأمراء بعد النداء وإعلام الجهلاء بإحصاء كل ما نهب وإحضار كل ما سلب، وإنه من لم يرد ما أخذه أخذ بالردى، واعتدى عليه بمثل ما اعتدى. فأحضر كل ما عنده وبذل فى الكشف جهده وجمعوا ما تفرق منه فى الخيام فى خيمة السلطان وضاقت عن كثرة سعة ذلك المكان.

وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، فكل من عرف من ماله شيئًا أخذه بعد إحلافه وحلا فى مذاق الشكر قطاف ألطافه، وسعى فى معاناة ذوى الأخلاق الصعبة على سهولة أخلاقه، وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من أشفاقه، وقمش ذلك القماش وحصل من ذلك الوبل الرشاش، وصح بعد العرى والعثار الارتياش والانتعاش، وكتب إلى الولاة بالأمصار والنواحى والأقطار والضواحى بحث البحث وجد الكشف، واستخلاص كل ما يوجد ويؤخذ بالرفق والعنف وتراجع الناس وتتابع الإيناس وعادت مضارب العزائم إلى مضائها، وقضاة القواضب إلى اقتضابها واقتضائها. وغار الآنف وأنف الغيران، وتسلط العزم وعزم السلطان، وثار الحنق وحنق الثائر، وطار العلق وعلق الطائر، وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور، واشرأب للشرب نبات الأسل إلى ماء النحور، وحمى ذوو الحمية للتقاصى، وقالوا حتى متى التراضى بالتغاضى.

* * *

ذكر مجلس عقد ورأى عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضر أكابر الأمراء عند السلطان، يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان. فقال: اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله وأناخ بكلكل كله، وقد برز بالكفر كله إلى الإسلام كله وجمع حشده وحشد جمعه، واستنفد وسعه وإن لم نعاجل الآن فريقه والبحر قد منع طريقه أعضل داؤه، وتعذر غداً لقاؤه، فإنه إذا سكن البحر واستسهل ركوبه السفر تضاعفت أعداد الأعداء فظهر الإعدام من الأعداء، وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها، ولا قوة نستحضرها، وما بلى بهذا المعشر إلا معشرنا، وما بإزاء عسكر الكفر إلا عسكرنا، وما فى المسلمين من ينجدنا، وما فى بلاد الإسلام من يسعدنا، وعساكرنا حاضرة، وعزائمنا للتوانى حاضرة، وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظرة، وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين، ولا بقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العرين، فالرأى كل الرأى فى المناجزة قبل وقوفهم على محاج المحاجزة.

ثم قال: ليشر كل منكم برأيه ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه، فتجاذبوا حبل الاضطراب، واختلفوا فى الآراء بحسب اختلاف الآراب، وركب كل منهم هواه وأعلن بما نواه، ومنهم من قال: هذا ثالث عشر تشرين الثانى لا الأول وقد دفعنا إلى الخطب الأعضل والتعب الأطول والنائب الأعصى والناب الأعصل، وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يومًا وما طعمنا فى هذه الليالى نومًا ولا سمنا لطارق طيف غمضًا ولا شمنا إلا لبارق سيف ومضًا ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها. وكان أبا الطيب عنانا بقوله:

وكــأنما خلقــوا على صهواتــها

وقد كلّت الضوامر، وفلّت البواتر، وملت العساكر، وهذا الشتاء قد أقبل والعدو قد استقتل، والشر قد استفحل، وما يتأتى قلعه إلا لمن يتأنى، وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى، وهم بالمصابرة مصابون، ونحن على المثابرة مثابون، وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم والسيل لا يغلبه غير الخضم، والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة ونستجد لنا ولخيلنا القوة ونتأخر عن هذه المنزلة لتحصيل هذه المصلحة المؤملة ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء العلوج ونعيد السريجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج، والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط، ومكاتبة دار السلام وإعلام الإمام عليه أفضل السلام بما دفع إليه الإسلام بالشام، فإن المسلمين لا شك ينجدون ويقومون بالنصرة ولا يقعدون، ولا يترك استنفار التركمان وترغيبهم بالبر والإحسان، واستدعاؤهم بالعطايا والتشريفات السنايا وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية فى تحريك الهمم والعزائم الوانية، إلى أن تمتلئ بالجموع ساح الساحل وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل، فحينئذ ينتهى أمد المصابر ونصمم على المكابرة مع المكاثرة ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر، وننسفهم ولو أنهم جبال وننزفهم ولو أنهم بحار ونعدمهم حتى لا يطرق جفن بلد منهم خيال، ولا يلم بجفن طارق لهم غرار.

وما زلنا فى مشاورة ومحاورة ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة حتى تنخل الرأى وتمخض، وخالوا إنه تبين الصواب وتمحض، ومالوا إلى الدعة والخروج من الضيق إلى السعة، ومن نزال الحرب إلى المنزل الرحب، ومن المعترك المعتكر إلى المبرك المبتكر، فلم تعجبنى هذه الحالة ولم توافقنى هذه المقالة وقلت: لعمرى أتيتم بمصلحة ولكنها غير مترجحة فإن الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار ولم يحدقوا بجميع الأسوار، فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم وأطلنا إلى مرادهم أعناقهم، وباب عكاء من

جانب البحر مفتوح والمقيم بها منا بكأس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح والطريق إليها سابلة والذخائر إليها فى كل يوم داخلة والفرنج عن قطع الطريق عاجزة وعزائمنا على مصابحتها ومماساتها لها دون قصدها محاجزة، فإن تأخرنا تقدموا وإن هونا أحكموا، وإن نقضنا أبرموا، وإن قعدنا قاموا وإن بعدنا حاموا، ومتى رمناهم تحفظوا، ومتى نمنا عنهم تيقظوا، وما دمنا نشغلهم فإنهم لحصر البلد لا يتفرغون وإلى أمد الأمل لا يبلغون، فقالوا: هذا أمر هين وما ذكرناه صواب متعين، ووجه الصلاح فيه بين، وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا، فإذا أنسوا بالرجاء ولم ييأسوا من الإرجاء أرخينا لهم حبل الأنظار حتى استمروا على الانتشار وحينئذ نصبحهم على غرة ونعاجلهم كرة بعد كرة، وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث، ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث. وكان السلطان متكرهاً لما أبدوه من الرأى الملتاث، لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث.

* * *

ذكر الرحيل إلى الخروبة عند خيم الأثقال المضروبة

كان السلطان مع ما ألمّ به من الألم غير مبد وجه الملل والسأم، وهو فى كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف، ويقف مستطيلاً على العدو ويطول منه الوقوف، ويعود وقت الظهر وعليه أثر الضر مع الصبر. فليم على فعله، وخصه الطبيب بعذله، فانتقل إلى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان، وخلى المنزل الأول وأخلى العسكر ذلك المكان، وتقدم إلى من بعكاء بإغلاق الباب وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب، وجرى الأمر على ما كنت قلته وتحقق من الخلل ما خلته، فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذى كان خالياً ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غالياً.

وشرع الفرنج فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكاء من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر، وفى كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم وبما ظهر من أثرهم، والجد فى تعميق الخندق وتتميم محتفرهم. والعسكر هاجم، كأنه واجم، والظن فيه راجم، وشر الكفر ناجم وما فينا لعود الأمر عاجم.

وقلت يوماً للسلطان: يركب العسكر إليهم، ويركض عليهم، فلعله ينال ظفراً ويقضى من كسر العدو وطراً.

فقال: ما يعمل العسكر شيئاً إلاّ إذا كنت معه راكباً ولعمله مشاهداً مراقباً.

ولقد صدق فى مقاله فإنه كان أعرف برجاله، فإنهم كانوا يبذلون معه المهج ويخوضون من بحر الحرب اللجج، ويوسعون لهزم العدو المأزق اللجج، وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم، وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور ووثقوا من ترابها

السور، وملأوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه، وستروه وترسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا لواغل مجالاً وتركوا فيه أبوابًا وفروجًا ليظهروا منها إذا أرادوا خروجًا.

ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر ونحن نقول لا مبالاة بهم ولا اكتراث، وما أسهل إذا عزمنا عليهم لأصولهم الاجتثاث، وبسيول سيوفنا نغسل تلك الأخباث، وأى وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم، ونكأنا قرحهم ونكبناهم، وما فوارسهم لنا إلا فرائس وما خنادقهم لهم إلا رموس دوارس، وما حفروا إلا قبورهم، وما دبروا إلا ثبورهم ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم، وصدقتهم منونهم، وامتلأت بأشلائهم خنادقهم، وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم.

* * *

ذكر رأى رائب عن النظر فى الغاى غائب أسفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب

وقع لبعض الأكابر فثنى عليه خنصره، ووكل بإتمامه سمعه وبصره. ولما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة، وضمت أشلاءهم المعركة، وشوهدت على الربا حجب نحورهم المهتكة، وخمدوا وخملوا، وأهلكهم الله بما عملوا، وقع لبعض الأكابر إنه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر، وإنهم قد عدموا القرار وعزموا الفرار، ولو قدرا على النجاة لخلصوا ولو فتحنا طريقهم ما تصبروا ولا تربصوا.

وقال للسلطان: ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم، فإنهم يرهبون ويهربون، ويبعدون إلى صور ومن بعدها من عكاء لا يقربون. فمال قوم إلى مقاله وتخيلوا مثل خياله، وأشار بقطع طريق البلد، والصدر عن ورد الرصد، والجد فى تعمية الجدد، وأن يفتح لهم ما سد من الطريق، ولا يعوقهم فإنهم كلاب تعوى من التعويق. ولما بلونا رأيه، وتلونا آية «أخلف ظنه» وبدا وهنه. وما زاد الفرنج إلا ثباتًا ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتًا، وكنا نتحدث بذلك الرأى القائل، ونقول: ما أعجب قبولنا لقول هذا القائل.

* * *

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث وتجدد للعزائم من البواعث

أقام السلطان بالمخيم لإصلاح مزاجه، وإيضاح منهاجه ومداراة ألمه، ومداواة سقمه، فوهب الله له العافية، وكمل له عصمته الكافية ومنته الشافية، ونعمته الوافية، وأبدى له ألطافه الخفاية، وقوّى قلبه على المقام بنية الانتقام، وصرف الأجناد الغرباء

ليرجعوا فى الربيع ويستريحوا فى مرابعهم لوقت الرجوع، وأقام فى مماليكه وخواصه، ورجال حلقته المنصورة من ذوى استخلاصه. ورتب بالنوبة على الفرنج يزكًا ضمنه دركًا، وأدار بهلاك القوم منه فلكًا، وكان فى مماليكه كل مقدم مقدام، وكل همام همام، وكل ليث ذى لوثة وكل حدث محسن له حسن أحدوثة، وكل ضيغم ضاغم، وكل أسد عزين ليس إلا عرنين قرنه براغم، وكل ريبال ذى بال، وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال، وكل مغير للنصر مريغ، وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ، وكل تركى للرمال غير تارك، وللأصماء غير فارك قوسه فى ظفر الهدى مؤتمر على الوتر، وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر، وسيفه فى رداء الردى حال بدم الكفر وكل حميدى فى الروع حميد وبالحرب عميد، وكل هكارى على القرن عكار، وفى الوغى كرار، وللقنا جرار، وكل زرزارى بالأسد زار، وللبسالة كاس ومن العار عار، وكل مهرانى فى القتال ماهر، وللرجال قاهر، وعلى الأبطال ظاهر، وكل كمى كميش وأكديس على أكديش، فما خلا يوم من وقعه وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه، وما عاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعه، وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم إلا على لطعه، وما تبقى على لتوتهم ليت، ولصوتهم فى النزال كل صباح ومساء صيت، وبلى الفرنج منهم بالمبير المبيد، وإعتاق بهم مراد العدو المريد، وما زال هذا دأبهم فى الركوب ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب، فكم أقروا منا أعينًا بأيديهم، وثبتوا عدل النصر بتعديهم، وصدوا شر الشرك بتصديهم، وحركوا ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم.

وفى يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكاء مركبًا للفرنج إلى صور مقلعًا واجتلينا به من سنى النصر مطلعًا، وكان المركب محتويًا على ثلاثين رجلًا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير، وجاءت حظوة حلوة وغنيمة صفوة ونشوة أعقبت صحوة وصيحة استصحبت ضحوة، وقوة من وهن العدو، ومحبة فكت رهن السلو، فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم، وانخفض اغتباطهم وفترت عزمتهم، وقصرت همتهم وخمدت فورتهم، وركدت ثورتهم فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتقشوا، وتنغموا وتنغشوا، ودب الروح وشب المروح وتحرك الساكن وتدرك الضامن، وصاروا يخرجون ويحرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، ويكافحون ويدافعون، ويقارعون ويواقعون، والعسكر فى المنزلة هاجم، وجم جمعه واجم، واليزكية زكية، والعيون زكية، والنوب راتبة، والعدة المعينة فى كل يوم راكبة.

* * *

ذكر وصول ملك الألمان

ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية فى عدد دهم دثر، ونظم من خيله ورجله ونثر، وهو على قصد العبور إلى بلاد الإسلام وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وإنه فى ثلاثمائة ألف مقاتل، من كل سالب باسل، وطالب باطل، وجهم جهنمى، وأشقرى سقرى، وأنمش أفعوانى، وصل صليبى صلائى، وأرقش حنشى، ومستعر سعيرى، ومحرب لظوى، ومغوار نارى، وضار بالفرن ضار، وجار للدرع جار، وكل ذئيب عاسل، ذاب بعاسل، وأزرق لأبيض مشتمل وأصهب لأسمر معتقل، وكل جحيمى جاحم، وجمرى فاحم، وحربى بحرى، وبار برى، وقاطع فى طريق الوصول، وراحل بقصد الحلول، وناز إلى النزال وصار بنار الصيال، ومشمر على الموت متمرن، ومتحين إلى المنون متحنن، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع، ما له سوى السوء من مقنع، وإنه مع الألمانى ملوك وكنود وكل شيطان لربه كنود.

وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن وهو فى قلعته على الفرات ومن أهل الذمة فى المأمن، يبدى تنصحًا وإشفاقًا وتخوفًا على البلاد واحتراقًا، ويقطع بأن الواصلين فى كثرة وإن الناهضين إلى طريقهم فى عثرة. وأبرق فى كتابه وأرعد وأبدع بخطابه وأبعد، ولا شك إنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل. ولما وصل هذا النبأ وقيل إنه عظيم وورد هذا الخبر وخيل أنه أليم، كاد الناس يضطربون، على أنهم يصدقون ويكذبون، ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون، وقلنا: إن وضح هذا الخطر وصح هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون، ويغضبون لله ولا يرضون إنهم لا يعضدون على أن الله ناصرنا وموازرنا ومظاهرنا، وحققنا بإظهار القوة لمن استوحش التأنيس، وبثثنا بالإرسال إلى بلاد الروم عيونًا وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار وبعثنا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا: ما هذه المرة إلا مرة ولا يسيغها إلا كل امرىء أبى، وما هذه الكرة مثل كل كرة، ولا يحضرها إلا كل كميش كمى.

* * *

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضى بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم. وقال له: ما أحتاج أوصى، وأنت تستوفى القول وتستقصى. وجعل له إلى كل ذى طرف فى طريقه رسالة، وأودعه إليه مقاله، فسار من عندنا فى شهر رمضان مغذاً، يبذ خيل العزم بذاً، ويجد حبل السير جذاً. ووصل إلى حلب والقاضى ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله

الشهرزورى ورسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، وإنه استجدى واستجاد، واستفاد واستزاد، وإنه استكمل للعدة الاستنجاز وللعدة الاستنجاد، فما هذا الرسول الرائح وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح، وإذا اختلف الحديث حدث الاختلاف ومتى ألف غير ما ألقى ألغى الائتلاف، فما هذا العجل ومم الوجل؟! فصدقه الملك الظاهر غازى صاحب حلب عن كل ما أبان عنه وأعرب، وكتب إلى ولده بذكر مقاصده وقال: أنا لا أقدر على صد من للخدمة تصدى، ولا رد من بثوب الرسالة تردى، وأنت تمضى إلى السلطان بما أوضحته من البرهان، وهو يحكم ويحكم، ويعقد ويبرم، ويقول فتسمع، ويأمر فتتبع، ولعلك تعود سريعاً وتجد شمل ما ألفته جميعاً.

فوصل ضياء الدين الشهرزورى وهو مغتاظ، وسجاياه السجاح غلاظ، وتغير علىّ ونسب إنفاذ القاضى بهاء الدين إلى، فإنه كان مخاللى ومخالطى، ومجالسى ومباسطى، فأزلت عنه كل ظن، واعتذرت إليه بكل فن. فما بسط عذر ولا قبض ذعر فإنى على أسبابى ببغداد خائف، ودون رضا كل سائر إليها واقف، واسترضيته فما رضى ومضيت إليه مراراً قبل أن يمضى. ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه وأعلمه بما علمه وقال له: الشغل قد فرغ، والمقصود قد بلغ، والسؤال قد أجيب، والسؤل قد أصيب، والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم وكل ملك سواك لأجلك من رضاع رضاهم مفطوم فكن للإمام يكن لك واقبل أمره ليقبلك.

واجتمع بالسلطان دونى واتفق بجماعة شاركوه وأفردونى، وقرروا معه سراً أمراً وحذروه أن يصير جهراً، ولو كنت معهم لعرفتهم أن الأمر الذى أبرموه غير مبرم وإن الرأى الذى أحكموه غير محكم، وما زلت أؤكد الأمر حتى يؤمن انتقاضه، وأتعرض دون الرأى حتى لا يمكن اعتراضه، وأتيقن أن الأمر ما فيه خلاف وإن الوعد ما له إخلاف. فما فعل الرسول يتلبث ولا أمهل يتمكث، بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه، وزعم فيما دبره نجاحه ونجازه، وسلك فيما تقرر نهج العجب، وأسرع العودة على النجب.

فلما انفصل عن السلطان بما وصله من الإحسان، جمع السلطان الأمراء على المشورة ووقفهم على المعنى والصورة، وقال لهم: قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزورى بشهرزور، واستدعيت عسكره المنصور وربما قدم إلينا الحضور، فيكمل لنا النصر والحبور. فقالوا: هذا رأى رائب، وشأو شائب، وأمر عنه الصواب ناء، وكيف تعدى الإمام بما لا يقرن بوفاء وكيف ينجز هذا الوعد وينجح هذا القصد ودونه إيحاش من هو فى طاعتك فكنت تبذل ما يدخل فى استطاعتك، أما صاحب

الموصل طلبها فمنع، وصاحب إبل عنها دفع، ومملوكك بها لمن يجاوره خائف، وكل إيوائى لحدها وحقها حائف، وما من هؤلاء إلا من بذل عنها أموالاً وأحوالاً والتزم من الجنود والنقود أنجاداً خفافًا وحمولاً ثقالاً فإذا عرف أنك أخرجتها لمن له الأمر دخل عليهم الضر وملك مالك الأمر أمرهم وأبدوا فى انقطاعهم عنك عذرهم.

وانقطع الواصل، وارتفع الحاصل وما جاءنا من المذكورين فارس واحد ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد. أما هذا بكتمر فى خلاط قد جمع الأخلاط، وجهر بالعداوة وأقام على الغيابة والغباوة، فقال السلطان الخليفة ملك الخليفة وهو مالك الحق والحقيقة: فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور، وسيحدث الله بعد الأمور الأمور.

ولما وصل ضياء الدين الشهرزورى إلى بغداد صادف بها القاضى بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل له: جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيِّره ونندبه فيما نتخيره. وشرف بهاء الدين وأعيد وزين ضياء الدين وزيد، وذكر ما جرى فتم الاعتداد، ونم الأحماد، وسيأتى ذكر ما آلت إليه نوبته حين كانت أوبته.

* * *

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخى السلطان والاستظهار بجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الإيمان

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال فى جيش وآل، وجمع حال، وشوكة رائعة، وشكة رادعة، وشارة سارة، وديمة من البأس دارة، وعدة منتخبة منتخبة، وعدة منتقاة مهذبة، من كل أجدل على مرقب، وأجود على جواد مقرب، وصاف عتيق على صافن عتيق، وطود على طود ونيق على نيق، وصقر على سود نيق، وبحر على سابح، وجذع على قارح، ومن كل رئبال على تتفل، وأغر محجب على أغر محجل، ومن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب، وكل أسمر باسل بالسمر سلاب، وكل أروع يحمل يراعًا، وكل شجاع يعتقل شجاعًا، وكل أحمى أحمس، وكل أفرى أفرس، ومن كل أسد خادر، وقسور قاسر، وضيغم ضاغم، وقمقام واقم، وليث به لوثة، وحدث له فى الشهادمة أحدوثة وأحضر معه من سودان مصر كل ذمر كأنه العبسى عابس، وكل مغامر للموت مغامس، وكل غربيب حلكوك، وكل سرحان صعلوك، وكل ضرغام غريفى، ومقدام ريفى، وكل خارج لثار، وكل مارج من نار، وكل أسود سالخ، وكل رأس فى الشر راسخ، وجاؤوا بالغبسة القبطية، والترسة اللمطية، والصلال القفطية، والإلال النوبية، والحراب الحربية والصعاد الصعيدية، والصوارم المذروبة، والصرائم المشوبة، والأسنة المسنونة، والصوابغ الموضونة،

والسراجين السارحة، والثعابين الجارحة، والتماسيح المزدردة والشياطين المتوقدة، والزانات واليزنيات، والهنديات واليمانيات.

وكان يوم وصول العادل مشهوداً لم يترك فى كل ما يراد من القوة مجهوداً، وأقبل فى روع ظاهر وضوع باهر، وبشر ذائع، ونشر ضائع، وحبور تام، وسرور عام، وهزة وطرب، وعزة وأرب، وقلنا: سيف الدين المنتضى وناصر الإسلام المرتضى وغياث الأنام المترجى وسلطان جيوش المسلمين المجتبى، لقد نص النصر، وكف الكفر، وسلم الإسلام، ونام الأنام، وأمن الإيمان، وتسلط السلطان، وحليت الأحوال، وفرغ البال، وبلغت الآمال، ونيل رجاء الرجال، وأزيل إبطاء الأبطال، وورت زناد الأجناد، ورويت ظماء الصعاد، فما بعد اليوم إلا بعد القوم وإدراك ما استقام من النهج، وهلاك من أقام من الفرنج.

ونزل الملك العادل فى مخيمه، وقدم اليمن بمقدمه، وتقدم السلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر، وضايق الفرنج به وحصر، ولم يخل العدو فى كل حين من حين، وفى كل وقت من مقت، وفى كل شأن من شين، وفى كل بقعة من وقعة، وفى كل صقع من صقعة، وفى كل ليلة من بلية، وفى كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم ملية، والملك العادل يركب فى كل يوم ويبلى، ومن جهده فى القتال لا يخلى، والفرنج على البلاء صابرون، وللعناء والعناد مكابرون، لا يبرزون ولا يبارزون، ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون.

* * *

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجارى الأحوال

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل، ومجاولة أهل الغواية بالغوائل، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة فى البحر بعدد أمواجه إلى الساحل، وقد نزلوا على عكاء المحروسة، براياتهم المنكوسة وآرائهم المعكوسة، وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة، وظلال الظلال الممدودة، وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة. وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحه، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه، وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روعت، والروعات التى وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل، من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك فى نقصهم، ولا أرّث إلاّ نار حرصهم، وما فلل حد حديثهم الحادث، ولا قلل عدد كثيرهم الكارث، ولا غضوا عيون أطماعهم، ولا فضوا ختوم اجتماعهم، ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى، ولو قطعوا بالمدى. وهم لمواضعهم ملازمون، وفى مصارعهم جاثمون، وعلى

الموت صابرون، وإلى الحمام صائرون، وبالخنادق من البوائق محتمون، وبالطوارق من الطوارق معتصمون، وعندهم أنهم للبلد محاصرون وهم على الحقيقة وإن كانوا لكثرتهم غير محصورين محصوون، وإن جندنا لهم المنصورون وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكاية شديدة، وفتكة مبيدة ووقعة ناكية، وجمرة ذاكية، وصدمة صادعة، وحدمة رادعة.

ولما امتنع الدخول عليهم وتعذر الوصول إليهم جمع راجل البلاد وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس، ونقترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس. وقد وصل الأخ العادل وفقه الله للمراضى الشريفة بالجموع الكثيرة الكثيفة، ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح، ويعجل لليالى آمال المسلمين بطلوع صبح النجح، وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير ويأتى عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من فى ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرك سكنها، وبرز كامنها، ونفضت خزائنها، وانفضت معادنها وحملت ذخائرها وبذلت أخايرها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طائرها، فثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتغضبت للمصاب المصيب، ونادوا فى نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم، وإن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهاجراً وبحرب الإسلام مجاهراً ولمتعبده مستردا ولجده فى النخوة لدينه مستجداً، فقد وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر وبذل البدر لمن بدر! فجاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد! وتواصلت منهم الأمداد بالأمداد! وتوالت أنجاد الأنجاد، فهم على النقص يزيدون، وعلى الأبد يبيدون، وبالمهج يجودون، وعن اللجاج فى خوض اللجج لا يعودون، وهؤلاء الواصلون فى البحر القاطعون أثباجه المكاثرون أمواجه، فأما ملوكهم الواصلون فى البر فقد تواتر أخبارهم بأن خلت منهم ديارهم، ورمتهم إلى أغراضهم البعيدة أوتارهم، وبهم يستفحل الشر، ويعضل الأمر، ويصول الكفر ويجول، ويتطاول الشرك ولكنه لا يطول، فإن لدين الله من خليفته ناصراً لا يسلمه، ورازقاً لا يحرمه، وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه، وحاز السناء قدحه، وأسفر صبحه، ووفر نجحه، وبدا علوه، وباد علوه، والخادم بقوة رجائه فى العوارف الإمامية والعواطف النبوية، وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية، آن أن يفرق الجمعين ويجمع للفريقين القمعين، ويعيد البر بحراً من دماء وافدى البر والبحر، ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر.

ذكر وصول الأسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة فى المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينيا

كان السلطان منذ وصل الفرنج إلى عكاء قد كتب إلى مصر بتجهيز الأسطول وتجزية حباله، وتزجية أمور رجاله، وتكثير عدده، وتوفير عدده، وإصلاح شؤون شوانيه، وإسناء رواسى سواريه. فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره؛ وشرح لإيراده وإصدار صدره، وأنفق من ماله ما جمع به شمل رجاله، وهذا لؤلؤ قد اشتهرت فى الكفر فتكاته وشكرت فى العدو نكاياته، وقد تفرد بغزاوات لم يشاركه فيها أحد ولم يكن فيها على الإسلام لغيره يد، ما سلك نهجًا إلا ملك، ولا طلب غاية إلا أدرك، وهو ميمون النقيبة، مشكور الضريبة، وهو الذى رد الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عينًا تطرف؟ ولم يبق لهم دليلاً يعرف، وغزواته مشهورة وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسه لعقد الإنفاق فى سبيل الله محلوله، فتولى الأسطول وجمع به الطول ولطول، ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب، وسفن حمالة ومقاتلة، وبطس للأزواد والمير ناقلة، فصدمتها مراكبنا بمناكبها، وملأت معاطنها بمعاطبها، واستطال الأسطول المنصور على أساطيلها، وجاء حقه بإزهاق أباطيلها، وطلعت فى سماء البحر كواكب مراكبنا نجومًا، وقذفت لشياطين الكفر رجومًا، وأقبلت سواريها بالرواسى، مبرمة الأمراس محكمة المراسى، وقطعت اللجة بأشباه أمواجها، وسدت فجاجها بأفواجها، ونكست أعلام الأعلاج عن أثباجها، ووافت أساودها السود بالأسود، وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود، وطارت بقوادم المجاذيف وخوافيها، وزارت بجوارح المقاذيف وعوافيها، فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب، وتطوى اللجة كطى السجل للكتاب فصدتها وصدعتها، وردتها وردعتها، فكأنما نعبت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها، وأناخت ظعائن الضغائن على شوانىء شوانيها، وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها، فأول ما ظهر الأسطول المنصور بشينى للفرنج عظيم الشأن، عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتليه، وتبع ما يليه، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة، تشتمل على ميرة لهم وذخيرة وأمتعة كثيرة، وتفرقت سفن الفرنج أيدى سبا، وأصلد زندهم وكبا، وعادوا محصورين محسورين قد دُفعت مراكبهم التى دافعت عن مباركهم، وأيقنوا أنهم تورّطوا فى مهالكهم، وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار، وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار.

ذكر فصول أنشأتها فيها

منها فصل

ولما رأينا أمدادهم فى البحر متضاعفة، وجموعهم متكاثفة، استدعينا الأسطول المصرى المنصور فجاءها فجاءة، وامتد أسطراً على طرس البحر أعيت متأملها قراءة، وأقبلت جواريه جوارح من قنائص القوامص، وصدمت شوانيه شوانى الشناة فعادت مراكبهم وهى نواكص، وطارت غرباناً ببين أحبة الكفر أعداء الإسلام ناعبة، وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا لاغبة، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة، وألهبت فى الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعرة، وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت، وعملت ما شاءت وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت وأعشت أعين الرائين كلما تراءت فضاقت بها العداة ذرعاً، ولم تجد من بعدها مطعماً ولا مرعى.

* * *

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الأسطول المصرى بالسطو الشديد والبأس القوى، فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع، وذل جمع الكفر لعزه الجامع، وجاء بكل شينى شانى، لشائن الدين واجىء مفاجع للعدو بالهلاك مفاجىء، مفرق لمراكب الشرك المجتمعة، مضيق لمناهج مضارها المتسعة. فطحن مناكب مراكبها، ووسع معاطن معاطبها، واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة، ولأمداد إعانتها ممن وراءها مستمدة، وقتل من فيها من الرجال وغنم ما وجد فيها من العدد الأموال.

* * *

فصل من مكاتبة أخرى

وصل الأسطول المنصور فى كل شينى شانى للشرك شائن، زائد لبهجة الإسلام زائن، زائر بكل أسد زائر، سائر بكل مقدام إلى مقام الأقدام سائر. وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها وأرهفت غروبها وسنمت غواربها، وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض، وأرجلها على الثبات فى روابى متون سفنها روابض، وهم على انتظار الأسطول ليطاولوه، ويلقوه بالمدافعة يجاولوه، فلما وصل وصال، وراع أمره وهال، وجلا عليهم الأوجال والآجال، بتوا المراسى والحبال، وانهزموا بسفنهم وآذنت قوتهم بوهنهم، واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والأحمال مملوءة، وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة. والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها، وأعرب عن حقها وحقيقتها.

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد

ولما اشتد البر وتوالت الغيوث، وتبحرت السهول والوعوث، وحالت الأوحال ولاحت على خلاف المراد الأحوال، وتعذر الخروج إلى تلك المروج، وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج، وزال حكم النزال، واستقال من استقل بالقتال، شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى، وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى، وهو تقوية عكاء بالميرة والذخيرة، والأسلحة الكثيرة، والرجال الحماة، والأبطال الكماة. فنقل إليها في المراكب جماعة من الأمراء الأملئاء بأجنادهم. فدخلوا إليهم بعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضاً برجال الأسطول ورؤسائه وقواده، فما دخل أحد فيه إلا بزيادة في زاده، وكانوا زهاء عشرة آلاف بحرى حربى، على الجرى إلى الموت جرى، فامتلأ البلاد بكل منتخب منتخ، مرخص مهجته الغالية للإسلام مصرخ، وانتفع بهم في جذب المنجنيقات والرمى في العرادات، والحذف بالنفاطات، والإحراق بالزراقات، والزرق بالمحرقات، وإلقاء القوارير، وإذكاء المساعير، وتطريح النار، وتطويح الأحجار، ومواصلة القطاعات، والزيارة بالزيارات، وتوتير الجروخ والزنبوركات، وتطيير الناوكات النواكى من مقاتل العدو إلى الوكنات، ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ، والجد في الجد والجذ، وطروقهم ليلاً على سبيل التلصص، وسوقهم من سوقهم على وجه التصيد والتقنص، وكبسوا ليلة سوق الخمارات والعواهر، وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا، واجترأوا منه على ما أجروا، وكذلك من عندنا يدخل إليهم الرجال مستسرقين، ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين، فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه ، ومن تعذر عليه إخراجه عقره وبعجه، ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد مديته، ويسلبه سكونه بسكينه، ويجعله إن لم ينجذب معه من حينه على يقينه، فيقوده بخطام القهر، ويجذبه بخدام الأسر، ووقع القوم من هذا في بلاء مبل، وعناء عن حب الحياة مسل، فقد كثر إليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز، وشق عليهم الاحتراس والاحتراز. وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق وازداد فرقهم من كل فريق، وأعدت الحال من الليل إلى النهار، والمكابرة والجهار، حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الأنهار فإذا صادفوا فارساً ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الأسار.

* * *

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة، متحلية بشبابها وحسنها

متزينة، قد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء، وترافدن على الإرفاق والإرفاد، وتلهبن على السفاح والسفاد، من كل زانية نازية، زاهية هازية، عاطية متعاطية، خاطية خاطية، متغنية متغنجة، متبرزة متبرجة، نارية متلهبة، متنقشة متخضبة، تائقة شائقة، فائقة رائقة، راتقة فاتقة، راقعة خارقة، مارقة رامقة، قاسرة سارقة، فارجة فاجرة، فاتنة فاترة، مشتهاة متشهية، ملهاة متلهية، متفننة متفتية، ناشية منتشية، متشوقة متسوقة، مقترحة محترقة، متحببة متعشقة، حمراء مرحاء، نجلاء كحلاء، عجزاء هيفاء، غناء لفاء، زرقاء ورقاء، متخرقة خرقاء، تسحب غفارتها، وتسحر بنضارتها نظارتها، وتنثنى كأنها غصن، وتتجلى كأنها حصن، وتميس كأنها قضيب، وتزيف وعلى لبتها صليب، وهى بائعة شكرها بشكرها، باغية كسرها فى سكرها. فوصلن وقد سبلن أنفسهن، وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن، وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب، وفتحن أبواب الملاذ، وسبلن ما بين الأفخاذ، وبحن بالإباحة، ورحن إلى الراحة، وأزحن علة السماحة، ونفقن سوق الفسوق، وألفقن رتوق الفتوق، وتفجرن بينابيع الفجور، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور، وعرضن الإمتاع بالمتاع، ودعون الوقاح إلى الوقاع، وركبن الصدور على الأعجاز، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز، ودمن على تقريب خلاخلهن من الأقراط، ورمن فرشهن على بساط النشاط، وتهدفن للسهام، وتحللن للحرام، وتعرضن للطعان، وتضرعن للأخدان، ومددن الرواق، وحللن حين عقدن النطاق، وصرن مضارب للأوتاد، واستدعين النصول منهن إلى الأغماد، وسوين أراضيهن للغراس، واستنهضن الحراب إلى التراس، واستنفرن المحاريث إلى الحرث، ومكن المناقير من البحث، وأذن للرؤوس فى دخول الدهاليز، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز، وقربن الأشطان من الركايا، وفوقن النبال فى أعجاس الحنايا، وقطعن التكك، وطبعن السكك، وضممن الأطيار فى أوكار الأوراك، وجمعن قرون كباش النطاح فى الشباك، ورفعن الحجر عن المصون، وترفعن عن ستر المكنون، ولففن الساق بالساق، وشفين غليل العشاق، وكثرن الضباب فى الوجار، وأطلعن الأشرار على الأسرار، وطرقن الأقلام إلى الأدوية، والسيول إلى الأودية، والجداول إلى الغدران، والمناصل إلى الأجفان، والسبائك إلى البواتق، والزنانير إلى المناطق، والأحطاب إلى التنانير، وذوى الإجرام إلى المطامير، والصيارف إلى الدنانير، والأعناق إلى البطون، والأقذاء إلى العيون، وتشاجرن على الأشجار، وتساقطن على الثمار، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها

قربة، لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة، وسقين الخمر، وطلبن بعين الوزر الأجر.

وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية، وأبق من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء، جماعة جد بهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضى للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة فتحيل فى النقلة، فإن يد من لا يرتد لا تمتد، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذ كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج. ووصلت أيضاً فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر، وهى فى بلدها مالكة الأمر، وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وتثبت ثباتها لثباتها، وفى الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وكن فى زى الرجال، ويبرزن فى حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال، وكل هذا يعتقدنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهن عادة، فسبحان الذى أضلهن، وعن نهج النهى أزلهن.

وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليست لهن سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة استبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين، ويحرضن وينخين، ويقلن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء له إلا بالفناء، وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء، فهن للغيرة على الملة مللن الغيرة، وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة، ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن، ولما ضامهن من الأمر تبلهن وتبلدن.

* * *

ذكر ما أهداه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة، وتقوية النجدة بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة، سيَّر من أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده ما وجده، ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وشاع الأعتداد، وذاع الأحماد، ودل ذلك على اتشاج الوداد، والامتزاج والاتحاد.

● **وكتبنا فى شكره:**

وصل السلاح، وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح، واستجيدت التراس والرماح، وفارقت للقائها أجسام الأعداء الأرواح، واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق، وطعنت وضربت منهم النحور والأعناق، وقد هدا بما أهداه النصر إلى الهدى، والردى إلى العدا، وأجود الأكارم وأكرم الأجاود من جاد بما أجدى وأهدى ما هدى، وعاد من المكرمة بما بدا، لا أخلى الله المجلس من يد يتخذها، وأياد يسيرها وينفذها، ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها، وحمية للدين يقم بها حماة الشرك ويقذها، ونخوة للإسلام تمهى حدود الهمم النابية وتشحذها، وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة، والضرورة الشاقة، فإن الحروب المتطاولة المدد، أتت على جميع العدد فالسمر متحطمة، والبيض متثلمة، ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمة، وعيون النصال عن حواجب القسى إلى مقل الأقران رامقة مارقة، وحمام الحمام فى مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائفة سابقة، وقد أفنى المصال النصال، والنضال النبال، والرماء الأفواق، واللقاء العتاق، والمصاع المناصل، والقراع الذوابل، والصيال الصواهل، وعمل الجهاد الدائم العوامل، فلا ضامر إلا وهو إن كان غالبًا لاغب، ولا صارم إلا وهو فى دم العدو الفائض ناضب، ولا جارح إلا وهو مجروح، ولا قارح إلا وهو مقروح، ولا جامح إلا وهو مصحب، ولا باشر إلا وهو مقطب، فبأية عدة من هذه العدد أنجد، غار الحمد وأنجد، وتأسس الشكر لأنعامه وتمهد، ومن العجب أن العدة تفنى ولا تفنى العداة، وتنمو على الحصاد وكأنها النبات، ويتسارع إلى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها فى إبدالها الحياة، فإن البحر يمدهم، والكفر إلى الردى يردهم، وكلما أخلقتهم الأيام فإن الليالى تجدهم، وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم، وما حمل أهل النار فى الماء إلا ليغرقهم فى دمائهم وبنار البواتر يحرقهم.

* * *

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بأن عماد الدين قد جهز عسكره وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره، فقال السلطان: هذه أيام الشتاء ولا ينتصف فيها من الأعداء. ونحن محتاجون إلى العسكر فى الربيع، واستنهاض الجموع إلى شمل النصر الجميع، فكتب بتأخيره، والتمهل فى تسييره، فتأثر قلب عماد الدين برد ولده، ورجوعه بعد المسير من بلده.

فكتب إليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى إليه صدق اهتمام المجلس بأمره، والتقدم بتجهيز العسكر إلى

نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره، وعرف مسير قطب الدين أدام الله له مضاعفة العلاء، وأقر بأنواره عيون الأولياء، وظن أنه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات، ولم يقرب من عبر الفرات، أشفق عليه من التعب ليكون عسكره مستريحًا عند الطلب، فإن الحاجة إليه في الربيع أدعى، ومصلحة الإسلام في ذلك الأوان أولى أن ترعى، ولو عرف أن الركاب القطبى قد دنا لبشرته السعادة بنجح المنى، ولاستقبله بالنفوس والأرواح، وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح، وإن اشتغل القلب بما فاته من حظ الاستسعاد بوفوده، فقد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده.

وفى آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الأقطار والأمصار، للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبث، وحث الرسل وأرسل بالحث، وبعث المسرعين لاستبطاء البعث، وأنهض للتبليغ كل بليغ، وجرع كاس التدبير فى حسن السفارة كل مشيع مسيغ، وسرح عدنان النجاب إلى سيف الإسلام باليمن، وشرح فى الكتاب إليه ما جرى من حوادث الزمن، ووصفت له جلية الحال، وما نحن عليه من دوام القتال، وطلبت منه الإعانة بالمال، واستعين واستنجد، واستلين واسترفد، وحض على حظه من أنجاد الإسلام، وأن يكشف بسنى طلوعه ما غشيه من الإظلام، وأرشد إلى نهج السماح، وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح، وتجريد الجرد العتاق، وتوفير الحمول التى تخرجها فى سبيل الله يد الإنفاق، وكوتب قزل أرسلان بهمذان، بما دنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الإيمان، وهدى إلى محجة الإسلام.

* * *

ذكر وصول رسول سلطان العجم

ركن الدنيا والدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بالالتجاء إلى ظل السلطان، وارتجاء ما له من فضل الإحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم، أمير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم، فضرب له من الخيم الخاصة سرادق، ووفرت فى الضيافة له المنافع والمرافق، ومضمون رسالته أنه خانته من أمرائه ومماليكه العامة والخاصة، وخصته فى سفراته ونكباته الخصاصة، وإن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على مماليكه، وضيق عليه سعة مسالكه، وألجأه إلى هذا الالتجاء، وهو بقوته من هذا الجانب قوى الرجاء، وقد وصل إلى حد مملكتك بقرب إربل، وأراد الوصول إلى الموصل، لكنه نزل فى بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، ينتظر منكم الإصراخ والإشفاق، وعز الدين حسن من

خدم دولتكم، والمستمسكين بعصمتكم، والمستوثقين بذمتكم، وأنا عنده مقيم، وعلى سنن الأمل مستقيم، فإن استقدمتنى إليك قدمت، وإن أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتى وجدت من النصر ما عدمت، وأنا الآن هزيل عامك، ونزيل إنعامك، ووصل معه كتاب بخطه قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه، وأبدى الاستكانة، واستدعى الإعانة، وأردف رسولاً برسول، وكرر سؤالاً فيما التمسه من سول. فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل، وأنه لا مطمع ما دام العدو ملازمًا لنا فى مفارقة الساحل.

فكتب إلى زين الدين يوسف صاحب اربل وإلى حسن بن قفجاق وإلى نائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته وإشاعة معونته، ثم ندب كبيراً للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه نسيبى، ليكون القيام بهذا الأمر من نصيبى، وسعى فى المصلحة والمصالحة والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة، وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه، وسيأتى ذكر ما آل إليه الأمر فى موضعه.

وتوفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ولقد كان من الأعيان، ومن مقربى السلطان، ومن أهل الجد فى نصرة الإيمان، فنقله الله إلى الجنان وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وكانت فى هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبى سعد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان وهو شيخ المذهب الذى لم يخلفه مثله، ودفن معه فضله، وكان مولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكانت وفاة الأمير عز الدين موسك بن جو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الأبرار الأخيار، والعظماء الكبار.

❊ ❊ ❊

دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة، وعكاء محصورة، وجموع الفرنج إلى حصارها محشورة، وعلى تعذرها عليهم محسورة. وخرجت هذه السنة والحصر مستمر والسلطان فى ملازمة القتال مستقر، وحيا النصر فى الأحيان مستدر، وقد تسنت للإسلام مباهج، ووضحت للسعادة مناهج، وبانت للقتال مداخل ومخارج، وانقطعت بين الوشيج وأرحام الأرواح وشائج، واشتدت لتباريح الأشواق إلى لقاء الأعداء لواعج، وتألفت فى الأقدام مقدمات ونتائج، ولمناجح المنى منا فى مدى الرجاء مدارج، ولخطباء الظباء فى منابر الطلى معارج، وللجهاد جهات، وللعزمات أزمات، واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات، وكانت لنا مسرات هى لأعدائنا مساءات، ووقعت عجائب، وأعجبت وقائع، وأبدعت غرائب، وأغربت بدائع، واجتمعت كتائب، ونابت نوائب، وصفت تارة وكدرت مشارب، وساعدت الأقداروتباعدت الأكدار، وهلك من الفرنج المحاصرين فى الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر، ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر، وسيرد حديث كل حادث بمفرده، ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده.

* * *

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب أحيانًا للصيد، بعد أن يحذر على ما يظهر للعدو من الكيد، وهو لا يبعد من الخيم، ولا يقرب من مسائل الديم. وركب يومًا فى صفر على عادته فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة على الحالة المحتاطة المستظهرة. فخرج الفرنج وقت العصر فى عدد لا يدخل فى الحصر، وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا إليهم وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم. وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم، وما زالت بينهم حملة وحمله، وشلة وشله، وسلة وسله، وركضة وركضه، ونفضة ونفضه، ومشقة ومشقه، ورشقة ورشقه، وجذبة وجذبه، وضربة وضربه، وشدة وشده، وردة ورده، وضمة وضمه، ولمة ولمه، وأصحابنا ظاهرون وبالمراد ظافرون، ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع، حتى فنى النشاب وبقى الانتشاب، وشاع نداء الأصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لا يعجزهم إلا الرماء ولا يهتكهم إلاَّ الإصماء، ولا ينفرهم إلاَّ رنة الأوتار، ولا ينذرهم إلا أنه القسى بالدمار والبوار. فلما أنسوا بخلو الجعاب

تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر. فثبت من العادلية فى وجوه القوم صف مرصوص البنيان، وأشرعوا إلى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان، واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان، وشاقهم جنى الجنان، وذلك أنهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانًا، وصرعوا أقرانًا، فنزلوا بعد فرسهم، لسلب لبسهم، فمرت بهم الحملة فى الأوبة، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان، واجتمع فى مراكزها الفريقان. وكثر التأسف على من فقد وكان الحاجب ايدغمش المجدى ممن استشهد، وزاد التلهف على فوات الفرصة وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة، فإن العدو صار عرضة للصرعة فى تلك العرصة.

ومن نوادر هذه الوقعة وطرائف هذه الدفعة، أن مملوكًا للسلطان يقال له سراسنقر، وهو يتطاول فى كل معترك ولا يقصر. عثر به جواده وثبت على الجرأة فؤاده، ورجله عثاره، وأسلمه أنصاره، فقبض من أسره شعره ليجذبه، وسل آخر سيفه ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتد سراسنقر يعدو ناجيًا وللخلاص راجيًا وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه وفاتهم بعون الله فلم يدركوه، وهذا قذفته المنون من لهاتها بعد ازدراده، وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد إغماده.

* * *

ذكر فتح شقيف أرنون

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلم بالأمان شقيف أرنون، واستمر الحصار عليه منذ نزولنا فى السنة الماضية بمرج عيون، وصاحبه أرناط صاحب صيداء فى دمشق لأجله معتقل، وباب خلاصه دون فتح شقيفه مقفل، وذلك أن الشقى فى الشقيف فنى زاده، وعز اجتهاده، ومرد عليه فى الحفظ مراده، وخانه فى الصبر ارتياؤه وارتياده، ونخب من الرعب فؤاده، وأصلد باليأس رناده، وامتنع عليه إصداره وإيراده، فسلمه على أن يسلم صاحبه وتخلص فى ا لنجاة مذاهبه، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه وتركه للإسلام بما يحويه، وأفرج عن صاحب صيداء وصار إلى صور ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور.

* * *

ذكر حال عكاء ودخول العوامين إليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر وحضور مراكب الأسطول من مصر، فما زال يقوى عكاء بتسيير الغلات والأقوات والقوات إليها فى المراكب، وقد ملأها بالذخائر

والأسلحة والكماة المساعير والحماة المحارب، فلما سكن البحر وأمن غائلته الكفر، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدت مراكبنا فى موانيها، وانقطع عنا خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد والعدد، فانتدب العوام للسباحة، وحملتهم السماحة لهم بالرغائب على وضع المهج فى ميزان السماحة. وعلموا أنهم إذا سبحوا ربحوا وإذا سلموا فرحوا وأفرحوا، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفى المستور.

وكان فى العسكر من اتخذ حماماً تطوف على خيمته وتنزل فى منزلته، وعمل لها برجاً من خشب، وهرادى من قصب، ويدرجها على الطيران من البعد، ويوردها لشبعها وريها أحب الحب وأعذب الورد، وكنا نقول: ما هذا الولع بما لا ينفع، والوله بما لا ينجع، حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت، وشفت الغلل ونقعت، وأتت بالكتب شارحة سارحة، ووفت بمفاتح الغيب بالبشرى مفاتحه، فصرنا نحبوا صاحب الطيور بالإطراء ونخصه بالمدح والثناء ونأمره بالاستكثار ونطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الإرسال. وكنا نعرف بها جلية الأحوال ونعلم أن الله علمه ذلك البر وألهمه ذلك السر، فإنه اطلع على ما يدفع إليه أهل الإسلام، فحمى حمى هداهم بهداية الحمام فإنها أمينة على الأسرار ضمينة بالأخبار، ضنينة بالأسفار، قمينة بكرامة الأحرار، مصونة من بين الأطيار، جريئة على الأخطار، بريئة من الأعذار، معدودة من الأذخار، مودودة مع الأخيار، وحمام البلد إلينا مع العوام محمولة، وعقود الأكياس عليهم محلولة، فلا ينكر على المحتاج إن عام بالإنعام ومعوله التحرز من الضلال، والتخفى بستر الظلام، والضرورة تحمل على تحمل الضرر والغرارة تبعث على الانبعاث إلى الغرر، والفقر يدعو إلى ركوب الخطر، وفيهم من سلم مراراً من القوم فاجترأت نفسه وأنس بالعوم، ولقد عطب عوامون بالأمانة قوامون فما ارتدع الباقون وما قالوا إنهم لما لقى رفقاؤهم لاقون.

* * *

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد فى الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر، وانتشى الربيع وانتشر، أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توافى أمداد الجود، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد

الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وهو بأكمل العدة، وأحسن الأهبة. وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وهو الذى ببسالته يقسر الليث القسور، وعز الدين إبراهيم بن المقدام الهمام ابن الهمام الكريم ابن الكرام والأسد الضرغام والسيد القمقام، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان ففاض بهم الفضاء، واكتسى برياشهم العراء، وكثرت الجنود وانتشرت البنود وحلقت عقبان الألوية، وتلاحقت ذؤبان الأودية، ولمعت بوارث البيارق، وارتفعت عوائق البوائق، وحملت بواسق السوابق، وثبتت وثائق العلائق، ونبتت شقائق العقائق ونظرت أحداق الحدائق، وتيسرت طرائق الطوارق وأعجبت أزهار الرايات، وأنهت غايات الغايات، ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول، ودارت بيد الربيع فصوص الفصول، وعلت الأعلام، وحلت الأحلام، وومضت المواضى ومضت واقتضت القواضب القواضى وقضت، وعريت البيض من الحلى، وغريت السمر بالكلى، واشتقات لدات اللدان إلى العناق، وتاقت شفاه الشفار إلى لثم الأعناق، وتحدث الأحداث فى المجاراة بإجراء العتاق، وطالت رقاب الرقاق إلى غلاظ الرقاب، وأعجم عن جمجمة الجماجم إعراب العراب، وحمى عزم البطل، ومحى رسم الملل، وعاد الجد إلى جدته، والحد إلى حدته، وخرج البرد من عدته، وفاز النصر بعدته، وجليت بنت الغمد فى زى الهند ورى الفرند، وقطف ورد الورد للشد إلى الورد، وقال الناس: إلام ننتظر وعلام نصبر ولم لا نشتغل وكيف لا نشتعل وحتام القعود وم الركود، ولماذا الرقود؟ وقد نظرت السعود، ونضر العود، وصدقت من أصحابنا الوعود.

فرحل السلطان وتقدم، وعزم على طلب العدو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول فى الفصل الأعدل والفضل الأكمل، وتدانى العسكران وتعالى العشيران، وتقارب القرنان، وتحارب الحزبان، وترتب العسكر الإسلامى فى نزوله ميمنة وميسرة وقلبًا وفى ركوبه على ترتيب منازلهم طلبًا طلبًا. فكان الملك المظفر تقى الدين فى آخر الميمنة الميمونة، والملك العادل فى آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة، والملك الأفضل فى أول ميمنة القلب، وأخوه الملك الظافر فى أول ميسرته على الجنب، والكتائب مكتبة، والمقانب مقنبه، والسماء بالنقع الثائر منقبه، والأرض بوقع الحافر مثقبة، والعساكر مترادفة مترافدة، متوافرة متوافدة، متتابعة متواردة، متسابقة متلاحقة، متناسبة متناسقة، متوالية متوافية، متجارية متبارية، منقضة كالبزاة، منفضة إلى العداة، داعية إلى الانتصار عادية على الكفار.

* * *

ذكر وصول رسول دار الخلافة
مع ضياء الدين الشهرزورى فى جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الأول رسول دار الخلافة بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام، فتلقاه السلطان بالاحترام والإكرام، واحتفل لوصوله واستقبله لقبوله وتلقاه الأمراء على الترتيب، فمنهم من تقدم نحوه إلى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب، ثم أخوة السلطان وأولاده واحداً بعد واحد، وماجداً بعد ماجد، وبادئاً بعد عائد، ثم ركب السلطان إليه عند القرب من سرادقه، وأدناه إليه بتعانقه، ثم سار معه قليلا وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلاً، حتى نزلوا به فى باركاه له مضروب، وخصه بصنوف من الألطاف وضروب، ووصل معه حملان من النفط الطيار، وحملان من القنا الخطى الخطار، وتوقيع بعشرين ألف دينار، تقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النقاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى رد التوقيع مع ورد الصنيع، وقال: كل ما معى من نعمة أمير المؤمنين وعارفته، ولقد نعشنى ما شملنى من عاطفته، ولعل الله يوفقنى للقيام بالفرض، ويغنينى عن الالتزام بالقرض، وأركب الرسول مراراً معه وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، ومصارع الرجال، ومجامع الأبطال، ومطالع اللقاء، ومواضع الهيجاء، ومصالت الأقدام، ومنابت الإقدام، ومواقف الصفوف، ومصاف الوقوف، وأماكن البعوث، ومكامن الليوث، وتل الفضول، وبقية التلول، حتى يشهد بما يشاهد ويبين له المجتهد والمجاهد، وأراه ما لم يره ليأثر أثره، ويخبر بجملته ويجمل خبره، وأقام الرسول طويلاً، وأقام له السلطان من طوله دليلاً، ووفر له عطاء جزيلاً، وعرفا جميلاً، حتى استأذن فى العود فعاد واستصحب الشكر والأحماد.

* * *

ذكر مقاتلة الفرنج عكاء بالأبراج والإعجاز بها والإزعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار، شرعوا فى عمل الأبراج الكبار، وركبوها من الأخشاب الطوال، والعمد الثقال، وبنوها وقدموها، ونصبوها وأحكموها، وسقفوها طباقاً، وسمروها بالحديد، وجعلوا لها منه أطواقاً، ووثقوها شداً وشدوها وثاقاً، ولبسوها بالسلوخ، وملأوها بالجروخ، وزحفوا بها إلى السور وكشفوا بالرمى منها بعض سقوف الدور، وتساعدوا على طم الخنادق وتفتيح الطرائق، ووصل من المدينة عوام يخبر بأن التلف بها حوام، وإن البلد قد أشرف والخطر قد أسرف والأبراج علت،

والأسوار خلت والبلاء قد عم، والخندق قد طم، وأنتم إن تم هذا عراكم العار، وأظلم على الدنيا والدين بليله النهار، فاحتمى السلطان واحتدّ، وشد واشتدّ، وركرب وركب، وكان يحسب هذا فجاء كما حسب، وزخف إلى الفرنج ليشغلهم عن الزحف، ويصرفهم عن الفتح بالحتف، وذلك فى العشرين من ربيع الأول يوم الجمعة بالجحافل المجتمعة، والغماغم المرتفعة، والصوارم الملتمعة، والصلادم الممتنعة، والأسنة المشرعة، والأعنة المسرعة، والحوائم المنتجعة من النجيع، والبيارق المختفقة كأزهار الربيع.

واتفق فى هذا اليوم وصول عماد الدين صاحب دار محمود بن بهرام الأرتقى، بالجمع الوافر الوفى والعسكر النخى النقى، وسار إلى القتال على حاله، بخيله ورجاله، وضايقهم السلطان مضايقة عظيمة، ولم تزل جادة الجد فى مقاومتهم مستقيمة، حتى دخل الليل، ولغبت الخيل، فقوى تلك الليلة اليزك، وألزمهم فى الحفظ الدرك، ورجع إلى مخيمه ساهداً ساهراً، مجاهداً بالبكور نحوهم مجاهراً.

فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب، وسبحهم على بحر الكر والكرب، ورجل الرجال إليهم، وأنزل النوازل عليهم، وامتزج بياض النهار بسواد النقع، واتسع خرق الواقعة على الرقع، وانقضى اليوم، وقد انقرض القوم، وتفرق الجمعات وقت العشاء عن قتيل غريق فى الدماء، أو جريح على بقية الدماء، وبات الناس فى الصلاح شاكين، وبنار المذاكى ذاكين، ولما تم منهم وعليهم حاكين.

ورجع السلطان إلى خيمة ضربت له على تل العياضية وقد ألزمته البسالة الطبيعية بالرتوع فى رياض الأخلاق الرياضية، وأصبح يوم الأحد راجعاً إلى قتال أهل الأحد، واستن من الجد على أنهج الجدد، وأمر بانتقال السوق إلى قربه ليقرب من العسكر، وأيده الله بالنصر الأظهر والظهور الأنضر. وأقام كذلك وهو فى كل يوم يغذو وينازل، ويعدو ويقاتل، ثم نقل يوم الأربعاء الخامس والعشرين الأثقال إلى المخيم لئلا يغيب حاضر، ولا يصاب عن الورد صادر، وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين، ولمعشر الكفر بإدارة كؤوس الردى عليهم معاشرين، فانتدب منهم إلى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح، وكل محترق على نار الهيجاء للهباج مقترح، وكل وقاح بالحراب وقاع، وكل ضرار بأرداء الكفر نفاع، وكل غلام له من هيجان الحمية لغام، وكل أسد غدا إلى الشد له من حومة المأزق وزئير وبغام، وكل متلاف للغيرة غير متلاف، وكل جاف عن سوى السوء متجاف، وأخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس، وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس، وأبلوا بلاء حسناً وأوضحوا بالنكاية فى العدو سنناً، ووصل فى صبيحة يوم الخميس السادس

والعشرين، عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين وأن البلد قد ضويق وأن العدو المخذول يحيق به كيده إن حوقق، فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله، ويكفه بنزاله عن نزاله، وجدد الكتب إلى الأمصار بالاستنفار والاستنصار، فأول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، وقد جمع وجلب، وتقدم عكسر يوم الجمعة وانفرد بوصوله وحظى من نظر والده بسوله، وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد إلى معسكره. وجاء يوم السبت فى حسن منظره وإحسان أثره، فى منظر ناضر، ورونق حاضر، وجمع كثيف، وحشد لفيف، وبهجة رائعة وروعة مبهجة، وهيأة معجزة وهيبة للعدو مزعجة، وصولة دائلة، ودولة صائلة، وميامن رائقة، ومحاسن شائقة، وبحر من الحديد مائج، ومجر من العديد هائج، ورقاق وذوابل، وعتاق وصواهل، وعوابس وعواسل، وشعوب وقبائل، وقدم فى هذا اليوم مظفر الدين بن على كوجك وهو صاحب حران جريده، وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة، ثم عاد إلى عسكره ليقدم به، ويحضر بجنده وتركمانه وعربه.

* * *

ذكر وقوع النار فى أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان ومن كان فى طباقها

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت بظهور دلائل النصر وتناصر أسباب الظهور المبشرون. فنظرنا والنار من أحد الأبراج فى السماء بشعلها متسامية، وفى الجو بشرارها مترامية،وما يدرى ما سبب هذا الحريق، وكيف تيسر هذا التوفيق، وأحدقت النار بالبرج فإذا هو كشجرة من نار، وقلوب المشركين لاستعارها فى استعار، ووجوه المؤمنين لأنوارها فى استبشار، ثم رأينا البرج الثانى وهو يحترق، والنار فى أثنائه تخترق، ثم نظرنا إلى البرج الثالث فإذا هو يشتعل، وبألسنة النيران يبتهل، فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها، وبلغت إلينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها، وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار، ونسير بطاقاتها على أجنحة الأطيار والعجب أن الأبراج كانت متباعدة غير متدانية، وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه، وخسف أسواره وكسفه، فاحترقت على تباينها فى وقت واحد وقدر من الله وارد، فلم يكن ذلك إلا سراً إلهياً، ولطفاً ربانياً، وفرجاً بعد الشدة، وثلجاً لصدور المؤمنين بتلك الوقدة، وكان سبب حريقها أن رجلاً يعرف بعلى ابن عريف النحاسين بدمشق كان استأذن السلطان فى دخول عكاء للجهاد، وأقام فيها باذلاً للاجتهاد، وغرى بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره، وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره، وتقديره معاييره،

والناس يضحكون منه، ويغضون عنه، ويقولون: هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه، وما هذا الهوس الذى وقع فيه، وهو يعد لذلك العمل الآلات ويجد فى تلك الأدوات ويكثر القدور، ويرتب الأمور. فلما قدمت إلى البلد تلك الأبراج وحصل من الامتزاج الامتزاج قوتلت بكل فن، وأدنى إليها من النفط كل قدر ودن، ورميت بكل قارورة محرقة وكل نفاطة مرهقة، وبالغ فى صنعته الزراق فلم يتم فى شىء منها احتراق، ووقع اليأس واستسلم الناس، فمضى ابن العريف، بل ابن العرّيف، إلى بهاء الدين قراقوش الأمير، وقال: قد رأينا ما اعترض من التدبر وما عرض من التقدير، فافسح لى فى رمى هذه القدور فلعل الله يأتى منها بشفاء الصدور. فأذن له على كره وقال: ما أرى لإحراق هذه البروج على يده من وجه فإن الصناع قد ألبسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسوا، فلما وجد الإذن وزن القدور وعيرها ورمى بواحدة منها إلى أحد الأبراج فى المنجنيق وعبرها واعتبرها، ثم لما استوت رمايته وصحت فى الإصابة درايته رمى بقدور نفط لا نار فيها، وهو يصبها على أعالى البرج ويسقيها، والفرنج يعجبون من البلل ولا يدرون بما وراءه من الشعل، ثم قذف بقدر نارية، متشعبة بكل بلية، فوقعت فى الطبقة الوسطى ورمى أخرى فوقعت فى السفلى، فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى، وتعذر علىٍ من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين «فاحترقوا أجمعين»، ودخل إليه أيضاً جماعة لاستنقاذ ما فيه فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم، وتقلبت الجحيم عليهم غيظاً لاستبطاء حتوفهم، وتحول ابن العريف إلى مقابلة البرج الثانى، ولم يلحقه فى إحراقه التوانى، وانتقل إلى الثالث فأحرقه، وما كان ذلك بصنعة منه بل لأن الله وفقه، وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقاداً حتى عاد جمرها رماداً وبياض نارها واحمرارها فى السماء على الأرض سواداً، واحترقت المجانيق والستائر التى كانت بقربها، وبهت الذى كفر وأسف على نصبه فى نصبها، وخمد الكفار بذلك الضرام وسلوا عما كانوا فيه من غرام العرام، وحبطت أعمالهم، وخابت آمالهم، وركدوا بعد جريهم، وركنوا إلى خزيهم، وضلوا فى سعيهم، وتورطوا فى بغيهم، وسقط فى أيديهم بسقوط أيدهم، وحيق مكرهم بهم، وكيدوا بكيدهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدو الثغر، وأظهروا بظهور القدر القدر، وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها، واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التى انسبكت، وكشفوا عن الستائر التى تهتكت، فأخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا، وأتراب من ترب من تراث ذلك التراب، وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب، وبردت من حر تلك النار وشفى أوامها بذلك الأوار، والحمد لله الذى جعل تلك النار لأوليائه بالبرد والسلام إبراهيمية، وعلى أعدائه بالحر والضرام جحيمية.

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد، وأنجزه من الوعد، وأجزله من الرفد، وأعذبه حال الظما البرح من الورد، وذلك ما ظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول من الاتفاق الحسن والنصر الذى يقصر عن وصفه ذوو اللسن، وهو أن أصحابنا بعكاء رموا بقدور النفط عدد العدو المدحور، وأحرقوا جميع ما لهم من المذخور، واحترقت ثلاثة أبراج كانوا قدموها، ودبابات قربوها، ومنجنيقات نصبوها، ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الآلات ويستسهلون عليها الغرامات، حتى أقاموا أبراجًا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها وقربوها ناكية فى الثغر المحروس بفتكها، وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها، وأطالوا على مناكب البلد أعناقها، فأشفق الإسلام من نكاياتها، وأظلمت الآفاق من غاياتها، وكشفت من البلد جانبًا وجبت من سوره غاربًا، فأقدر الله على إحراق ما عمل فى تلك المدة المديدة فى ساعة وأمسى العدو بقلوب وأفئدة مرتابة مرتاعة، وما أفصح ألسن النيران على تلك الأعواد خاطبة، وما أبسط أيديها على من كان فيها من الرجال للأرواح ناهبة سالبة.

* * *

فصـــل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذى وردت زناده، والنصر الذي قرب ميعاده. وذلك أن أصحابنا بثغر عكاء استظهروا وظهروا، وصبروا فانتصروا، ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط، وأنزلوها من سماء الرفعة إلى أرض الحط، وأطالوا بها ألسن النار المضرمة، ودبت من الأبراج المقربة إلى الدبابات المقدمة، وعلم العدو أن كرته خاسرة وأن يده عن نيل المنى قاصرة.

* * *

فصـــل

هذه مبشرة بالظفر الهنى، والنجع السنى، والنور اللامع من النار، والنصر الوارى الزناد الطائر الشرار، وهو ظهور أصحابنا بعكاء يوم السبت ثامن عشرى ربيع الأول، وقد خصهم الله بالنجح الأفضل الأكمل، وقد كان العدو قدم أبراجه، وسلك فى المضايقة منهاجه، ولزم فى الزحف الدائم لجاجه، فاستظهر الأصحاب عليهم وقت الظهر، ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر، فطالت ألسنة النيران تدعوا على أهلها بالبوار، وتبدى فى تضرمها تضرعها إلينا للاعتذار، وشاهد أهل النار ما أعد لهم من سقر، وتلونا قول الله سبحانه فيهم: ﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ** ﴾ [فاطر: ٣٦].

* * *

فصل إلى الديوان العزيز

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد، ورمى أصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وأبراجه بقدور النفط من البلد، فخطبت ألسنة النيران على تلك الأعواد، بل على تلك الأطواد، وألحفتها رداء الردى وألحقتها بالوهاد، وفرشت رمادها لما تم أولئك المراد. فكانت تلك النار على الكفر ضرامًا وعلى الإسلام بردًا وسلامًا، واحترقت الأبراج الثلاثة على معتقدى التثليث، ودبت النار إلى الدبابات والمنجنيقات بصدمة والمنجنيقات، ودبت النار إلى الدبابات بصدمة التأثير وحدمة التأريث وما أطول ألسن النار، وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار، وقد أبدت إلى الإسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار، وما أحسنها وهى ترمى بشرر كالقصر، ويكسوا سنى لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر، وما أقطعها لدابر المشركين وقد خصت بإحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة الحصر، وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر، وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من حوته تلك البروج، ودخل إلى طبقاتها قوم لإطفاء النار فتعذر عليهم الخروج، وهلك فيها أكثر من ثلاثمائة دارع، وخرج من أهل البلد لما حق الفرج كل مسابق إلى الغنيمة مسارع، وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف، وكان القوم قد اعتصموا بالأبراج وثوقًا بوثاقتها، واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها، ووصلوا بها أجنتحتهم وذخروا فيها أسلحتهم، فأخفقت ظنونهم وسخنت عيونهم، وخسر هنالك المبطلون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

* * *

فصل من كتاب إلى اليمن فى وصف الأبراج وإحراقها

استنفد الفرنج أموالهم فى عدد أعدوها، وآلات أجدوها، وأحكموا أبراجًا شامخات ومجانيق شادخات، وزاد غرامهم بالغرامات، واستقلوا على عمل الأبراج كثرة الخسارات، ومكثوا مدة على لجاجهم، يطرقون بين يدى أبراجهم، ويمهدون الأرض لتسوية منهاجهم، فلما قدموها بعد لأى وأحكموا بأحكامها كل تدبير ورأى، وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء، وجاؤوا بآلات علات وأداوات أدواء، وأشفى البلد من بلائها وأشفق، ووجل كل قلب وفرق، واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل، ومداواة الأمر العليل إلى أن نشغلهم بحصرنا إياهم عن التفرغ للحصر، وتضرعنا إلى الله فى إنزال ملائكة النصر، فكان من لطف الله ما لم يكن فى الحساب، وأتى الله المجرمين بالعذاب، وألهم أصحابنا ما دووا به المرض، وأدركوا به الغرض، وأظهرهم ظهر يوم السبت الذى خصهم فيه بالظهور، وأقدرهم على رمى

تلك الأبراج بالنفط فى القدور، وظهر من سر صنع الله ما كان فى المقدور، فتسلطت النار على عمل أهل النار، وتصاعدت زفرات غيظها بأنفاس الشرار، ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **يرسل عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴾ [الرحمن: ٣٥].

وعادت تلك الأكم وهاداً، وذلك الجمر رماداً، وتحلحلت تلك الجبال وتحلل تركيبها، ولصق بالتراب ترتيبها، وتنكس منها صليبها، وكانت ثلاثة أبراج شاهقة فلعبت فى ملاعبها النيران فإذا هى زاهقة، وتنقلت نجوم الشعل فى تلك البروج، وعجز شياطينها برجمات جمرات شهبها عن الخروج، وتسلط الحضيض على يفاعها، وباد الدارعون فيها بأدرعها، وأضحك الله ثغر الثغر بما أطابه من أرج الفرج، وأخمد باشتعال ذلك الوهج ما أكبر قلوب المؤمنين من الوهج، وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل التثليث من المهج.

* * *

فصـــل

تقدم المشركون بالأبراج إلى البلد فقربوا الأسواء من أسواره، وألصقوا منها جدرانًا بجداره، وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره، فأظهر الله ما كان خفيًا من سر أقداره، وأحرق عمل أهل النار بناره، وكان أصحابنا لما عاينوا ما دهمهم وهمهم، وخصهم من الخطب وعمهم، نصبوا مجانيق بأذاء الأبراج وصدعوها بها صدع الزجاج ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رؤوسها وشابت وشبت، ومشت النار فى أطرافها وأعطافها ودبت، وأرسل الله فى تلك الساعة بعذابها ريحًا بها هبت، فأمست أجنحتها قد حصت وأسنمتها قد جبت، وسقط فى أيديها ووجبت جنوبها وكبت على وجوهها فى النار وكبت، فما أفصح ألسنة النيران وقد نادت بنصرنا ولبت، وألفت منها قلوبنا بما ألفت من نقع غليلها وأحبت، والحمد لله على ألطافه التى ما غابت ولا أغبت، وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الأحوال التى جرت بحقها وحقيقتها، وحليتها وجليتها، فإنه يشتمل كل فصل على تمام ما أغفل فى غيره، ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره.

* * *

ذكر تاريخ وصول الأكابر فى هذه السنة

وفى يوم الثلاثاء عشر ربيع الآخر، قدم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بمن استنهضه من العساكر، وكان أول من استقبله حين ظهرت راياته من العسكر كتابه وقضاته ثم لقيه الملك المظفر تقى الدين بتل كيسان، ولقيه بعده الملك الظافر

خضر والمعز إسحاق ولدا السلطان، فنزل لهما ونزلا له، وتعمدا إعظامه وإجلاله ثم تلقاه الملك الأفضل أدنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما إعفاء له من النزول، وتلاقيا بالإقبال والقبول، ثم وصل إليه السلطان بالوجه الضاحك، واللطف المتدارك، وأعتنقا على ظهر، واتفقا على بشر ونشر.

وكان الملك العادل تأخر فلحق، وأظهر من أرج سجاياه ما بنشره عبق وبحبه علق، وسار مع السلطان بأطلابه وأبطاله، وحماته ورجاله، حتى وقف قبالة العدو بصفوفه، ووقف عليهم طول الرعب بطول وقوفه ثم رده السلطان إلى خيمته على رسم الضيافة، وترفرفت ألطافه عليه بالإطافة، ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس، وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوباً أطلس، وأكرمه السلطان بإجلاسه إلى جنبه على الطراحة، وآنسه ببشر السماحة والسجاحة، ووقف الأمراء والخواص والأولياء صفين، وأنشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين، ثم أحضرت المائدة فماد نحوها الحضور وعقد الحبا لهم الحبور. ثم رفع الخوان وارتفع الإخوان، وحسن الخبر والعيان، وخلا المكان وحلا الإمكان، فأمر السلطان له بإحضار عشرة من العتاق العراب، وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب، ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض، ولوجه العذر عارض ونزل فى خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية، وملأ تلك المروج بعساكره الملية، ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب الجزيرة بعساكره الكثيفة الكثيرة، وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى الأولى بالأيد الأطول واليد الطولى، فالتقاه السلطان وأخوه وأولاده على قاعدة عمه، وأجراه فى الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه، لكنه يقصر فى القاعدة عن رسمه، ونزل بخيمته فى فناء السرادق العمادى، وقد استكثر من العسكر الجهادى فكان ذلك المرج بحر أمواجه الخيم والمضارب، أو سماء كواكبها ما أشرعته من صعادها الكتائب، أو غيل آساده فى آجام القنا الفوارس، أو غدير من السوابغ حبابه الترائك والقوانس، أو سحاب بروقه الصوارم الرقاق، أو وهاد أكامها الصواهل العتاق.

ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وهو كوالده مسعود مودود، وفى شهامته وصرامته مشكور محمود، وذلك تاسع جمادى الأولى يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة، والمفاخر الأصلية المتفرعة، والصنائع المبدعة والبدائع المصنعة، وجيشه للقوة ضابط، وجأشه على الحمية رابط، وبأسه ليد الأيد باسط، وجنانه على الكفر ساخط، وهو شاب أول ما بقل خطه، وابتهج بكماله رهطه. وكان أبوه قد عزم على الوصول بنفسه وإذهاب وحشة

الخطب الملم بأنسه، ثم رأى المصلحة فى الإقامة وتقديم ولده المشكور المشهور الشهامة، فأنهض العسكر المجر معه ثم أتبعه بمن حشده وجمعه، فورد ورود السحاب الكنهور، ونور المطالع بسنى النور، وأطلع بطلوعه على معنى البأس المصور، واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه، وحافظ من الكرامة على توفير سهمه، وأنزله فى سرادقه وأضافه، وأهدى له خيله وألطافه، وأمر بإنزاله فى الميمنة بين ولديه الملكين الأفضل والظاهر، وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر، ولم يبق فى أهل السلطان إلا من اقتدى به فى الاحتفال بقدوم هؤلاء، واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة فى الولاء، والمسارعة إلى الضيافة والإهداء، والإعادة إلى المكارمة بعد الإبداء.

* * *

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل
فى شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذى نصر الدين بأهله، وعجل بأنصاره جمع شمله، ووفق أسد عرين الملك أن يحمى حوزة الإسلام بشبله، وللمجلس فى طوله اليد الطولى، والمنة الثانية التى أربت على الأولى، حيث حث همته العلية، وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية، وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منة، وتعجل من وفوده أقوى منة وأوقى جنة، فلقد ورد إلى الساحل بحراً وطلع فى ليل القساطل بدراً، وأسفر لمرتقبى صباح النصر فجراً، وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشراً، وملأ صدر الإسلام أمناً وقلب الكفر ذعراً.

ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب إربل يوم الأربعاء فى العشر الآخر من جمادى الأول، ذو السماح المؤمل، والمجد المؤثل، بجيش كالسحاب المسبل. فدرت أخلاف النصر بحفول الجحفل، وورد بكل ورد هنى، وجد سنى، وقدم بكل مقدام، وزأر خيس الجيش بكل ضرغام، وزأر بكل همام بالمنون همام، ووصل بكل واصل لسبب النصر، قاطع دابر الكفر، ووفد بكل وافد باليمن الوافى، والنجح الكافى، والعز الصافى، والعزم الشافى، وطلع بكل طالع بالسنى، جامع للمنى، فارع بالغنى، فارك للخنى، سافك دم الشرك بالظبا والقنا، وكان هذا أول يوم لقائه للسلطان، وأحسن إليه بالإكرام وزاد فى الإحسان، وكان يجمع بين الحماسة والسماحة، والبشاشة والرجاجة، والتودد إلى الناس، والتشدد بالباس، والتواضع مع الكرم، ودنو الود مع علوا الهمم، ماله مبذول، ونواله مأمول، وسيفه على الكفر مسلول، وأمره بالطاعة فى رعيته ومن فى جملته مقبول، وهو مرجو مخشى، وكريم مغضى، ومهيب مرجو، ومحسن بسنى الحمد مجلو، وكان معه خلق كثير، فى

سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير، وأنزل بقرب أخيه مظفر الدين فى الميسرة، وتمكن الرعب بما تم من الجمع فى قلوب الكفر.

* * *

ذكر وصول الأسطول من مصر

كان السلطان قد أمر بتعمير أسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميرة، والعدد الكثيرة. فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ظهر الأسطول، وتم بظهوره النصر المأمول، فركب السلطان فى جحافله، وسدد سهام الردى إلى العدو ومقاتله، وأحدق به حول خنادقه، ليوسع عليه الهلاك فى مضايقه، وليشغل الفرنج عن قتال الأسطول، ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الوصول، فعمر الفرنج أسطولاً، وصف شوانيه على البحر عرضًا وطولاً، وقدر أنه يلاقى الأسطول المنصور، ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور. فجاءت مراكبنا ونطحت مراكبهم وطحنتها، وأوهت متنها وأوهنتها، وأخذنا لهم مركبًا وأخذوا لنا مركبًا، وكان تقصير الرؤساء فى حفظه لأخذه سببًا، واتصل الحرب فى البر إلى حين غروب الشمس وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس، وقتل من الفرنج عدة وافية وكلاءة الله لنا ولأصحابنا واقية.

ووصفت هذه الحالة فى مكاتبة كتبتها لتعرف منها الصورة وتكشف القضية المستورة، وهى:

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهنى، وهناه من النجح السنى، وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجنى، وذلك بوصول الأسطول الثانى المصرى المنصور ظهر يوم الخميس متظاهراً بأمداد الظهور، متوافراً بوفود الوفور، ودخوله سالمًا غانمًا إلى ثغر عكاء المحروس المعمور، فاز البلد بعد أنفاضه، واجتمع إليه مدد القوة بعد انفضاضه، واستجد جدة وافية وعصمة واقية، وذخيرة كافية، وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها، وأبرزت مناكبها، وحمت بالرجال والعدد جوانبها، وسنمت غواربها، ورفعت هضابها وهواضبها، وسحبت على ثبج البحر سحائبها، وأدبت إلى عقبان أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها، وظننت أنها تستطيل على رواسى أساطيلنا بسواريها، وإنها تواجه عرائسها المجلورة بحور جواريها. فلما جاء الحق زهق الباطل، وصال الواصل، وحاص العدو من الحاصل، وانحل تركيب تلك المراكب، وحطت تلك المناكب بما أحاط بها من النواكب، وخرج الأسطول الأول من الثغر مستبشرًا بدخول الثانى، واجتمع شمل الشوانى بالشوانى، وتفرقت سفن العدو شذر مذر، وعذر حين ذعر فحذر، وكسبت شوانينا ست بطس

لهم فكسرتها، ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتها، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر وذخائر تطلب ربحها فخسرتها.

* * *

فصـــل آخر

وصل الأسطول ظهر يوم الخميس ظاهراً خميسه، ثائراً بالأسد عريسه، فى شوان للعدو شوائن، وشلنديات لشله وفله ضوامن، وحراريق لأهل النار بنارها محرقة، وعقبان مراكب فى مطار العقاب على المجرمين محلقة، وسوارى هواضب كرواسى هضاب، وسجاب بوائق كبوارق سحاب، من كل مركب للنصر مركب، ومفرد من الشدة والبأس مركب، وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة، وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة، وتلعة فى ذروة العزة تليعة، وذروة فى مرقى الهدى راقية منيعة.

وجاءت فى البحر أمواجاً فى الأمواج، ودخلت إلى الثغر أفواجاً بعد الأفواج، وكان العدو قد أبرز أباطيله، وجهز أساطيله، وشب عواديه ودواعيه وأدب عقاربه وأفاعيه، وأسمى مناكب مراكبه، وجد فى إمهاء غروبه وتسنيم غواربه، ولما وصل الأسطول طال وصال، ولاح للعدو صده بحيلة من حال فحال، وامتنع مراده واستحال، وأخذ الأسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت أسبابها، وقصمت من عبدة الصليب أصلابها، وخيب حسابها.

* * *

فصـــل

وصل الأسطول إلى البلد، مستطيلاً بالجرد والجلد، وأثر به الثغر بعد الأنفاض، واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض، ودخل إليه ما خرج عن جد الحصر، من ذخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر، فإن الرايات المنصورة علت فجلت فى الآفاق رياضاً، والمراكب الإسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضاً، ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو أعراضاً، وجاءت سواريها كالرواسى، وجواريها محكمة المراسى، ومن شأن شوانيها شن الغارات على الشناة، ومن عادة شلندياتها شل أندية العداة، ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لإحراق أهل النار فى الماء. ومن عمل مراكبها إلحاف مناكب الكفار رداء الأرداء، من كل جبل يمرّ مرّ السحاب، وضامر يشد شد العراب، وعقاب محلق على الشرك فى مطار العقاب، وغراب ناعب فى أعداء الله بين الأحباب، وهضبة موفية على الهضاب، وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب، وما أحسنها وقد زفت عرائس وجليت أوانس، وطلعت بأهل الإيمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس، وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس، وخلا وجه

البحر من سفن الضلال، وتقلص ما لها من الظلال، ولما شوهد الأسطول ساطياً، وجيد النصر منه عاطياً، وأخذ البحر من الأعداء بحقه، وأشرق سنى النجح فى أفقه، ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال وزحف الرجال إلى الرجال، والتقى الأبطال بالأبطال، وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال، وأحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق، وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق، وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح، وفكهم القتل والجراح، وأقوى الأقوى من الثبات، وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات، وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات، وأدرك المشركين ما فاتهم من الآفات.

* * *

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر أن ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج وخطب فى تلك المروج بمروجه الخطب المريج، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه منها العبور، وعمهم فى نهضاتهم العثور، فقيل أنهم أقاموا فى قفار ومواضع شهراً عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً. وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون بغربهم من تشريقهم. فاضطروا إلى المقام بغير زاد، وهم فى جهد وضر واجتهاد، فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها، ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف ورغمت أنوف، وكان ذلك فى البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، فجمدوا وخمدوا، وتجلدوا وتبلدوا، وعدموا دواب لحمل الأثقال، ونقل عدد الرجال، فدفنوا وأحرقوا منها وتركوها وسلوا عنها، وكان ذلك من الله لطفاً، وأمست قوتهم ضعفاً، وكانوا فى خلق لا يعد، وجمع لا يحد، فما أثر فيهم ذلك النصب، ولا صدهم عن مقصدهم ذلك التعب، وما زالوا يسيرون والأوجية تبدى إليهم للوبال فى أوجها أوجهاً، والإفرنجية لا تنتهى حتى تبلغ إلى مالها من منتهى، حتى بلغوا إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود ومسلكها دونهم غير مصدود ولا مسدود. وقليج أرسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه، وهو يدبر أمره ويتولاه، ويسومه الإكراه، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم، وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم. ثم اندفع من بين أيديهم، وتعدى من جانب تعديهم، ودخلوا قونية دار ملك المسعودية واعتصم قليج أرسلان بقلعتها المحمية، وتراسل هو وملك الألمان، واتفقا فى الباطن على ما كان بينهما من المواثيق والأيمان.

وحمل ملك الألمان له وفراً وافراً، وأشبه المسلم بالكف عن الكافر كافراً، ووافقه على العبور إلى الأقاليم الشامية والبلاد الإسلامية، وعلى أنه يسير من بلده إلى بلد

ابن لاون، وأعطاه عشرين مقدمًا من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى المأمن رهائن، وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه، وأن يعاوضوهم من الخيل والعدة بما يرومونه، وأقام لهم الأسواق، وعرض عليهم الأمتعة والأغلاق، فساروا فى رفه ورفق، وتقو بلا توق.

فلما وصل الملعون إلى بلاد الأرمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، وتأول عليهم بأن التركمان سرقوا منهم فى طريقه، ونكث جميع مواثيقه، ووصل ليفون بن اصطفانة بن لاون مقدم الأرمن إلى خدمته ودخل فى طاعته، وكان بمفرده خاليًا من عسكره بمجرده، وذلك فى طرسوس فتمكثوا بها ليريحوا بها النفوس، وقيل لكلب الألمان أن يسبح فى النهر، ويميط عنه ما عراه من الوضر والوضر، وكان شيخًا مسنًا قد عاد لكبر سنه شنًا، وحسب أنه إذا سبح سحب ذيل الاستراحة فكان موته فى تلك الراحة، وهلكه فى تلك السباحة، فإنه عام فى الماء البارد وتورط منه فى أصعب الموارخ، وخرج وبقى مريضًا إلى أن خرج من ثوب البقاء وتحول إلى فناء الفناء وتلقاه ملك بالزبانية، وحملوه إلى نار الله الحامية.

وسمعت نصرانيًا يقول فى معناه: كنت معه لما سلك فهلك وأعجله مالك النار عما ملك، وذلك أن النهر ما كان فيه إلا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد، فقال ملك الألمان: هل تعرفون موضعًا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور؟ فقال له واحد: هاهنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر، ولا يعير فيها إلا واحد بعد واحد إذا تثبت واستظهر.

فبدر إلى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة، ودخل الماء فطغى على ذلك النارى الطاغى، وأعجل ذلك الباغى عن الباغى، ورماه فى جريانه إلى شجرة شجت جبينه وجبنت جأشه، وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا فى إخراجه وأيسوا من علاجه ومات عدو الله شر ميتة وبلى شمله بتشتيته وحبله بتبتيته وخلفه ولده على خلف من أصحابه وأجناده لمكان الولد الذى خلفه فى بلاده، وقيل إنهم سلقوا ذلك الهالك فى قدر حتى تخلص عظمه، وتهرى لحمه، ثم جمعوا فى كيس عظامه، وراموا بذلك إكرامه وإعظامه، ليحملوه إلى كنيستهم بالقدس قمامة، ويدفنوه على ما كان أوصى به ورامه، ولما عرف ابن لاون بهلاكه وسكون حراكه وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته، وإنه لا تلافى لما فرط من تلفه وفوته فارقهم إلى بعض قلاعه، واتصل الضر بهم لانقطاعه، ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعة الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد، ويقول ويعدد، ويدهده ويهدد، ويرى إنه ناصح، وللقصة شارح، وإن الأمر واضح، وإن الخطب فظيع فاضح، وإن هذا الملعون أول ما

خرج من بلده أوصى فيه إلى ولده. ثم جاء إلى بلد الهنكر فدخله غصبًا وأوسعه نهبًا حتى أذعن له وانقاد، وبلغ بطاعته المراد، وإنه أخذ من ماله ورجاله ما اختار، وتزود من عنده وامتار. ثم وطىء أرض ملك الروم وداسها، وتوسط ديارها وجاسها، وفتح بلادها وملك قيادها، وأحوج ملك الروم إلى طاعته، وألزمه بما دخل فى استطاعته، وأخذ منه من الذهب خمسين قنطاراً ومن الفضة خمسين ومن الثياب الطلس المعدنية ما بلغ الألوف وتجاوز عن المئين، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه، ومعروفى كبرائه، وأخذ كل سفينة غصبًا، وسحب على ذلك البحر فى التعدية من مراكبه سحبًا.

وإنه لما عبر وفرغ من الخروج تلقاه بالخيل والدواب والأبقار والأغنام تركمان الأوج، ثم وقع بين التركمان وبينهم وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يومًا يرومون حينهم، وهم فى طريقهم سائرون وعلى مقاتلتهم صابرون حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان، والتقى الأقران بالأقران وهزمه ملك الألمان، ولما أشرف على قونية خرج إليه جموعها وطالت إليه بالحرب بوعها، ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها، وأنه هجم على قونية عنوة، ونال منها حظوة، وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة أكيدة، وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة، وأخذ منه رهائن عشرين، من أكابر دولته المتميزين، وقدم كتابه إلى ابن لاون بالجواز فى بلاده، فتلقاه بما أعده لإرفاده، ونزل حين وصوله إلى طرسوس على بعض الأنهار ونام ساعة بعد تناول الطعام، ثم انتبه وتشوق إلى الاستحمام، فحرك عليه الماء البارد مرضًا، وتشكى أيامًا قلائل مضضًا، ثم قضى، وانقرض إربه وانقضى، خلفه ولده بعده، واستمال جنده.

وكان ابن لاون قد سار قاصداً للقاء أبيه، فلما عرف موته وجلوس ولده أضرب عن تلقيه وعرض عسكره فى اثنين وأربعين ألف مجفجف، من كل سرحان أهرت وذئب أغضف. وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض، وغص بهم طول الأرض والعرض، وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب، ولزموا المصاب، وداوموا الاكتئاب، وهم صابرون على الشقاء والتعب، لأمل الظفر بالطلب. ولما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار وارتاعت الأنجاد والأغوار، وقالوا: هذا جانب لا يطاق وأى جانب قصده عنه لا يعاق، ولا شك أنه يتوسط بلاد الشام ويثلم ثغور الإسلام، ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام.

وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد وصدهم عن القصد، ثم ثبت على رأى الثبات، وتنظر الأوقات بما يتجدد من الحادثات، وتقلقلت عزائم الذين بلادهم

على طريق القادم وإنه يعود كل منهم إلى مكانه أخذاً بحكم الحازم، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج، ثم عز الدين بن المقدم، الباسل المعلم، ثم مجد الدين بهرامشاه صاحب بعلبك، ليجمع ويأخذ على العدو المسلك. ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر الليث الهمام القسور ثم الياروقية أسد الهياج، ونجوم ليل العجاج، ثم رحل الملك الأفضل وقد عرض له ألم، ثم بدر الدين والي دمشق وقد ألمّ به سقم، ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر، ولخوف الناس فيه أنهم على الخطر، حتى غلت الأسعار واستعرت الغلة، وخلت الأماكن وتمكنت الخلة، ثم رحل الملك المظفر تقى الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة، وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيماً ولحفظ الثوب فى اليزك مستديماً، فانتقل الملك العادل إليها وجاء إلى منزله الملك المظفر ونزل عليها، واستقام الترتيب وترتب المقام، واعتز الصادقون وصدق الاعتزام، ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم، وألم بالبعد للألم، وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافية مستعقباً لألطاف الله الواقية الوافية، ووقع المرض فى الفرنج وكان المبيد المبير، والمدنى لأصحاب السعير السعير، وعم فيها الموت والوباء وكثر عن نبواتهم النبأ، وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيداء وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت.

* * *

عاد حديث ملك الألمان

وأما ولد ملك الألمان فانتحس، ومرض أياماً فى بلد الأرمن واحتبس، وهلك أصحابه جوعاً، ومنهم من عزم رجوعاً، ووقع الموت فى خيلهم فأذن ذلهم بقلوص ذيلهم، وقدم الملك لمرضه والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه، وساروا أمامه، وخرجوا لكثرتهم فى ثلاث نوب، فى بيض وسمر وبيض ويلب، ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير، غير عارفين بطريق ولا متحفظين فى مسير، والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم، ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم.

ووصلوا إلى أنطاكية ووصل إليها الملك بعد أن ضاق به وبجمعه إليها المسلك، وضاق به الابرنس صاحب أنطاكية ذرعاً، ولم يجد لهم عنده مطعماً ولا مرعى، وطلب منه القلعة فأخلاها له، ونقل إليها ماله وأثقاله، وسأله أن يجعل طريقه على حلب فخاف، وأبدى له الخلاف، وقبل وصوله إلى أنطاكية فلت جموعه وجنوده،

وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس، فلقيت البوس والباس، وخرج رجالها عليهم على قلتها وصدمتهم ببسالتها، وأسرت منهم زائداً على مائتين، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين، وقيل إنهم حبسوا أن بغراس باقية بحالها مع الداوية، فجاؤوا إليها سحراً بأحمالهم وأموالهم السنية فلم يشعروا إليها إلا بالبغال على الباب واقفة، والجنى دان يرقب أن يكون له أيد قاطفة، فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب، وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب، فاستغنى التوالى من ذلك اليوم من مال القوم ثم أنكر حتى لا يطالب بشيء منه، وغفلت الأيام عنه.

وذكر الأمير علم الدين سليمان بن جندر فى كتابه أنه أنهض جماعة من أصحاب أمراء حلب وأصحابه ليقتفوا آثارهم، ويكشفوا أخبارهم. فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم، وانقضوا عليهم الانقضاض البزاة على الحجل، وزأروا فيهم زئير الأسد فى النقاد وزاروهم بالأجل، وأسر كل واحد من أصحابنا ثلاثة وأربعة وتركوهم متمزقة متمزعة، وعادوا بالأسارى إلى حلب وباعوهم فى الأسواق، وامتلأت بالأسلاب منهم والأعلاق، فطابت قلوب الرعايا وأنست من الله بما ظهر من ألطافه الخفايا، وطمع فيهم أهل القرى، والتقطوهم من الوهاد والذرى، وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس إلى أنطاكية، وأراح من آلامها الألمانية، وذابوا فى هذه الطرقات ذوباً، وصب عليهم العذاب صبًا إذا أخذوا صوباً وهلك بأنطاكية الكند الكبير مقدم العسكر وتبعه إلى سقر كبير من ذلك المعشر، وحصل الابرنس بتلك الأموال المجتمعة والذخائر المودعة حتى قيل إنه إنما رغب فى الوصول إلى بلده ليحصل على سبده ولبده، فأخلى له قلعته لينقل إليها خزانته، ففعل وما رجع إليها واحتوت يد الابرنس عليها، ثم ساروا على طريق الساحل بالفارس والراجل، وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية، وسقتهم كؤوس المنية، وألقتهم على البوس والبلية، فأغذوا فى السير حتى وصلوا إلى طرابلس وقد نقص نصفهم، وتم بعواصف البلاء نسفهم، وبلغ أمدهم وانتهى مددهم.

وجبن الملك عن المسير على الطريق لما لقيت جموعها فى طرقاتها من التفريق، فركب البحر فى عدد يسير لا يزيد على ألف برعب قلب وقصور يد ورغم أنف، واختلط مع الفرنج على عكاء فسقط اسمه، وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل، وسألم بذكر حالاته فى مواضعها، وذكر مصارف جماعته ومصارعها.

وكتبت إلى الديوان العزيز فصلاً بخبر ملك الألمان عند إرعاب الإرجاف به.

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء، والغمة الغماء، والنكبة النكباء، والشدة الدهماء، والليلة الليلاء، وهى إن ملك الألمان ومعه ملوك الإفرنجية وحشودها، وقوامصها وكنودها، وأحزاب الشياطين وجنودها، وألوية اللأواء وبنودها، وصل جاراً على السماء ذيول قتامه مجريًا فى الأرض سيول لهامه، ثائرًا بأطلابه لطلاب ثاره، سائرًا بخيله ورجله كالسيل إلى قراره، وإنه فى عصائب صلبان فى عصبيتها متصلبة، وأتباع شياطين لإرضائها متغضنة، وأسراب سراحين على سرح الإسلام متوثبة، وإنه فى مِئين من الآلاف الآلاف للمنون، وأقطاب الأعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون، وقد أوقدوا للشر شراراً، وأضرموا للشرك الداعى إلى النار ناراً، فإن حسرتهم على قمامتهم دائمة وقيامتهم قائمة، والموت يدعوهم إلى المقبرة التى يدعونها، والآجال تلبيهم لمناياهم التى يدعونها، وكان خبر وصوله متداولاً على ألسنة الأراجيف، وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف.

واستعدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم فى الربيع، ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع. وانتظر ورود خبر صحيح ويقين نبأ بأمر صريح، حتى إذا صح الخبر سار العسكر، ثم انقطعت الأخبار، وتمادى الانتظار، ومضت شهور الربيع أذار ونيسان وأيار، وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان وأولاده ورسلهم متواصلة بما ينبى عن التعاضد، وتبنى أمر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد، وهم بإنهاء ما يصح عندهم واعدون، ويزعمون أنهم فى رد الواردين وأردانهم مساعدون، فأخلف ذلك الوعد، وضيّع ذلك العهد، ووصلت كتبهم بغتة فى هذا الأوان بما تأخر به الخبر عن العيان، وقالوا إنهم قد توسطوا بلاد الإسلام وإنهم على قصد الشام. ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوهم، وأخلوا لهم الطريق ووادعوهم، ووسعوا لهم فى المضايق، وسعوا فى آمن طرقهم من الطوارق، وهذا حادث كارث، وباعث فاجىء فاجع لأهل الحمية فى الدين باعث، وناكب لعقود العقول فى تعاظم ضرره وتفاقم خطره ناكث، وقد تعين الجهاد على كل مسلم. وما فى الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض، والخادم منفرد فى حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه، وإن الذى يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه، إن شاء الله.

* * *

فصل فيه فى جواب أمير

عرفنا خبر العدو المشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذه هداية أهداها الله إلينا وفضيلة خصنا الله بها حيث أقامنا فى مقابلة أعدى أعدائه وأقدرنا على مقاتلة من نازعه فى كبريائه، وقد ساقهم الموت إلى المقبرة التى يدعونها ولبتهم المنايا التى يدعونها ولا يدعونها، ومعاقلنا بحمد الله قوية، وصوارمنا من دماء أعداء الله روية، فيجب أن يكون فى جميع أموره محتاطًا، ويظهر بما يغنمه الله من أسلابهم وأشلائهم اعتباطًا.

* * *

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف أن العدو الألمانى المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى، وما لمن تأخر عن نصرة الإسلام من ثمرة السعادة مجنى، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وأوان بذل وسعه وجده واجتهاده. فإنه محضر لا يغيب عنه إلا من ليس له عند الله خلاق، وموقف يفى بعهد الله فيه من سبق له معه فى السعادة ميثاق، وإنها لغنيمة أوفدها الله علينا، وهدية أهداها الله إلينا، وفضيلة خصنا الله بها وأسعدنا بسببها، بل هى بلية جلا وجه النعمة فيها، بل قضية وفى الله فى النجح بموعود توافيها، بل ملمة اختارنا الله لدفعها، وطاغية استدعى أولياءه لقمعها، ونائرة كلفنا الله بإطفاء جمرها وإرداء جمعها، فلينهض نهوض الكريم إلى مساعدة الكرام، وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام، ويثب وثوب الأسد على الفريسة ولينتخ للإسلام انتخاء ذوى الأنفس الأبية والهموم العلية النفيسة، وليكن أول سابق فى مضمار الجد، وأسعد طالع فى أفق الجد، فإن الإسلام فى انتظاره، والمطالع مستشرفة إلى إشراق أنواره، لا زالت الأقدار جارية فى إسعاد الدين والدولة بإقداره.

* * *

فصل من كتاب

قد أحاط العلم بما عرا من الملم، وعرض من الخطب المدلهم، ووصل من العدو السائر، ونزل من النازلة التى هى أم النوازل، والدائرة التى هى أم الدوائر، وقد آن للإسلام أن يسلم وللإيمان أن يعدم وللتثليث أن يعلن وللتوحيد أن يكتم، وللكفر أن يقدم، وللهدى أن يحجم، فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى آتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده، ووصل الألمانى المخذول بعدده وعدده، وهذا خطب قد دهم، وعدو قد هجم، وشر قد نجم، وحمر داهية قد وقد، وجمع طاغية قد وفد، فى جيوش جائشة، وجموع طائشة، وجنود محشورة، وبنود منشورة، وخيول مجفجفة، وسيول

مجحفة، وهذا أوان تحرك ذوى الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، فإن القوم فى كثرة ولا يقاتلون إلا بالكثرة، وهم مغترون بعلوهم، معتزون بعتوهم، مستنون فى طريق العثرة، والسيل إذا وصل إلى الجبل الراسى وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، والمجلس أولى من تولى تفريج هذه الغمة، وكشف هذه الملمة، حتى تخلف أمانى الألمانى وتبطش أيمان الأيمانى، وتخذل أنصار النصرانى، وتجنى وتبز رؤوس الجنوى والبيزانى، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين، وأين المقدمون فى الدين ومعاذ الله أن لا يكونوا فى نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدو الرابض، لأطلقت أعنة النهضة إلى العدو النهاهض، ولا بد من لقائه قبل تلفق الجمعين، وإراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين.

* * *

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق، وزحف إلى الحق الثابت باطله الزاهق، وجال بالوجل وجاء بالوجيب، وثار لثار الصليب السليب، وقد وقد جمر جمعه، ورتق فتق الصبح رقع نقعه، وما فض الفضاء ختام قتامه، حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه، والرجاء محقق أن الألمان مخفق بإلمامه، والإسلام مشفق من إسلامه، والدين موفق بنصرة إمامه، وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وأمامه، والله الكافل بإعلاء أعلامه، وأحكام أحكامه.

* * *

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الألمان إلى البلاد، وإنه ملأ أحشاء الربا والوهاد بالأحشاد، قالوا: إنه إذا جاء لا يبقى لنا حكماً والصواب أن نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسماً، لا سيما وقد خفت عساكر الإسلام وقف أكثرها إلى الشام، فنحن ننتهز الفرصة ونحرز الحصة ونهتبل الغرة، ونهجم عليهم هذه الكرة، ونذيقهم المرة المرة، ونفرغ من شغلهم قبل مجىء القادم، ونمت بعز العزائم، ونفل حدودهم بحدود الصوارم. فخرجوا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة فى حشر يذكر بحشر الساهرة وأسود بياض النهار من سوادهم، وتراءت الآجام لنا متوافية بآسادهم، وامتدوا إلى الخيم العادلية واشتدوا بما استصحبوه من البلية، فى كل ذئب أمعط، وسيد قد تورط، وسرحان سرح، وأفعوان كلح، وجهنمى تجهم فهجم، وجحيمى أقدم وما أحجم، وسعيرى نارى استعار خدمة النار، وسقرى قسورى عاد بعادة الاقتسار،

وبارونى طالب للوار، وإسبتارى راغب فى التبار، وداوى معضل الداء، وتركبولى غير تارك للبلاء، وسرجندى كرار، وفريرى غير فرار، وفارس يفرس الرجال، وراجز يرجز الفرسان الأبطال، وأزرق رزقه الموت الأحمر، وأنمشى يمشى اليوم أغبر، وأشقر وهو أشقى، وأبقع إذا غوى فى الوغى ما ترك ولا أبقى، ودخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها، وقد كانت أُخليت قبل أن يجتازوها، ووقف الملك العادل بطلبه، وعن يمينه ويساره أمراء الميمنة الذين بقربه، مثل صارم الدين قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى، وجماعة من المعروفين بالشهامة الموصوفين بالصرامة.

ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل، حتى يطلع من العدو على المقاتل، فقادتهم الأطماع إلى الانتشار وأفضى بهم الاعتزاز إلى الاغترار، فحينئذ بدأ بالحملة ولده الأكبر شمس الدين مودود، وهو فى كل وقعة يحضرها جاد مجدود، فعضده والده، وولده مساعده وساعده، وحمل معه العسكر الحاضر قبل أن يتصل به العساكر. فكسر الفرنج كسرة فرشتهم على الأرض، وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم فى النار يوم العرض. وكانوا قد بعدوا أكثر من فرسخ، وأجفلوا ولم يلتفت أخٌ إلى أخ، وركبت العادلية أكتافهم، وفلوا فيهم أسيافهم، وعقروهم وعرقوهم، وبجوهم وبعجوهم، وحكموا فى الرقاب الغلاظ منهم الرقاق، وضربوا ممن أعنقوا إليهم الأعناق، وأشبعوا اللتوت من لحوم الليوث، وبثوا بعوث المنية فى تلك البعوث، حتى رتعت فى كلا الكلى ضوار الصوارم، وأرعد وأبرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم، وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذابل، ووصلت بهم إلى النجاح منى المناصل، فلم تترك اللهاذم لها ذماء، وغادرها شلها بالعراء أشلاء، ورأيناها كأنها أعجاز نخل خاوية، وما أحسن أجسام أهل الهاوية وهى هاوية، فكم جثة بلا رأس، وبنية بلا أساس، ونحر قد نُحر، ودم قد أنهر، ويد قد بتت، وكبد قد فتت، وعنق قد قطع، وأنف قد جدع، وودج وجد مفرياً، وظهر قد ظهر مبرياً، وحلقوم قد حلق، وغلصوم قد فرق، وداوى قد دوى، وبالدم روى، وصليبى كسر صلبه، وقلب على صدره قلبه، وحربى أتاه الحرب، وغرب فى نبع عينه النبع والغرب.

وكان السلطان قد ركب وخشى أن جانب الميمنة نكب، وسير جماعة من كماة المماليك والأمراء على مقدمته، وانتظر الميسرة لتنهض فى خدمته، فوصل إلى الوقعة سنقر الحلبى فى العصبة العزيزية، وفاز من الغزوة بالحظوة السنية، وجاء علاء الدين ابن صاحب الموصل فى أثناء المعركة فعرف بركة سرعة تلك الحركة، لأنه أخذ حظًا وافراً، ولقى من النصرة وجهًا سافراً. وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال الميسرة أحد، ولم تمتد منها إلى قتال الكفرة يد. ووصل السلطان وشاهد من مساءة

الفرنج ما سره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هنالك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين فى مدى فرسخ على الأرض، وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل من الفرنج فى كل قبيل.

ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وأمراء الميسرة قد عزموا على الدخول إليهم، والهجوم عليهم، فإنهم ندموا على ترك الإسراع، فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب الفتك بهم والإيقاع. فصدهم السلطان وردهم، وشكر عزمهم وقصدهم، وأشفق من مضرة تشوب، ومغرة تنوب، فإن الدائرة كانت على العدو، وقد فاز بالنصر الحلو والصفو المرجو، وكانت النوبة بلا نائبة، والغزوة بلا شائبة وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من أتباع العسكر عشرة، فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلاثين وأربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعانى وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة ولأرى البشائر شائرة. وركبت أنا والقاضى بهاء الدين ابن شداد، لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وفروا، وقد بقرت بطونهم، وفقئت عيونهم. ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة، وما زلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام وأخذت الكتب التى نمقتها بالبشائر التى حققتها، وجئت وإذا السلطان قد استبطانى، وعدم إجابتى لما دعانى، فما صبر ولا انتظر، ولا ترقبنى أن أحضر ولا أمهل أن أعطى البشارة حقها، وأجلوا بأنوار المعانى أفقها، وأبلغ بالبلاغة مداها، وأسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الأقلام ما صنعته حدود السيوف، وأروج نقودى عن السلطان وأغنيه عن الزيوف، فأبصرت عنده مشرفى المطابخ والأبيات ومدونى الجرائد بالأثبات، وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة فى رقاع خفيفة، بعبارات سخيفة، وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها، وشوهوا جمالها وأحالوها حالها، فذهب بها المبشرون وسار القاصدون، فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع، ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع، وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها، ولو وردتهم بزينة عبارتى وبراعتى زينوها، وفى تلك الحالة التفت السلطان إلىّ وقال: اكتب بهذه البشارة إلى بغداد وعجل بها الإنفاذ.

فقلت على سبيل العتب: أنتم ما تريدون ما أكتبه ولا ترغبون فيما أرتبه وأهذبه؟!

فقال: كأنك كتبت البشائر فهاتها حتى تهدى إلى طرقاتها.

فقلت: ما فات فات وهيهات هيهات. وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التى أنشأتها بالألفاظ والمعانى التى ابتدعتها وابتدأتها. فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب، وصدحت بأسجاعها المنابر، وصحت بسماعها المفاخر، وظهرت بعباراتها العبر، وبهرت بزبرها الزبر، وعمرت بمعانيها المغانى، وعمت مباهجها مناهج الأقاصى والأدانى فما أصحها كسرة، وما أسحها نصرة وما أبينها محجة، وما أثبتها حجة، وما أفرجها مسرة وما أسرها فرجة، وما أبرحها بالكفر صرعة، وما أوضحها للإسلام شرعة.

* * *

فصل فى ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الأكابر، ومفارقة عدة كثيرة من العساكر، خرجوا متجاسرين، وامتدوا متقاطرين، وانتشروا متغاورين، وأغاروا للواء اللأواء ناشرين، ووصلوا فى الميمنة إلى الخيم العادلية فأخليت حتى دخلوها، وتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها فركبنا إليهم، وحملنا عليهم وتركناهم صرعى بالعراء، فوضى بالفضاء، فما بكت عليهم الأرض ولا السماء، ورويت السيوف من دمائهم، قبل أن تشبع الوحوش من أشلائهم. وظهرت لنا نعمة الله فى بلائهم، وحبى الإسلام بهلاكهم، وضمتهم أشراك الردى برداء إشراكهم، وانجلت المعركة عن أكثر من عشرة آلاف قتيل كافر، وثبت حكم إدالة الإسلام وظهوره بأوضح دليل ظاهر، ولو اتفق خروجهم من مراكزهم بأسرهم، لكنا فرغنا من شغلهم وأخلينا بالنا بتأييد الله من أمرهم. والآن قمع انطفاء جمرتهم وصحة أمزجة العزائم بكسرتهم، وتطرق القلة إلى كثرتهم، نرجو من الله أن يسهل أمرهم العسير، ويهون خطبهم الخطير، وإن ظهورنا عليهم قطع ظهورهم، وعثور هذه الوقعة بهم حقق عثورهم، والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم.

* * *

فصل فيه

وصلوا إلى الخيمة العادلية فى الميمة الميمونة، واشتغلوا باستباحة أحوالها المصونة، فأطلقنا عليهم الأعنة، وشرعنا إلى نحورهم الأسنة، وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة، وفرشناهم على الأرض، وأدينا بإردائهم بعض الفرض، وانجلت المعركة عن عشرة آلاف قتيل مشرك، وشملتهم المنون فكأنهم جاؤوا على موعد مهلك، وأروينا من دمائهم ظمأ السيوف وجعلنا أشلاءهم قرى الوحوش لا الضيوف، وأمن

الإسلام بحمد الله من المخوف، وأدرك الله بأخذ أرواحهم رمق الدين الملهوف، وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم، وخمود مصابيحهم.

* * *

فصــــل

حملت عساكرنا عليهم، وأحاطت بهم من حواليهم، ورضتهم بالدبابيس واللتوت، وتركتهم صرعى بتلك المروت، وساحت بتلك الساحة أدماء الدماء، واكتسى عرى العراء بتلك الأشلاء، وأفضى بذلك القضاء جمرهم إلى الانطفاء، وأمرهم إلى الانقضاء، ورتعت ثعالب الرماح من كلاء كلاهم فى المرعى، وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف فترى القوم فيها صرعى، وطابت من نتن جيوفهم ريح النصر، وحنت من سماحة مرآهم وجوه الدهر، والآن ألان الله شدة شكتهم وقط شوك شوكتهم، وهبت نكباء نكبتهم ونرجو أن يسهل من أمرهم ما تصعب، ويؤلف بصدعهم من الإسلام ما تشعب.

* * *

فصــــل

وصلوا إلى الخيم العادلية فدخلوها، وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها، وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر وتموج بحارها الزواجر، فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الأمراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمى وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفة صدتهم عن الانعطاف، وصرفتهم عن الانصراف، وثارت أثارهم بواتر البواتر، واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الأسرار بالحوافر الحوافر، وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء، وتمت نعمة الإسلام ببلائهم، وشفى الدين بدائهم، وكان بقاؤه فى فنائهم، ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم، وأتى القتل على أولهم وآخرهم، وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل، ملأت كل واد وسدت كل سبيل، وقد ذلت غزتهم وضعفت قوتهم، وعجزت قدتهم.

ولما انقضت هذه الوقعة، وتم للناهضين إلينا الراجعة، رأيت أحد مماليكى ونصله قد خضب وعزمه قد رضى بعدما غضب، فسألته كم قتل، وإلى أين وصل، فقال: أما أنا فما أبقيت، وخضت البحر وما توفيت، وهذا غلامى قتل تسعة وشام من عارض نجيعهم نجعجة، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف فقتلوا أضعافا مضاعفة، وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة.

وحكى من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة، فعثر به راكب برذون

بغير رفيق ولا عون، فعرقب الفرنجى فرسه بسيف فى يده، فنزل بجده مستنًا فى جدده، وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندى. وحل من وسطه ثمانين دينارًا، فانقلب ربحًا ما عده خسارًا، وامتلأت الأيدى بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد ما لم يكن فى الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص وزادت أرباح أهل السوق بذلك النقص.

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ورد فى عصره نجاب من حلب بعد خمسة أيام، بكتاب يتضمن نجح كل مرام، ويخبر بأن عسكرًا مجرًا من الكفار خرج للغارة على الأطراف والأقطار. فخرج إليه العسكر وأخذ عليه الطريق، وطلب ذلك الجمع فى الهزيمة المضيق، فلم يصح لهم رشد فى منهاج، ولم ينج منهم ناج. فضد ذلك الخبر هذا العيان وقاموا بهوان الكفرة البرهان، وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور، وأنارت المطالع وطلع النور، وشرع الفرنج فى الخداع، والمراسلة فى أمر للجانبين عام الانتفاع، وسألوا فى الصلح، والخروج من ليل الحرب فى السلم إلى الصبح، وأذن لهم السلطان فى الخروج للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المروج، وهى قد تورمت وأنتنت وجافت، وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها أطافت، فساءهم ما سرنا، ونفرهم ما أقرنا.

* * *

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهرى بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط إشفاقًا من التفريط والإفراط

وما زال الفرنج فى وهن وضعف، وتوزع بينهم وخلف، حتى وصل فى البحر كند يقال له هرى وهو عندهم عظيم القدر، فكمل بمن وصل معه نقصهم، وأحيا بعد موت نفوسهم حرصهم، وأفاض عليهم الأموال، وحلى منهم بعد عطلها الأحوال، ورصع بالرجال مراكز من صرع، وقرع السن ندامة على من قلع وقرع، وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع، فقد كان العزم بل الحزم أن نبادرهم على ضعفهم، قبل أن يمدهم البحر بضعفهم، فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتوانى فيما تعين تتميمه.

ولما وصل هذا الكند وتمكن، وقوى أهل الكفر بكل ما أمكن، أظهر أنه يكبس عسكرنا ليلاً على غرة، وبدت منه أمارات كل شرة وشرة، وشاع هذا الخبر على ألسنة الجواسيس والمستأمنين، فأحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين، واستشارهم فيما يقدمه من الصواب، ويفتحه فى المصالح الراجحة من الأبواب، فأشاروا بإيساع الحلقة وإدارتها كالمنطقة، والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه، حتى يؤنس إلى

الخروج لحربه، فوافقهم السلطان على هذا الرأى وحسن فى قلبه، فرحل يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة إلى منزلة الأول بالخروبة، واشتغل بالتدبير فى الفوز بالنصرة المطلوبة.

ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالى سفوحها، واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيه على روحها، ورتب اليزك فى المنزلة الأولى كل ألف فارس بالنوبة فى يومين، وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين، وتدبر الترتيب وترتب التدبير، وعرف فى اليزك أوقات نوبته وأوبته الصغير والكبير. وأما عكاء فالكتب مترددة إليها ومنها مع السباح، والحمام إليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح، والمراكب تدخل إليها وتخرج، وإليها وعنها تعوج وتعرج، وأخبار ملك الألمان متواصلة بأن أنصاره له خاذلة، وإنه ضعف ووهى، وإنه إلى أنطاكية انتهى، وإنه تعوق هناك وتوقع من مرامه الإدراك. وتوقف عن المسير واعتاض التعسير من التيسير، ووقع الفناءُ فى جمعه، وتعجل قمعه قبل أن يصل إلى محل قمعه، وإنه قد اشتغل بالاتفاق فى رجال الاستجناد والاستنجاد، والاحتشاء والاحتشاد، وإن أصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم من الطرقات ويتخطفونهم.

ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافًا واستعسافًا، ويجمع قطافًا ونطافًا وألطافًا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة، وإنه مستمر على المودة راغب فى المحبة، ويعتذر عن عبور الألمانى، وإنه قد فجع فى طريقه بالأمانى، وإنه لاقى من الشدة ونقص العدة، ووصل المشقة، وقطع الشقة، ما أضعفه وأوهاه، وألهبه وألهاه، وإنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع، ويمت بما به كاده، وإنه بلغ فى أذاه اجتهاده، ويطلب رسولاً، يدرك به من السلطان سولاً فأجيب فى ذلك إلى مراده ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده.

* * *

ذكر حريق المنجنيقات

وفى رجب من السنة أنفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال فى الرجال، فأعطى عشرة آلاف راجل فى يوم واحد ليجدوا معه فى القتال، وضايق مدينة عكاء أشد مضايقة، وأخذ القومص والكنود بذلك موافقة، ونصب عليها كل منجنيق، من الرمى غير مفيق، رجومه للشهب بالشياطين، ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر إلى سماء الدين، فهى مجانيق مجانين، وميادين ثعابين، ومسارح سراحين، فاشتد على أصحابنا بالبلد وقعها، واحتد على صقعهم صقعها، وقالوا:

كيف نجد من مناصبها المناص، وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص. فأجمعوا على الإقدام وأقدموا على الاجتماع، وأخذوا بالارتياء فى ترك الارتياع، وخرجوا بالفارس والراجل، وأموا بالحق أمة الباطل، وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة إلى خيامهم، وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم. فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها، خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها، فاحترق جميعها، وغرق فى بحر النار صريعها، وقتل فى ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا فى اللقاء، وقطع الواصلون إليهم عليهم طريق البقاء وأسر منهم خلق كثير، من جملتهم أربعة من المعروفين فيهم فارس كبير، فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال، ولم يعرفوا بالحال. فأخرجوه إليهم قتيلاً فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلاً فباتوا ينبذبونه نوحًا، ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحًا، فخمدوا بعد ذلك الضرام، وركدوا بعد هبوب ريح المرام، وضربت عليهم الذلة، وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة، وطمع فيهم الناس وعرا طمعهم الياس، وصارت الخنادق تهجم والستائر تهتك وتضرم، والحدود بالمصال تثلم، والخدو بالنصال تلثم، إلى ليلة شعبان من السنة، فآبت بالحالة الحسنة، فإن أصحابنا خرجوا على غرة ومضوا إلى القوم بأنكاء مضرة، وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار، وأنفق على أحدهما كندهرى ألفًا وخمسمائة دينار، وكانت الليلة الأولى من شعبان مباركة، ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة.

* * *

ذكر وصول بطسة بيروت فى العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد إن الذخيرة قد فنيت، وإن الأفكار باستدعائها عنيت، وإن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت. وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة من مصر بالغلات، فرأى أن ذلك من تقصير الولاة، وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتًا ويجعل له أجلاً موقوتًا، فكتب إلى والى بيروت عز الدين أسامة أن يهجز فى كل ما به عز الدين السآمة، ويعطى ويتزكى ويحتال فى إنفاذ ميرة إلى عكا. فعمر بطسة كبيرة وأعدها، وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها، وتولاها بخلق سمح، وملأها بأربعمائة غرارة قمح، ونقل إليها أنواع الطعام، وأصناف الأدام، وقطيعًا من الأغنام، وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة، وهى بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، وإخفاء البغية منها وتكتيمها، وأزيحت منها العلة، ونقلت إليها الغلة، وملئت بالشحوم واللحوم، وبكل ما تدعو إليه الحاجة من المشروب والمطعوم، وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت، ورتبت

فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، وأن لا ينكشف للفرنج ما لها من الستر فتصوروا رهباناً، وصوروا صلباناً، ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم، وتملطوا وتكوفوا، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا، وشدوا زنانير، واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، والقوم لجهلهم لا يشكون أنهم من أهلهم، ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث، وتصور الطيب بصورة الخبيث. ولما حاذوا بها عكاء صوبوها نحوها والريح تسوقها، والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ما هذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها، وقد عقت رفقتها، وهي تكاد تعوقها، فدخلت الثغر وأدخلت إليه كل خير، وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سير، واجتزأ البلد بها شهراً، ووجد منها لكل كسر جبراً، فيها لها من لطيفة قضينا منها الأرب، ولم نقض منها العجب.

* * *

ذكر وصول بطس الغلة من مصر إلى عكاء ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب إلى النواب بالإسكندرية على وجه الاستظهار، بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار، ويملأوها بالغلات وأصناف الأقوات، ويعمروها بالكماة الحماة الرماة، ويرسلوها عند موافقة الريح إلى الثغر، فإن خلصت إليه ولو واحدة منها أغنته بعد الفقر، وتمادت الأيام على هذا الأمر، واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر، وكاد اليأس يغلب، والرجاء يضطرب، ووردت كتب أصحابنا بعكاء أنه لا يبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت، ولا شك أن كتاب أجلنا إلى هذا الأمد موقوت. فأشفقت النفوس، واستشعر البوس، وألمت القلوب، وألمت الكروب. ولجأنا إلى الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ولا يخيب من رجاه، ولا يضيع من استرعاه.

فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة ثلاث بطس كأنهن الأعلام، واستبشر بظهورها الإسلام، وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسي سواريها الثقال، وذكرت بقوله تعالى: ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾ [هود: ٤٢]، والريح تطردها طرد النعام، والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم أضل من الأنعام، فما تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيها، وأحاطت بها تقاتلها من أقاصيها وأدانيها، وهي تشق عليها وتشقها، وتعوقها عنها وتعقها، حتى برت منها لبر الإيمان الأيمان، وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبالها الرعان وعبرت

والكفر خزيان ينظر، ونهضت بالعز والعدو فى طيل الذل يعثر، ووصلت الثلاث وهى سالمة، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة، وقد فرج الله بها غمة الثغر، ودفع ما ألم به من الضر، وحمدنا الله على الموهبة التى أدركت الأرماق، وأدرت الأرزاق، وتلافت الأرواح من التلف، وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف.

* * *

فصل من كتاب إلى سيف الإسلام فى هذا المعنى

كان كتب إلينا أصحابنا بعكاء أننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا شيء نقتاته، وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته. فبينا نحن فى هذا المهم مفكرون، ومن هذا المهم متنكرون، إذ ظهرت للعيون بالقوة وللقلوب بالقرار والمسرة، ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة، يبعثها لطف الله بعثاً، وتحثها الريح القوية حثاً، كإنها جبال بإقبالها تروع، ونسور أجنحتها القلوع، وشعر الفرج بها فضاقت مذابها، وبرزت مراكبها، ودبت عقاربها وقربت من البطش شوانيها، وقويت فى البطش أمانيها، وحمى ما فيها من فيها من الرجال، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال، وكان جواريها عرائس يزففن بمالهن من الجهاز، وكان البحر المتموج توب بتلك الأعلام المنشئات معلم الطراز، بل كإنها تجار تحمل الصدقات إلى ذوى الإعواز، فجاءت فجأة متسقة موسقة، وأتى الأتىّ بها موافقة موفقة، فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شينى شانىء، وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيراً من كل كالىء، وجازت والكفر خزيان ينظر، وفازت بالعز والعدو بذيل الذل يعثر، وكان وصولها وإن انفضاض الأزواد وإنفاذها، فملأت المدينة بغلاتها وأزوادها، وعصمت أرماقها، ودثمت أمراقها، وقسمت أرزاقها، وأشبعت جوعها، وأشعبت صدوعها، وأنالت أرابها، وأزالت أجدابها، وخصتها بخصبها، وصحت لها بسحبها. فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق، وسكنت بعد القلق، وعاد إليها بعد الغسق أسفار الفلق، والحمد لله المغنى بعد الإعدام، المدنى السنى بعد الإظلام، المفنى بأوليائه أعداء الإسلام.

* * *

ذكر عيسى العوام وما تم عليه فى العشر الآخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام قد تردد بالكتب والنفقات إلى عكاء منها فى ذلك العام، وكان ناصحاً أميناً بحفظ الأسرار ضميناً، يسبح ليلاً فى البحر ويعبر على مراكب أهل الكفر ويصل بما معه إلى الثغر، ولكم خاطر بنفسه فسلم، واعتورته أسباب المتالف والآلام فما ألم. واتفق أنه عام ذات ليلة غير مكترث بما فى طريقه من أخطار، وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألفا دينار، ومعه من نفقات الأجناد ودائع،

ومحقرات بضائع، فعدم ولم يسمع له خبر، ولم يظهر له أثر. فظنت به الظنون وما تيقنت المنون. وكانت له لا شك عند الله منزلة فلم يرد أن تبقى حاله وهى مجملة محتملة، فوجد فى مينا عكاء ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها وأذهب حق اليقين من الظنون بباطلها، وبراه الله مما قالوا، وأحال الذى عليه أحالوا. فقد وجدت على وسطه تلك الأكياس، وتعجب من حاله الناس، فلم يذهب بذهابه الذهب الذى صحبه، وطهره الله من الرجس وعنه أذهبه.

* * *

ذكر وصول ولد ملك الألمان الذى قام مقام أبيه إلى الفرنج بعكاء

ذكرنا حديث الألمانى وملم حادثه، وما أداه إليه من دواعى كفره وبواعثه، وكان مسيره من أنطاكية يوم الأربعاء خامس عشرى رجب، ولقى فى طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب، وآذن ضعف خيلهم بضعف ويلهم، ووجدت لهم ما بين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرساً قد عطبت، وعلى أعواد عظامها سود الغرابيب خطبت، وقد استقبله المركيس وقصده التأنيس، وأن يهديه بضلاله إلى الطريق التى تؤمن طوارقها، ويتسع عليه فيها مجال الأمن وإن سلكت مضايقها، فوصل به إلى طرابلس فى العشر الأول من شعبان ووصل خبر وصولهم فى سادسه إلى السلطان، وحزرهم من شاهدهم فى الطريق بخمسة عشر ألفاً، وسمعنا فى حزرهم بالقليل والكثير خلفاً. ثم انتقل فى البحر إلى عكاء فى موضع الحصر ووصل آخر النهار سادس شهر رمضان، بعد أن عاين فى البحر من اختلاف الهواء الهوان فلم يبق له وقع ولم يحصل لخرق القوم به رقع. وأقام بين جنودهم كأحد كنودهم، وقال الفرنج: ليته لم يصل إلينا ولم يقدم علينا، فإنه لو أقام فى موضعه وأمدنا بفيضه من منبعه لهيبت عظمته وعظمته هيبته، وأرعب روعه وراع رعبه، ورجى منا وخشى من المسلمين قربه، وقد قطع بنا منذ وصل حُص لنا جناح نجاح حصل، ووصل فى البحر وحده ولم يستصحب جنده، ثم وصل إليه الأصحاب وتقطعت بهم الأسباب ثم رام أن يظهر لمجيئنه وقعاً ويبدى له نفعاً ويثير لنقع غلة ثاره نقعاً، فقال: إلام القعود عن القوم وما بقى إلا النهوض إليهم من اليوم؟! ولا بد من ضرب المصاف معهم وإنى على الخروج إليهم لأدفعهم، فقالوا له: أنت ما أرثت وهج قتالهم ولا أثرت نهج نصالهم ولا حربت بحربهم ولا كربت بكربهم ولو حزبت بحزبهم لأصحب جماحك لجماح صحبهم. فأبى ونبا، وشبّ الشبا، فلما عرفوا جهله وإن صعب الأمر عنده ساوى سهله، قالوا له: نبتدئ بالخروج إلى اليزك فلعلنا نوقعهم عند الإحاطة بهم فى الشرك. فدبوا فى راجل كرجل الدبى، وخيل أغصت الوهاد والربا، ومرجوا فى المرج، وطووا تلك المدارج طى

الدرج، وأشعلوا الخرصان فى ليل النقع عوض السرج وقبوا من تلك العياضية وعلية خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية. فلما بصرت بهم ثارت إليهم ودارت عليهم وأنهضت بنات الحنايا من خدودهم إلى الجدور، وأوردت ظماء الظبى منهم ماء النامور، وأنبعت بالنبع من عيونهم العيون، واستخرجت بالضرب من أعناقهم الديون، وطيرت بإطارة السهام إلى الإحداق بهم الأحداق، وخاطت الأماق وما أخطأت الأرماق، وصار كل سهم سهم شهم، وخطر فى محل خاطر أسرع من وهم.

وركب السلطان من خيمته وتقدم إلى تل كيسان، ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان، فلم تزل وجوه البيض تحمر، وثنايا السمر تفتر، وذيول النقع تنجر، وصفحات الجو تغير، وأرجاء رجاء النصر تخضر، إلى أن جن الظلام، وكف الكفر وسلم الإسلام، وكانت الدائرة على الكفرة فأعرضت بالوجوه المتنكرة، وأبنا بالأنوار المسفرة. ومر الألمانى متألمًا ومن ظلمة حاله متظلمًا، وبكلوم قلبه متقلبًا متكلمًا، وقد عاين ما عاناه من العناء وشق عليه ما شق مرائره من الشقاء، وبَلى مما بُلى به من البلاء، وعلم ما جهله، واستصعب ما استهله، وذاق ما ضاق به ذرعه، وكاد يتم فى القتلى رصعه لو تم صرعه، لكنه تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه، وتاب وما ثاب، وأبى الرجوع إلى اللقاء لما آب، وحينئذ جدوا فى قتال البلد وحصاره، واتباع ليل الجد فيه بنهاره.

* * *

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكاء فى البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو فى حراسة المينا عظيم الشان، وهو منفرد عن البلد، محمى بالرجال والعدد. وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان فى الثانى والعشرين من شعبان، ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام وآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبر دبروه، وبغى غى بغلوا غاياته، وريب راى رفعوا راياته، وشر شرك ألهبوا شراره، وأيد كيد أرهفوا غراره، وعنان عناد أطلقوه، ولسان ضرام أذلقوه، ويد بطش بسطوها، وعقلة معالقة أنشطوها، وأحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس صاريه، لا يطاوله طود ولا يباريه، وقد حشى حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه لسعة العطب، حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق، واحترق من التسائر والأخشاب ما به التصق، وتستولى النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، فسهل عليهم فيه التسلق، ولم يصعب به التعلق، وملأوا بطسة أخرى بأحطاب، يسرى فيها

النفط ويسرع بإلهاب حتى يوقدوها وعلى السفن التى لنا بالمينا يوردوها، فيعدى عدوانها، وتنير وتسدى فيها نيرانها، وهم فى مراكب من ورائها للحرب مستعدون، وللشر مستمدون، حتى إذا تم برجائهم فى البرج والمينا مناهم نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم.

فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور وصار الصارى ملاصق السور، جاء الأمر بعكس ما قدروه وأخفق ظنهم للإدبار فيما دبروه، فإن الهواء كان شرقياً فلم تجد نارهم فى مطار برج الذبان رقياً، بل اشتعل برج الصارى وتراجعت ناره إلى أهلها، وعاملت ذوى الجهل بجهلها، وأوقدت بطسة الحب من ورائها، وتطايرت إليها شعل إذكائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا. واحتمى برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب، ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب.

* * *

فصل مشبع فى المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب إلى سيف الإسلام باليمن

وأفكر الإفرنج فى أمرهم وأجالوا أقداح الرأى فى مكر مكرهم، وقالوا: هذا البرج المعروف ببرج الذبان منفرد عن البلد فى وسط البحر منقطع المكان، فإذا أخذناه تسلطنا على مراكبهم التى فى المينا وإذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيراً فلأى سبب جينا.

ومن حديث هذا البرج إنه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه، وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته إياه عصمناه وكلأناه. وقد حاموا حوله حولاً، فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولا حولاً، فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالاً كأنه سلم، وهو فى مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قربت إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه فى تجاويفه، وتعبوا فى ذلك أياماً، وأشبعوه توثيقاً وإحكاماً وهو بمرأى من الأصحاب ينظرونه وينتظرونه، ويبصرونه، ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه، والقوم قد أصبحوا بتلك البطسة زاحفين، وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط. وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على أولئك الرهط، ووجدت النار بسطة فى البطسة ولم يسلم السلم، وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذى ألم بهم وآلم، وقتل منهم من باشر القتال، ونزل العذاب بمن حاول النزال، والحمد لله الذى آيات ظهور دينه متناصرة ودلائل نصر أوليائه متظاهرة.

ثم عمل الفرنج برجًا عاليًا فى أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكانًا يقعد فيه الزراق، ويتأتى له فيه الإحراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه جوانى النيران، وقصدهم بذلك إحراق ستائر البرج المنصور. ورأوا أن فى ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا أن الستائر إذا وقعت فيها النار تعذر على رجاله القرار، وتعجل منهم للحذار الفرار، وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل، والحال تضطرب، والبال يلتهب، والقلوب تضطرم، والكروب تحتدم، فأهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وأكبت الفرنج على الوجوه الرؤوس، وتعس جدهم، وتعكس قصدهم، وانقلبت الريح التى لهم عليهم، وصوبت مرامى العذاب إليهم.

* * *

فصل فى المعنى

ولما وقم الله القوم قالوا: لا طاقة لنا اليوم، وعادوا وقد غرموا ورغموا، وأخلف ما عزموا وزعموا، واشتغلوا بملء بطس لهم شحومًا وأحطابًا، وأدهانًا وأخشابًا، وأشعلوا فيها النار وألهبوها، وأرسلوها إلى مراكبنا فى يوم ريح عاصف وصوبوها، وأدنوها منها وقربوها، وكادت سفننا تحترق، ومراكبنا تفترق، فأنزل الله الفرج وقت الشدة وآمن من المخافة المحتدمة المحتدة، وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد أن كانت موافقة، وحالة تلك الحالة للعادة خارقة، فاحترقوا بنارهم، وشرقوا بعارهم، وجذبت بطس أولئك الكلاب بالكلاليب، وتوالت ألطاف الله فى تلك النوب المتناسقة مطردة الأنابيب، مستهلة الشآبيب.

* * *

ذكر الكبش وحريقه بعد تعب العدو فى إحكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، فى رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان فى طول رمحين كالعمودين الغليظين أقفال الأسوار المغلقة بها تفش، فكم سور إذا نطحته طحنته، وكم معقل حصنه الدهر حصته وصحنته. وهذه الدبابة فى هيأة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وكملوا لها أسباب الإحكام الشديد، ولبسوا رأسى الكبش بعد الحديد بالنحاس، وكسوها حذرًا عليها من النار سائر لباس الباس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وشحنوها بكماة المصاع، وحماة القراع، ورماة الحدق، وكساة الحلق، وعفاة الحتف، وجفاة الزحف، ومجتابى الزغف، ومجتبى العسف، من كل سرحان لا ينظر إلا من جلد أرقم، وكل شيطان لا يقتحم من الحرب إلا جهنم، وكل

شجاع لا يعتقل إلا شجاعًا، ولا يرى لغير النجيع القانى اقتناء ولا انتجاعًا. فلما استدفت لهم هذه الدبابة وماجت بالحديد لجتها العبابة، وأطافت بذلك الكبش تلك التيوس النبابة، وأمنوا عليها الحريق، وأمنوا بها الطريق سووا بين يديها الأرض ومهدوا الطول منها والعرض وصحبوها حتى سحبوها، وقروا بها أعينًا بل أنفسًا وقربوها فجاءت صورة يزعج مرآها، وروضة يعجز مرعاها، وآلة تروق هيأتها، وعدة تروع هيبتها، وبلى البلد من دنوها بالبلاء الدانى، وتغاشت وتعاشت دونها نفس الرامى وعين الرانى. وقال أصحابنا: هذه ما فى دفع خطرها حيلة، ولا لبارق الظفر بها مخيلة فكيف العمل وفيم الأمل ومن للكبش العظيم وقطع رأسه ومن لبناء الحديد ونقض أساسه؟! فإن كانت هذه الدبابة دابة الأرض فما هذا أوانها وما حان زمانها، ولقد قامت بها قيامه الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها مجانيق ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق، فأبعدت رجالها من حواليها وطردت المطرقين بين يديها، ثم رموها للحزم بحزم الحطب حتى طموا ما بين القرنين بجرزه، وقذفوها بالنار فترنم فى أثنائها عجاج اللهب برجزه، ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها، وشرع من فيها فى الخروج بعد دخولها وشروعها، وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبتيات، يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات، فأطفأوا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن، ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن. وحين أخمدوا الجمر أحمدوا الأمر ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها، حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها، وحينئذ خسفها المنجنيق، فانهد ذلك النيق، وصوح ذلك الروض الأنيق، ووهن ذلك التركيب الوثيق، ونفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبابة، وخرج من بالثغر المحروس، باشرى الوجوه طيبى النفوس، وقطعوا رأس الكبش واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش، وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله، واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله، وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار، فقل فى آلة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار، وعاد أصحابنا على عدوهم ظاهرين، ولحزب الكفر قاهرين، وكلهم ينشد وهو ينشىء وينشد جداً وجداً.

نازلت كبشهم ولم ... أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط، وسخط الشيطان واستشاط الساخط، وعلم الفرنج حين حبطت أعمالهم، وهبطت آمالهم، إن الشقاء أدركهم والشقاق أهلكهم، وإن مدبرهم مدبر، وإن ترتيبهم مدمر، وإن آلاتهم غير نافعة، وإن نهلاتهم غير ناقعة، والحمد لله ذى الطول العميم، والفضل الجسيم، الذى نعش عثار الثغر بعد أن تل للجبين فتلينا قوله تعالى: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾ [الصافات: ١٠٧]، وكان ذلك فى يوم الاثنين ثالث عشر رمضان واحترقت البطسة يوم الأربعاء خامس عشره.

وفى هذا اليوم، وهو يوم الاثنين، قدمت عساكر الشمال، يقدمهم ذو القبول والإقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب، وقد استصحب معه الأجناد وجلب، فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده، ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وقد استكثر معه واستظهر، وعز الدين بن المقدم، ذو القدر الأفخم والنجر الأكرم، وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الأمراء من ذوى المكانة والبسالة والغناء. وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وقد استصحب غلمانه الأكاديش ومماليكه الترك، وكان لذلك اليوم رونق وصفاء لم يشبه رنق، واتفق فى يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد فى الخلق العظيم، جحيمين يلتهبون بنار الجحيم وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور، وأقدم العدو أقدام المتهور الجسور. فلما ازدحموا وكثروا واضطرموا واستعروا، غنت لهم الأوتار برنين القسى فطاشت لها السهام، ودعت إليهم الأقدار بحنين الحنايا فلباها فى لباتهم الحمام، وزارتهم من الزيارات الجروخ، وأخذت نيرانهم تبوخ، ورضتهم المجانيق بالأحجار، وآذنت عيون نجيعهم بالانفجار، وخرج أصحابنا عليهم فشلوهم إلى الخيام، وفلوهم بحد الإقدام، وأفضى الخرق بالعدو إلى الخرق، وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق.

* * *

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر فى سادس عشر رمضان من حلب إن صاحب أنطاكية أغار على غرة، بشره وبشره، ووصل الجاسوس بخبره، وبما البلاد مشرفة عليه من خطره، فرتب أصحابنا له كميناً، ثم خرجوا عليه شمالاً ويميناً، فقتلوا أكثر رجاله، وأفلت وباله فى وباله، وإنهاض من تلك النهضة، وضعف من تلك العضة. وفى هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل الزيب، بطستين خرجتا من عكاء بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب، وفيها امرأة محتشمة، غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج فى استنقاذها فما استنقذت، وسرنا ما ساء العدو وآتانا الله من إحسانه المرجو.

وفى عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا إلى منزل يعرف بشفرعم، وخص بهذا الرحيل النفع وعم، وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج، وأخبروا إنهم فى عزم الخروج إلى المرج، هائجين للثار ثائرين إلى الهيجاء، مائجين فى دأماء الدماء لحب اللقاء، وصح هذا الخبر وصدق، ووضح الحق وتحقق، فأحضر السلطان الأمراء الأكارم، ورجال الحقائق الضراغم، الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه،

وذخائر نصر عند اعتزامه، فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم، واستنبط دفائن ضمائرهم، واستكشف منهم الصواب، وتعرف من جانبهم الجواب، فقالوا الصواب أن يفسح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم إليها بور الخروج، فنصبحهم فى اليوم الآخر ولا يتعذر بهم إحداق العساكر، وإنما لا يقدرون على القصد دفعة واحدة إلا إذا كانت أيديهم متساعدة وآراؤهم متعاقدة، فإن انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم وأسرناهم، وإن توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم، وأجمعنا على أن نرحل إلى شفر عم ونخيم على هضابه، ونبطل على العدو ما كان من البيات فى حسابه، فخيمنا هناك على أحسن تعبيه، وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنية، ورحبت المنازل، وعذبت المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا التلاع والأكام، وركزنا بتلك الأعلام لأعلام، ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين، ولأسباب التوقى من الأمطار مستجدين، وأضحينا على تلك الأطواد موطدين، وعند تلك الأوتاد موتدين، وتسنمت تلك الفروع وقرعت تلك الأسنمة، وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الأمكنة، وتحركت تلك الجبال بسكانها وأحبت الرجال التوطن بها وسلت عن أوطانها، ودارت الأسواق، ودرت الأرزاق، وأنارت الآفاق، وصهلت الصلادم على معالفها، وصقلت اللهاذم لمراعفها، ونوب اليزك بحالها تدور وترود وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود، والحرب تتناوب، والزحف يتعاقب، والأقران تتواقع والوقائع تتقارن، والأعوان تتعاضد والأعضاد تتعاون، والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم، والرقاق بضليلها لشوق الجماجم تجمجم، والمقربات للأجراء صوافن، والضوامر للشد ضوامن، ومنى المناصل صلة القطع، ورجاء الرجال نبع النصر فى قرع النبع بالنبع، والتوحيد للتثليث منازل، والإيمان للكفر مقاتل، ولا كلام إلا للكلام ولا سلام إلا بالسلام، فلا يسمع إلا أسرج وألجم، وتقدم وأقدم، وأصم وصمم، وأضر وأضرم، ولا تله حتى تلهب، ولا تعج حتى تعجب، وأقطع وصل، واكتل بصاع المصاع وكل، ولا تقلق والق وقلقل، ولكل داع إجابة ولكل ساع أصابه، ولكل سهم فى المرمى فوق، ولكل شهم فى المرام سوق، ولكل صعدة فى الطعان صدعة، ولكل قعدة للرماء قدعة، ولكل عقدة بالضرب حل، ولكل عدة فى الحرب فل، ولكل عضب عض، ولكل ذى حظٍ حض، ومن له نصيب فى الشجاعة نصب فى التشجيع، ومن له جراءة الهيجاء هاج إلى الصريخ بالجد السريع، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة، ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجة، والفرج منتظر والنواظر متفرجة، وتباشير صباح الصفاح فى دياجير القتام متبلجة، ولله نعمة فى كل بلية، وسرٌّ فى كل قضية.

* * *

ذكر وفاة زين الدين صاحب إربل

فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان وما جرى بعده من الحال. قد جرى ذكر هذا الأمير وما يتحلى به من الكرم والخير، وهو يوسف نيالتكين بن على كوجك، ومن سعادة جده ما طلب غاية فى الكرم إلا أدرك، وما كان أسره يوم الحضور، وأحظره يوم وفاته للسرور، فلقد كان جاراً للكتائب، بارا بالأباعد والأقارب، ساراً بإسداء المواهب داراً بأخلاف الرغائب، ماراً فى سبل المناقب، قاراً على قلق النوائب، وكان فى ريعانه الرائع، وشعاعه الشائع، وشبابه الطرى، طرير الشبا، وحبه لعقد السودد معقود الحبا، فمرضت الأيام بمرضه أياماً، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضًا ضرامًا، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به، ولم يسكن إلى طبه، لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين فى موضعه، وإنه ينتعش بمصرعه. فاكتفى بصاحب له يطبه، يوافقه على ما يحبه، وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه، فشب الحمام فى حمى شبابه ناره، وأذوى غصنه غداة قلنا: ما أزهى أزهاره، وما أنضر نضاره. ونقله الله من جناب الحياة إلى حياة الجنان، وعجل به ليجازيه لإحسانه بالإحسان، وحوله من بين الأتراب إلى التراب، ومن دار الاغترار والاغتراب إلى موطن الثواء بالثواب، وآذن الزمان بعد الأجداء بالأجداب، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه، وما ظهر عليه الغم حتى قيل إنه سره موته ووافقه.

وقصدناه معزين على ظن أنه جلس للعزاء، فإذا هو فى مثل يوم الهناء، وهو فى خيمنة ضربها فى مخيم أخيه واحتاط على جميع ما يحويه، ووكل بالأمراء أصحاب القلاع ليسلموها، وخشى أن يعصوا فيها إذا رجعوا إليها ويحملوها، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التى معه وأعادها. وزاده السلطان شهرزور، وأحكم بمسيره الأسباب والأمور، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقى الدين لينزل فى منزلته بجنده وصحبه الميامين. فوصل يوم الأحد ثالث شوال، فحلى بعد العطل الأحوال، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبًا، وكان السلطان له فى الانفصال عاتبًا، فأعاده تقى الدين من الطريق وقبح له ما استحسنه فى ترك الموافقة من عدم التوفيق. وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهناء، فاستأذنه فى الانكفاء فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه، ولج جماحه وتعذر أصحابه. فلما اجتمع به تقى الدين رده، وبذل فى صيانة منزله عند السلطان جهده. وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام، وصدق الاعتزام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلى من يد　　يه فليت شعرى ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح فى الخطاب ولا غادى، وغلبت الأسعار عند الفرنج واستعرت الغلل، وأعلهم ما عراهم وعرتهم العلل، وباؤوا بالوباء، وبلوا من البلاء، وغلوا من الغلاء، وتضوروا من الضراء، وشق مرائرهم استمرار الشقاء، وعمت المجاعة الجماعة، وعدموا الطاعة والاستطاعة، وزاد جوعهم، وزال هجوعهم، وقصرت عن القرار بوعهم، وأمحلت ربوعهم، واستحال رتوعهم، وبعثهم الرهب على الهرب، والقحط على الشحط، لكنهم أقاموا على الموت واستناموا على الفوت، وبلوا بأمور صعبة. وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، وقد بادوا من الضعف البادى، وأعداهم الضر العادى، فمن سألناه عن مقتضى فراره ومقض قراره يخبر أنه طواه الطوى، فنواه النوى حين التوى من حذر التوى، وقد أنساه المحل الذحل، وأبغض إليه حب السلامة الولد والأهل، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم فى استعار، فما جاء إلا كل ضعيف لا يقوى على النزاع والنزال، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال، فقبلناهم وأنفقنا فيهم، وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم، فتقوتوا وتقووا، وأثروا بعدما أقووا، فمنهم من أسلم وخدم ومنهم من ند وتندم ومنهم من غدا بجريرة وعاد ومنهم من ناصح فاستفاد.

* * *

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم، وأشرقهم جرعهم، وعرقهم قرعهم، وأخلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم، وعيل صبرهم، وعال ضرهم، قالوا: نخرج ونبلى، ونصل ونصلى، ونقصد ونصدق، ونلقى ونقلق، ونفل ونفلق، ونعز ونعزم، ونهز ونهزم، ونجرى ونجترى، ونبرى ونبترى، ونزحف ونحفز، ونزعج ونعجز، ونجهد ونجهل، ونحمى ونحمل، ونقطع ونوصل، ونثور ونثير، وندور ونديد، وننتصف وننصف، ونعفر ونرعف، ونقرح ونحرق، ونعقر ونعرق، ونخرج ونحرج، ونلج ونلجج، ونضرى ونضرب، ونغلى ونغلب، ونجن ونجنى، ونيف ونفنى، ونرد ونردى، ونجد ونجدى، ونقد ونقدم، ونعدو ونعدم، ونصد ونصدع، ونقد ونقدع، ونجد ونجدع، ونصر ونصرع، ونسل ونسلب، ونروع ونرعب، ونبدو ونبيد، ونتصدى ونصيد، ونظهر ونظفر، ونرهق ونقهر، ونقسو ونقسر، ونسكر ونكسر.

فخرجوا فى عدد خارج عن العد، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد، وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد أن رتبوا على البلد من لازم القتال، وأخذوا منهم عليق أربعة أيام وزادها، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان اليزك على

تل العياضية فركبوا، وأشعلوا القوم بنيران النصال وألهبوا، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الأتراك، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون، ويشوون ويصمون. ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل إلى ناحية القيمون، وثبت الله القلوب على الأمن والسكون، وبقى الناس على خيلهم جرائد، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرًا، وقد عب عبابه زاخرًا، وهب غابه زائرًا، وطما بحره مائجًا، وسما جمره مارجًا، وعساكرنا فى أحسن تعبية، ولدعاء القراع فى أوحى تلبية، وقد امتزجت زجرات الجاووش، بنعرات الجيوش، والميمنة إلى الجبل ممتدة، والميسرة إلى النهر بقرب البحر وصفوفها مشتدة مستدة، والسلطان فى القلب كالقمر فى الهالة، عليه إكليل من أنوار الجلالة، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة، على المهابة الحالية والحالة المحبوبة، ومقدموا ميمنته عظماء دولته، صاحب دمشق ولده المبجل الملك الأفضل، وصاحب حلب الملك الظاهر، وصاحب بصرى ولده الملك الظافر، وأخوه الملك العادل فى آخرها، والأمراء بعساكرها، يلى حسام الدين بن لاجين، قايماز النجمى صارم الدين، والأمير بشارة صاحب بانياس، وهو الذى لا يرجو منازلته إلا من فيه بان اليأس، ثم بدر الدين دلدرم الياروقى صاحب تل باشر، وقد طالما بشر الإسلام بما باشر، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها على أنه يطيب نشرها، وعظماء الميسرة ومقدموها، وأمراؤها ومقدموها، الملك عماد الدين صاحب سنجار، وهو العادل للإسلام وعلى الكفر جار وابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة والملك المظفر تقى الدين ذو السطوة المبيدة المبيرة، وسيف الدين على المشطوب، الذى تشب بناره الحروب، وتصب على العدا منه الكروب، والهكارية والمهرانية، والحميدية والزرزارية، وأمراء القبائل من الأكراد، أقتال القتال وأجادل الجلاد، ورجال الحلقة المنصورة واقفون فى القلب، لابسى الحلق السرد خائضى بحر الحرب، من كل فارس فراس، وهرماس رماس، وضيغم ضاغم، وضرغام غارم، وليث قضقاض، ملوث بفضفاض، وقسور قاسر، وهزبر زابر زائر، وأسد فى غاب الأسل، وقارع فى القراع باب الأجل، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الأقران، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان، وقارئ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم** ﴾ [التوبة: ١١١] ثقة بوعد القرآن، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله فى الجهاد للتمتع بعمر الجنان، وسابق إلى حلبة الشهادة، وسامق على ذروة السعادة، وملابس للروع مباسل، وعاسل كالذئب إلى ذب العدا عن الهدى بعاسل.

وسار الفرنج شرقى النهر لنا مواجهين، وللكريهة غير كارهين، حتى وصلوا إلى

رأس النهر، وأشفقوا من بأس القهر، فانقلبوا إلى غربيه ونزلوا على التل بينه وبين البحر، والجاليشية الرماة منا حولهم جائلة وعيون أعيانهم على نصالنا سائلة، وجرح في ذلك اليوم، وهو الثلاثاء، خلق من أهل التثليث، وما نبأ عن كثير منهم ناب النائب الكريث، والسلطان فى خيمة لطيفة بحيث يشاهد، ولله منه الجاهد المجاهد.

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين، ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النهار، والراجل مطيف محدق بهم كالأسوار، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا أن يخالطونهم، وأرادوا يباسطونهم، والسلطان يمد الرماة بالرماة، والكماة بالكماة، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول: لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون، فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم، وتفريج الغمة بنزع جمتهم.

وأحس العدو بالضعف وإنه متورط فى الحتف، فسار موليًا ولعذره لذعره مبليًا، ومضى على مضض، مر بأشد مرض، والنهر عن يمينه والبحر عن يساره، وقد أيقن إن صح منه الثبات بانكساره، وعسكرنا يصافحهم بالصفاح، ويكفهم بالكفاح، ويشعلهم بجمرات السهام، ويلهبهم بحدمات الضرام، ويحرقهم ويشويهم، ويصميهم ويشويهم، ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب، ويخيض فى دأماء الدماء منهم سوابح السلاهب، ويغيض فى ماء الوريد منهم ماء الفرند، ويغيظ بنى الكفر فى الجمع بين الأختين عليهم ابنتى الغمد والزند، وأدبروا مولين، وأرخصوا فى مهجهم ما كانوا له مغلين، وعسكرنا يتبعهم ويعلق بهم ويقلعهم، وهو مجتمعون فى مسيرهم، محتمون فى تقديمهم وتأخيرهم، يتحركون فى سكون ويتظاهرون فى كمون، ويتطلعون فى غروب، ويتفللون بغروب، ويتذوبون فى جمود، ويتلهبون فى خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه، حتى يخفى أمرهم، ولا يصح لدينا كسرهم. ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا إليهم ويعوق، وأبلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاءً حسنًا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعًا ممكنًا. وقام أياز الطويل فى ذلك اليوم مقامًا أقعد فيه من الكفرة كل قائم، وأنبه به من العزائم كل نائم، وكان مقدامًا هُمامًا وأسدًا ضرغامًا، يطير وحده إلى الروع إذا أبدى له ناجذيه، ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه إليه وهو فى كل يوم يصبح فى سلاحه شاكيًا، وبنار عزمه ذاكيًا، ويقف بين الصفين، ويدعوا إلى المبارزة والحين، فما يبرز إليه إلا من يصرع ولا يصل إليه إلا من يقطع. فعرفه الفرنج وتحاموه، فما راموه بعد ذلك ولا راموه. وبذل هذا اليوم جهده وفل فى فل حدهم حده، وأصابته جراحات وأصابتهم اجتراحات،

وكذلك سيف الدين يازكوج أبلى فى الجهاد ذلك اليوم ووقم بنصاله ونضاله القوم، وخرج وبه جرح، وفى قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه وإصابة سهامه قرح.

وأصبحوا بكرة الخميس وقد بكر الخميس، وحمى الوطيس، وسار فى أسده العريس، فأشرفنا عليهم وإذا هم داخلون إلى مخيمهم، سائرون إلى مجثمهم، فعاد السلطان إلى سرادقه، حامداً خلائق خلائقه، مسفرا فى ليل العجاج فلق فيالقه. واستعاد الأثقال إلى معسكره، واستزاد من الله له الإقبال فى مورده ومصدره، وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره، وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكندهرى، وأقام ملك الألمان على عكاء يبرى ويفرى.

* * *

فصل من كتاب فى المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر، واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر، وفى مرج عكاء عين غزيرة الماء يجرى منها نهر كبير إلى البحر، فخرجوا إلى شرقى النهر وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد، وقد تخلف لحفظ حصره ألوف من أهل الجلد. ثم أصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم، والأسد سائرة بالأسل فى عرينهم، والحمية مشتعلة فى عيونهم وعرانينهم، ونزلوا رأس العين، وتطرق بها إليهم من عساكرنا المنصورة وطارق الحين، ولما أصبحوا وجدوها بهم محدقة، وبنيران النصال والمناصل لهم محرقة، وكنا نقول: إنهم يتحركون للمصاف والأمر بالخلاف، وإنهم لسهام المنون من الأهداف، وما دارت بهم إلا الجاليشية تجول وتصول وتصيب وتصوب وتطيل وتطول، وكانت الأطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها، فلما أبصر الفرنج ما حل بهم من العذاب عدوا الغنيمة فى الإياب، وشرعوا فى طريق الذهاب، فعادوا من غربى النهر راجعين وساروا صوب خيامهم مسارعين، وأصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم، وقتل منهم خلق وسرى فى حجب حياتهم خرق، ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين، ورحلوا سحراً خاسئين خائبين، وخيولهم الناجية مجرحة، وقلوبهم الراجفة مقرحة، وأشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحة، وعرفوا أن حركتهم للهلكة، وإن هلكتهم فى الحركة، وأقاموا على الضر والزاد معدوم، والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم، ولا طعم لهم إلا من لحوم الخيل، وهم يدعون بالثبور والويل، ومع كثرتهم قلوا عناءاً، وضلوا رجاءاً، وذلوا بلاءاً، واعتلوا جدباً وغلاءاً.

ولما عاد الفرنج إلى خيامهم خافقين من مراميهم مخفقين من مرامهم، وأبصر المقيمون بها أصحابنا وراءهم يطلبون إردائهم متعطشين إلى دمائهم يرومون إرواءهم،

وثبوا على جيادهم وثاروا لمراد مرادهم ولاقوا أجمعنا بأجمعهم، وفاضوا لفيضنا من منبعهم، فاندفع الأصحاب حتى تبرزوا، ثم ردوا عليهم الكرة فأثخنوا وأجهزوا، وقتل فى تلك المعركة كند كبير، وشيطان لنار شره من سعير مستعير، وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فأعطوها، والتمسوا هامته فلم يجدوها، وكان رجلاً يعد برجال وسلبه قوم بأموال، ولولا ما اتفق من التياث مزاج السلطان ما سلم من سلم من حزب الشيطان، ولله فى كل قضية سر، وفى كل بلية بر.

* * *

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقًا فى آرائه، مشرقًا بلألاء آلائه، ومن آرائه الراجحة، ومساعيه الناجحة، ومتاجره الرابحه، إنه رأى أن يرتب على العدو كمينًا، وعلم أن الله يكون لنجحه ضمينًا، فجمع يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال منتخبى رجاله ومنتجبى أبطاله، وخواص أتراكه وعوام فتاكه، فانتخب منهم كل من عرفت سابقته، وسبقت معرفته، وأحمدت فى الجلاد جلادته، وفى لقاء العدا عادته، وعلمت فى الفتك جهالته. وأمرهم أن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة، فمضوا وأكمنوا ليلة السبت متنبهى الهمة متيقظى العزيمة، وخرجت منهم عدة يسيرة بعد الصباح منادية بحى على الفلاح، ودنوا من خندق القوم ونادوا لا قعود بعد اليوم، ومطروهم سهامًا وأسرعوهم ضرامًا، فطمع الفرنج فيهم، وظنت أنها تلاقيهم، وخالتهم صيداً قد سح، وسرباً قد سرح، فقطعت خنادقها، وبتت علائقها، وحثت سوابقها، وأخاضت بحر الحرب سوابحها، وقد أفاضت سوابغها وشامت صفائحها، وتجردت عن رجالتها، وتفردت بضلالتها، وحملت بجهالتها، وأقبلت بإدلالها لا بدلالتها، وتطارد أصحابنا أمامها، وانهزموا قدامها، حتى وقفوها على الكمين، وأوقعوهاس فى الهلك المبين، فخرج الكمين عليها وتبادر إليها فلم يستطع فارس منها فراراً ولم يطق من غرته أن يمضى غراراً، وكانت فى مائتى قنطارى، من كل مقدم بارونى وبطل داوى واسبتارى، فقتل معظمهم، ووقع فى الأسر خازن الملك وعدة من الإفرنسيسية ومقدمهم، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم، وتقطع بهم سببهم، وما وصلهم إربهم، وجاء الخبر إلينا فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان، فشاهد من الله هنالك الإحسان وجاءه مماليكه يقودون أولئك الأعزاء بخزائم الذل، ويجودون بما استخلصوه من ذلك القل ويقدمون المقدمين من سراة الأسارى، وتلونا لما شاهدنهم ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ**﴾ [الحج: ٢]، فقد رضتهم اللتوت وقضقضتهم الليوث، وبعثتهم إلى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث.

وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت بأموال عظيمة، فما أعارها نظرة ولا تردد أمره فيها، وفيها حصن كأنها حصون وزرد موضون، وخوذ منها مذهب ومدهون، وسيوف ذكور تتولد منها المنون، وملابس رائقات تحار فيها العيون، وأبنا بالملوك مصفدينا، وحمدنا الله الذى بإرشاده هدينا، وجلس السلطان فى خيمته على دست ملكه، وقد انتظم له عقد النصر فى سلكه، فمن كان عنده أسيراً أحضره، فأنعم عليه وشكره. وكنت عند السلطان جالساً ولحبير الحبور لابساً، وقد جمع أولئك الأسرار وما أسعد الله إلا فى تلك الساعة أولئك الأشقياء، ودامت محاورته لهم مشافهة، وأطعمهم بعدما آنسوا فاكهة، ثم بسطهم ببسط الخوان وأشبعهم وأرواهم ثم أحضر لهم كسوة وكساهم، وألبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد، وفصل الشتاء قد ورد، وأذن لهم فى أن يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره، ولإعلام من يؤثرون أن تعرف معارفه أخباره، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

* * *

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشرى شوال كانت نوبة اليزك لأخينا الملك العادل، فأشار بإنفاذ عدة إليه تكون فى الكمين وتقيم فى المكمن إقامة خادرات الأسود فى العرين. فأنفذنا إليه من مماليكنا سرية سرية سرت سراً واستسرت وسرت، وقرت فى مكمنها إلى أن طابت الأنفس بصنعها وقرت. ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين، وللمنايا إلى ناديهم منادين، فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم، وأظهروا أنهم قد ظهروا عليهم وهربوا ورهبوا أقدامهم، وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم، يقوون فيهم رجاءهم، حتى أبعدوهم عن المأمن، وعبروا بهم عن الكمن. فخرج عليهم الكمين من خلفهم وفتح عليهم أبواب حتفهم، وأروهم وجوه المنايا فى مرايا غرر الجياد ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد، وفلقوا البيض بالبيض وفلحوا الحديد بالحديد، وأشعلوا نار الظبا فى ماء الوريد، وفضوهم بالفضاء، وعروهم بالعراء ولتوهم باللتوت، وبتوا أعناقهم من حبل الوتين بالمبتوت، فلم ينج منهم ناج، ولم يبق منهم للبقاء راج. وأسرت عدة من مقدميهم ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوة، وكرة بغير كبوة، وغزوة أذنت بأوفر حظوة، ووقعة أدنت بل أجنت كل نصرة نضرة عذبة حلوة، والحمد لله الذى تزكو أنعمه بسقيا الحمد، وتوضح عوارفه لشاكريها جدد الجد، ولولا مرضنا فى النوبة الأولى التى خرجوا فيها بأجمعهم لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم إلى

مصرعهم، لكنا ما قدرنا فى ذلك اليوم على الركوب، وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب. والآن بحمد الله قد توفرت حصة الصحة، ولزمت منة المنحة، وكذلك مرضنا عام أول شهرين، والحمد لله على المهلة فى السنتين، فأقمنا مع السقام، وسقمنا فى المقام، وصبرنا وصابرنا، وجاهدنا وجاهزنا، ومقامنا فى هذه المدة المديدة فى بلد الغور، والوخم فيه يقضى على ماء الصحة بالغور، وما منا إلا من التاث، فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالثاث، والحمد لله الذى أعان وأغاث.

* * *

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر إلى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق، بشمول الشتاء العنيف، وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المصيف، واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج، والتحفت كل هضبة ببرد البرد، واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد، ولبسوا سور الذرا بيض الفرا، وجر السيل الذيل وجرى، وطمر المطر هوادى الوهاد، وقبض أنامل الآنام عن البسط للجهاد، وجمد الخمر، وخمد الجمر، وارتعدت الفرائض، وارتدعت الأخامص، وقرست الأيدى ، وأمسى الجو بالجوى المسىء يعدو ويعدى، وحل الهواء بالوهاد عقود القوى، وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا، واشتغل الملوك بملازمة المشاتى، ومنادمة المواتى، ومناقلة المناقل، ومعالقة العقائل، ومعاقرة العقار، ومسامرة السمار، ومداناة الدنان، واجتناء الجنان، ومناغاة الغوانى، ومناجاة المثالث والمثانى، وملابسة السوالف والسلاف، وملامسة اللطائف واللطاف، فلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتى، ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى إلى المشاتى، وما صده البرد عن مقصده، ولا رده عن مورده، ولم يحتفل باحتفاله، ولم يبال ببلاله، ولم يكترث بكارثة، ولم يحدث أمراً لحادثة، فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره، وجرى على عادته فى مصابرة الأعداء والجرى لها فى مضماره، وما لها عن الله ولا رفض فرضه، وسما إلى سماء الآلاء وأرضاه لما طهر بدم أنجاس أعدائه أرضه، واستمر على بذل جهده فى الجهاد، ووفى بعده ولم يثنه جفاء العهاد، وقال : إنما أربأ بهذا الإرب، وأرى راحتى فى هذا التعب، ويقينى بقينى فى ثلج صدرى بلطف الله عنف الثلج وما يبرد قلبى مع تقلب الحر والبرد إلا برد النصر والفلج، لكنه رأى أن مقام العساكر بجمعها وصرفها عن

العود إلى البلاد ومنعها، يوزن بملالها، واختلال أمورها وانحلال، والفرنج قد أمنت غائلتها، وتكفى فى مداومة قتالها فى نوبها مقاتلتها، فأذن للجماعة فى الانصراف على المواعدة فى المعاودة فى الربيع، والرجوع إلى مراد الروع المريع، وليأخذوا أسباب الاستعداد لأوقات الاستدعاء، وليستكثروا من الرجال المحققين فى نصرة الحق للرجاء من أهل الغنى والغناء، والمضارب والمضاء. فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكى خامس عشرى شوال يوم الاثنين وتلاه صاحب الجزيرة ابن أخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذى القعدة. وما انصرفوا إلا بالتشريف والخلع المعدة، وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعة، وخلعة رائقة رائعة، ومستعملات مصر، ومصوغات تبر، وخيل عتاق، وخير وإطلاق.

* * *

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل عند عود ولده إليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ما كان أسعدنا بقرب الملك السعيد وما أجد جدنا بإنارة نوره، وأوفر حبورنا بحضوره، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده، وما أبهج الإسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه وودوده. ولقد تمت بأيامن أيامه وبركات مقامه فى العدو نكايات، وظهرت لأولياء الله من ألطاف كفاياته آيات، ووقعت بالمشركين روعات، وراعت وقعات، وقد أردنا أن نستظهر بمرافقته ونبنى الأمور على موافقته، فما أيمن سعده، وما أسعد يمنه، وما أوقر وزنه وأغزر مزنه، لكنا عرفنا شوق المجلس إلى اجتلاء سناه، بمقتضى آدابه التى استكمل بها أدوات الارتقاء فى مطالع علاه، فقد فاق بسداد رأيه الكهول، وما أزكى الفروع الطيبة إذا أشبهت بالأصول، وما أسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين أدام الله علاءه، وسر بفضائله أولياءه، وقد توجه والقلوب معه متوجهة، والنفوس لغيبته متكرهة، والعيون لترقب ورود البشائر عنه متنبهة، والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالى متشهبة، والموارد إلى أن يمن الله بعود الأنس بعودته متسنهة، والألسن بذكر أخلاقه الطاهرة والإفاضة فى شكر محاسنه الزاهرة متفوهة، والخواطر فيما تمثلته أيام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة، ولا شك أنه يصف بلهجته الفصيحة، ما اقتناه من المتاجر الربيحة، وقدمه من المساعى النجيحة، واستنتجحه فى الغزاة من مغازيه الصحيحه، وأبداه فى البأس من بسالته المشيحة، وأطلعه فى ليل العجاج من صبيحة بهجته الصبيحة، وله فى كل نصرة وهبها الله للإسلام أوفى نصيب، فقد أصمى مقتل الكفر بكل سهم مصيب، وهو لمستصرخ الهدى أسبق ملب وأسرع مجيب، وإن الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح إرادته أفضل مثيب.

ذكر ما تجدد بعد ذلك فى هذه السنة

لما هاج البحر وماج، وأظهر الارتجاج والانزعاج، نقل الفرنج سفنهم خوفًا عليها إلى صور فربطوها بها، وأخلو ساحل عكاء من إرعابها وإهابها، وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر. فاشتغل السلطان بإنفاذ البدل إلى البلد من الثابتين فى الجلاد على الجلد. فانتقل الملك العادل بمخيمه إلى جانب الرمل ونزل قاطع نهر حيفا فى سفح الجبل، لتسهيل طريق من يسيره إلى البلد من البدل، فإن المقيمين فى عكاء شكوا أمراضًا معترضة وأعراضًا ممرضة، وكثرت السواد مع قلة النفقة والزاد.

وكان فى البلد زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى، وأسطولى وبحرى، ومتعيش وتاجر وبطال، وغلمان ونواب وعمال، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا، وإذا عاينوا خوفًا على الموضع موهنًا عاونوا وما وهنوا. فرأى السلطان أن يفسح لهم فى الخروج رفقًا بهم ورأفة، وما أفكر أن فى ذلك مخافة وآفة، فقد كان فيه أمراء أمروا الأمر وألفوا الصبر ومانعوا الحصر واجترأوا وتجاسروا وصبروا وصابروا وحاربوا وحربوا، وجاروا وجربوا، وزاولوا وأزالوا، وحاولوا وأحالوا، وعرفوا مكامن المكايد، وكشفوا كوامن المقاصد، وأخذ كل موضعه فى الحرص على الحراسة، وشاعوا بالسماحة والحماسة، وكان فيهم من يطعم وينفق، ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق، مثل حسام الدين أبى الهيجاء السمين، فإنه أنفق ما ادخره من الألوف والمئين مستمرًا على إنفاق لا تعتريه فيه خشية إملاق، وهناك ستون أميرًا ومقدمًا وكلهم يرى المغرم فى سبيل الله مغنمًا، وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس فى جذب المجانيق، والإعانة على ما يتفق فى الحصر من التضييق. فلما خرج الخواص خرج منهم العوام، وتبدد بتبدد نظمهم النظام، وألزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول فخدموا على أن يعفيهم بالبذول، فلم يقبل منهم بذلاً، وألزم بنقل الأزواد لبعض سنتهم كلاً، فلم يدخلوا إلا بعد لأى وقد بلغوا فى غى الرأى إلى أقصى غاى، وأكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين، واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين، وأذهبوا الأيام بالمدافعة، وأبطأوا عن فرض المسارعة. والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم، ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم، حتى لم يبلغ من دخل عشرين أميرًا مقدمهم الأحمد سيف الدين المشطوب على بن أحمد، وأمر السلطان بالمناداة فى الأبطال البطالين، ليحضروا لقبض النفقات، وكان يحضر الجاووش فى كل يوم مئين، ويصبح نواب الديوان فى أمرهم مرتبين لحرصهم على توفير الدرهم وبخلهم بالنفقة ويعدونها من المغرم، ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو مصر فى نصرة النصارى، وفى تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لا يجارى ولا يبارى،

وكل واحد منهم للقبط قطب، وفى الخبط خطب، وللشر شوك، وفى الحس حسك، وللمشرك مشارك، وللدين تارك فارك، ولهم أخلاق أخلاق، وطباع بالطبع أغلاق، تأوى للبخل والتبخيل إلى التأويل، وتقلى لتكثير السوء فى الخير سوى التقليل، وهم جالبون للغى، طالبون للبغى، كاسبون للذم، مناسبون للضم، والمسلم فيهم متولى الخزانة، يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة، وأصنعهم فى الكفاية عندهم أمنعهم للإطلاق وأعذقهم بالحذق أقذعهم، وأعقدهم للحق أقدعهم، وأجودهم أرداهم، وأضلهم أهداهم، وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة، مختلفون فى الظاهر لإبداء الصيانة.

وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم، ويوحشونهم بخطابهم وينفرونهم بكلامهم، ويقابلونهم بالجبه ويعاملونهم بالنجه، ويواجهونهم بالسوء ويسؤونهم فى الوجه، ويشتطون فى طلب الضمان، ويشترطون ما ليس فى الإمكان، ويطردونهم بقبيح الزجرة ويكسرونهم فى صحيح الأجرة. والسلطان يجود جود السحاب، ويأمر بالعطاء الحساب، وبجد حث النواب، ويجد فى بعث الأصحاب، ويقول: أنفقوا ولا تخشوا إقلالاً، وأنهضوا الرجال خفافًا وثقالاً، ولا تؤخروا شغل اليوم إلى غد إمهالاً أو إهمالاً، ولا تقدموا على هذا الفرض فرضًا ولا نفلاً، ولا تعتقدوا أن لنا أهم من هذا الشغل شغلاً. ونواب الديوان على عادة جهالتهم وعادية ضلالتهم، فما قبل العطاء غير مضطر فقير، وما دخل الثغر إلا قليل من كثير، وما صح من البدل إلا بعضه، وما قضى حق الواجب المتعين فرضه، وكان هذا من أقوى أسباب الضعف وأوفق دلائل الخلف، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى سنة سبع، فإنه عاد كل ما دير بضرر على الثغر لا بنفع، وأقام الملك العادل على البحر لإزاحة علل الداخلين، وإراحة قلوب الواصلين، حتى عاد الفرنج بمراكبهم، وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم، واقتنع البلد بمن إليه تحول، وعلى حفظه من الله بعصمته عول.

وبتاريخ يوم الاثنين ثانى ذى الحجة وصلت من مصر بالغلة بطس سبع، وكان لها للحاجة إليها وقع، وقيل قد تم بها للجائعين شبع، وانقلب أهل البلد إلى البحر لمشاهدتها، ومعاونة جماعتها ومساعدتها، ونقل ما فيها من بضائع وحوائج، وسلع روائج، ومأكول ومطعوم، ومشروب ومشموم، فقد طال بذلك كله عهدهم وانتهى إلى الغاية جهدهم. فلما تسامعوا بالبطس، تسارعوا إلى الملتمس، فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر إلى جانب البحر، فزحفوا زحفًا شديدًا وحملوا جندلاً وحديدًا، وأتوا بسلالم لينصبوها على الأسوار، وصارت عكاء وهم حولها كالمعصم فى السوار، وترقوا فى سلم واحد متزاحمين، وللضيق متصادمين، فاندق بهم السلم المنصوب،

وسطا بعصابتهم المعصوب بها لنصب سوط العذاب المصبوب، وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا، وتعاطوا كؤوس المنايا وتساقوا، ورأوا غمرات الموت فزاروها، وداروا حول رحى الحرب وأداروها، واستحلوا شهد الشهادة فشاروه، وألفوا الأجل كامناً فأثاروه، وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع، ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع وأطالوا بشبا العوالى للعوافى باع الأشباع، وأنبعوا عيون النجيع من عيون الجميع جداول البيض، وأفاضوا فيوض الدم القانى بالصارم المفيض، وقتلوا وسفكوا وفتكوا وهتكوا، وردوهم على أعقابهم ناكصين، ومن حسابهم ناقصين، ولاشتغال الناس بكشف ما عرا من الغمة وأظل من الظلمة، والتهائهم بثقل الغلة، عن نقل الغلة، تركوا البطس بحالها، مملوءة بغلالها، حتى هاج البحر فضرب بها الحشف، وأذهب بكسرها كل ما فيها وأتلف، وغرق من كان فيها وأتى الغرق على الأمتعة التى تحويها حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفساً، عدموا ولم نجد لهم حساً، ناموا والقدر منتبه، وذهلوا وحكم القضاء إليهم متوجه.

وفى ليلة السبت سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكاء على فصيلها فهدمته، وثغرت الثغر وثلمته، فبان منها الضوء لأهل الظلمة، فتبادروا إليها طمعاً فى هجم الثلمة، فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وصدوا عنها بنحورهم، وبنوها بأبدانهم إلى أن بنوا ذلك البدن، وعمروا ما خرب وقووا ما وهن، وقتلوا وجرحوا من العدو خلقاً، وأوسعوا بالمضايقة فى كل ذى خرق خرقاً، فانجلت الحرب عن طريح صريع، وجريح إلى الهزيمة سريع، وطليح للعقير قريع، وعاد الثغر أقوى مما كان وأحكم، وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم، وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا، وطلبوا الخروج ولجوا، أقام ولم يرم، ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم.

وفى ثانى عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف، ولعله من عرض الخوف، وأدرك أباه فى الدرك الأسفل من النار وأبصر فى جهنم مصاير أمثاله من الكفار، وزاد بهلاكه ألم الألمانية وانسدت بموته فرج الفرنجية، وتبعه فى السفر إلى سقر، كند كبير يقال له كند تيباط دافع القدر فما قدر، وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير، واستغلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير.

وفى يوم الاثنين ثانى عشرى ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان فى براكيس، ليغزوا فى البحر ويكونوا أيضاً لنا جواسيس، فرجعوا وقد غنموا وغلبوا، وكسروا وكسبوا، وسروا وأسروا، وقسروا فظفروا، وذكروا أنهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس،

وأسر التجار وأخذ المال وحيزت تلك المراكب وجذبت إلى الساحل، فإذا هى مشحونة بالكرائم الجلائل، من كل آنية مطبوعة ذهبية، وحلية مصوغة نضارية، وآلة فضية، وأباريق وأكواب وأقداح وأطباق وموائد وسبائك وصفاح، وكاسات وطاسات، ومرافع وشربات، فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب وأظهروا بهذه النهضة إنهم مناصحون وليمين الإيمان مصافحون. فلما أكرموا بتلك المكرمة أثنوا على اليد المنعمة وأسلم منهم شطرهم، وحسن بيننا ذكرهم، وببركات الكرم السلطانى كرموا، وأنسوا وأسلموا، وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عالية، ولها قيمة غالية، ومعها طبق يماثلها فى الوزن، ويتعذر وجود ذلك للملوك فى الخزن، ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً وقال لهم: خذوها فأنتم بها أولى، وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى وكنت عنده جالساً وبطلفه مستأنساً فقلت له: ما أظن فى الوجود ملكًا يسمح بمثل هذا المال خصوصًا وقد أغنمه الله من الحلال، فتبسم لقولى غير معجب به وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه.

وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً، فجلا لنا نصراً وعلا نجحًا وحلا ظفراً. وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضًا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس، وهم نيف وعشرون منهم أربعة خيالة، ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة قيل إنها كانت من ثياب ملك الألمان. وأسر فيه رجل كبير قيل إنه ابن أخته وهو كبير الشان.

وفى هذا الشهر كان قدوم القاضى الفاضل الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فأشرقت المطالع، وأشرفت الصنائع، وبشرت المطالب بنجاحه، وعزرت المواهب بسماحه، وغابت بحضور مكارمه المكاره، ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل النابه، وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه، وسر بمكانه واقترن إحسانه بإحسانه، وظهرت فى وجهه به الطلاقة، وفى قلبه العلاقة، وروى رأيه برى رأيه، وتلقن آيات النصر من نص آية، وانتعش عثارى بمقدمه، وانتقش حظ فخارى بكرمه، وحلى عطلى، وحيا أملى، وقوى عملى، ووضح منهاج مناى، وصح مزاج غناى، ونبه قدرى، ونوه بذكرى، وسعى فى رفع رتبتى وزيادة راتبى، وسن غربى وأسنى غاربى، وأقرنى وقربنى، واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان استكتبنى، فعشت ونعشت، وفرشت بساط الغنى فرشت، ولولا أننى قويت به لأقويت، ولولا إنه أولانى عارفته لما عرفت ولا توليت، فأنا شاكر نعمة عمرى، وعامر كرمه بشكرى.

ذكر جماعة من المستشهدين فى هذه السنة

استشهد فى عكاء سبعة من الأمراء كل منهم سبع، ما فى لقائه للقرن طمع، ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص، ومن ذوى الاستخلاص، وكان هذا سوار فى كل حرب مساوراً، ولكل هول مباشراً، وبكل بوس عبوس باشراً، فجاءه سهم عاثر، فإذا هو إلى الجنة سائر، وكذلك عدة من أمراء الأكراد كانوا من الآساد، ففازوا بحظ الاستشهاد، وخرج أسطولنا فى هذه السنة بشوانيه المعجبة المحسنة ليكبس شوانى الفرنج فى مواضع الربط، وإحراقها بقوارير النفط، فخرجوا إلى شوانينا بشوانيهم ولقوا عواديها بعواديهم، وظفرت أساطيلنا وطالت، ووصلت إليها وصالت، ونالت من الظفر ما نالت، وأحرقت للكفر شوانى برجالها، وغرّقنها بأبطالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه أمير مبارز كالأسد الخادر لا يصحر إلا للفريسة ولا يبرز، وهو يعرف بجمال الدين محمد بن أرككز، فشين الشينى وشأنه، وما أعانته أعوانه، وامتلأت بالأعطاب أعطانه، واضطربت للإنكار أركانه، واضطرمت بأهل النار نيرانه فتواقع من فيه إلى الماء واحترزوا من البلاء بالبلاء، ووقف الأمير على قدم جلده يجالد ويجد ويجاهد وقد أثقله بلبس البسالة الحديد، وخفت به العزم الشديد السديد، وقد دعاه إلى أمنية المنية الذكر الحميد والأجر العتيد، فما ارتاع للروع، ولا استطاع الانقياد بالطوع، ولا مكن العدو من مكانه، وأخذ مع الشانىء شنآنه، ولولا أن ملاحيه جبنوا وفروا ومناصحيه خذلوه وما قروا، لجنى بسيفه ثمر النجاة لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة، فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع، وسدوا عليه سبل البصر والسمع، وقالوا: خذ منا الأمان واستأسر، وهو الأمر عليك ولا تعسر ويسر، فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم، وأنت فى عين الهلاك إن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم. فقال: ما أضع يدى إلا فى يد مقدمكم الكبير، ولا يخاطر الخطير إلا مع الخطير. فسموا له كنداً أرضاه، وأراد أن يشركه فيما الله قضاه، فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه، وقوى عليه وما فارقه، ووقع فى البحر وغرقا، وترافقا فى الحمام واتفقا، وعلى طريقى الجنة والنار افترقا، فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم، وصلى الكند الكنود بنار الجحيم.

واستشهد أيضاً فى ذلك اليوم الأمير نصير الحميدى جرح فمضى حميداً، وشهد مقامه فى الجنة شهيداً، وسعى دهره حتى قضى سعيداً. ولم تخل وقائع هذه

السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر، وسعداء المعشر، وكرماء المحشر، وندماء الكوثر، وحلفاء المفخر، واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى ابن قريش الكاتب، وكان صدراً تتجمل به المراتب، جريًا جارى القلم، بليغًا بالغ الحكم، مهيبًا يخشى، مرهوبًا لا يغشى، وهو فى أهبة من المهابة، وكتيبة من الكتابة، صوبه فى الصواب منتجع، وخطابه فى الخطب مستمع، ولرأيه رى وريًا، وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية دينًا ودنيا. ولم يكن له فى الكفاية كفء ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء. وكان رجل دمشقى بنابلس له ملك بدمشق قد تركه ورغب فى ابتياعه القاضى المرتضى ليملكه، فتقاضى قاضى نابلس مراراً بإحضاره. فلما حضر رغبه فى البيع على إيثاره بأضعاف الثمن ونقد ديناره، فانفصلا على التراضى ونجح سعى القاضى للقاضى. وبكر البائع إلى سلام المشترى، ووثب وثوب المجترى، وطعنه بمديته، وهو آمن فى خيمته، وفتك به فتك اللعين أبى لؤلؤة بالفاروق، وخرج من الخيمة كالسهم فى المروق، فلقى قاضى نابلس فقتله، ومضى يسلك سبله فأدركه الناس وقتلوه، وكاد يفلت لو لم يعاجلوه، ففجع المنصب بمصابه وناب عنه أخوه مع نوابه.

* * *

دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله، وعقد البرد لم يقرب محل حله، وللغيث عيث، ولزور الربيع ريث، وللسحب سح، وللضح شح، ولعين الشمس غض، ولوجه الغيم ومض، ولأيدى العارض بسط وقبض، ولنواظر البرق تنبه وغمض، ولنواجذ البرد كشر وعض، ولفص الفصل ختم ونفض، وكل صاد فى بحر كانون كنون، وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون، وللأوحال أحوال، وللأهواء أهوال، وللشمال شمول. وما للقبول قبول، وللجنوب ذنوب، وللدبور فى إدبارها وإقبالها هبوب، وللصبا صبابات وصُبابات، وللندى الندى جنايات وسرايات، وللجو الجوى آيات ونكايات، وللغمائم غماغم، ولهام الربا من هامى الرباب عمائم، وللنكباء نكبات، ولشبا شباط شبات، والرواعد رواعف، والهواتن هواتف، وللأرواح رواح وغدوّ، وحركة وهدو، ومحبة وسلو، ونزول وعلو، ونصفة وعتو، وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا، وخبايا المروج النابتة فى زوايا الثلوج النازلة خفايا، والعواصف القواصف عواص غير قواص، والعارض عارض للحب فى العراص عراص، والقوارس قوارص، والخوالس خوالص، والبحر فى هيجانه، والغيم فى هطلانه، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم، والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا، لتجهيز البدل فى المراكب إلى عكا، والسفن تدخل إليها بالأزواد، وتعود وترجع إليها بالأجناد، ويحرص ويحرض، ويرسل إلى السلطان ويستنهض، والسلطان يفاوض النواب فى ذلك وإليهم يفوِّض، وفى كل يوم يعرض الرجال، وينفق فيهم الأموال، والأمر مستمر والقرار مستقر، واليزكية زكية، وسنتهم فى المناوبة سنية، ولوافح عزماتهم ذاكية ونوافح مكرماتهم ذكية، والمماليك الخواص، ومن خصهم وعمهم الاستخلاص، يغادون القتال ويراوحونه، ويكافئون العدو ويكافحونه ويجارونه ويجارحونه، ويبرحون به ولا يبارحونه، والعدو على عكاء حاشد، ولضالة ضلاله ناشد، يحتمون ويحمون ويرامون ويرمون، ويذبون ويشبون، ويخبون إلى الكفرة بسوط العذاب ويصبون، وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء، واستقبلوا النعمة فى البلاء والسعادة فى المشقة التى تعدها الأشقياء من الشقاء، إن وجدوا غرة اهتبلوها، أو استوعروا كرة استسهلوها، أو صادفوا ملمة صدفوها، أو لقوا غمة كشفوها، أو صرفوا أوجههم إلى نائبة صرفوها.

* * *

ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

فى يوم الأربعاء تاسع المحرم سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأى المحكم، وفى ثالث صفر عزم من بقى من أصحاب الأطراف السفر. فإن السلطان رخص لهم فى ذلك فانتهجوا فى عودهم إلى بلادهم المسالك، وأقام السلطان فى أصحابه، وخواصه ملازمى بابه، وملابسى جنابه، ورجاله رجائه، وخلص أوليائه، ومقربى أمرائه.

وفى هذا اليوم رحل الملك المظفر تقى الدين ليتسلم ما فى شرقى الفرات من البلاد التى كانت مع مظفر الدين مضافة إلى ميافارقين، فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين، وشرط معه أن يحافظ على عهد صاحبى آمد وماردين، والبلاد المظفرية كانت قد بقيت إلى هذه الغاية مع كثرة الطالبين لتلك الولاية مضنونًا بها على الخطاب غير مسموح بشىء منها للطلاب. فإنه ما رامها من الملوك أخى السلطان وأولاده إلا من يشرط الفسحة له فى استضافة ديار بكر إلى بلاده، ويقال له لا سبيل إلى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا إزالة يد، فإن أرباب البلاد أكثرهم لنا معاهد، وعلى ودنا معاقد، وفى شغلنا مساعد، فأما من هو عنا متقاعد ومنا متباعد فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته، وهو منا فى حصر مخافاته وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا فى قمعه متحقق، فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد، من يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأى الراشد. فقال تقى الدين: أنا لى فى ذلك الجانب ميافارقين فإذا أخذت حران وسميساط والرها أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهى، وبلغت المنتهى، وأنا أدخل على الشرط وعنه لا أخرج، أجمع العساكر وإلى نصركم أعرج، وآتيكم بعد شهر بأوفى عسكر، وأكرم معشر، من لابسى سنور، وملابسى مورد فى الروع ومصدر، وما زال يستسعف السلطان عمه ويسترهف فى تخصيصه بتلك الولاية عزمه، ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل، حتى أخذ دستوره واستكتب منشوره، وسار على أنه يسرع إيابه، ويحكم فى العود أسبابه، وإنما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها، ويرسم ترتيب نوابه فيها، ثم يطلع علينا طلوع السحاب ويأتى بالأتى العباب، ويعرض عساكر لا تدخل فى الحساب، وسارع إلى الرحيل وسار بعدما استشار ولله استخار.

وفى يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد، الجواد الماجد، أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، وهو الجرى الذى إذا جارى أضرابه من الملوك فى حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه، ومضمون الكتاب إنه خرج فى آخر المحرم على جشير

العدو بطرابلس واستقاه، ولم يطق الكفار لحاقه، واقتطع لخاصة منه أربعمائة رأس تلف منها فى الطريق أربعون غير ما كان أصحابه منها يقتطعون، وإنه غنم أيضاً أبقاراً وآب قاراً، وسار بالغنيمة ساراً، وأهدى لى من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية، وقال رسوله لما أبصرها واستحسنها، قال: تصلح للعماد فإنه إذا ركبها زينها.

وفى ليلة هذا اليوم، وهو السبت، كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت، وكان فيها من الفرنج خلق، فغرق فى بحر الأسر من لم يسر إليه فى البحر غرق، وفيهم امرأتان سبيتا وما هديتا بل أهديتا، وشاهدت الأسارى قدام السلطان وقد أحضروا فردهم على الذين أسروا.

وفى أول ليلة من شهر ربيع الأول خرج أصحابنا من البلد على العدو بالنائب الأعضل والناب الأعصل، وكبسوه فى مخيمه، وخيموا عليه فى مجتمعه، فما انتبهوا لهم حتى أسروا من الفرنج وقتلوا جميعاً، وأوسعوهم إلى أن ضويقوا قمعاً، وعادوا سالمين غانمين، كاسرين كاسبين ومعهم اثنا عشرة امرأة فى السبى وعرف الله لهم حق ذلك السعى.

وفى الأحد ثالث هذا الشهر، شهر سلاح الحرب أهل الكفر، وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك، وعظمت الوقعة، وفخمت الروعة، وصدمت الصدعة، واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعة، وهلك منهم عالم كثير، وقتل منهم مقدم معروف كبير، ولم يفقد منا إلا خادم رومى صغير عثر به فى الحملة فرسه فلم ينتعش، واستشهد ليعيش فى الآخرة من فى الدنيا مات فى سبيل الله ولم يعش، وهذا الخصى كان فحلاً من الفحول ناهضاً على الكفر للإسلام بحمل الذحول، وانتهى إلينا أن الفرنج على عزم الخروج ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج، فلا مرعى لدوابهم ولا علف، وإن لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف. فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن يذهب ويقصد الساحل ويكمن بعسكره وراء التل الذى كانت فيه قديماً منزلته، وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته، ومضى السلطان بنفسه فى خواصه وأجناده وأقاربه وأولاده، فكمن وراء تلك العياضية فى العصبة المنصورة الناصرية، وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الأول مستظهراً بصحبة ولده الملك الأفضل، ومعه أيضاً أولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب، فعرف العدو الخبر فما أقدم على الخروج ولا جسر، فرضت للسلطان على التل خيمة حمراء، فبات فيها وحوله الملوك والأمراء. ووصل إليه من بيروت خمسة وأربعون أسيراً من الفرنج أخذوا بالمراكب فى البحر من اللج، وفيهم شيخ همٌّ هرم، عمره فى الكفر منصرم، وقد طعن فى السن ووهن

كالشن، وانحنى كالحنية، وما أمن من المنية، وتحاماه الحمام، وعامت فى بحر لياليه وأيامه الأعوام، وهو ممسوخ الحلية ممسوح اللحية، قد بلى مما بلى، وقلى من طول ما لقى، وسئم حياته وسئم، وعدم لذاته ولذاته وما عدم، وكم جاوز قرنًا وعبره إلى قرن، وبارز قرنًا ونازله بعد قرن، حتى لم يبق منه إلا إهابه، ولم يرقب منه إلا ذهابه، فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعة واختياره الضيق على الأرجاء الواسعة، فسأله كم بينه وبين وطنه، ولأى سبب حركته من سكنه، فقال: أما بلدى فعلى مسافة شهور وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور، فرق له ومنَّ عليه بالإطلاق، وأخرجه من ذل الرق إلى عز العتاق، ورده إلى الفرنج راكبًا على فرس، ولم ير قتله ولا أسره حيث رأى نفسًا مرتهنة بنفس، وسأله خدام أولاده الصغار أن يأذن لهم فى تجريب سيوفهم بجرح الأسارى الكفار، فلم يأذن لهم فى ذلك وأباه، فأرضى كل منهم بامتثال الأمر أباه، فقيل له: لأى سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم، فقال: لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم، فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم.

* * *

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الإسلام

أول من قدم من العساكر الإسلامية علم الدين سليمان بن جندر، وكان بحلب المقدم المؤمر، وهو شيخ له رأى وتجربة، ومنزلة كبيرة ومرتبة، ومعه حصنا عزاز وبغراس، وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس، فقدم فى شهر ربيع الأول فى عسكره، وأبيضه وأسمره وبيضه ومغفره، وجنى جنده وسنى سنوره، وجلبه ولجبه، وزمره وعصبه، وبيارقه ويلبه، وبوارقه وسحبه. وقدم فى ذلك التاريخ بقدومه الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد استصحب معه مماليكه الترك، وقد نوى بالمشركين الفتك ولسترهم الهتك ولدمائهم السفك، فوصل بقواطعه وقواضبه، وصوافنه وسلاهبه، وطلائعه ومقانبه، وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه. وقد زين ليل القساطل من أسنة العوامل بكواكبه وأظمأ جواده ليرد به دماء أهل الكفر فإنه يعدها من مشاربه، فعن ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك القضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء، وجرى ذلك الوادى مع الأجناد والأمراء بسيل خيل ترد دأماء الدماء، وخرق ذلك الخرق أرعن فى حافاته الخرق، ومن عاداته بعداته الحرق، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق، ومن علاقته عند الظماء أن لا يرويه إلا العلق، ومن صبابته بالسير إلى عناق الأعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق، ومن شيمته عوض التغلق بالعبير التضمخ بالنجيع، ومن ديمته وبل

النبل من الأحداق والنواظر فى نواضر حدائق الربيع، ومن صنعته أسماء حنين الحنية بسهمه، وإسماع أنين المنية لخصمه، وجلونا فى ذلك اليوم فوارس لا عرائس، وقوانس لا عوانس، وقدم بدر الدين مودود والى دمشق بعد ذلك فى سابع عشر شهر ربيع الآخر، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر.

* * *

ذكر وصول ملك أفرنسيس لنجدة الفرنج على عكاء واسمه فليب

وفى ثانى عشر ربيع الأول وصل ملك أفرنسيس إلى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت، وكان وصوله فى بطس ست حملت من الفرنج كل ذى شؤم ومقت، وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله، ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجرى على قوله وإنه إذا جاء حكم وأحكم، ونقض وأبرم، وقدم ما قدم به من المال وأقدم، ونحن منه على مواعدة، فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة، ووجدة عن الفقر مباعدة. فقلنا لهم: رب صلف تحت راعدة وما هذه الأراجيف منكم بواحدة. فلما وصل فى العدد القليل والنظر الكليل أعجبتنا قلته وتشابهت عندنا عزته وذلته، وقلنا: ما يكاد تصل صولته أو تدوم دولته.

* * *

نــــــادرة

وكان مع هذا الملك باز أشهب، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله، وأفلت من يده وطار وحشا حشاه الباز الذى نار النار، ووقع على سور عكا وحزن الملك يوم سروره بفراقه وأبكى، واستجابه فما استجاب، وأبى وما آب، وثبت وما ثاب، فبصر به أصحابنا فأخذوه وإلى السلطان أنفذوه، فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز وأظهر به احتفالاً وعده للظفر والمنحة فالاً، وبذل فيه الملك ألف دينار فما أجيب، ولا وهب له ولا هيب، وما بيع ولا عيب.

* * *

خبر نادرة فى غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج إلينا تسلموا براكيس يغزون فيها، ويجرون بجواريها، وينهضون بسواريها ورواسيها، وينهشون بعقاربها وأفاعيها، ووصلوا إلى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم وقد جمع القس فى كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم، فصلوا معهم فيها صلاتهم ثم أغلقوا أبواب الكنيسة عليهم ليأمنوا إفلاتهم، وأسروهم بأسرهم وسبوهم، وبغتوهم من البلاء بما أتوهم به وبلوهم، وكنسوا كل ما

كان فى الكنيسة من الأعلاق النفيسة، وقسوا على قسيسهم، وعادوا بها وبهم إلى براكيسهم، ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما أخذوه من البيعة ومن الجملة سبع وعشرون نسوة سبايا وصبيان وصبايا فباعوها رخصًا واقتسموها خرصًا وزادوا بما نالوه حرصًا واستغنوا بما استغنموه وأثروا بما أثاروه وأثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم. وقيل: حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم.

وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية فاقتطعوا قطيعًا من غنم الفرنج غنيمة وخالطوهم فى خيامهم وأمطروهم من وبل النبل ديمه، وركبوا بأسرهم، بخيلهم ورجلهم فى إثرهم، فلم يظفروا بطائل ولم يرجعوا بحاصل.

* * *

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت إلى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر أن ملك الانكتير وصل إلى جزيرة قبرس فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر فى الجمع الوافر، حاملاً جموعًا كالسيل الجارف فى البحر الزخر. وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشوان على قصد الجريرة، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها وغنم أموالها وصدم رجالها، فلما وصل أرهف حد عزمه، وأقضى فيض غيظه إلى غيض حلمه، وهو مغضب غير مغض، مريض من ألم الحقد ما له سوى التشفى شاف مرض. فلبث مفكرًا ومكث متحيرًا وتروى متخيرًا، فرأى أن قبرس فى يده، فاستن من جده فى جدده، وناشب القتال، وواظب النزال، وقارع بالنصال النصال، وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق، واعتناق الغلاظ مع الرقاق، ونفذ يطلب من الفرنج على عكاء نجدة، ليجد شدة ويوجد شدة، فنفذوا له جفرى أخا الملك العتيق فى جموع مترافقة الرفيق، وامتدت الحروب واشتدت الكروب، ورأى أن فريضته تعول، وأن حالته تحول، وأن شغله يطول، واتفق أيضًا أنه كان رام الروم من الفرنج الفرج، وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج، فتراسلوا فى الصلح وخرجوا من ليل الحرب المظلم فى سنى السلم إلى أسفار الصبح، واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير، واثقًا بما تم من التقريب والتقرير، وحمل له هدايا، وتحفًا سنايا ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد، فأخذه فى مأمنه، وأبرز له مكره من مكمنه، وغله ثم غله، وشده وما حله، وجازاه لما أعزه بأن أذله، وغادره بغدره فى القد والقيد، وما بطشت يد عادمة إلا يد كيد الكيد، واستولى بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة وغرق فى جمات أمواله الغزيرة، وسيأتى ذكر وروده وما تم به لأحزاب الشيطان وجنوده.

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الأحد وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة

وبالنجح المتجددة وهو أن أصحابنا أخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية فى البحر من مراكب الانكتير خمسة وطراده، ولم تكن لولا إباء رجالهم للضيم معتادة، وبحزام القهر مقتاده، وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال، وذخائر أخاير من عدة ومال، وأثقال وأنفال، وأخشاب وآلات وأحمال وأحوال، وفى الطرادة أربعون رأسًا من الخيل الجياد قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد، فحيزت وحيزوا، وأجيزت إلى بيروت وأجيزوا. فأما السبايا فقد أخرجن على البيع بالنقود والنسايا، وأما الإسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء.

وفى يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد، بالجد والجلد، والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد، والبيض واليلب، والبيض والقضب، والسمر السلب، واللجب والجلب، والصياح والضجيج، والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والأمر المريج، والقصد بالقصد، والزغف والزرد، والحديد والعديد، والقريب والبعيد، والأتباع والعبيد، والأوباش والأوشاب، والكلاب والذئاب، والسباع والضباع، والضوارى الجياع، والأساود والأسود، والزرق والحمر والسود، ودبوا وذبوا، وشبوا وسبوا، وصابوا وصبوا، ونابوا ونبوا، وعبوا وعبوا، وجابوا وجبوا، وزحموا ورجموا، وأقدموا وتقدموا، وقدموا سبعة مجانيق وقربوها، ونصبوا فيها ونصبوها، فعلت كأنها قلاع، وارتفعت على التلاع كأنها تلاع، وهى فى الجو مترامية، وبالجو رامية، وفى السماء سامية، ولأهل النار الحامية حامية، مرتفعة على مرافعها، مقتلعة بمقالعها، منقضة أحجارها لانقضاض الجدار، منفضة أسواؤها الانفضاض الأسوار، حاصرة حاصبه، عاملة ناصبة، قائمة قاعدة، بارقة راعدة، صادمة صادعة، صارمة صارعة، حبال من الجبال أجنتها، وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها، ومواضع فى حجورها الأحجار، ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار، حوامل على الطلق، صوائل بالفلق على الخلق، مطايا للمنايا، روايا لخباياها البلايا، فى كفاتها آفاتها، وفى حركاتها إدراكاتها، وللتعذيب عذباتها، وللترهيب جذباتها، وما أعظم جنايات جنادلها، وأظلم غوايات غوائلها، وهى الروائم الروامى، والحوائم الحوامى، والهودام بالهوادى، والصوادم الصوادى، ودواعى العوادى، ونواعى النوادى، والنواعب بالنوى، والجوائب بالجوى، والصوائب بالمصائب، والنوائب بالشوائب، إذا جذبت جذت، وإذا قذفت أقذت، وإذا طوحت طرحت، وإذا حلّقت حلقت، وإذا أطارت أبارت، وإذا ألقت ألقمت، فشق على أصحابنا بالبلد شقاقها، وكادت تفتح إليه الطرق طوارقها وطرّاقها، فاستطرخوا بنا واستنهضوا، وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا، واستنفروا، واستنصروا، واستعدوا، واستدعوا، فأصبح السلطان راكبًا فى

العساكر، طالبًا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر، وسير من كشف هل للعدو كمين، أو كيد دفين، ثم وقفت العساكر عنه ومر إلى تل الفضول بالقرب، وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب، ونكايتها فى الضر والضرب، وعرف أماكن القتال، ومكامن الرجال، وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد أطل وأظل، ذل جمعهم وكل، وترك الزحف وأنفلّ، وإذا عاد عادوا وعدوا، وأناروا فى الحرب وأسدوا.

* * *

قصة الرضيع

كان لصوصنا فى الليل استلبوا طفلاً من يد أمه، وفطموه رضيعًا له ثلاثة أشهر فى غير أوان فطمه، واستحلوا بحكم الجهاد فى جنح الظلام جناح ظلمه، وفجعوها بواحدها وساعدها، وكدروا صفو مواردها، وقطعوا عنها فلذة كبدها، وأسعروا عليها جذوة كمدها، وحرموه در لبنها فدر دمعها، وأبعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها، فخرجت والهة، وللحياة كارهة، وللخد خادشه، وللوجه خامشه، معولة مولولة، مذهلة مشتعلة، قد شدهت ودهشت، وتاهت واستوحشت، قد سلب عقلها، مذ سلب طفلها، وغاب ذهنها، مذ غاب ابنها، وتكرر بالحنين والأنين ترجيعها، وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها، وهى نائحة فى كل ناحية نادية فى كل ناد نادية لكل فؤاد عادية فى كل واد، فلم يشعر السلطان إلا بامرأة بالباب واقفة، وبالنحيب هاتفة، وللدموع حادرة بتصاعد أنفاسها، ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها، قارضة صدرها بتقطيعها، ضارعة لفقد رضيعها، معولة على الطفل معولة على اللطف، متنكرة من النكر متعرفة إلى العرف، فأحضرها السلطان وهى باكية، ونار اكتئابها ذاكية، تتحدر عبراتها، ووتصعد زفراتها، وتتلهب حسراتها، تبكى ببكائها، وتشتكى من دائها، وتنشد ضالتها، وتطلب مهجتها، وتسأل عن حشاشتها، وتشتعل نار قلبها على فراشتها، فلما شاهدها السلطان حريبة حزينة، مسكينة مستكينة، متجننة متحننة مولعة مولهة، موجعة متوهة، سمع شكواها وفهمها، ورثى لبلواها ورحمها، ورق بلطفه للطفل الرقيق وسلك بفضله طريق التوفيق، وطلب الرضيع، فقيل له إنه بيع وأضيع، فإن آخذيه باعوه بثمن بخس، ولم يعرضوه فى سوق بز ولا سوق نخس، فما زال يبعث ويبحث عنه، ويلوم باذله كيف لم يصنه، حتى جيء به فى قماطه، وقد كاد يلف فى عباءة اعتباطه، فلما أبصرت واحدها، ضمت عليه ساعدها، ودعت وعدت، وشدت يدها به وشَدَت، فأعادها، وبنوا له أفادها، وبرّد حرها برد روحها، وأسا ما أساء الأسى من جروحها وقروحها، وروحها بروحها، وفرع دوحها، وأغناها بغنائها للشكر عن نوحها، وظهر

سر سرورها عليها ببؤحها، وشيع معها من أوصلها إلى موضعها، وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها، وما رد الطفل إلا بعدما اشتراه من مشتريه بثمن يرضيه، وهذه نادرة من جملة أياديه.

* * *

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

لما أصر الفرنج على مضايقة عكاء فى كل يوم وخطبوا متاع متاعبهم فى ابتياعها بكل سوم، وواظبوا ركوب بحرب الحرب بكل خوض وعوم، وداروا حول حمى دارها بكل حوم، ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر إليهم فى كل بكرة وعشى، وإرعاب القوم بكل حد مرهوب وجد مخشىّ، وكانت المسافة نائية، والآفة دانية، انتقل السلطان إلى تل العياضية، بعساكره وأثقاله بالكلية، بالعزائم والصرائم الماضية المضية، الراضية المرضية، ولم يكن انتقاله دفعة واحدة بل مهد له قاعدة، فإن يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغه أن القوم قد عاودوا العوادى، ورفعوا من ضلالتهم الهوادى، وضايقوا البلد أشد مضايقة، وعالقوه أجد معالقة، فأمر الجاووش حتى نادى، وباكر الغدو بالعساكر وغادى، ووصل بالفارس والراجل إلى الخروبة وقوى اليزك، وألزم المقدمين والأمراء بحفظ نوبهم الدرك، وقدم جماعة من الخيل لعل العدو إذا عاين قلتها خرج بالكثرة وتورط فى العثرة، فلم يشغل بها بالاً ولم يلفت إليها جناناً، بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عناناً واشتد على البلد زحفه، وامتد عسفه، فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار وأحجم.

فلما جاء الظهر ورجع العدو إلى مجثمه، والسلطان على قصد العدو إلى مخيمه، ولما وصل إلى تل الخروبة ونزل فى خيمة لطيفة لأجله مضروبة، وصل من اليزك من أخبره أن العدو لما علم أنه قد انصرف عاد إلى أشد ما كان فيه وزحف، وإنه قد أرعب وأرعف، وأرهق وأرهف، وألهى وألهف، وأرهب وأرهج، وأعجز وأزعج، وثار وأثار، وألحم الملحمة بناره وأنار، فبعث السلطان هذا الخبر على أن بعث إلى العساكر بالمخيم فأعادها، واستنهض إلى الفريسة آسادها، وأجرى فى حلبة الحمية جيادها، ودعاها إلى طعن يبرح بالذوابل، وضرب يرنح أعطاف المناصل، وأمرها من الحرب بأمرّها، وأدارها من مرى أخلاف الدم بأدرّها.

ثم سار آخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى إلى تل العياضية قبالة العدو، وضرب خيمته بأعلاه ظاهر العلو، والعدو بالحصر والزحف مصر مضر، وعلى عنائه وعناده مستمر، والسلطان فى كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم، ويراوحهم ويغاديهم، ويفاتحهم ويباديهم، بضرب كما اشترطته حدود الظبا، وطعن كما اقترحته

كعوب القنا، وفتك كما تمنته المنية، ورمى كما حنت إليه الحنية، هذا ومجانيق الكفر على الغى مقيمة، وللرمى مديمة، وبالأحجار متقاطرة، وعلى الأقطار حاجرة، وللجلاميد قارعة، وللصخور بالصخور قالعة. وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا فى هجمه، وأسرعوا إلى طمه، وداموا يرمون به جثث الأموات، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم، ويحملون إليه موتاهم، وأصحابنا فى مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا الفريقين، وافترقوا قسمين ففريق يلى من الخندق ما ألقى فيه، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

* * *

ذكر وصول ملك الانكتير

وفى يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور، أشاع أشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور، ووصل ملك الانكتير، وأظهروا أنه فى الجمع الكثير والجم الغفير، وكانت معه من الشوانى خمس وعشرون قطعة، كل واحدة منها تضاهى تلعة وتوازى قلعة، وأحدث فى القلوب روعة، وأرث فى النفوس لوعة، ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة، وأنفاس الشرار متصاعدة، وألسنة للشعل نضناضة، وأشعة على الجو مفاضة، فكأنما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها، وأوصلت لوصول أولئك الشرار شرارها، وأورت لهم أوارها، وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير الأضواء وهتكت عنها لهتك ستر ظلام ضلالهم الظلماء، فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم، ولما كانوا من أهل النار ببرهانهم، وأتتهم بإتيانهم، وإضافتهم فى مكانهم، وملك الملك بأمره أمرهم، وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم وملأ عين الملاعين، وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين، وحفر للمكايد آباراً، وأثر فى المكر آثاراً، وارث للشر ناراً، وأثار لنصرة النصرانية ثاراً، وتحدث الناس بحادثه وحديثه، وبما تأثرت القلوب به من تأثيره وتأريثه، وارتابوا وارتاعوا، والتاحوا والتاعوا، وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجف، وكاد الباسل يجبن، والباطل يخشن، والحق يلين، والدين يدين والسلطان قوى الجنان، روى الإيمان، صاف يقينه، واف دينه، شاف نصحه، كاف نجحه، مسفر لعين الإسلام صحبه، مسرف فى قلب الكفر جرحه، ماض عزمه، قاض حكمه، مثبت جيشه بثبات جأشه، عامل لمعاده، ونصر الحق فى معاشه، متأن فى تفكره، متأت فى تدبره، متوكل على ربه فى نصرة دينه، متوصل إليه فى تأييده وتمكينه لا تروعه المخافات ولا تجيفه الرائعات، ولا تزعزع الخطوب طود وقاره، ولا تفض النوائب خيم ذماره، ولا يلين للشدائد، ولا يستكين للروائع الرواعد، وكم سكن الإسلام بحركاته، وأخصبت الأيام ببركاته ونام الأنام ليقظاته، وآمنت مصر والشام

بنهضاته، فما راعه ما عرا، وما درأ عزمه لما درى، ولا رد وجهه عما قصده، ولا صدق رأيه عما عليه اعتمد، بل ازداد قوة بصيرة، وازدان بسريره لكشف أسرار الغيب مستنيرة. وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل، ودلف فى الأرض فوهب تربها للقسطل، وأعلم ملك الانكتير إن جمع كفره للتبتير، وإن نشاط سره للتفتير، وإن أسنة أهل التوحيد مولعة من نحور أهل الإشراك بهتك الستير، وركب فى مراكب حلت المنايا الحبا فى كتائبها، لتحتبى أناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها، بخيل تأبى الضيم مثل إبائه وفخر منار النقع ينوب عن لوائه، ووجه كلمع البرق فى ضيائه، وقلب كصدر العضب فى مضائه.

وأقام السلطان على هذه الحالة ساميًا فى مطالع الجلالة، لم ينض سلاحه، ولم يخفض جناحه، ولم يركز رماحه، ولم يردع للروع مراحه.

* * *

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر فى بيروت بطسة وزادها من العدد والآلات بسطة، وأودعها من كل نوع ميرة، وملأها غلة وذخيرة، وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا، من كل من طهر وتزكى، وشكره الإسلام إذ الكفر منه تشكى. فلما توسطت ثبج اللجة وتورطت على نهج المحجة، صادفها ملك الانكتير، بحكم قضاء الله والتقدير، وأحدقت بها شوانيه، وعدتها عواديه، وقاتلتها نصف نهار، وهى لا تذعن لاقتسار، فأكّبت من العدو مراكب، وجبت له غوارب، وأحرقت وأغرقت، وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت، وقتل من الفرنج خلق عليها، وما امتدت يد عدوانهم إليها، فلما يئست من سلامتها وزلت عن استقامتها، وانحلت عرى وثاقها، وانحطت ذرى اعتلائها واعتلاقها، ومالت إلى الاستسلام وجالت على الاصطلام، قال مقدمها: علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل، والشح بالدين أحب إلينا من البذل. فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها، وسعد أهلها، وافترقت وسيجتمع فى دار النعيم شملها. ووصل إلينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى فقلنا الدهر يومان نعمى وبؤسى، وما يزالان على ذلك حتى يزولا، وكانت هذه الوقعة أولى حادثة للوهن محدثة، وللهم مورثة، ولنار الأسى مؤرثة.

* * *

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة قد أظهرت لها فى الشر غائلة، ولها أربع طباق، شدها على الارتباط باق، ولها من الأحام باس ولباس، وهى خشب

ورصاص وحديد ونحاس، وقربوها إلى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس، وفى طباقها سباع ضوار وذئاب طلس، وبلَى البلد منها كل بلية ورُزى بكل رزية، وكانت هذه الدبابة على العجَل ليقربوا بتقريبها أسباب الأجل، فباتت القلوب منها على الوجل، وكاد أصحابنا يطلبون الأمان، وخضع كل أبىّ واستكان، فقارعوا عندها أشد قراع، وماصعوا أجد مصاع، وتوالت عليها من مساعير الرهط، قوارير النفط، وهى تضرب فى حديد بارد، وتضرب عن كل شيطان مارد، وتنبو عن الإحراق وتنبى عن الإخفاق حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب، فأخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم فى الالتهاب، فعوذناها بسورة ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** ﴾ [النجم: ١، ٢] ، فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب، ومن حرّ أنفاسها برد النفوس، وكشف شعاعُها ظلم الكروب، ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبُوس العُبوس، وأنارت نارُها لنا بكل نور، ولهم ببوار قوم بُور، ودبّت شعلها فى أضلاع الدبابة وجنوبها، فأحرقها الله إحراق أهلها بذنوبها، وكما أضاءت الأفاق بنيرانها، أظلمت بدخانها، فجلت لنا بياض النصر فى السواد، فكأنه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد، بل سواد المداد يأتى من أنواره بالأمداد فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة، وأحمت نارها فى حماية الحق حمية حماة الحقيقة، فإنها احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة، فكان تشميتاً لتلك العطسة.

* * *

ذكر وقعات فى هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا فى عكاء عند زحف العدو دق الكؤوس، حتى إذا سمعناه جدنا فى الزحف إلى العدو بالنفائس والنفوس، ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته، ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته، فعلمنا بزحفه، وعملنا فى حتفه، وضرب الكوس السلطانى أصراخًا لصراخ ذلك الكوس، فتمايلت أعطاف ذوى الحمية من حميا العزائم لأمن حميا الكؤوس، وركب السلطان فى كل مشمر للبرد، مضمر للجرد، فضفاض السرد، قضقاض كالأسد الورد، مشتاق إلى الطرق، ملتاح من ماء الوريد إلى الورد، من الترك والأكاديش والعرب والكرد، يهوى إلى الأقران هوى المصلتات إلى الرقاب، ويظمأ إلى إوراء الأسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب، وكل ثمل كأنه نزيف الحميا، يعيد السماء من الأرض بركضة شاحبة المحيا، وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره، وكل طلاع مع النوب لا ينام ثاره، ولا يثبت فى الجفن غراره، وكل منصلت ينير فى ظلام العجاج بنجوم الأسنة، وكل مطرد يعيم السوابح السوابق

فى بحور الأعنة، وكل رام فروج المأزق حتى تفرى بأيدى المذاكى، وكل شاك فى السلاح مشكور فى إشكاء الحق الشاكى، وكل مصمم درعه غير محقبة، وسهامه غير مجعبة، وسيوفه غير مقروبة، وقبابه لمداومة إجراء قبة غير مضروبة.

وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله، وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله، واشتبهت فى النقع ألوان خيله، وامتدت إلى قرار اللقاء أعناق سيله، فكأنما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب، وعد النقع فى وبل النبل من حساب السحاب، وولجت العساكر عليهم فى خيامهم، وحملت ليالى القتام إلى أيامهم، وغلت الصدور بما فيها، حتى وصلوا إلى القدور على أثافيها، وهتكوا وفتكوا، وأدركوا وسفكوا، فتراجع الفرنج واصطفّوا على خنادقهم، ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم، واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون، ويلعون من دمائهم وينهلون، ودخل الظهر وحمى الحر، فافترق الفريقان، وتراجع إلى خيامهم الجمعان.

* * *

وقعة أخرى

وفى يوم الاثنين ثالث والعشرين من الشهر ضايق أهل الكفر البلد على الحصر، وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة، وكانت من أشدها وأجدها كريهة، غير أنه فى هذه النوبة عرضت نبوة وكادت تتم كبوة، فإن الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من عسكرنا داخل خنادقهم، فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبى سوابقهم، فانتشب الحرب، واشتجر الطعن والضرب، وكثرت الجراحات، وكرثت الاجتراحات، واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان تسلمهما رضوان إلى الجنان، وقتل من المشركين جماعة أسرع بهم مالك إلى النيران.

ومن عجائب هذه الوقعة أن رجلاً من مازَندرَانَ من أهل الرفعة، وصل فى تلك الساعة وافداً، واستأذن وقت السلام على السلطان أن يقدم مجاهداً، فحين شهد الوقعة استشهد، فلقى الله بعهده كما عهد.

* * *

وقعة أخرى

وفى يوم (السبت) الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسًا وراجلاً، ورامحًا ونابلاً، وامتدوا من جانب البحر أطلابًا، وتحزبوا فى ذلك الفضاء أحزابًا، وركب السلطان من مجالس عادته، إلى مجال سعادته، موقنًا أن أداء عبادته فى إبارة العدو وإبادته. وتقدمت المقدمة وأقدمت، وجحمت نار إقدامها وما أحجمت، وما

زالت نجوم النصول تنقض، وختوم النحور تنفض، وعيون العيون ترفض، وديون الذحول وحقوق الحقود تقتضى وأبكار الدروع بحدود الذكور تقتض فى شعواء خضرها التباب الغائب، ونكباء لها من الذوابل ذوائب، وبحر تسبح فيه السوابح، وشرب بكأس المنية منها المهج غوابق صوابح، وغبراء أساود نبالها تتواثب عن عقارب القسى، وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب فى أراقم السمهرى، وذباب ظباها تطعن فى مسامع الذئاب وعقبان راياتها تحلق إلى مطالع السحاب، وعذران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب، وغران سوابقها تغيض فى غطامط الغياهب، وأرواح أغمادها البارية عن الأجسام برية، وقلوب أسادها الضارية على الردى جرية، حتى دخل على ليل النقع الليل، وجرى من ديمة الدم السيل، والتفت لما التفت بالخيل الخيل، وأفرج المأزق عن قتلى جرى عليها من السوافى الذيل، واستشهد من المسلمين بدوى وكردى، ولكم من وقع من المشركين رد ردى، له فى الهاوية هوى، وعليها من زفير جهنم دوى، وأسر من العدو فارس بفرسه، ولأمته وقونسه وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى، وقد عم من الشجب ما شجا.

* * *

وقعة أخرى

وأصبح العدو يوم الأحد التاسع والعشرين، وقد أخرج من جانب النهر راحلاً فى عدد رمل يبرين، بقواطع يبرين، وقواضب يفرين، وطالع غروب فى الطلى يغربن وبالردى يغرين، وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين، فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء. ويوافقه القضاء فى المضاء وكل معتقل للردينى أخف إلى الوغى من سنانه، وكل مشتمل للمشرفى خضيب الغرار ريانه، وكل ملتئم بعثير حصانه، معتنق لعطف مرانه، وكل صبح كالصباح نضارة وجهه فى شحوبه مدفونة، وكل قارح على قارح شرارة عزمه فى سكونه مكنونة، وامتد راجلنا أمامهم، وأثبتوا قدامهم أقدامهم، وطال القتال، وطارت النبال، وحاضت الذكور، وفاض التامور، وأعمى العثير وعم العثور، وأسروا منا واحداً فأحرقوه فصحب نوره بين يديه إلى دار القرار، وأسرنا منهم واحداً فأحرقناه فشبثت به تلك النار إلى النار، وشاهد النارين فى حالة واحدة تشتعلان، والصفان واقفان يقتتلان.

وفى يوم السبت الماضى هرب خادمان ذاكر أنهما لأخت ملك الانكتير وإنهما كانا يكتمان إيمانهما فى سر الضمير، وأخبرا أنها زوجة صاحب صقلية. فلما هلك صادقت فى الاجتياز بها أخاها هذا الملك، فألزمها بأن تتبعه واستصحبها معه، وقدروا ما النجاة من تلك الفاجرة لنجاة الآخر، فأكرم السلطان وفادتهما وأجزل بالإحسان أفادتهما.

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب فى ذلك

وفى يوم الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس أنه هرب إلى صور، وإنه كشف للجماعة المستورة ونفذوا وراءه قسوساً، وألقوا عليه من الضلاة فى الاستمالة دروساً فنبا قبوله، وانقطع وصوله، وكان سبب نفاره، وموجب استشعاره، إن هنفرى كانت زوجته ابنة الملك الذى هلك والقدس فى يده، وعادتهم أنه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده، وسواء فى هذا الميراث بين الذكور والإناث، فيكون الملك بعد الابن إذا لم يخلف ابناً للكبرى فإذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى وكان الملك العتيق كى أخذ الملك بسبب زوجته الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليه يد الهلكة وبقيت هذه زوجة هنفرى، فأصبح المركيس عليه يجترى، ويقول لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجة، ولا بد لى من تقويم هذا الأمر حتى لا أبقى فيه عوجه. وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروساً، وأحضر لنكاحها قسوساً، وقيل: إنها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل، فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل، وادعى المركيس إن الملك انتقل بها إليه، وإن أمر الفرنج بشرعهم فى يديه. فلما جاء ملك الانكتير تظلم إليه هنفرى والملك العتيق فانفتح بذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق فاستشعر المركيس منه وما قر وأخذ معه الملكة وفر.

* * *

ذكر من وصل فى هذا التاريخ من العساكر الإسلامية

وفى يوم الاثنين انسلاخ جمادى الأولى قدم عسكر سنجار، وقد سد بسواد عديدة النهار، وأفاض ببياض حديدة الأنوار، ومقدمه مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد، والسهم السديد، والألمعى اللوذعى، والكميش الكمى، والنقاب النقى، والعف التقى، وهو ذو همة فى الغزو عالية، وعزمه بالمضاء المضىء حالية، وقيمة فى سوم السلطان لقربه غالية. وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية. وأكرمه السلطان فى استقباله بنفسه وإقباله عليه بأنسه، وسار بعسكره إلى أن وقف تجاه العدو من جانب البحر مما يلى الذيب، وقد أحسن فى عرضه التدبير والترتيب، ثم عاد فى خدمة السلطان مكرماً إلى جانبه، مقدماً على صحبه. فأنزل فى خيمته وخصه بمواكلته، وتقدم إليه بالنزول فى ميسرته وفى (يوم الأربعاء) ثانى جمادى الآخرة وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة مثل علم الدين كرجى الذى يسرع إلى لقاء أقرانه ولا يرجى، وكسيف الدين سنقر الدووى ذى الزند الورى والسيف الروى وأمثالهما من المماليك الناصرية والمساعير الأسدية، أسد العرين الشم العرانين الغر الميامين.

وفى (عصر هذا اليوم) وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل إلى الخروبة ونزل بها ليصل بكرة إلى المعسكر بالعساكر فى أحسن أهبها، فركب السلطان إليه ولقيه وعاد وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد، وأصبح يوم الخميس فى خميسه سائراً بآساده فى عريسه، مقبلاً بكل فارس من جيشه فارس من خيسه، فى غلب كأنهم أجادل والجياد مراقبها وخيل كأنها الظلماء والترائك كواكبها، ونقع كأنه الآتى والمقربات قواربه، ومجر تصادم مناكب الآكام مناكبه، وتملأ الوهاد طوالعه وغواربه، عاريات غروبه عاليات غواربه، ثقال مذاكيه بأعباء عواليه، كأنمانهضت لإذكاء نار الهياج حواطبه، وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه، وتلقاه من أولاد السلطان الملك المعز فتح الدين إسحق، وهو من جملتهم البحر بل الغيداق، والملك المؤيد نجم الدين مسعود، وهو كاسمه مسعود مجدود، وتلقاه الأمراء والعظماء والخواص والأولياء، وساق على تعبيته وإجابته دعوة الإسلام وتلبيته إلى جانب البحر، ليرعب أهل الكفر وعرض وتعرض وعلم العدو بأنه إليه نهض واستنهض. ولما انفصل السلطان أخذه معه إلى خيمته وأحضر له أسباب تكرمته، وآنسه بانبساطه، ونظمه مع أصحابه فى سمط سماطه، وأجلسه إلى جنبه، وعقد له حباحبه، وخصه بخلع وثياب، وحصن عراب، وما يليق به من كل باب، وانصرف عنه ونزل على ميمنته، نزوله عام أول فى منزلته.

(وفى يوم الجمعة) رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتيبة ثانية، صارفة أعنة خيلها إلى الجهاد ثانية، ساطية على الكفر ببأسها جانية، وقد علمت الوقائع أنها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الأخضر جانية، فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانيها، وأبرزت لعينه قناها وقواضيها، وأرنت برسل المنية إليها قسيها، ثم جاءت وألقت بمضاربها عصيها، وكانت العساكر تتوارد، والجموع تتوافد.

* * *

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه، وأسْلتْ القلوب عنه، والمجانيق قد رمت شرافاته وسمت إليها بآفاته، وأعادت جوانبه مهدومة، ونواجزه مهتومة، وانحطت عنه بمقدار قامة، فلم يتمكن أحد من عليه من إقامة، وضعف البلد والجلد، وخلا بالهم عليه الخلد، وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم، ووكلوا بها فيالقهم، ونحن لا نألوا فى الجهاد جهداً ولا نترك جداً، ولا نجد من مضايقتهم بكل نوع بداً، وجاء الخبر أن ملك الانكتير قد أشفى من المرض، وأشرف على المضض، حتى حلق رأسه حلق لحيته، واستلقى لانتظار منيته، فتثبط الفرنج وتثبتوا، وسكنوا وسكتوا، إلى

أن يركب فيركبوا، ويثب فيثبوا، وكان فى هذه الفترة للبلد بقاء رمق، وزوال فرق، وانتعاش عثرة، وانجبار كسره، وانطفاء جمره، وانسداد ثغره.

* * *

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل
فى شكر وصول ولده ووصف الحال فى ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه فى مقدمى الجنود الأنجاد، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد، وما أكرمه قائمًا فى المقام الكريم وعظيمًا خاطبًا دفاع الخطب العظيم. ووصل فوصل جناح النجاح، وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح، وجاء والكريهة ذاهبة بالأرواح، والحرب ساقية طلاء الطلى فى صحاف الصفاح، وقد برزت بنات الأغماد الذكور على أكُفّ أكفاء الكفاح، لنكاح الهام بالسفاح، وشارك فى الجهاد وشد الأزر، وسدد الأمر، وآزر وعضد، وظاهر وأسعد، ولا خفاء عن العلم بحال الفرنج فى هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم، وتوافد أمداد حشودهم، وقد استشرى شرهم، واستضرى ضرهم، وأعضل خطبهم واستفحل أمرهم، واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات، وتركيب آلات ودبابات، وزحفوا إلى بلد عكاء بجمعهم، ووقدوا بجمرهم، وأخذوا فيه ثقوبًا، وحكموا فى الأسوار من الأسواء بضرب المجانيق ضروبًا، والثغر الآن قد أشرف، والعدو قد أسرف، وكلما زحف إلى الثغر زحفت العساكر الإسلامية إليه، وهجمت عليه، والعدو بخندقه محتجز، ولفرصة الغفلة عنه منتهز، ومن جثوم الموت عليه فى مجثمه محترز، ولم يبق إلا أن يتدارك الله الثغر بلطفه، ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه، والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج، ووضح لهم فى ثبات جنانهم المنهج، وفى كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين عليهم الثلم، ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران الظبا الظلم، والعدو قد لج، والحديد من قرع الحديد قد ضج، والبلد مشف، والبلاء عليه موف، والمأمول من الله أن يأتى من نصره بما ليس فى الحساب، وأن يعيد ما جمع من أمر الأصحاب إلى الأصحاب، ويكفى هذه النوبة الصعبة فهو كافى النوب الصعاب.

* * *

فصل فى وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التى وفت بعدتها المناجدة، ووافت بعدتها المنى جدة، وأقبلت إقبال الآساد فى عرين الوشيج، وماجت موج البحار فى غدير الزغف النسيج، واستهلت استهلال الرواعد البوارق، وألمت بالعدا إلمام العوادى الطوارق، ولقد جاءت فى وقتها منجدة من جدة، موجدة للانتقام من الكفر بكل موجدة، واستظهر الإسلام

بظهورها، وسفرت وجوه النصر بسفورها، فأحجم الكفر بإقدامها، وانتظمت أحداق المشركين فى عقود سهامها، وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها، وفض بالفضاء ختام قتامها، وما أشكر الدين والإسلام لعزائم عماده وغياثه، وأبعث أمداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه.

* * *

فصل فى الاستنفار

قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه، وغصت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه، وهو حديد الشوكة، شديد الشكة، قد لج فى حصر الثغر ونصب آلاته، وركب عليه منجنيقاته، ووالى الضروب من الضرب وأخذ منه مواضع فى النقب، وقد أشفى على خطر عظيم وخطب جسيم، وإذا لم يصل فى هذا الوقت فمتى ومن أتى فى غير الوقت المحتاج إليه فما أتى، وهذا أوان رفض التوانى ونهوض المسلمين من الأقاصى أو الأدانى، والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر، والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر، وهذا يوم الحاجة وأوان الضرورة، والنهوض بعسكره إلى نصرة عساكرنا المنصورة، فلا يجنح إلى عذر فللإعذار أوقات، ولا يلتفت إلى غير هذا المهم الذى ليس للمسلمين إلى سواه التفات، وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم، ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم.

* * *

ذكر خروج رسل الإفرنج

كان قد خرج منذ أيام رسول، وسأل أن يكون له إلى السلطان وصول فاجتمع به الملكان العادل والأفضل، وقالا له: لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل، وما كل مقصود عليه يعرض ليعلم فى الأول هل هو مما يقبل أو عنه يعرض. فأعلمهما الحال وعرفهما ما سبب الإرسال، فأحضراه بالنادى السلطانى فمثل بين يديه وأوصل تحية ملك الانكتير إليه، وقال: هو يؤثر بك الاجتماع ولخطابك الاستماع فإن أعطيته أمانا خرج إليك، وأورد مقصوده عليك، أو شئت كان الاجتماع به فى المرج خاليين من متقضيات المرج، وكلاكما عن عسكره منفرد، ولحديثه فى الخلوة مورد. فأجابه السلطان وقال: لو اجتمعنا فهو لا يفهم بلسانى وأنا لا أفهم بلسانه، ونحيل بالبيان على ترجمانى وترجمانه، فيكون ذلك الترجمان رسولاً فلعله يرد بسول ويصدر سولاً. فلما لج فى الطلب وألح فى الأرب، استقر أن يكون الحديث مع الملك العادل وإن تنجح من عنده وسائل الرسائل ودخل وقد أخذ أمانا، وانقطع بعد ذلك زمانا، فشاع عندنا أن ملوكهم منعوه، ومن ركوب الخطر فزعوه فأنفذ ملك الانكتير رسوله

بعد أيام ينكر ما شاع من تأمر للفرنج عليه وأحكام، وقال: الأمور مفوضة إلى، وأنا أحكم ولا يحكم على، وإنما تأخرت بسبب مرض عرض، فأفاتنى الغرض. ثم قال الرسول: من عادات الملوك المهاداة، وإن دامت بينهم الحرب والمعاداة، وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون فى حمله وقبوله وأخذه من يد رسوله؟ فقال الملك العادل: نقبل الهدية بشرط المجازاة، واستدامة المكافأة للموازاة، فقال: عندنا بزاة وجوارح، قد لقيتها فى سفر البحر جوائح، وقد ضعفت فهى طلائح روازح، ونريد طيراً ودجاجاً تصلح لطعمها، فإذا استوت حملناها للهدية على رسمها. فقال العادل: لا شك أن الملك مريض وقد احتاج إلى دجاج وفراريج، ونحن نحمل له منها كل ما إليه احتيج، فلا تجعل حاجة طعم البزاة فى طلبها حجة، واسلك غير هذه المحجة محجة. وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث، فقلنا: أنتم طلبتمونها لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث. ثم انقطع حديث الرسالة إلى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك فى الرسالة مقدم، ومعه أسير مغربى مسلم، وأحضره على سبيل الهدية، وأوصل إلى السلطان ما حمل من التحية، فشرفه بخلعته، واعتد له بهديته. ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة، وما كانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثة، وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجاً، ولم يسلكوا فى غير هذه الحاجة نهجاً فأكرمهم السلطان بما سألوا، ووفر لهم منه فحملوا، وسألوا أن يتفرجوا فى الأسواق ففسح لهم فيه على الإطلاق.

* * *

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الفرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالاة الرمى بالمنجنيقات، وتسوية المنصوبات وتعبية الآلات، وتعدل العرادات وتثقيل الحجارات، حتى تحلحل السور وحان انعدامه وتخلل وبان انثلامه وتزعزت أركانه وتضعضعت أبدانه، وكاد يهى ليهوى، ولا يقى ولا يقوى كى يثوى. وأهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة النوب ولقلة العدد والحجر هاتك، والسهر ناهك، والعمل دائم، والخلل لازم، والقلوب قلقة، والظنون مخفقة، والمتاعب شاقة والمشاق متعبة، والأحوال متصعبة، والأهوال مرهبة، وكانت فى البلد منجنيقات تنصب، وتفيض بها قوى الرجال وتنصب. فلما اشتد الزحف، وزاد الضعف، احتاجوا إلى رجال المنجنيق للمقاتلة والتناوب على المنازلة وهناك ظهر أن العدد لا يقى ولا يفى، وإن القليل لا يكف ولا يكفى ، وإن خروج من كان فى البلد لأجل دخول البدل لم يكن صواباً، وإن تقصير النواب ابتداء فى الأعطاء جلب فى الانتهاء أعطاباً.

ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء بما عليه البلد من غلبة البلاء، زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم، وطرق إليهم بوائقهم، ونهب من خيامهم ما تطرف وأسرف فى إرهاقهم بما أشرف، وحمل الملك العادل بنفسه مرارا وأجرى من الدم أنهاراً وأراهم بالنقع النهار ليلاً وبالبيض الليل نهاراً، وأمسى السلطان تلك الليلة ساهداً لم يذق طعاماً، ولم يستطب مناماً. ثم أمر بدق الكوس سحراً حتى عادت العساكر إلى الركوب والقساور إلى الوثوب والفوارس إلى الفرس والأنداب إلى الندوب، وأعادت إلى الطلوع غروبها بعد الغروب، بكل من يلقى الجيوش على الجيوش، ويرمى الوحوش على الوحوش، ويرعف الصدور بصدور الرواعف، ويشير بالأمن عن مواقف المخاوف، وكل من للضرب فى جبينه شامة، وللطعن فى جبينه علامة، على خيل كأمثال القنا تحمل القنا، وضمر كالحنايا تهوى هوى السهام إلى الوغى:

فى غداة صباحها فى حداد نسجتها أيدى المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب

فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان أمس، واتصل من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وفى هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها أن العجز بلغ بهم إلى غايته، وانتهى الضعف بهم إلى نهايته، ولم يبق إلا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئاً ولم تنجحوا فى الذب عنه سعياً. فضقنا بهذا الكتاب ذرعاً وقلنا لا حول ولا قوة إلا بالله لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً. والسلطان من هذا فى أمر عظيم، وهم مقعد مقيم، وهو مجتهد فى بذل وسعه، سائل من الله لطف صنعه، معاود إلى الحرب فى كل صباح طائر إلى اللقاء بجناح إلى نجاح.

وفى هذا يوم الأربعاء بعث العساكر على اللقاء، ودخل راجلنا إلى خنادقهم وخالطوهم، وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم، وذكر أنه وقف فى ثغرة من تلك الثغر أفرنجى، كأنه جنى مستشيط للشيطان نجى، وهو يدافع ويمانع، ويكافح على تلك الثغرة ويقارع، قد اتخذ طارقته لجسمه صدفاً، وصار لسهام المنية هدفاً، وصار لسهام المنية هدفا، وهو كأنه مما نشب فيه النشاب القنفذ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ، فلم يزل واقفاً إلى أن أحرقه بقارورة النفط زراق، فأمسى وهو حراق، ووقفت أيضاً امرأة بقوس من الخشب ترمى، وتديم أصماءها وتدمى، فلم تزل تقاتل حتى قتلت، وإلى سقر انتقلت.

* * *

ذكر خروج سيف الدين على المشطوب إلى ملك الإفرنسيس

ولما تمكن الفــرنج وتكاثروا على عكاء من جــانب وعــروه بكل نائب، ومل أصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح، وقلة البدل الذى كان قد اقترح، ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه، وزادت المخافة فلم يبق معها أمنه، خرج المشطوب إلى ملك الإفرنسيس بأمان، وحضر عنده بترجمان، وقال له: قد علمتم ما عاملناكم به عند أخذ بلادكم من النزول عند طلب أهلها الأمان على مرادكم وإنا كنا نؤمنهم، ومن المسيـر إلى مأمنهم نمكنهم، ونحن نسلم إليك البلد على أن تعطينا الأمان ونسلم، وإذا فعلت هذا فقد حزت المغنم، فقال: إن أولئك الملوك كانوا عبيدى وأنتم اليوم مماليكى وعبيدى فأرى فيكم ورأيى من وعدى ووعيدى. فقام المشطوب من عنده مغتاظًا ولم يلبث لحظه وأغلظ له القول عملاً بقول الله تعالى: ﴿ **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال: نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين ومتى عرف أن الأسد يسلم العرين.

* * *

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب، ولم يظفر بالغرض المطلوب، قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء: هذا الأمير الكبير، والمستشار والمشير، قد اشتغل باله، فسواه ما باله، وعمروا بركوسًا، ورأوا فى هربهم رأيًا منكوسًا وربحًا فى دار البقاء مبخوسًا. وذلك ليلة الخميس التاسع وقربوا عليهم الأمر الشاسع وجاؤوا إلى العسكر مختفين ومن رفقائهم فى نسب الوفاء والوفاق منتفين. فنمى إلى السلطان الخبر بهرب الجماعة وأنهم خرجوا لله وله عن الطاعة، وإنهم جبنوا عن بذل الاستطاعة وخفضوا عنهم صيت الشجاعة، وأبدلوا الإضاءة بالظلمة والحفظ بالإضاعة. وكان فيهم من الأمراء المعروفين وذوى الشهامة الموصوفين عز الدين أرسل، وهو الذى كان المثل بشهامته يرسل، وحسام الدين تمرتاش بن جاولى وهو شاب أول ما توفى والده وجاولى، وسنقر الوشاقى من الأسدية الأكابر ومقدمى العساكر، وكل منهم محظوظ بالإقطاع الوافر فقطع السلطان إقطاعاتهم وأقطعها، وحبس عنم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها، واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل، المفضل المؤمل، وتوسل ابن جاولى بالملك العادل، وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم ولم تعذب عيشتهم، وعادوا ممقوتين، وبحدود ألسن الذم منحوتين وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب

الجاندارية الناصرية ومقدمها، فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه العودة ويلتزمها، فعاد في ليلته، وأسقط عنه المذمة بأوبته، ووقع بعد ذلك فى الأسار، واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار.

* * *

فصل من كتاب إلى مظفر الدين صاحب إربل فى المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبنا إليه بشرح الأحوال، وما نحن عليه من رجاء النصر الذى هو متعلق بالآمال، وإن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ونازلوا الثغر واحتفلوا، والآن فإن منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب، وكثرت ثلم السور فى مواضع النقب، وعظم الخطب، واشتدت الحرب، وأشفى البلد وأشرف، واشتفى العدو بما فيه أسرف، ولما لج العدو فى الزحف واستسهل فى التطرق إلى البلد طريق الحتف، ركبنا فى عسكرنا إليه، وهجمنا عليه، لكنه بسوره وخندقه محتم وإلى مطمحه البعيد من أمره مرتم، ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر وإنهم قد أشفوا على الغرر، فر من جماعة الأمراء من قلّ بالله وُثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم، وما قوى طمع العدو فى البلد إلا هربهم، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلته إلا رهبهم، والمقيمون من أصحابنا الكرام قد استحلوا مُرّ الحمام، وأجمعوا إنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم، وإنهم يبلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم، وكانوا قد تحدثا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب ونحن وإن كنا للقوم مضايقين وبهم محدقين، وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين، فإنهم يقاتلوننا من وراء جدار ويعلمون أنهم إن أخرجوا إلينا فى تبار والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع، ولله قدر لا يرد، وقضاء لا يصد، وسر لا يشارك فى علمه وأمر لا يغالب فى حكمه، وعلى الله قصد السبيل، ونجح التأميل، وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل، وما توفيقنا إلا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل.

* * *

ذكر ما جرى من الحال

وفى ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس، وحمى الوطيس، وتحرك بالضراغم الخيس، واسود الجو، وانسد الضوء، وانقضت القضب انقضاض الشهب، واشتبهت

الدهم والكمت بالشقر والشهب، واختضبت البيض، وتألف من بوارقها الوميض، ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل، فللدروع من الضرب قعاقع، ولعواصف الألوية زعازع، ولغربان الرماح نعيب، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب، ولحريق الظبأ معمعة، ولرحى الحرب الزبون جعجعة، واللاحقيات سابقة ولاحقة، والسريجيات راعدة وبارقة، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة، وأيدى الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة، وثعالب الأسل فى لبة الأسد ضابحة، ونشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة فى رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان، وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجبينها العقيان، وتقدم السلطان إلى الأمراء فترجلوا، ونازلوا حين نزلوا، وهجموا على الضراغم فى آجامها، واحوجوها بحد الإقدام إلى إحجامها، ونصب صارم الدين قائماز النجمى علمه على سور الفرنج بيده، ووقف عنده بجلاده وجلده.

ووصل فى ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من النورية المماليك، فترجل وقاتل وأبلى، وأضرم نار الوغى وأصلى، وما ترك من جهده شيئًا ولا خلى، وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرًا لنجح الأمل البعيد. فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد إنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سرى السيل، ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم، وينجون بأنفهم وعز أنوفهم، ولو صح هذا الموعد، لنجح المقصد، لكن الفرنج اطلعوا على السر فاضطلعوا بالشر، وحرسوا الجوانب والأبواب، وارتابوا بما أراب، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين خرجا إلى الملاعين، وأخبراهم بجلية الحال، وعزيمة الرجال، وأصبح العسكر يوم الجمعة العاشر، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر، واقفة على ترتيبه صفوفه مرهفة على عدوه أسنته وسيوفه، ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه، ولم يتحرك من القوم ساكن، ولم يظهر من العدو كامن بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل، فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسمًا من أقسام الرسائل وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط، ولا ذى مقامه بمقامه مميط، وبتنا على تلك الحالة وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة، وأصبحنا يوم السبت وقد ركبت الإفرنجية وتدرعت وتحزبت وتجمعت، حتى ظننا أنهم على عزم اللقاء فهاجت العزائم منا إلى الهيجاء، وخرج من بابهم أربعون فارسًا ووقفوا واستوقفوا، واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف إليهم عطفوا إليه وأخبروه أن الخارج صاحب صيداء فى أصحابه، وهو يستدعى نجيب الدين أبا محمد العدل لخطابه، وهذا العدل

من أمناء السلطان، وقد أنس الفرنج به لتردده فى الرسالات نحوهم فى سالف الأزمان. فلما حضر أرسله إلى السلطان ليتحدث فى خروج من بعكاء بأنفسهم بحكم الأمان، وطلبوا فى مقابلة ذلك ما لا يدخل تحت الإمكان، وزادوا فى الاشتطاط وتناهوا فى الاشتراط، فأنفذ السلطان الملكين العادل والأفضل، ليفصلا المجمل، ويجملا إذا حزا المفصل، فتردد العدل مراراً، ووجد منهم على الإضرار إصراراً، ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة، وانفصلوا على غير قرار وعادوا والأمر بغير إمرار.

* * *

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

فى يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر، وفى يوم الأربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر. وفى يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد أبهج بقدومه العسكر، وفى هذا التاريخ ضعف البلد وعجز من فيه ضعفاً لا يمكن تلافيه، ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم، وباشروا الأسنة المشرعة إليهم بنحورهم، وشرعوا فى بناء سور يقتطع جانباً حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالباً.

* * *

ذكر ما طلبه الفرنج فى المصالحة على البلد

وكانوا اشترطوا إعادة جميع البلاد وإطلاق أساراهم من الأقياد، فبذل لهم تسليم عكاء بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا، وبذل لهم فى مقابلة كل شخص أسير فلم يقبلوا، وسمح لهم برد صليب الصلبوت إليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا.

* * *

ذكر استيلاء الفرنج على عكاء وكيفية دخولها

وفى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخر، ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسالت إلى ثغر البلد سيل الآتى إلى القرار، وطلعت فى السور المهدوم طلوع الأوعال فى فرج الأوعار. وانحدر عليهم أصحابنا انحدار الصخور المدهدهة، وفرسوهم فرس الآساد المحرجة المكرهة، وردوهم أقبح رد، وصدوهم أفظع صد، وما زالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال، وعرفوا أن الفرنج يستولون وعلى أحد منهم لا يبقون ولا يخلون. فخرج سيف الدين على بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتى ألف دينار وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس

وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكاء مركوزة، وأعطاف أعلامها مهزوزة، وما عندنا علم بما جرت عليه الحال، وما أحد منا إلا والبال منه قد عراه الوبال، وعم البلاء، وتم القضاء، وعز العزاء، وقنط الرجاء، ولوت أعناق المسار اللأواء، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى تقى الدين وما عن له فى سفره، فإنه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار فى ديار بكر الاختباط، والاختلال والاختلاط، وتأخرت عساكرها عن القدوم، فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم، وكذلك لم يكن فى البلد عدد يفى بصونه، وما كان يضبطه السلطان إلى هذه الغاية لو لم يكن الله فى عونه. ونقل الثقل تلك الليلة إلى منزله الأول بشفر عم وأقام بخيمة لطيفة متلهفًا متلهبًا على ما تم. ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر إلى المخيم صابراً على حكم القضاء المبرم، وحضرنا عنده وهو مغتم، وبالتدبر للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا: هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عداه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فما ذهب الدين ولا ضعف فى نصر الله اليقين، وما وعكت بعكاء القلوب إلا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس، ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنيس، ولهذا الدين وإن تداعت قواعد بقعة من بقاعة بالعز ليفاعه تأسيس، وخرج فى هذا اليوم أقوش، رسولاً ندبه بهاء الدين قراقوش، يخبر ما قرروه من القطيعة، ويصف كيفية الملمة الفظيعة، وقال: أدركونا بنصف المال وجميع الأسارى وصليب الصلبوت قبل خروج الشهر، وإن تأخر شىء من ذلك بقينا تحت الأسر ونصف المال يصبرون به إلى شهر آخر، فأحضر السلطان الأكابر وفاوضهم فى ذلك وشاور، فقالوا: إخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون، فتقبل السلطان تحصيله، وتعجيله بجملته وتفصيله.

وأنشأت فى استيلاء الفرنج على عكاء هذه الرسالة وسيرت بها كتبًا

قد عرف أمر عكاء وإن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها، وقابلها وقاتلها، وبرك عليها بكلكله، وحفل عندها بجحفله، وتواصلت إليها جموعه أفواجًا، وجلب البحر نحوها على أثباجه أمثال أمواجه أمواجًا، وجاءت رابضة أمامها، ضاربة خيامها، ملهية بها غرامًا، ملهبة فيها ضراما. وانتهت المدة إلى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارًا، وبرد الماء بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارًا، وتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود، والأمواج ناشرة بيض أعلامها، مالئة جبالها بآكامها مازجة أصباحها بأظلامها، وتتنافس ملوكهم الباغية، وطواغيتهم الطاغية فى الورود بنفوسها ونفائسها، والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها، مستخرجة ضمائر خزائنها، مستفرغة ذخائر مكامنها، موضعة ظعائن ضغائنها، مستبضعة متاع

متاعبها، مسرعة إلى معاطن معاطبها، وترد بقناطير أموالها، وجماهير رجالها، ومساعير مصالها، ومشاهير أبطالها، ويحدقون بها من برها وبحرها، ويجثمون بين سحرها ونحرها، وما زالوا يقاتلون أبراجها بالأبراج، ويسومون جدتها بالإنهاج، ويرومون علاج كرامها بمراماة الأعلاج، ويقارعونها ليلاً ونهاراً، ويقلمون أفواه خنادقها أحجاراً، ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال، ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الآجال، ويكافحونها قراعًا، ويدبون إليها للمضايقة خُطًا وساعًا، ويناطحونها بالكباش، ويعاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش، وحيّات النهاش، ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق، كأنه حامل على الطلق، لا تلد إلا أمات الدواهى، ولا تدع الراسخ الراسى إذا قابلته غير الواهن الواهى، ويقتل الله منهم العدد الدهم، والجمع الجم، ويهلك ألوفًا، حتى يعود نافرهم للمنون ألوفًا، وقد تجاوزت عدة القتلى منهم فى هذه المدة، سوى من هلك بالضائقة والشدة، خمسين ألفًا قولاً لا يتسمح فيه المعبر بالبيان بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة. والحالة فى تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة، واشتعلت فى قلوب أهل النار نار البواعث، وتحدثوا فى الحادثات، وثاروا للثار، وزاروا بالزار، وانبرى ملكا افرنسيس وانكتير، وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير، وجاؤوا فى مراكب بحرية حربية، وبطس حمالة فرنجية، وأجروا فى البحر منها السيول، وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول، وحملوا فيها الخيالة والخيول ووصلت كل قطعة كأنها قلعة، وكل بطسة كأنها تلعة، وكل سفينة فيها مدينة وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينة، فأحدقت بالثغر من البر والبحر، وأحاطت بمركز الإسلام دائرة الكفر، وأطافت منها الأسواء بالأسوار والظلماء بالأنوار، ومنعت الداخل والخارج، وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح، الموالج والمناهج، وزاحفوه بكل منجنيق كنيق، وكل برج وثيق، وكل دابة كأنها دابة الأرض التى تقوم عندها القيامة، وكل سلم لا ترجى معه السلامة، وكل آلة آلت أن الفتح منها بالحتف، وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوى الحفز بالزحف، هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق، وسور وخندق، وتدرع بأسواره وخنادقه، وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه، فلا يخرج منه إلى معاركه ولا يدخل إليه لضيق مسالكه، وهو متحر متحرس، متستر متترس، عاص على الهجم، عاس على العجم، لا يقتحم سده، ولا ينثلم حده.

ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة وليدها لا ينادى، والمدى يتطاول، والمدد يتواصل، والقضية تترامى، والرمية تتقاضى، ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون مكابرون مضابرون، فمن مستشهد عدله الجرح، ومن مستنجد عطله القرح، ومن دام بالجرح

رام عنه، ومن نازع في القوس نازع منه، ومن متعرض للموت خوف عار عارض، ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض، ومن ندب فيه ندوب، ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب، حتى ضج الحديد من قرع الحديد، ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد، هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص، وظل المصابرة يقلص والعدم يتمكن من الوجود، والقيام للأثخان في زى القعود، وكاد البقاء يودع الباقين والمنون تلاقى الملاقين، فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تأخر وتستر، واستشعر الذعر فتعذر وتحذر، واستبدل الجبن من الشجاعة، واستملى العجز من الاستطاعة وقدم العصيان على الطاعة، وظن أنه لا نجاح له في العزيمة ولا نجاة له إلا في الهزيمة، وجنب أمثاله من الجبناء وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء، فخرج بهم من الثغر فاراً وذهب على وجهه معهم ماراً، ورهب فهرب، وحسب فتسحب فأضعف القلوب البقية استشعاراً وأعدمهم عدم قراره قراراً، لكنهم ثابوا إلى صبرهم وثبتوا على أمرهم ودفعوا مكر العدو بمكرهم، وما برحوا على مصابرة ومكابرة ومقارعة ومعاقرة ومكافحة وملافحة ومواقعة ومواقحة، ومطاحنة ومناطحة وجلد على الخنادق التي طمت، ورمى في خروقها التراب ورمت، وطرقها العدو بالسوء إلى السور وطرق الظلمة إلى النور، وهجم على السنى بالديجور، وكشف نقاب عروس البلد بالنقب، وأسعر بمساعيره حر الحرب، حتى ثلم حمى الثغر وكلم حاميه، وأشرفت مراميه وكثرت ندوب نقوبه، وكرثت خطاب خطوبه، ودخل العدو في النقب فلم يجد لكونه مجدلاً أو مجرحًا مخرجًا، وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجًا، وكل من أصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقى الوحشة بأنسه، وفارق لوصال أهل الجنة أهله، وأثبت في مستنقع الموت رجله ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون، ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون، ويجمعون ويفرقون، حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولاً، وتعانقت الأسياف فزادت قلولاً، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الإيمان وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الأيمان وأصحابنا لا يهولهم الهائل ولا يميلهم إلى الحذر الجدار المائل، ولا يزعهم الخطب الوازع، ولا يردعهم الرعب الرادع، يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع، ويردون بغربهم الطالع، ويقدون بحدهم الدارع، إذا انتظموا مع العدو نثروه، وإذا نهضوا له أقعدوه وعثروه، وإذا صعد إليهم حدروه، وإذا بادر إليهم بدروه وندروه، حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا، وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا، وما زالوا يقتلون ويقتلون، وينهلون من ورد النجيع وينهلون، ويصلون ويقطعون ويشعبون ويصدعون، ويكيلون بصاع المصاع، ويجيبون للعمر الراحل داعى الوداع، ويتناجون

بألسنة المناصل، ويتقابلون بوجوه الصواقل ويتشاركون بكلام الكلام، ويتلاقون بسلام السلام، ويتساقون بصحاف الصفاح ويتماشون بمزاح المراح ويستحلون ضرب الضراب ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب، إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ومن الستائر إلى الستور، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح، ومن المضايق إلى الفساح، ومن المراقب إلى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين إلا سبائك زحوف، وترائك حتوف، وبقايا طرائح، ورذايا طلائح، ومسوق جرائح، ومشوق ضرائح، قد فصلتهم المشرفيات، وخاطتهم الخطيات، ورشقتهم القسى القاسية، ورشفتهم الظبا الظامية، لا ينهض قويهم من الكلول ولا يفرى فريهم من الفلول، وقد شغلوا بسد تلك المضايق، ورد أولئك الخلايق، فما شعروا إلا وقد دخلت من أقطارها وتوغلت من أسوارها، وازدحم العدو فى مشارعها وسبلها، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها.

ولما عرف العدو الداخل، والعادى الواغل، أن القوم مستقتلون وللموت مستقبلون وأنه لا طاقة له بمقاومتهم، ولا قوامٍ له بطاقتهم، وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون ولا يبقون وهم يبقون، أعطاهم أمانًا أخطر من المخافة ودخل على الإغارة باسم الضيافة، وعز أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا وما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ولا مرد لما فيه لله من المراد، ولا مدفع لحكمه فى البلاد والعباد، وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المعين، وإن ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين، وإن فتح المرتج فما فات المرتجى، وإن ادلهم الديجور فلا بد أن يسفر عن الصبح الدجى، ولا يشمت عدو بما جرى، فعند الصباح يحمد القوم السرى.

* * *

فصل من كتاب إلى قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر فى هذه السنة من مدد ملوكه، وكثر على نهار الإسلام بأظلام ليل الكفر وحلوكه، فالإسلام بنشد ظهيره، ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره، وهذه عكاء التى كنا عنها ندافع، وعن ثغرها نمانع ونجرى دماء الواردين فى البحر لقصدها فى بحرها، ونرد للرد عنها مكايد العداة فى نحرها، قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام، واحتاج من أبى إسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام وكانت مودودة فعادت موؤودة، وصارت مغصوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة. وإذا أفكر من خذلها، وما أخذلها، وغاب عنها وما حضرها، علم أنها أسيرة إهماله وأخيذة إغفاله، وحاشى أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضيًا، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضيًا، وما بقى للفرنج مع استيلائها

على الموضع إلا زائد قوة فى المطمح والمطمع، وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكفر بالجد الكافى الكاف، والله كافل دينه بالنصر والمردى بمكره أهل المكر، وما هذا أوان الونى بل هو زمان استنجاح المنى، فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر، وليل الهدى قد قرب أن يسفر.

* * *

ومن رسالة أخرى فى استدعاء مظفر الدين من إربل تشتمل على حادثة عكاء ووصف الحال الجارية فيها

قد علم ما دهم المسلمون من العدو الكافر والطاغية الحاشد الحاشر، وإنه ورد فى البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر، وما قصده إلا بيضة الإسلام وحوزته وإن الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه عزته. ولا شك أنه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبنا عنها فى هاتين السنتين، والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين الحصارين، وإنهم كلما دبروا أمراً دمرناه، وكلما حققوا كيداً أبطلناه، وكلما قدموا منجنيقاً أخرناه وعطلناه، وكلما ركبوا برجاً أحرقناه، وكلما كثفوا حجاباً خرقناه، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله حتى لم يبق لمركهم مكر ولا لكيدهم مجال، ولم يتسق فى هده المدة لهم حال، وقتل منهم فى عدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل، من فارس وراجل، ولم نشك فى استيعابهم بالردى، وإن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى، وحسبنا أنهم بائدون، فإذا هم زائدون، وظننا إنهم هالكون، فإذا هم فى نهج القتال سالكون، وهم حطب نار الحرب، وطعم الطعن والضرب، وكم بذلوا أرواحهم على حب المقبرة، وحصلوا تحت العجز لزعمهم إنهم يأتون بما فوق المقدرة.

ولما دخلت هذه السنة أشفقنا على من فى عكاء من الأصحاب والأجناد، وقلنا: هؤلاء قد بذلوا فى الجهاد ما كان فى وسعهم من الاجتهاد، ورأينا أن نجدد للبلد البدل، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل، وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل من كل ذمر مشيح وكمى بطل، فخرج هؤلاء ولم يدخل إليه مثل تلك العدة، ولم يكن أيضاً من دخل بذلك الجد وبتلك الشدة، فإن البحر قبل استكمالها منع راكبه وحمى جانبه ووصل العدو وعجل مراكبه، فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية، واتكل على الله الذى عصمته من كل واقعة وقاية، وجاءت ملوك الفرنج خلال كل عام فى جد واعتزام، وحد واهتمام، وجمع لهام، ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام، وغرام بالواقعة وعرام، واحتداد للحادثة واحتدام، وباس وإقدام، وناس وأقوام، وحشد ملأت به سفنها، وأخلت منه مدنها، ووصل ملكا افرنسيس وانكتير وقد أحكمها التدبير، وأجلبا بخيلهما ورجلهما وأناخا بكلكل كلهما وبركا بثقلهما،

وزحفا بجهدهما وجهلهما، ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق، وكل آلة هائلة، ودبابة للبلايا حاملة، ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقًا على موضع واحد، وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد، وباشروا الباشورة بالهدم، والخندق بالطم والسور بالنقب والثلم، وخرج من نقابى البلد من ارتد عن الدين وأعان نقابى الملاعين، حتى وقعت أبدان السور وأبراجه، وتبادر إلى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه، وأصحابنا مع ذلك ثابتون ناكبون كابتون، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم، وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتهم مغافر رؤوسهم، وكشفوا وجوههم لقبل السهام، وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام، ترشف شفاه الشفار دماءهم، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وسخاءهم، كلما انتظموا مع العدو انتثر، وكلما نهضوا لتلقيه عثر، وكلما طلع إلههم ردوه بغربهم، وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم، وهم يواقعون ويواقحون، ويكافحون ويلافحون، وكل قد وقف فى موقف الكرام وسل نصله، وأثبت فى مستنقع الموت رجله، وودع للجنة فى لقاء أهل النار أهله، فخانهم بعض الأمراء الجبناء، وأخذ للحياة بترك الحياء، وفر من البلاء إلى البلاد، وحسب النجاة فى النجاء، وهرب فى بركوس قد أعده لذلك اليوم وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم، واستصحب أمثاله واستتبع، وأبعد فى فراره وأبدع، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين، وأطمع أفاعى الكفر فى نهش الراقين، على أن الأصحاب ما آذنوا بالإصحاب ولم يقابلوا الضراب بالأضراب، وما زالوا يواصلون بالقواطع، ولا يرتاعون للروائع، ولا يريمون مقام المقامع، ويطالبون من الأرواح بالودائع، حتى انتقل القتال من السور إلى الدور ومن القوارع إلى الشوارع.

ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة، وأمن أخوف وأخطر من كريهة، وقطيعة فظيعة، كل منة لها غير مستطيعة، ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة لم تكن عكاء بالممكنة للعدو ولا المذعنة، وإن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب، وإن عطبت فالإسلام لم يعطب، وإن ملكت واحتلت فما اختل الملك، وإن سلكت ووهت فما وهى السلك، وإنما نبّه الله بها العزائم الراقدة، وأجرى مياه الهمم الراكدة، وبعث الحميات الناعسة، وحرك النخوات المتنافسة، وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره، سيظهر عزنا بنصرته وظفره، ونحن إلى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم، آخذون بمخانقهم، نوسعهم الردى فى مضايقهم، ونجذبهم فى كل يوم إلى مصارعهم، ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم، فما خرج منهم من دخل وما انقطع إلا من وصل، وما أصر إلا من ندبه عريسه وعرسه، وما برز إلا من واراه من بطون الخوامع رمسه، فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم، ولا يرومون أن يهجروا

مجثمهم، وما أنسوا بمرابض المضارب إلا لنفرتهم من مضارب القواضب، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج إلى المصاف، وآونة بالنهوض إلى بعض الأطراف، وفي كلا القصدين إن شاء الله دمارهم المعجل وبوارهم المؤمل، فإنا نعترضهم أين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا، ونعثرهم أين نهضوا، ونثيرهم للموت أين ربضوا، وبما غرتهم عكاء فطمحوا وطمعوا، واتفقوا على المصاف واجتمعوا، ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش، وتعوضوا مصارع أمثالهم والثرى لهم وثير الفراش، فإن برز العدو فالمنون له بارزة، والعزائم له مناجزة، والعساكر الإسلامية إليه وعليه زاحفة حافزة، والمجلس أولى من ينتخي ويحتمي، وإلى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي، ويصل بجمعه اللهام الملتهم، وبجمره الملتهب المضطرم، وبمجره المحتد المحتدم، وبفيلقه الفالق ترائك العدا، السافك السابك في نار الوغى سبائك الظبا، الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى، وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه، ويستدعي من إذا ناداه أجابه وجاءه.

* * *

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكاء بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الأصحاب، ليكتب بها إليهم ويعود بها الجواب، فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابًا بخطي، وخرج حكم عكاء في الكتابة عن شرطي، فقلت لأصحابي: ما صرف الله قلمي عن عكاء إلا وفي علمه إن الكفر إليها يعود، وإن النحوس تحلها وترحل عنها السعود، واستعاذني الله من استعادتها وردها إلى شقاوتها بعد سعادتها، ولقد عصم الله قلمي وكلمي، وعرف شيم مخايل ألطافه من شيمي، وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمري، وما أجراه الله إلا بأجري، فالحمد لله الذي صانه، وعظم شأنه، وما ضيّع إحسانه وهو للفقه والفتيا، ومصالح الدين في الدنيا، وما عرف إلا بعُرف، فما صرف إلا عن صرْف، وما سفارته إلا في نجح، وما أسفاره إلا عن صبح وما تجارته إلا لربح فهو يمين الدولة وأمينها، ومعين الملة بل معينها، بمداده يستمد إمدادها، وبسداده للثغور سدادها، ودواته دواء المعضلات، وبعقده حل المشكلات وبخطه خط عوادي الخطوب، وبقطه قط هوادي القطوب، وببريه برء الأمراض، وبدره در الإعراض، وبدرّه انتظام عقود العقول، وبدراريه ابتسام الإقبال والقبول، وبجريه جرى الجياد للجهاد، وبسعيه سعي الأمجاد للإمجاد، وبحركته سكون الدهماء، وببركته ركون الرجاء، فما كان الله ليضيعه في صون ما لا يصونه، وعون من لا يعينه، فخفت على عكاء من وقوف قلمي عنها، وكان قد ألهمني الله فإنه صانه ولم يصنها، وشكرت الله على هذه اللطيفة، والعارفة الطريفة.

ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكاء من الوقائع

وفى يوم الخميس انسلاخ جمادى الآخرة، خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة، وانتشروا بالمرج إلى الآبار التى كان حفرها العسكر، فضرب القوس السلطانى فثار المعشر وقام المحشر وأنهض السلطان إلى اليزك من قواه وأتبعه بمدد تلاه. وقد طار غراب الغبار، وتبرقعت بالتراب عراب المضمار، وشبت الوغى بكل شبوت تمانع سوى فارسها ركابها، وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها، فى غلب كالقواضب يروون القواصب، وطوالع من الغروب يعدن فى الغوارب غوارب، وحمل على إبطال الباطل حماة الحق فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق، وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم وحالت بينهم وبين أسوارهم وأحالت عليهم منونهم، وصرعوا زهاء خمسين رجلاً كروا عليهم بكاسات المنون نهلاً وعللاً، وردوهم إلى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم، ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة، كادت تحدث هزيمة. فوقف أصحابنا وثبتوا ثم وثبوا وأسعروا نار الحديد وألهبوا، ونظموهم بالقنا ونثروهم بالظبا، وفرشوا منهم قتلى على الربا، واحتبت سيوفهم بالأعناق والطلى وحلت من حياة العدا الحبا، ودخل القوم إلى خنادقهم ووقفوا وراء أسوارهم بأثارة عثيرهم وآثار عثارهم، وانتصف الإسلام من الكفر فى ذلك اليوم بعض الانتصاف، وأخذ يد النصر على المضافاة بمصافحة المصاف.

وفى يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل فى تقرير القطيعة المقررة لخلاص الجماعة المستأسرة وأخبروا أن ملك افرنسيس صار إلى صور ورتب الدوك نائبه وولاه الأمور، وإنه قد عزم على العود إلى بلاده بعدما جرى الأمر بعكاء على مراده، وإنه وكل المركيس فى قبض نصيبه، ورضى بتدبيره وترتيبه. فأنهض إليه السلطان وراءه رسولاً بتحف تليق به، يستخرج ضمائره فيما هو من أربه، ونقل خيمته يوم السبت العاشر إلى تل بإزاء شفرعم وراء التل الذى كان عليه نازلاً، وحلّى الموضع الذى حَله وخَلّى الذى أخلاه عاطلاً، وما زالت الرسل تتردد والرسالات تتجدد والآراء والآراب تجتمع وتتبدد، حتى أحضر مائة ألف دينار والأسارى المطلوبين وصليب الصلبوت ليوصل ذلك كله إلى الفرنج فى الأجل المضروب والوقت الموقوت، ووقع الخلف فى كيفية التسليم والتسلم، وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم.

فقال السلطان: أسلمه إليكم على أن تطلقوا أصحابنا أجمعين، وتأخذوا بباقى المال على سبيل الرهن قوماً معينين. فأبوا إلا أخذ الجميع فى الزمان السريع والوثوق بأمانهم وأمانتهم، والتفويض فى أصحابنا إلى خيرتهم، فقلنا لهم: تضمنكم الداوية، فما دخلوا فى الضمان، وساء فيهم ظن السلطان، وقال: إذا سلم إليهم من غير شرط الاحتياط عليهم، كان فيه على الإسلام غبن عظيم وعار إلى الأبد مقيم، فلو أيقنا

خلاص أصحابنا وعرفنا بنجاتهم انتظام أسبابنا سمحنا لهم فى الحال بصليب الصلبوت والأسارى والمال . وبقى الأمر واقفا إلى أن انقضى الأجل، وانتهى الترم الأول وجاء الرسل وأبصروا الأسارى حضوراً، والمال موزونا موفوراً، وظنوا إن صليب الصلبوت قد أرسل إلى دار الخلافة فليس له وجود، فسألوا إحضاره وهم شهود. فلما أحضر خروا له ساجدين وأقروا به شاهدين وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون، وإن الأداء بخلاص أسارانا مرهون، وظهرت علامات مكرهم ولاحت أمارت غدرهم. وفى يوم الأربعاء العشرين من رجب أخرج الفرنج إلى ظاهر المرج خياماً ضربوها وقباباً نصبوها، وخرج ملك الانكتير إلى خيمته ومعه خلق من خيالته ورجالته.

* * *

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكاء

وفى عصر يوم الثلاثاء سادس عشر رجب ركبت الفرنجية بأسرها، وخرجت من مستقرها ، وسارت بخيلها ورجلها، وجحفلها وحفلها، وجاءت إلى المرج الذى بين تل العياضية وتل كيسان، ونفذ اليزك وأخبر السلطان. وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة وشامت صوارم صادفة وعزائم صادقة. وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين فى الحبال واقفين، وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم، وألقوهم فى مصرعهم. فحمل عليهم العسكر وهاجهم، وضرب بأمواجه أمواجهم، وقتل منهم خلقاً وأوسع فيهم خرقاً، واستشهد منا كردى حميدى وبدوى، وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روى.

فلما انصرف العدو إلى خيامه وركد الروع بمثار قتامه، شوهد المستشهدون بالعراء عرياً، وإنما عروا ليكتسوا من حلل الجنان التى أكرمهم الله بها وشياً، ومضى الناس إليهم فعرفوا معارفهم، ووصفوا فى سبيل الله مواقفهم، وما أكرمهم رجالاً، وأحسنهم فى الشهادة والسعادة حالاً. ولما غدر الفرنج بسفك الدماء وهتك ستر الوفاء، تصرف السلطان فى ذلك المال وبسط فيه يد النوال، وأعاد أسارى الفرنج إلى دمشق لتعاد إلى أربابها وترجع إلى أيدى أصحابها، فإنهم كانوا جمعوا من أهل البلد للحاجة إليهم فلما استغنى عنهم ردوا عليهم وأعيد صليب الصلبوت إلى الخزانة لا للإعزاز بل للإهانة، فإن غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولاً، وأنفذوا بعد رسول رسولاً فما وجدوا قبولاً ولا صادفوا سولاً.

وفى يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر، وقاربت البحر وضربت بينهما الخيام وأنبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام فقيل للسلطان: ما حركة القوم إلا لقصد عسقلان، فجاشت همومه وعب عبابه واجتمع بناديه لإجالة قداح الرأى أصحابه، وسح سحابه، وصح حسابه،

وحكم فأحكم، وبرى فأبرم، واستشار وأشار، واستثار وآثار، واستورى زناد الآراء، وامترى مراد الأمراء، وقال : هذا العدو طغى واستكبر، وأصحى له الأفق وأفاق وأصحر، وقد تحرك بعد سكونه وظهر بعد كمونه وغرته بعكاء فطمع فى عسقلان، واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان وهذه جموعه بارزة وكعوبه راكزة وعوراته بادية وثوراته عادية ونكراته معروفة وغدراته موصوفة، وكنا نقول : إذا برز نبارزه وإذا خرج نناجزه، وإذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه، وإذا ركب الطريق نركب إلى طريقه، وإذا توجه إلى موضع أوضعنا إلى مواجهته، وأغرينا ألسنة الأسنة بمشافهته ومسافهته، والآن ألان الله لنا الشديد، وأدنى علينا البعيد، وأخرج العدو من الضيق إلى السعة، وأبرزه من وراء الأسوار والخنادق الممتنعة، وإن لم نلقه فى طريق مسيره ونجد فى التدبير لتدميره. وصل إلى عسقلان فصار لنا منها شغل عكاء وأصعب، وحينئذ نتعب، وصدعنا بها لا يشعب، فقالوا : هو يسير بالبحر محتمياً، وعن النهج منتثياً، ويقصد الساحل الساحل، ويقتصر المراحل. والذى يلى الساحل فى الطرق إما أجام وغياض غلقه متأشبة، وإما رمال وتلال ضيقة متكثبة، وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق، ومواقعته بالعوائق. فتقدم السلطان إلى علم الدين سليمان بن جندر، وأمير من أهل الخبرة آخر بالمسير إلى تلك المناهج، ومشاهدة ما لها من المخارج والموالج، وكشف المواضع التى يلقى فيها العدو ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو. فسارا ينفضان تلك المسالك ويكشفان الأماكن التى تكون معارك، ونتخذها لمبار المرام مبارك، ولمدار المراد مدارك، وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعيّنا على أماكن ومكامن، ومواطىء ومواطن، ووقع الإجماع على الاجتماع على اللقاء والقراع، فى مذاهب تعينت، ومسارب تبينت، وسهول عرفت، ومروت وصفت، وصمم العزم على أن الفرنج إذا ساروا سرنا على عراضهم، واستقمنا على جدد الجد فى اعترائهم واعتراضهم.

* * *

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفى سحرة الأحد غرة شعبان أضرم الفرنج فى منازلهم النيران، وأصبحوا على الرحيل والأصوات مختلطة بالصهيل، والأرض مضطربة، والسماء محتجبة، والقباب تقوض، والعياب تنفض، والجعاب تنثل، والهضاب تنقل، والذئاب تعسل، والزغف يفاض، والحتف يخاض، والخيل تسرج والسيل يمرج وذوائب الذوابل تنشر، وإنبات النوائب تكشر، ولواء اللأواء يعقد، وضرام الضراء يوقد، والبيارق تختفق، والبوارق تأتلق، والدو دو والجو جو، وللحديد تبوج، وللعديد تموج، وقد ثارت الجواء، وفارت الجأواء، ودجت الأضواء، ورجت الضوضاء، وسال الوادى، وعدت العوادى، وسار الأعادى، وعلم السلطان تدبيرهم، وعرف مسيرهم، فرعدت كوساته، وغردت

بوقاته، وصاحب طبوله، وساحت سيوله، وانسحبت ذيوله، واصطخبت خيوله، وبرقت لوامعه، وأشرقت طوالعه، ومضت عزائمه، وومضت صوارمه، وحلقت العقبان إلى مطار مطارده، وتألقت الخرصان فى معاقل معاقده، وسار وأرضه جرد الضوامر، وسماؤه نسج الحوافر، فى بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب، وغدران سوابغ كالزلال لمعه الحباب، ومجر ملتهب الجوانب مشتعل القواضب، وقُبّ معقودة السبائب، مقودة الجنائب، معصوبة الهوادى هادية العصائب، وعرب ملوية العمائم بالشهب ملوثة البرود بالقضب، وترك كالأقمار فى هالات التروك، ومماليك فى حالات الملوك، ناق الوجوه على الوجيهيات العتاق، قد خلقوا للثبات مع قلق الأخلاق، وأعاجم على العراب، هضاب على هضاب، وكرد بحصون الدروح محتمين، وبقباب اليلب مستعصمين، فى مسرودة الحلق، مسدودة الحدق، تقهقر عنها اللهاذم، وتقهقه إذا قلت بها الصوارم، وجيش يصيب العدو ولا يصاب، ويعيب الأقران ولا يعاب من كل ناصر للحق على ضامر للسبق، خارق للنقع راقع للخرق، فاتق للرتق راتق للفتق، معنق إلى الضرب ضارب للعنق، فيلق همه فلق الهمام، وجحفل ملتهم للجحفل اللهام، يحوى كل أغلب عبل الزراع، وأشم رحب الباع، وخواض الكتائب، فياض القواضب، رواض الرعان، نضناض السنان، موار العنان، فوار الجنان، قائد الخيل زائد السيل، رائد الليل. وهاجت العساكر وماجت الزواخر، فزأرت القساور وأزهرت الزواهر، وتناوحت جذبات الحديد وعذبات الحرير، واشتبه سهك الماذى بعبيق العبير، وكانت نوبة اليزك فى ذلك اليوم الملك الأفضل وهو فى نخبة الجحفل بدور ليل القسطل وشموس يوم المحفل، فوقف لهم وقفاً أثرهم وألهبهم بنيران النصال وأسعرهم وقطع طريقهم ، وقصد تفريقهم، وسطاً على أوساطهم، ونادى بإيراء زناد إيراطهم، فانقطعت أواخرهم عن أوائلهم، وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل، وأحرق عليهم العجل، وطرق نحوهم الوجل، وانهزم من تقدم ولحق الأول وتعكس من تتأخر وانخذل وانخزل، وأوقد ناراً على أهلها مشعلة، وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله، ونفذ إلى والده يستنجده حتى يسرع إليه مدده، ويقول: إن أمددت بألف ما أبقيت من هؤلاء واحداً، ومتى يتفق مثل هذه الفرصة لو أرى لى مساعداً.

وترددت إلى السلطان رسل استنجاده واستمداده وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده، فسار من كان حاضراً من العسكر على عزم إنجاده وإسعاده، ثم قيل للسلطان: ما كنا ركبنا بنية المصاف فى هذه المرحلة، والناس قد سبقوا إلى المنزلة، وهناك عند قيسارية الحرب أمكن، والقلب إلى انتهاز الفرصة أسكن. وأبطأوا عن الإصراخ، فآذن روع الفرنج بالإفراخ، وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته وإن الذى وراءه فى عاقته، فصرف عنانه وصرف عناده، وعاد عادياً

بحماته، فحمى بمدد أمداده، والملك الأفضل قد بذل وسعه وأوضح فى الجد شرعه وقتل من وصلت إليه يده، ولقد كان يضعف عدد الأعداء لو تضاعف عدده، وبقى يتلهف على ما فاته من الفرصة، وأعوزه من حصة تلك الحصة، فقد انهاض بانتهاضه جناح الكفر، وكاد يفتح لارتجائه رتاج رتاج النجاح فى النصر.

ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الأمراء والمماليك سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك، واتفق قولهم على أن العدو كان قد انكسر، وتبدد نظمه وتبتر، وإنه لو اتصل بهم مدد لم يبق من الأعداء أحد. ونزلنا تلك الليلة بالقيمون فى الوقت الميمون، وعلى الساقة المنصورة لحفظ الأثقال لتؤمن على ما تخلف فيها من العدو الغارة علم الدين سليمان وحسام الدين بشارة، ورحلنا يوم الاثنين ثانى شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الأساود، وأمر السلطان للمشورة بحضور أوليائه وأمرائه الأماجد الأجاود، والفرنج لما وصلوا إلى حيفا وقد وصل إليهم الحيف وساق ساقتهم السيف، وخلصوا من نواجد النصال، وأنياب النبال، أقاموا بها حتى يندمل جريحهم ويستريح طليحهم وتهب بعد الركود ريحهم.

وركب السلطان إلى الملاحة وهى بعد حيفا منزلة القوم، وكشف ما حولها بالحوم، وعرف هل عليهم منها مدخل وهل يصاب منهم فيها مقتل. ثم عاد إلى منزلته وأقام بها يوم الثلاثاء، وسير الأثقال إلى مجدل يابا ليلة الأربعاء، وأصبح راحلاً فما حل حياه بأرض إلا أحيا ماحلاً، ونزل على النهر الذى يجرى إلى قيسارية، وعسكره قد طبق تلك البرية، وكان العدو قد تحول إلى الملاحة، ومكث بها للاستراحة. وأقام السلطان بتلك الناحية يتحول من رابية إلى رابية، ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابيه، وأتى مراراً بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم، وطرق الانكدار إلى ثواقب ثوابتهم، فأمر بإراقة دمهم وإطاحة رممهم، وأخبره بعض الأسارى أنهم يوم رحلوا وصلوا إلى حيفا حيارى، وطرح منهم وجرح كثير، سوى من أخذه فهو الآن أسير. وهلكت بين عكاء وحيفا أربعمائة فرس، ونجوا منكم بأنفسهم على آخر نفس، ولو إنكم كبستم كسبتم، وأعريتموهم من الحياة لو إنكم بهم التبستم.

* * *

فصل من كتاب إلى مظفر الدين بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكاء إلى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب أن كل بيضاء شحمة، وإن كل سوداء فحمة، فرحل على صوب حيفا واقعاً فى حيفه باحثاً عن حتفه بظلفه، زاعماً أنه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه فى قصده وزعمه، وهو حاصل منا على صده ورغمه،

وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم إلى البوار، ووافد أهل النار إلى النار، ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار، وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم، ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة، وكل روعة لهم مبيدة، فإنهم قطعوا ساقة العدو عن اللحاق بمقدمته، وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته، وقتلوا خيلاً وخيالة، وفوارس ورجاله، وقدروا وتمكنوا، وجرحوا فأثخنوا، ونهبوا وسلبوا وأخذوا رؤوساً قطعوها، ووقذوا نفوساً قلعوها، وغنموا أقمشة وأسلحة، وحصوا من اللاحقين بهم قوادهم وأجنحة، ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف، وتحكم فى فلهم السيف فأقاموا إلى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم، وإراحة طليحهم، وإثارة ما ركد من ريحهم، وقد رحلنا وسبقناهم إلى طريقهم عازمين على تبديدهم وتفريقهم وتشتيتهم أيدى سبا وتمزيقهم، فقد تمكنت بتأييد الله أيدى الأيد من سبتهم وقتلهم، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطه، ولأعدائنا من عبطه، إلا ونبادر ببشراه إلى مواحل لتقوى فى نصرتنا عزيمته، وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته، وتروض مواحل الآمال مع أوان الديمة الربيعية ديمته، ويغلوا فى سوق رواجه من الدين ما ظن أنه رخصت قيمته وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثار الإسلام وقد سبيت من عكاء كريمته وإذا تأمل عرف أن الخطب عظيم وما لدفعه إلا العظيم، والهم مقيم وما لرفعه إلا بأسه المقعد المقيم، وسيقتضى دين هذا الدين الغريم الزعيم.

* * *

وقعة قيسارية

وفى غدوة الاثنين تاسع شعبان جاء من أخبر برحيل الفرنج السلطان، وإنهم سائرون ثائرون، وعلى أجنحة الجرد طائرون، وحول رجالتهم بخيلهم دائرون، وهم فى جمع لهام، وقد انقسموا ثلاثة أقسام، كل قسم راجلة بخيله محفوظ، وبأعين القسمين الأخرين من خلفه وقدامه ملحوظ، وكان السلطان تقدم من الليل بركوب الخيل، فركب فى كل خواض للغمرات، فياض بالعزمات، رواض للجامحات، نهاض بالجانحات، ملتثم مع اللثم بالنقع والدجى، ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا، مقتحم فى حومة الوغى، مضطرم بجمرة الظبا، على نزائع ينقلن الردى على صهواتها، وصواهل يقذفن الحمام من لهواتها، ويكشفن الظلام بجبهاتها، ويبارين الصفاح بصفحاتها، وتعاسل الرماح بأعناقها وطلاتها، وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق إلى المنون على سابق، وكل تائق إلى المازق مازق وكل طائر فى الغبار على سابح، وكل غابق بالنجيع صابح، فى عراب متمطية بالعراب، ورقاق متخطية إلى الرقاب، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه، ونجترى عليه ونجاريه، والجاليشية ترمى وتدمى، وتصمم وتصمى، وطيور السهام تقصد من الأحداق أوكارها، والأوتار تنشد بالأرنان

أوتارها، وهم فى لباس حديد سد على السهام المنافذ، واشتك النشاب فيهم فأشبهوا قنافذ، وكانت هناك بركة كبيرة ومياهها غزيرة وهم على عزم ورودها والإحاطة بحدودها، فحلأناهم عنها، وأبعدناهم منها، وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا إلى الفضاء فيدخلوا من تمكننا منهم تحت حكم القضاء، لكنهم ارتابوا وارتاعوا، وطلبوا النزول بها فما استطاعوا، فانحرفوا إلى الساحل، وانصرفوا بالفارس والراجل، واجتمعوا سائرين، وساروا مجتمعين، وما زلنا نلزهم ونهزهم، ونحفزهم ونحزهم، حتى تمت مرحلتهم وعمت مقتلتهم، وتثلمت الصفاح، وتحطمت الرماح، وأجرت الأنهار الجراح، وجرى بالأرواح السماح. وحضر السلطان مع الجاليشية ناجح الإرادة نافذ المشية، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب وقد أنصبوا إلى النصب، وما كانوا يرجون وما كادوا ينجون، ولما نزلت بهم فى مسيرهم النوازل نزلوا وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا.

* * *

مقتل أياز الطويل

واستشهد فى ذلك اليوم الهمام المقدام، الأسد الضرغام، الطاعن الضارب، الباسل السالب، الغضنفر الهرماس، الفارس الفراس، أياز الطويل وطالما عرض نفسه فى سوق الشهادة، وأقدم إقدام الساعى إلى السعادة، وكان إلى الصريخ أسمع متنصت، ولعطاس النقع أسرع مشمت، وإلى ضيف الحمام أسبق ملتفت، ولسيف الإقدام أرشق مُصلتْ، لا يروعه الروع إذا حفزته عزمته، ولا يهوله الهول إذا همت به همته، وهو أول مَن يركب وآخر من ينزل، ويدبر سواه وهو يقبل، ويسابق إلى المضار ولا يمهل، وهو أبداً يدعو إلى المبارزة ويعدو على المناجزة، ويقف بين الصفين على صافنة، ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه إلى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه، فما برز إليه إلا من برزت إليه منونه، وفاضت بالدم من عيونه عيونه، فكم كف للكفر كفها، وبكْرٌ للنصر زفها، وأنف للشرك جدعه، وذى أنَف للفتك صرعه، ولبه للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه، وطلية للمتغشمر طنت فيها أذبة صفاحه، وأجفان للأقران نبتت فيها أهداب سهامه، ووجوه للشجعان تفصلت فى حساب حسامه، فلما جاءه الأجل ما أجل ولكن إلى الجنة به عجل، فإن حصانه خانه وما صانه، فعثر به فى حالة الإقدام، وجلا قمره فى هالة الحمام، ولم يخف لثقل الحديد للقيام، وطعن وضرب، وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب، ولما أدركه الأصحاب ألفوه وقد فات، ورافق فى عليين الأحياء فى سبيل الله لا الأموات.

ونزلنا بعد انقضاء الحرب على البركة شديدى الشوكة حديدى الشكة. ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب فى أوله، وهو الذى نزل العدو فى أسفله، وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة. ولما أصبح

السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدوء، ينتظر ما يكون من خبر العدو، وأقام الفرنج على حالهم، لتعبهم وكلالهم، ولأسباب منها جراحاتهم، عدموا منها منهاج راحاتهم، وكذلك ما ملكهم من رعب الهلاك والابتراك فى الارتباك.

* * *

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم فى ساقة اليزك، مستيقظًا للحفظ والدرك، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين، ركبوا بغير عدة مسترسلين ولأخبار عسكرنا مستشرفين، وهم مما تم عليهم غير متخوفين، فعبر إليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم فى لقائهم فقتل منهم عدة، ولقوا منه شدة، وأسر ثلاثة قبل أن ينالوا إغاثة، ثم ركب الفرنج إليه وحملوا عليه، وكانت وقعة عظيمة جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة، وأحضر الأسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنه جرح بالأمس منهم ألف، وسرى فيهم وهن وضعف، وقد جرى عليهم أمر عظيم، وبلاء مقعد مقيم، ورحلنا وقت الظهر، وعبرنا شعراء أرسوف فى الطريق الوعر، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب على قرية يقال لها دير الراهب، ومضى السلطان جريدة إلى قرب أرسوف، وأطال هناك الوقوف، حتى رأى أرضا فى طريق العدو تصلح للقائه، والإحداق به من أمامه وورائه، وأقام يوم الأربعاء فى ذلك المنزل والعدو فى منزله الأول.

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان فى اليزك علم الدين سليمان بن جندر، قد ظهر فيه واستظهر، فراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه، فاجتمعنا يوم الخميس على التأسيس ثم تحدثا فى الحوادث، وعوادى الحروب العوائث، وأن السلم متعينه، والسلام فيها متبينه، والمصالحة مصلحة، والفائدة مترجمة، قال: وما جئنا إلا لإصراخ أهل الساحل فوقعنا فى الشغل الشاغل، فإن أصلحتموهم واصطلحتم استرحنا واسترحتم، فقال له الملك العادل: ما الذى فيه تحاور وله تحاول؟ فقال: رد البلاء برد البلاد، وسلوك مسلك الإسعاف والإسعاد، فقال العادل: هذا لا مطمع فيه وهذا رسم باطل حقا معفيه، ودون حدود البلاد حدود الحداد، وخلط القتام وخرط القتاد، وصرف عنان صرف العناء إلى المتصرفين بالعناد. وأدركه حكم الحمية والحفيظة وغلى مرجل غيرته فى الكلمات الكاملات الغليظة، وكان الترجمان بينهما هنفرى بن هنفرى، فلما سمع ملك الانكتير ما راعه ما استطاع سماعه، وثار ثورة المحنق المحرق، وآل اجتماعهما إلى التفرق.

* * *

وقعة أرسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغية وأنه مصر على تلك المباغى الباغية، جمع يوم الجمعة وقت الإصباح الأصحاب، واستحضر من أسد غابه من غاب، وأمر برحيل الأثقال، وأقام فى رعيل الرجال، وركب فى عجم أنجاب، وعرب على عراب، وكرد على جرد، وكل سابق ورد على سابق ورد، على خيل من سماتها آثار الطعن، وعلى جبهاتها أنوار اليمن بأكباد غلاظ على العدا، ورقاق حداد على الطلى، ونبال مصمية لبان المصمم ورماح لدن لدنها ضغم الضيغم المعلم. فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه وبات وقد فارق جفنيه غراراً نصله ونومه. فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ركب العدو على صواب أرسوف وقد ضم الرجال والفرسان وهو سائر فى ليل حالك، وسيل سالك، وخيل عالك، وحزب الشيطان وحرب الإيمان، وأصحاب الجحيم، وأقطاب الضلال البهيم، وخطاب الخطوب، وإنداب الندوب، وكفاة الكفاح، وصفاة الصفاح، وأجناب الكفار، وأنجاس الداوية، وأرجاس الاسبتار، وكل غيران غيروان، وأفعوان معتقل أفعوان وكل أرقم فى جلد أرقم، وكل أزرق أشقر على أدهم. فأحدقت به أحلاف عساكرنا إحداق النار بالحلفاء، ونقلت بنسور ضوامرها الأرض إلى السماء، وخاضت الغمرات، وأفاضت الجمرات، وأفاظت المهجات، وشبت نيران الهنديات، وأهبت رياح العربيات، وألهبت شعل اليمانية، وألهت بها مقل الفرنجية، وجال عليهم فى الجاليش، الترك على الأكاديش، وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق، وبرزت بيضها لمعانقة الأعناق، ولمع شرار النصال فى دخان العجاج، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج، وأفضى فيض ينابيع النبع إلى إعجال الأعلاج، فإن الفرنج أغذوا فى سيرهم وجدوا واحتدموا واحتدوا وامتدوا، وقربت منهم الأطلاب، واختلط بهم الأصحاب، وتعانقت الرقاق والرقاب، وأحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب، وقربوا من أرسوف، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف، وضاق خناقهم، وحاق بهم إرهاقهم، ونشبت الجاليشية فيهم بالنشاب، وشبت نيران المرهفة فى أولئك الأوشاب، فاحتملوا فى جلودهم الجرح ومن أجلادهم الطرح، ووجدوا الموت الغالى مسترخصاً، وأيقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصاً وعرفوا أن البلايا عليهم متصلة غير منفصلة، وإن قواهم لما فوق ما لقوه من النكاية غير محتملة، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها، وكادت تخلئها شوارع القنطاريات عن مشارعها، لكنها تحيزت إلى القلب المنصور وفازت من وجوه النصر بالصفور، واستشهد فى تلك الفورة الثائرة، والثورة الفائرة، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة، فما صرعوا حتى صرعوا. ولما أشرعت إليهم الرماح أشرعوا، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة أردتهم وردتهم، وصدفتهم عن الاستنان فى جدد تلك الحملة

وصدتهم، وفرست منهم فوارس، واتعست معاطس، وفرشت بالعراء لهم أشلاء، وأثخنوهم طعانا ورماء، فنزلوا فى أرسوف وقد كسروا وخسروا، وقتل قوم منهم وأسروا. وفى ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، وحمل فى أصحابه أسد العرين، وسدد إلى نحورهم الشوارع، وقلع منهم قلائع، وثبت عسكر الموصل وكذلك قايماز النجمى فى موضعه الأول، وكانت العساكر فى شعراء أشبه، وشجراء منشبه، فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم، فعاد وعبر أسرف ونزل قريبا من الماء، وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء، وأقام العدو يوم الأحد فى موضعه منكوبا بتعب تبعه، ثم رحل يوم الاثنين سائرا إلى يافا، ليستدرك بها رطه ويتلافى، ونازلتهم العساكر بالنوازل إلى أن نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

* * *

فصل من كتاب السلطان إلى الديوان العزيز يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكاء

... فى مواضع ما لليزك عليهم فيها سبيل، ولا لقداح القراع فى مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم فى كل مضيق وتطرقهم بالبلاء بل المنايا فى كل طريق، وهم على البحر لا يفارقونه ومن المورد إلى المورد فى كل مرحلة لا يتجاوزونه، فإن المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين، وإذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين. وكانت لنا إلى هذه الغاية معهم فى كل بقعة وقعة، وفى كل مرحلة مقتلة، وفى كل منزلة منازلة، وأوردناهم الردى فى كل مورد، وقصدناهم بالشدائد فى كل مقصد، وسبلنا حماهم للحمام فى كل سبيل، وساء صباحهم منا فى كل مغدى ومقيل، وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال. وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم، وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وأرهقناهم، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور، ودائرة السوء على أهله بنا تدور، وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ولولا أن الله تعالى قد أخر موعده فى نصر أوليائه وقهر أعدائه لوقع الفراغ من شغلهم وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم، فمنها يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم اليزكية الزكية، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنية، وكان الولد الأفضل يومئذ متولى اليزك، فتولى إسعار لهب المعترك، ووقف لهم فى المضيق على الطريق وباشر جمعهم بالتفريق، وقطع آخرهم عن أولهم وعاق الساقة عن الوصول إلى منزلهم، وبتر وبتك، وفتك وهتك، وقتل وسفك، وطلب وأدرك، وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر، واحتموا بالمنزل الوعر، ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول وتجمعوا فى الوعور عن السهول، ولم يبق إليهم نهج للوصول، وأقام الفرنج فى تلك المنزلة أياما وقد نالت معاطسهم إرغاما حتى

استجدوا عدداً واستنجدوا مدداً واستجدوا ممن وراءهم عدداً وأحكموا التدبير واستأنفوا المسير، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية وأنفذت إليهم رسل المنية وقتلت منهم مقتلة جيدة ولم تزل السهام إلى مقاتلهم مصوبة مسددة، إلى أن احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول، وقد قتلت من خيلهم عدة ألف رأس، لم ينفصل راكبها إلا وهو من ثوب النجيع كاس، ثم كانت المياه فى طريقهم متقاربة المناهل والمسافات غير متباعدة المنازل، فإذا لزوا بالمنازلة ارتزوا إلى المنزلة، ولاذوا وهم أهل النار بالماء وقادهم العجز عن الاحتمال إلى الاحتماء، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم وعاديهم، شاكين فى منعتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم، والخيل تجرى بهم جريان السيل، والراجل يلتف عليهم فى مثل سواد الليل، والعساكر الإسلامية جائلة فى عراضهم، مائلة إلى اعتراضهم، موفقة فى مرامها مفوقة لسهامها، محرقة أهل الجحيم بضرامها، ولما نشب فيهم النشاب وأعجزهم وأزعجهم وأخرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم، كابروا وصابروا إلى أن وصلوا أرسوف، وقد شارفوا الخسوف وقاربوا الحتوف، فحملوا بحملتهم حملة واحدة، وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة، واندفعت الأطلاب الإسلامية أمامها ولم تثبت قدامها حتى أبعدوا بحملتهم فى حملتهم وتفردوا بحركتهم فى معركتهم وظنها السلطان هزيمة، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز، وموئلاً للمتفزز المتحرز، ووقف الأخ العادل ثابتاً قلبه، نابتاً طلبه، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم، فاستدركت ما فرط فى النوبة من النبوة، واستمسكت بما استأنفته فى العزمة من القوة، وقتلت منهم كنداً كبيراً وعدداً كثيراً، وعاط نظيم هامهم بالعراء نثيراً، ونزلوا بأرسوف، راغمى الأنوف قد فل جندهم، وقتل كندهم، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين، كان مطاع أولئك الملاعين، وإبليس تلك الشياطين، والمعروف بسير جاك، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الأشراك، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية، ونفذ أمره على الداوية والاسبتارية، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه إنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل روحه حتى بذلوا، وجذع ملك الانكتير لمصرعه، وفزع من ورود مشرعه، ونزلت العساكر الإسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار، وخيمت عليه بحكم الاضطرار، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا، وكل منهم استدرك بقصده إياها تلفه وتلافى، فحال دونهم لقدح منونهم مجيلاً، ومن جمعهم بقمعهم مديلاً، وعلى قومهم بوقمهم محيلاً، حتى باسطهم فى ميادينها وخالطهم فى بساتينها ورابطهم بالأسود فى عرينها، وأسرى الحين إلى سراحينها، فما وصلوا المدينة إلا وقد تخطفوا من حولها واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها، وخافوا من فريضة مسألة النكاية

وعولها، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا، وعلموا أنهم إن خرجوا أخرجوا وإن سلكوا هلكوا، وزعموا أنهم إذا صبروا ملكوا.

* * *

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج إلى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة واجتمعت الأثقال كلها به فى تلك الرحلة، ورحل ليلاً وأصبح على يبنى، وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام به تبنى، وزرنا بيبنى قبر أبى هريرة رضوان الله عليه، وتبادر الناس للتيمن به إليه، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الأمر.

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء وشاور فى أمر عسقلان ذوى الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على ما بها، ووافقه الجماعة، وقالوا: قد ضاقت عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا وقد نزلوا بها وسكنوا فيها مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل إلى حفظ المدينتين ولا تفى الحال بحماية البلدين، فإن كل واحد منهما بحتاج فى حفظه إلى عشرين ألف مقاتل، وإلى الاستكثار لأجل ذخائره من كل حاصل، فانظر إلى أصوب الرأيين فقدمه، وأبصر أخطر الداءين فاحسمه، واعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وأحكمه، وتيقن أن عسقلان إذا وصلوا إليها وهى سالمة تسلموها، واستظهروا بها وأحكموها، وتقووا بها على سواها، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم إلى منتهاها، واقتضت الآراء إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم ومن قصده على عزم.

ووصل السلطان إلى عسقلان وشرع فى هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا وصونها ممكنًا، لكن وجد كل له متجنبًا متجنبًا، وقد راعتهم نوبة عكاء وحفظها ثلاث سنين. وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين وقال من تعلل واعتذر من دخولها وحل عقد عزمه عن حلولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك، فتدخلها اتباعًا لمرادك، فحينئذ لم يجد بدًا من نقض أسوارها وغض أنوارها وفض سوارها وتعفيه آثارها، وتطفيه نارها، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها، مذ يوم فتحها واقتنائها، لما تطرق إلى أيدها خلل، ولا إلى يدها شلل، ولا إلى حدها فلل، ولا إلى ودها ملل، وقد كنت ركبت إليها وطفتها، واستحسنتها واستلطفتها، ورأيت سورها قبل فصم سواره، ونورها قبل ذبول نواره، فما رأيت أحسن منها ولا أحصن، ولا أحكم من مكانها ولا أمكن وسكانها كانوا فى رفاهية، فانتقلوا منها على كراهية وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الأثمان، وفجعوا بالأوطار والأوطان، وساءت أسواؤها، ونأت أنواؤها، ورئيت دائرة الزلزال فى دورها المتزلزلة،

وناحت تلك النواحى، ومسحتها المساحى، وجرفتها المجارف، وأخافتها المخاوف، ونكرتها المعارف، وبهرجتها الصيارف، ونعتها النواعب، ونابتها النوائب، ونزلتها النوازل، وغالتها الغوائل، وسفتها السوافى، وعفتها العوافى، وخلت مدارس آياتها من التلاوة، وتخلت مجالس مكرماتها على الطلاوة، وصوحت مجانى مبانيها، وطوحت معانى مغانيها، ودجت مجالى معاليها، وعادت مقاوى مقاريها، ووقفت على طلولها واستوقفت، وأسيت عليها وأسفت، وتلهبت وتلهفت، وشاهدتها وقد حسرت وحفيت، ومحى سنا محاسنها وخفيت، وبكيت تلك الربوع ، وأهديت لسقياها الدموع فلقد أصيب الإسلام بعروسها وعبست الوجوه لعبوسها حين ثار نقع بوسها.

فلما خلت مساكنها من سكانها تخلف بالبيوت رماد نيرانها، رحل السلطان يوم الثلاثاء ثانى شهر رمضان ونزل على يبنى، بعد أن ترك سور عسقلان وقد تعذر أن يبنى، ونزل يوم الأربعاء ثالث الشهر بالرملة، وتفضيل جميله باد على التفصيل والجملة، وأمر بتخريب حصنها وتخريب لد، وبذل كل فى ذلك الجهد، وركب جريدة إلى البيت المقدس وأتاه يوم الخميس وأعاد إليه رسم التأنيس.

وخرج منه يوم الاثنين ثامن شهر رمضان بعد الظهر وبات فى بيت نوبة، وقد نال بما رتبه من مصالح القدس المثوبة، وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء ضحوة وقد أكمل من كل ما رامه حظوة. وفى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان، ملتجئًا من أخيه وأبيه إلى السلطان، فتلقاه الملك العادل وجاءته منه الفواضل، وأقام فى الخدمة السلطانية مدة واستجد بها جدة، وقوة وشدة، واستظهر بالمصاهرة، وقوى منها بالمضافرة، فإنه تزوج بابنة العادل وعاد بتاريخ مستهل ذى القعدة ناجح الوسائل.

وفى هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير فى خيالته متنكرًا، ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرًا فخرج عليه الكمين ونشب به اللعين، وجرى قتال عظيم، وكان لأصحابنا موقف كريم، وكاد الملك يؤخذ ويوقذ والطعن فى لبته ينفذ، ففداه فارس من أصحابه بنفسه وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه، فاشتغل به وأيسر وأفلت اللعين وأخفى أثره، وقتل وأسر من خيالته جماعة، وانهزموا من أمر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة، وجرت أيضًا يوم الجمعة ثانى عشر الشهر حرب بين اليزكية وبين أهل الكفر سفرت لنا بها وجوه النصر وقتل مقدم لهم معروف، بالشجاعة موصوف.

ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشرة ونزل على تل عال عند النطرون، وهى قلعة منيعة معجبة للظنون والعيون، فأمر بهدها وهدمها، وفل غربها وثلمها، وأشاع بها الإقامة، وأفاض فيها على العسكر الكرم والكرامة، وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الأثقال، وإنفاذ الجمال لنقل الأزواد والغلال.

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز فى وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار، وإنضاه قتال الكفار بالليل والنهار، لا سيما فى هذه السنين الأربع، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع، ولا شتا ولا صاف، إلا حيث صف العدو وصاف، وقد تكررت عليه الزحوف، وتعثرت به الحتوف، وتفللت منه السيوف، وتحلحلت به الصفوف، وتمخضت بآحاده الألوف، وتمحضت لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الأخضر القطوف، حتى سئم ومل، وضجر وكل، وكم عقد عزمه وحل، وأنهل نصله من دم الكفار وعل، وأمل النصر فقال عسى ولعل. وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد وأنضاها الطراد، وفرى جلودها الجلاد وعزت منها لكثرة الجراح الجياد، وأعادت شهبها كمتاً حدود البيض الحداد، وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح، وتفريق السهام منها بين الجسم والروح صارت تنفر من رنة الحنية، وأنة المبرية، كان عندها للأوتاد أوتاراً ولطائرات النصال فى لباتها أوكاراً، أو كأنما لما رأت أنها تباريها فى المطار، وتجاريها فى المضمار، ثارت لإدراك الثار، وهذا سبب ما حدث من النفار، وما عدات الآن تدخل على راجل الكفار، وأما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت وتكسرت وتحطمت، وتقصفت وتقصبت وتقصمت، وقتلت قبل المقاتل بها وفى يد من استشهد استشهدت، وأما النشاب فإنه قد فنى، بعد أن اتخذ من أخشابه جميع ما وجد واقتنى، وقد عدمت أشجاره فى منابتها، وأعوزت أخشابه من مناحتها، ونفضت الكنائن وانفضت منه ومن كل ما يذخر الخزائن، وما تبرح الصناع فى الممالك بمصر والشام وما يجرى معها من بلاد الإسلام، يبرون ويريشون، وينصلون ويعملون ويكلمون ويحملون، واحتيج فى هذه السنين التى استمر فيها القتال إلى أحمال كثيرة لا يفى بها الصناع ولا يرفعها العمال، وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدها المعادن، وخلت من ذخائرها الأماكن، وهذا والخادم قائم بأداء هذا الفرض وحده مسترهف فى قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده، وما استمر على مساعدته وموازرته ومعاقدته، إلا صاحب الموصل وسنجار وكلاهما عن سنن الإسعاف والإسعاد ما جار، فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده، ويستمر من جد الموازرة على جدده، ويواظب بعدده وعدده، ومدده فى مطاولة مدده.

* * *

ذكر ما تجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة فى المواصلة

وصلت رسل ملك الانكتير إلى العادل بالمصافحة على المصافاة، والمواتاة فى الموافاة، وموالاة الاستمرار على الموالاة، والأخذ بالمهاداة، والترك للمعاداة، والمظاهرة بالمصاهرة، وترددت الرسل أياماً، وقصد التئاماً، وكادت تحدث انتظاماً، واستقر تزوج

الملك العادل بأخت ملك الانكتير، وأن يعول عليهما من الجانبين فى التدبير، على أن يحكم العادل فى البلاد ويجرى فيها الأمر على السداد، وتكون الامرأة فى القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله فى أوجهها، ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستبار ببعض القرى، ولا يمكنهم من الحصون التى فى الذرا، ولا يقيم معها فى القدس إلا قسيسون ورهبان، ولهم منا أمان وإحسان، واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد، وجماعة من الأمراء من أهل الرأى والسداد، وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وقال لنا: تمضون إلى السلطان وتخبرونه عن هذا الشان، وتسألونه أن يحكمنى فى هذه البلاد، وأنا أبذل فيها ما فى وسع الاجتهاد. فلما جئنا إلى السلطان عرف الصواب، وما أخر الجواب، وشهدنا عليه بالرضا وحسبنا أنه كمل الغرض وانقضى، وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشرى رمضان وعاد الرسول إلى ملك الانكتير لفصل أمر الوصلة، وإزاحة الجملة وإزاحة العلة، واعتقدنا أن هذا أمر قد تم، ونشر انضم، وصلاح عم، وصلح أذم، وحكم مضى، واستحكم به الرضا وأن الأنثى تميل إلى الذكر، وتزيل وساوس الفكر وأن بركوب الفحل النزول عن الذحل، وأن الشكر يجلب الشكر، ويبدل بالعرف النكر، وأن الوقاع يؤمن من الوقائع وأن القراع ينقضى بانقضاض القارح القارع، وأن الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم، وأن غرم العرس فى العسر يسر وغنم، وأن هذا الأخ لتلك الأخت كفو، وأن هذا العقد للخرق المتسع رفو، وأن الكدر يعقبه صفو، وأن الترويج ترويج وتقويم لما فيه تعويج، وشاع الذكر، وضاع النشر، وذاع السر، وبلغ الخبر إلى مقدميهم ورؤوسهم، فقصوه على قسوسهم، وعسروا على عروسهم، فجبهوها بالعذل واللذع، ونجهوها بالقدع والقذع، وقالوا لها: كيف تفجئننا بأفجع ملم مؤلم، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم، فإن تنصر تبصر، وإن تسرع فما تعسر، وإن أبى أبيناه، وإن أتى أتيناه، وإن خالف خالفناه، وإن حالف حالفناه، وأى وجه هاهنا للائتلاف، ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف، فرهبت بعدما رغبت، وبطلت بعدما طلبت، وسلت بعدما سألت، ونزت بعدما نزلت، وكرهت وكانت شرهت، وكانت اكتحلت فودت أنها مرهت، فأرسلت إلى الرسول وأقبلت عليه بالقبول، ثم تصلبت فى القسم وأقسمت بالصليب، أنها مجيبة إلى التقرير والتقريب، وإنها مسارعة إلى التمكين لكن بشرط الموافقة فى الدين، فأنف العادل وعدل عن استئناف الحديث ، وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث. واعتذر الملك بامتناع أخته، وإنه فى معالجتها وتعرف رضاها فى وقته، وكان قد استقر مع تمام العهد، وانتظام العقد، مفاداة كل أسير بأسير، كبير بكبير وصغير بصغير، وبشر أولياء الطاغوت بصليب الصلبوت، فبطل التدبير، وعطل التقدير، وذلك ثانى يوم العيد.

وفى يوم العيد وهو الثلاثاء أعد السلطان من الليل خلع الأكابر حتى سارت إليهم بكرة، وأحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة، ثم استدعاهم إلى سماطة، ونشر لهم بساطة نشاطه، وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان عن يمينه، وأعزه بتقريبه وتمكينه، ويليه حسام الدين خضر أخو صاحب الموصل، ولسمو منزلته دنو المنزل، وعلاء الدين ابن أتابك الموصل عن يساره، وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بإيثاره. ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس، والأكابر كلهم هناك فى منزلته منافس، ثم تفرق الناس بأنس جامع وعرف شائع، وعرف ضائع.

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقعته له فى كل يوم

تواتر الخبر بأن الفرنج على عزم الخروج، وأنهم على الاجتماع فى تلك المروج، فسار يوم الاثنين سابع شوال، وقد أركب العسكر للقتال. فلما بلغ قبلى كنيسة الرملة جميل الحال حالى الجملة، خيم وبات، ونوى البيات والثبات، وجاء الخبر فى غد، بأنه خرج العدو إلى يازور فى أوفر مدد، وتسارع العسكر إليهم وتكاثروا عليهم وقربوا من خيامهم وأخذوا عليهم من ورائهم وأمامهم، وناشبوهم بالنشاب، وكاثروهم بالأوباش والأوشاب، فركب الفرنج إليهم ركبة، أوجبت رهبة، وحملوا على الناس حملة واحدة، وحلت عجاجة عليهم عاقدة، فاندفعوا بين أيديهم، فأدركوا ضعافا طمعوا فيهم، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة، وكانت مسعاتهم إلى السعادة، وكذلك فى كل يوم يركب السلطان ما يخلو من وقعة، ولا بد للكفار فيها من صرعة.

ذكر وقعة الكمين

وفى ليلة الأربعاء سادس عشر شوال أمر السلطان رجال الحلقة المنصورة بأن يكمنوا فى جهة عينها فى المواضع المستورة، فكمنوا وأمنوا وصبروا وانتظروا وخرجت الفرنج للاحتشاش، وباشروا عثار انحصارهم فى الإصحار بالانتعاش، ولقيتهم أعراب على عراب، بصوارم فى أيمانهم كأنها بروق فى سحاب، فركبت إليها من الخيام، ورحبت فى ترحيب صدورها بصدور الحمام، فاندفعت العرب أمامها وحققت انهزامها، وما قدرت على قصد موضع الكمين لانسداد الطريق بالآساد الشم العرانين دون العرين، فمرت العرب فى جانب والكمين فى جانب، والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب، ونجا العرب، وفاتهم الطلب، وحضروا بأسارى ونهب، وأفراس وأسلاب، فأما أصحابنا فى الكمين فإنهم أبصروا الفرنج ناهضين وفى المعترك راكضين، فخرجوا على ظن أنهم على قصدهم فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم، وركضوا إليهم على بعد، فأتعبوا الخيل بما جدوا فيها من إحضار وشدو،

ووصلوا إلى الفرنج والجياد قد رزحت، والقوى قد نزحت، فاضطروا إلى القتال وقاتلوا على الاضطرار، وقتلوا جماعة من كفاة الكفار، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار، وهم أياز المهرانى وجاولى الغيدى وصارو، وسروا فى جنات النعيم بما إليه صاروا، وأسر من الفرنج فارسان معروفان، وأحضروا عند السلطان، وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الإسلام عن حزب الكفر، وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه والخيل تقاد إليه، والأسارى يحضرون بين يديه، وأخوه العادل عنده جالس وكلاهما لأخيه مؤانس.

* * *

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام، وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام، وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة، ودامت المثافنة والمنافثة، ثم افترقا عن موافقة أظهراها ومصادقة قرراها، ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلى المعروف بالصنيعة ليتفقد الأسارى الذين بيافا، ويتدارك أمرهم ويتلافى، وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس، وإنه يرغب فى سلوك نهج التأنيس، وأن يكون للسلطان مصالحا وله على الطاعة مصافحا حتى يقوى يده على ملك الانكتير، وينفرد هو بالملك والتدبير، وعرف ملك الانكتير بالحال، فوصل رسوله أيضاً بالإحفاء بالسؤال. ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت ونسخ أيمان حررت. وأما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود، ولم يجر من تلونه إلا على المعهود وكلما أبرم عهداً نقضه ونكثه، وكلما قوم أمراً عكسه وعلثه، وكلما قال قولاً رجع عنه، وكلما استودع سراً لم يصنه، وكلما قلنا يفى خان، وإذا خلنا إنه يزين شان، وعن كل خزى أبان.

وفى يوم الأحد سابع عشر شوال عاد السلطان إلى المخيم بالنطرون، وأقام على الثبات والسكون. وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة سار ابن قليج ارسلان صاحب ملطية مودعاً، وركب السلطان وسار معه مشيعاً، وعقد له على ابنة الملك العادل بصداق مائة ألف دينار ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار، واستبصار واستنصار ويسر ويسار.

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذى القعدة وتقدموا إلى الرملة ونزلوا بها، وخيموا فى أقطارها وسهوبها، ولم نشك فى أنهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس، وأقام السلطان وفى كل يوم له سرايا للكفر منها رزايا ولنا فى كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيدة، وما يخلو يوم من أسرى تقاد وغنائم تستفاد، ثم توالت الأمطار وتوعرت السهول وتوحلت الأوعار فعزم على الرحيل وأمر بالتحويل.

ذكر الرحيل إلى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذى القعدة

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل، والنصر شامل، وفضل الله متواصل، ونحن معه سائرون، ومن بركة الجهاد إلى بركة القدس صائرون، والقاضى بهاء الدين ابن شداد يسايرنى، وفى مسألة من الخلاف يباحثنى ويناظرنى، حتى وصلنا إلى القدس قبل العصر وقد نشر السلطان لواء النصر، ونزل بدار الأقساء المجاورة لكنيسة قمامه ونوى بها الإقامة وشرع فى تحصين المدينة لتحصيل السكينة، وصلى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة فى قبة الصخرة وضجت الألسنة فى الدعاء له بالنصرة.

وفى يوم الأحد ثالث ذى الحجة وصل حسام الدين أبو الهيجاء من مصر، بعسكر مجر وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية، ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون وآذن ذلك بتزاحم الأفكار وتراجم الظنون وتزايل السكون، وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة تم على العدو بها صرعة، فإن السلطان نفذ تلك الليلة إلى اليزك قريب بيت نوبة، عدة من الفرسان مجرة لم يستصحبوا إلا حصنهم المجنوبة، فوقعوا على سرية للفرنج فاستأصلوها، وأسروها وقتلوها، ووصلوا بزهاء خمسين أسير إلى القدس، وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس، وكانت بشرى عظيمة، ونعى كريمة، وحسنى عميمة، وكذلك سابق الدين صاحب شيزر، ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة وأسر أربعة، وترك بالمعركة منهم مصرعة، وكسب منهم خيلاً وكسبهم ويلاً.

* * *

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة فى هذه السنة وتضاعفت للحجيج الحسنة على الحسنة، غير أن العيد بالقدس كان يوم الأحد، فلم ير ليلة الخميس الهلال أحد، ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص، وصلى الناس فى القبة العيد وملأوا حواليها العراص، ثم انصرف السلطان وقد بر عمله، ودر أمله، ووفر أجره، وأسفر فجره.

وقعـــة

فى يوم الجمعة خامس عشر ذى الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر، وكلاهما يجد فى الجهاد ولا يقصر، وأخذ غنائم وأموالاً، وساقا خيلاً وبغالاً، وكسبا أحمالاً وأثالاً، وأسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين، ووقفوا بين يدى السلطان على ركب الذل جاثين، وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب، وكسرت وكثرت منهم الكسوب، واستعرت فيهم الحروب، وزادت الكروب، وضاقت عليهم الأرض، واستولى على عقود عزائمهم النقض، ورأوا أنهم قهروا فقهقروا، وأحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا، ورحلوا إلى الرملة عائدين،

وبالسهول من الحزون عائذين، فإن الثلوج دامت على أولئك العلوج، وصدتهم عن الدخول والخروج، ونزلت بهم النوازل فى تلك المنازل، فنفروا راحلين إلى السواحل، وذلك فى يوم الخميس الثامن والعشرين من ذى الحجة فطابت قلوبنا بما وضح فى النصر من المحجة، وثبت للحق على الباطل من الحجة.

* * *

ذكر ما اعتمده السلطان فى عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره وإعادة رونقه

وفى هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين وعدتهم خمسون رجلاً، إذا اجتمعوا قطعوا جبلاً، وقد سيرهم صاحب الموصل إلى القدس للعمل فى الخندق وتعميق الحفر، والقطع فى الصخر، وقد سفرهم بنفقة، وجعلهم من الإحسان على ثقة، وأصحبهم بعض حجابه، ونداهم بندى سحابه، وسير مع المندوب مالاً يفرقه عليهم فى رأس كل شهر، ويتعاهدهم فى كل يوم بتفقد بر، فأقاموا نصف سنة، وأتوا فى صنعتهم بكل حسنة، وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق، وإنشاد سورٍ وثيق، وأحضر من أسارى الفرنج قريب ألفين، ورتبهم فى العمارتين، وجدد أبراجًا حربية من باب العمود إلى باب المحراب، وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب، وبناها بالأحجار الكبار الثقال، فجاءت أرسى وأرسخ من الجبال، وكان الحجر الذى يقطع من الخندق يستعمل فى بناء السور، وإذا تكملت العمارة على ما رتبه للقدس المعمور، كان آمنًا من قصد العدو المدحور، وفى عصمة الله من المخوف المحذور. وقسم بناء السور فى مواضعه على أولاده وأخيه الملك العادل وأمرائه، وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه، ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر إلى مواضع البناء، ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواصه والأمراء، ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية وحواشى العسكر والأتباع والرعية والسوقية، وكنت أركب فى غلمانى وأتباعى، وأحفظ قلب السلطان فى نقل الحجر وأراعى، فبنى فى أقرب مدة ما تعذر بناؤه فى سنين وبذل جهده فى التحصين لتأمين المؤمنين.

* * *

ذكر من توفى من الأكابر والمعروفين فى هذه السنة وفاة تقى الدين

توفى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو على حصار ميلازكرد من عمل أرمينية وقد سبق ذكر مسيره إلى بلاد الجزيرة لاستمداد الأمداد الكثيرة واستجناد الأنجاد، والاستنجاد بالأجناد، والجمع من جميع الجهاد للجهاد، والعود سريعًا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة، والجيوش المترادفة المترافدة، والجنود المتوافرة المتوافدة، والقواضب القاصلة، والهواضب الهاطلة، والمصافحين بالصفاح، والمختالين فى أعطاف المراح بأطراف الرماح،

والحاملين الجبال على الرياح، والمتعطشين إلى انتجاع النجيع لإرواء الأرواح، ومكث السلطان على انتظاره متوجساً لأخباره، مستوحشاً من إبطائه، متعطشاً إلى أنبائه، منتظراً لوفائه، فلما أخذ الفرنج عكاء نسب ذلك إليه، واحتسب الله عليه.

فأما تقى الدين فإنه عنّ له أن يمضى إلى ميافارقين واستصحب إليها عسكر ماردين، ونفذ إلى السويداء وانتزعها من أيدى أصحابها، واستحوذ على جميع ما بها وحاصر مدينة حانى فتملكها، وكانت له مقاصد فى ديار بكر فأدركها، واقتطع بلاداً من ولاية ابن قرا أرسلان وأقطعها، وأرعب القلوب بما ابتدأ به وابتدعه وروعها، وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر، وحصلت منه على عذر وذعر، وراعت هيبته، وهبت روعته، ودبت إلى الخواطر مخافة أخطاره، وشبت فى القلوب لوافح ناره، وارتجت تلك الآجام من زاره، وازورت من مزاره، وبليت تلك البلاد ببلائه، وهابت الأعداء هبة أعدائه، وزلت الأقدام لإقدامه، وانخفضت الأعلام لإعلاء أعلامه، ونفى عدله من جبلجور جبلة الجور، وأذهب بذهابه إليها فوران الفتنة على الفور، ودخل قلب قلب، وحكم فى عداتها الغلب القضب، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكسره، ثم سرح بالإحسان وأطلق من أسر، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه، واعتلق بأذن الشنف شنفه، وانتخت حميته، وحميت نخوته، وغيرته غيرته، وعيرته رعيته، وأودعته الهم همته، وحركته عزمته، فاجتمعت جماعته وأمته أمته، وما أرجأ له نجح رجائه رجاله، وما أبطأ له عن إعانته إبطاله، وأجناه ثمر الطاعة أجناده، وأنجاه بجهد الاستطاعة أنجاده، وجر عسكراً مجراً، وساق إلى الحرب بحراً، وأوقد بالجمع جمراً، وجلب بيضاً وسمراً، ودهماً وشقراً، وصوارم بتراً، وصواهل ضمراً، وأنهض كمته وكمأته، وحشد رعيته ورعاته، وذوى حميته وحماته، وساكنى ولايته وولاته، ونسوره وبغاثه، وسمانه وغثائه، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثه، وجاء فى سواد أسود منه الجو، وانسد بظلامه الضوّ، وتحلى بنجومه ليل العجاج، وتجلى بسفوره صبح الهياج، وأبرق وأرعد، وتحدر وتصعد، وسار بين الآكام بالآكام، وضاهى الأعلام بالأعلام، وأذكى مذاكيه الجياد، وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد، وأدنى إلى الآساد الآساد، وأغرى بالجلاد الأجلاد، وجذب الجماح عرانه، وجلب الكفاح رعانه، وأشرع المراح رماحه، وأطلع فى سنى الصباح صفاحه، وماجت غدران دروعه، وهاجت غران جموعه، ومالت المران، وجالت الأقران، وسال المرت، ومرت السيول، وتسهلت الوعور، وتوعرت السهول، وانفض الفضاء، وانقض القضاء، واشتكت الأرض من الحوافر الحوافر وقعاً، فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها إلى السماء نقعاً، وحثت فى وجه الفلك تراباً، وحثت الأتراب الأتراب طعاناً وضراباً، وخاف على خلاط واختلط من المخافة، فقصر إلى الملك المظفر طول المسافة، فلما عرف إصحار خادره وانتشار بوادره وانتهاض قوادمه وارتكاض صلادمه وانقضاض شهب قواضبه

وانفضاض دهم سلاهبه، اصطف له بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب، وفض على الفضاء سحاب الصحاب، وبسط على البسيطة رداء الردى، وأعدى بعلوه على العدا، وركب فى كل ضرب يعد الضرب ضرباً من الضرب، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب، وكل باسل سالب من كباش الأقران القرون، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون، وكل شجاع أشاجعه وصائل القواطع، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحة السوابق، زائر بأسلحة البوائق، محلق بخوافى الخوافق، مطرق لطوارىء الطوارق، وكل ذمر مشيح، بالذمار شحيح، وكل قاس قوسه عاطف، وكل راع نصله راعف، وكل صاد عزمه صادق، وكل رام لحظ سهمه إلى المقاتل رامق، وأيد رجاء الرجال بأياديه، وقوى عزائم أوليائه لإضعاف أعاديه، ورغب بالرغائب وأملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه المواهب، ونخى المنتخين، وانتخب المنتخبين، وأقدم فى كل مقدم مقدام، وضيغم ضرغام، وهمام همام، ومعتقل أسمر يرشف ظلم القلوب، ومشتمل أبيض يكشف ظلم الحروب، وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام، وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام، وكل من يعيد أقاحى البيض شقائق، ويصل بها إذا فارقت أمادها المرافق، وكل من عنانه فى يمين الجماح، وسنانه مرود عيون الجراح، وكل من ذبال سمهريه يلتهب، وذباب مشرفيه يضطرب، ووجوه صوارمه تبكى وضحك، وعيون لهاذمه تفتك وتبتك، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمى، وسواعد سيوفه من أيدى الأيد تمد وتدمى، وكل أشعث الهامة ذى همة، تشعب صدع كل ملمة، وكل شهم شيظمى أباء حمى، مجرب محرب، مقرب على مقرب، مطهر على مطهم، جار بمرجم، بار بمخذم، ضار بأرقم، جواد حليم، تحمد فى الوغى جهلاته على جواد كريم، تدعو إلى الردى صهلاته، وكل بحر مستلئم بغدير، وكل من عنده إذا لبس الحديد أنه لابس الحرير.

فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط ود لو استدرك الغلط، وجاش وطاش، ورام من عثرته الانتعاش، وولى هزيماً، ولوى هشيماً، وأغنم العسكر التقوى سلاحه وخيله، وجر على تراب الذلة ذيله، وفر الملك المظفر بالملك، وأسلم العدا إلى الهلك، وقيد إليه أمراء أسروا، وأصحاء كسروا، فأطلق سراحهم، وأنهض بتشريفاته جناحهم، ثم رحل من صحراء موش، وساق إلى خلاط الجيوش، ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها وفتح مقفلها، وكان مجد الدين ابن الموفق وزير خلاط بها محبوساً ومن حياته يؤوساً، فخلصه واستخلصه، وكسر حتى طار منه قفصه، وإنه لمن أعجب القصص لو شرحت قصصه، ثم راح إلى ميلاز كرد ونازلها بالتضييق، وقاتلها بالمنجنيق وحشد إليها الأمداد، وأورى فيها من عزائمه الزناد، وجاءته عساكر أرز الروم منجدة من جدة، موجدة لما لها من موجدة، تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق كإنها فى الأهبة والأبهة من ملوك سلجق، ووفد إلى

تقى الدين الجنود ووافقته السعود، وخافته فى غاياتها الأسود، وغربت به العقول وعلقت به العقود، وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت، واستدنته الممالك القاصية، وأطاعته المقاصد العاصية وتشنفت له مسامع الأقطار بأقراط السمع والطاعة، وعم الإمحال تلك المحال ففض بما أفاضه من فواضله مجاعة الجماعة، ورجى وخشى، واعتفى وغشى، وامتلأت الطرق بالوفود والجنود، وتوالت إليه أمداد البأس والجود. فبينا هو فى غفلة من القدر، وغفوة من الكدر، وغرة من الغير، وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني، وجنى الحياة عن الموت الجاني، وزيادة الأمل عن زيارة الأجل، ونزل المنى عن نوازل المنون، وسكن الأتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم وأدركه القضاء المحتوم، ومرض أياماً ثم قضي، وانقرض عهده وانقضى، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن خرج من ذلك الإقليم وجاوزه وفاته، وفتحت ميلازكرد بابها، وسلم الرب أربابها وخرج ولد تقى الدين بعسكره وماله سالماً، وجد فى مقام والده بإظهار شعاره قائماً، وجاءت رسله إلى السلطان تسأله فى إبقاء بلاد أبيه بيده حتى يبقى مستمراً على جدده.

وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الأيمان، فلم يقبل الشرط واشتط فشط، وجلب له الشطط السخط، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول ما منه فرط، ونسبوه فى استيحاشه إلى العصيان وسعوا له فى أسباب الحرمان حتى انتخى له الملك العادل فمضى لإحضاره، وجرى الأمر على إيثاره، وسيأتى ذكر ذلك فى حوادث سنة ثمان.

وتوفى فى هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت السلطان

توفى بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقى الدين فأصيب السلطان بابن أخيه وأخته فى يوم واحد، وكلاهما له أقوى ساعد وأوقى مساعد، فيالله من حسام أغمد، وهمام ألحد، وركن وهن، وكن دفن، وبحر غاض، ورزء هاض، وصبح كسف، وبدر خسف، لقد غامت الأيام لغمه، وثكلته الدولة ثكل أمه، فإنه كان واحدها، وعضدها ومعاضدها، وهو الذى فتح نابلس وأبقاها السلطان معه، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه، وقد سبق فى الكرماء ذكره وذكر فى المكارم سبقه وقرظ حذقه، ووصفت مقاماته، وقمت بصفاته فإن له مواقف فى الجهاد مشكورة ومقاطف لجنى النصر مشهورة، فقطع الأجل عليه طريق الأمل، وأعاد حلية الزمان به إلى العطل، وأوهن عقد شبابه الطرى وحله، وثلم حد شباه الطريق وفله، وما زال فى غزواته مثيراً للتراب إلى أن سكن عليه التراب وسكنه، وطالبه الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه، وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه إلى السماء فاعتقلته، ووجدته فى أوج الفلك فى النيرات فنقلته، وما كان أذكاه وأذكاه، وأصحه وأصحاه،

وأبهجه وأبهاه، وأضوعه وأضواه، وأوعاه للفضائل وأحواه، ولقد فجعت به صديقًا صدوقًا، وشقيقًا شفيقًا، ورفيقًا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب، وسهم أصيب بعدما أصاب، وجواد بلا حساب لم يخطر بالبال من رزئه حساب، لكل أجل كتاب .

وتوفى فى هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته، ومواقفه ومقاماته، وكان فى الخدمة مقيمًا، والسلطان إلى الأنس به مستنيمًا، فعرض له مرض استأذن لأجله فى العود إلى وطنه بحلب، وسمح له السلطان بجميع ما طلب، وتوجه من القدس سادس عشر ذى الحجة واستقام على المحجة وقضى نحبه عند قربه من دمشق فى قرية غباغب، وستر التراب منه المناقب، ووصل الخبر بوفاته إلينا يوم الخميس ثامن عشرى الشهر.

وفى هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان بن ايلدكز فى همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت إرادته ورجحت سعادته، وصلحت عاداته، وكان السلطان السلجقى طغرل بن ارسلان تحت حكمه، وهو ابن أخيه لأمه، وله اسم السلطنة والقزل حكمها، وله سموها ووسمها، فأنف السلطان من كونه تحت حجره، وبحكم نهيه وأمره فإنه لم يكن له صاحب ولا غلام إلا من عنده ولم ينفرود منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل، واتصل به بعد ذلك من انضم إليه من الخيل، ودام غائبًا فى نواحى دامغان مدة، واشتد مصابه وأصاب شده، فاتصل به عدة من مماليك بهلوان الخواص، وسلكوا معه نهج الإخلاص، وأعادوه إلى سرير ملكه وانتسق أمره فى سلكه، وقويت يده وتأيدت قوته، واجتمعت كلمته، وتكلمت فى الأمر والنهى جماعته، ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره، وأخذ منه حذره، وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه، وأعلوا شأنه ورفعوه، وسعى بعضهم ببعض، وقابلوا كل إبرام من مكرهم بنقض، وقالوا له: هؤلاء البهلوانية يغتالونك، وبالسوء ينالونك، فابطش بهم قبل أن يبطشوا، وعثرهم قبل أن ينتعشوا، فسمع مقالهم وتبع محالهم وقتلهم بحضرته وهم غارون، وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون. فنفر منهم كل آنس وحفظ نفسه كل منافس، وزال بشره وبقى بوجه ابس، وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم، ولقوه بتأبهم، وقصده قزل أرسلان فأزعجه، وأخرجه من دار ملكه وأحرجه، وأجلس سلطانًا آخر موضعه، وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه، وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه وأطمعه، وأرضاه بالاسم وأجراه على الرسم، وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد، وانتظمت بينهما أسباب الاتحاد .

وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل أرسلان يعود إليها، ويستولى عليها، ثم إذا عرف قربه بعد، وإذا علم بعده قعد، وشرع يقتل أصحابه بالتهم، ويشتد فى النهب لشدة النهم، فقتل فخر الدين رئيس همذان، وبث العدوان ، وقتل وزيره العزيز بن رضى ا لدين المستوفى لأمر توهمه، والخاطر لم يكشف مهمه، فألجأ الزمان إلى الوصول إلى الأمير حسن بن قفجاق، وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق، فخرج معه وآزره وضافره، وظاهره بعد أن صاهره، وزوج أخته منه، وحمى جانبه وذب عنه، وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتى يصالحه ويصافحه على الوفاء ويسامحه، وكاد أن يتم الصلح ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح. فلما تقاربا للمصالحة تحاربا واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا، وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان وعادت الفتن ملتهبة النيران. وساق السلطان طغرل إلى همذان فمضى وراءه قزل ارسلان، فخرج إليه ثقة بما سبق من الإيمان، فصرف عنانه وقبضه وأعرض عنه واعترضه، وحبسه فى بعض القلاع وأبعد عينه وأثره عن الأبصار والأسماع، فاتسقت له المملكة واستقر منه السكون والحركة.

وكانت أصفهان منذ توفى البهلوان قد اضطربت واحتربت واقتربت الساعة بها وخربت وقتل فى ثلاث أربع سنين منها فى محاربة العوام ألوف، وتوالت بها حتوف وزحوف، وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية، وقوروا أيدى الترابية فى تخريب المدرسة النظامية فأحوجت الضرورة إلى أن أصحابنا دعوا بشعار السلطان، ووجدوا القوة به أمام قوته والإمكان، فلما اعتقل طغرل، واستمر أمر قزل، مضى إلى أصفهان فأخذ رؤساء الأصحاب فى المحال، وأجرى عليهم القتل والاغتيال، ثم عاد إلى همذان وقد قوى وروى، ونال ما هوى، ونشر من أمره ما كان طوى، وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس، ووجد بعدم من يوحشه الأنس ولها ولعب، وشرب وطرب، وغفل عن القضاء المشتبه، ونام عن القدر المنتبه، واغتر بالعيش الرفه وحلم عن الخطب السفه، وبات فى قصره، وقد غاب فى سكره وهو بين خدمه وحشمه وعسسه وحرسه وعتقائه وأرقائه ومستحصيه ومستخلصيه، فوجد على فراشه وهو قتيل ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل، فنسب قتله إلى الإسماعيلية تارة وإلى الخاتون الابنانجية أخرى، والله أعلم بما به حكمه أجرى.

ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون أربابه، وجلس قتلغ ابنانج ابن البهلوان موضعه، وجمع له ملكه ومنعه، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى أذربيجان وأرانيه سائقا إليها واستولى عليها. وأما السلطان فإنه أيس منه وسلا من كان يواليه عنه، فتعصبت له امرأة متولى القلعة ودبرت فى خلاصه وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياضه، واستعانت بمن أعانها وأعلت بإعلاء شأنه شأنها. ولما برز دخل مدينة تبريز وكـإنما الكير أخرج الإبريزة، ثم جمع ومضى على سمت همذان، فلقى قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان، فكسره وهزمه وفل حده وثلمه،

ومضى إلى همذان وجلس على سرير ملكه وذلك فى سنة ثمان، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله.

وتوفى فى هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفى الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريًا، وبالحمد حريًا، وفى حلبة المكارم جريًا، ومن الخيانة فى ولايته بريًا، ومن العار عريًا، ولم يزل زند مضائه وريًا، وكانت له سياسة ورياسة، ونفس ونفاسة، ورأى وفراسة، وفطنة وكياسة، ومروة وفتوة، وثبات جنان وقوة، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو فى كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرجه فى أموالها وحكمه فى أعمالها حتى نال المنى ووجد الغنى فقال له: قد اكتفيت واستغنيت، وإن صرفت الآن ما باليت، فاصرفنى عن العمل فقد نلت غاية الأمل. فعاش غنيًا ومات جشريًا، وورث السلطان بعض ماله، وذلك ما فضل عن إفضاله، فإنه فرّق على مماليكه أملاكه وماله، وأخفى بعد وفاته بما بذله حاله.

وفى هذه السنة فى شهر ربيع الأول توفى ابن مطران وكان بارعًا ظريفًا، نظيفًا عفيفًا، وفقه الله فى بدايته لهداية الإسلام، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان، وما شأنه كبر وهو كبير الشأن، وكانت له دراية ودراسة وذكاء وفراسة ولم يزل متلطفًا فى طبه، متعطفًا بحبه، محببًا إلى القلوب، متقلبًا من قبوله فى المحبوب، صبيح البهجة فصيح اللهجة، صحيح الحجة بوضوح المحجة. ولم يزل له عند السلطان وذوى الجاه جاه، ولجده انتباه، ولمداواته بالشفاء شفاه، حتى حان أجله، وخان أمله وبان عنه حلى حاله وبان عطله، وكانت له عندى يد أذكرها وأشكرها، وعارفة أعرفها ولا أنكرها، وذلك إننى فى ذى القعدة سنة ثمانين كنت متوجهًا فى خدمة السلطان وفى صحبته متوليًا للإنشاء منفردًا بمرتبته. فلما وصلنا إلى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهرى العرض، وانتهى إليه بدمشق ما ألمّ بى من الألم، فتقسم فكره من خبر السقم، وركب ووصل فى يومه حتى أدركنى ومرضنى وما تركنى ودوانى حتى أبللت، وأزال الله انحراف مزاجى بطبه فاعتدلت، وصحبنى إلى دمشق وسبق إلى أوليائى بالبشرى وشكرت الله على النعمى، وكذلك كان يطلب مرضاتى، فى جميع مرضاتى. فلما مرض الطبيب لم ينجع فى مرضه الطب، وتوفاه الرب.

وفى آخر هذه السنة توفى الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الخبوشانى بمصر وهو الذى بنى المدرسة عند ضريح الإمام الشافعى رضوان الله عليه وأحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التشديد والتسديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيبًا له إلى كل ما يستدعيه، ويقضى له من الحوائج ما يقتضيه، ووقف على المدرسة التى بناها وقوفًا وأعطاه فى بنائها ألوفًا، فلما توفى طلب المدرسة جماعة من العلماء فلقوا بالإباء، ثم شفع الملك العادل فى صدر الدين على بن حمويه وهو

شيخ الشيوخ ويعرف فى العلم والعمل بالرسوخ، فكتب بها له، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك فى أواخر سنة ثمان وثمانين، ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وبدلت الوحشة من الأنسة.

* * *

فصل كتب إلى بعض الأكابر فى الدخول إلى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء، وتوافر الأنواء، وشح الأرض وسح السماء، وانقطاع الجلب واتصال الغلاء، وبعد الراحة لقرب الأعداء وملل العساكر لدوام الهيجاء، والمقارعة واللقاء، وكانت مدينة القدس محتاجة إلى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من حسن المدن وأحصنها وأحمها وأوجدنا بها جدتها بعد عدمها ورتبنا بناء سوارها على جوانب أودية وسفوح، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح، وهذا أمر لله وفى طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولإعلاء كلمته، ولحماية أمته، وما لنا فيه إلا السمسرة وما رجاؤنا إلا الأجر والمغفرة، وما نصيب إلا نصيب واحد من المسلمين المجدين، والمؤمنين المعدين للدين، فما أسعد من ساعد فيه، ووفى بإسعاف عافيه، هذا والكفر قد أناخ بكلكله وحفل بجحفله، وبرز إلى الإسلام بكليته، وعراه ببليته، وقامت قيامته لقيامته، وثار لثار قمامته، ورمى مهجته على الموت لمقبرته، والبيت المقدس الذى شرفه الله وكرمه وعصمه كما عصم وحرم حرمه مقام الأنبياء المرسلين ومقر الأولياء والصديقين، وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين وفيه نزل جبريل بالبراق وصعد المصطفى ﷺ إلى السبع الطباق، وأهدى الله ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الإشراق إلى الآفاق، وهؤلاء الملاعين قد أغذوا لقصده، وأعدوا لورود ورده، وقد فرض فى هذا الأوان رفض التوانى، واستدعاء ذوى الحمية من الأقاصى والأدانى، وإن لم يتساعدوا فى الربيع القابل على إنهاض الجحافل، صعب الأمر واشتد، واحتدم الخطب واحتد.

* * *

فصل فى شكر صاحب الموصل على إنفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح، ويعرف عن فضيلة منجده ويفصح، فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح أرجاءه، الحاملون بحفر خندقه أرجاءه، وما فيهم إلا من أبان عن جده، وأبان بحده وألان الشديد بشده، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده، وهذه لا شك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات، وجدوى سابقة للواحق فى مناهج الجدات، وعارفة معرفة فى قمع العداة بإجراء العادات فى إنجاز العدات، وللعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب، وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك أن يكون لها التهاب، والهمة السامية لا تفتقر فى هذا الباعث إلى باعث، وعند عزائمه حديث كل حادث.

وفى شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمى بولاية القدس.

وكانت ولاية القدس مذ يسر الله فتحه وحقق للأمل فيه نجحه، وأطلع لليل النصر صبحه، إلى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه، وصعاب أعماله وشعاب أحواله بنضرة آرائه ونصرة آلائه مروضة، وقد استنأب فيه أخاه الظهير ظهيراً، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيراً إلى أن استشهد فى شعبان سنة خمس وثمانين. وتوفى الفقيه عيسى فى ذى القعدة منها وانتقل إلى عليين، فأبقى السلطان نوابه من بعده محافظة على عهده، وكان الأمير ساروخ بالقدس مقيماً، وللنظر فى مصالحه مستديماً، ويضم من أمره ما يراه منشوراً.

وكتبت له فى التاريخ المذكور باستقلاله منشوراً: الحمد لله الذى أقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه، ونزّه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدى أوليائه الموحدين وطهره وقدسه، وأنطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس وأخرسه، نحمده على ما عصمه من الحوزة وخرسه، وفرجه من الشدة ونفسه، ونسأله أن يصلى على نبيه محمد المصطفى الذى شرع الدين وشرحه ومهد الشرع وأسسه، وبطل الكفر وعطله وأرغم الشرك وأتعسه، وعلى آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق وأضفى ملبسه، وأصفى مورده، وأزكى مغرسه.

وبعد، فإنا مذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض بإعلاء أعلامنا راية الكفر ونكس، وكسا بأيامن وجه الدين البشر من بعدما كان تعبس، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الأجزل الأفضل الأكرم الأنفس، ما نزال نطلب ولياً لله يكون له والياً ويعود عاطله بتأثير إحسانه وحسن آثاره وإيثاره حالياً، ويرجع بنظره الشافى وتدبيره الكافى ما انخفض من منار الهدى عالياً، ولا يزال على بالٍ منا أن نحيى به من رسوم الإيمان ونجدد من معالمه ما ظل بمقام أهل الضلال فيه دارساً بالياً، وقد اختبرنا الأمير حسام الدين فألفيناه لأهلية هذه الولاية جامعاً، وإلى مضمار السبق فى هذه المكرمة مسارعاً، ووجدناه بأعباء الأمانة ناهضاً، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضاً ماحضاً. فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه فى ولاية مدينة القدس وأعمالها، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها، وحكمناه فى تحصيل مصالحها وتسهيل مناجحها، وسداد ثغرها، وسداد أمرها، ورعاية أمورها، وعمارة حريمها وسورها، وتطويل باع ساكنها، وتأهيل رباع أماكنها، وإسكان مواطنها، وتوطين مساكنها، وتطهيرها من أدناس أدنى الناس وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوة والباس، فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية، وروية مبصرة وبصيرة روية، وليستشعر تقوى الله التى تقوى بها العزائم، وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم، جارياً على مقتضى الشرع فى كل ما يحله ويعقده، ويقدره ويمهده، ويصدره يورده، والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده.

[دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة]

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس فى دار الأقساء جوار قمامه، وأظهر بها لتقوية البلد الإقامة وقد قسم سور البلد على أولاده، وأخيه وأجناده، فشرعوا فى إنشاء سور جديد محدق به مديد، وكان يركب كل يوم مصح مشمس مضح، فينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء فى نقل الحجارات بنهجه، فلو رأيته وهو يحمل حجراً فى حجره لعرفت أن له قلباً كم حمل جبلاً فى فكره، ولقد جد فى حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره حتى باشر صدور ممالكه بها الصدور، وما تغلو دار يبنيها فى الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكاً فى دارها وقمراً فى دارتها، وكل بناء قلت حجارته، ووقفت عمارته، ركب وبكر إليه وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه، فإذا اكتفى انتقل إلى موضع آخر ونقل إليه الحجر، ولقد بنى به فى غرفات الجنات الحجر، وأثر رواة سيرته الحسنة منه الأثر، وما أعمر إحسانه وأحسن ما عمر، وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب، والتزم الأمر التزام الوجوب، ولان له الصخر لين الحديد لداود، وجد فى فض جدته وأفاض الجود، وكان حجر الخندق صلداً لا يتأتى قطعه، ولا يتهيأ بكل آلة صدغه، فاتخذ من الفولاذ قطاعات، واخترع على الحدادين آلات، فأمكن الصلد، ووهن الجلد، وتيسر الصعب ولان الصلب، وصرخ الصخر لما خاف الحفر، وضج الحديد لجلد الجلمود، وصفا قلب الصفا لإصاخة الصيخود، وأعولت المعاول وجدلت الجنادل، وسمعت الصماءُ صوت السطو، وخرج جرح الإساءة إليها عن الأسو، وفلقت القطع وقطعت الفلق، واتسع الضيق وتعمق الخندق، وطاب العمل وطال الأمل، وحز الحزم وحزن الحزن، وركنت القوة وقوى الركن، فلا ترى إلا سوراً يعلو وخندقاً يسفل، وبناء يسمو وحفراً ينزل، وبرجاً يسقف، وبدناً يشرف، وحجارة تبنى وعمارة تثنى، وكلساً يحرق وأساً يوثق، وطاقاً يعقد ورواقاً يمهد، وطلاقات تطلق ومرامى تخرق، وستائر تحجر وحفائر تقعر، ومصاعد تهندس وقواعد تؤسس، ومعارج تسفح ومخارج تفسح، وموالج تسرب ومدارج ترقب، حتى أحكم المكان بكل ما فى الإمكان، واتصلت الأبراج بالأبدان مشيدة الأركان، والسلطان يشرف فى كل يوم على عمل قوم، فيمدحهم بإحسانهم ويجازيهم بإحسانه، ويعير جنان المتولى من قوة جنانه، ويدركه بما يستأنفه من عمله، ويحلى بالفضل ما يبدو له من عطله، وكان ذلك دأبه مدة إقامته، وقد وجد غرامه بغرامته بل يرى أن كل ما ينفقه ذخر باق، وأنه إن فاق كريم فبانفاق، وما عنده خشية إملاق بل يده جارية بإطلاق جوائز وأرزاق، وأنه تتجلى له أعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق، وإن وفق الله واستمر ما دبره فى حفر الخندق وبناء السور بقى بيت

الله المقدس مع الإسلام على ممر الدهور ولا يبقى عليه لمسلم فزع، ولا فيه لكافر طمع، ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه وسلب عز الإسلام عزه، ورأى من المعجزات ما حيره، وقهقر عن البأس الذى إن ثبت له قهره، فسبحان الذى أقدر السلطان على ما أعجز عنه الملوك وهداه من الفضل إلى نهج ضلوا فيه السلوك.

* * *

ذكر الحوادث مع الفرنج فى هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا فى إعادة عمائرها. وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين فى بعض أعمالها، مجدين فى نقل غلالها، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس، ومعه حزبه من جند إبليس، فشاهد دخانًا على البعد وما عرف ما عنده من العسكر المعد، فساق متوجهًا إلى تلك الجهة وجد، وتبعه عسكره وامتد، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة وقد بغتت، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الإفطار، فارغة الأفكار من شغل الكفار، وكانوا نازلين فى موضعين، مقيمين فى منزلين، فلم ير العدو إلا أحد القسمين فقصده بحزبه، وأطلق عنانه لحربه، فعرف القسم الآخر هجوم العدو، فهجروا مهاد الهدو، وركبوا إلى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون، واجتمعوا وهم المسعودون، وردوا العدو شوطًا، وصبوا عليه من عذاب القراع سوطًا، ثم تكاثر الفرنج عليهم، وتواصلوا وسبقوا إليهم، فاندفعوا من بين أيديهم والفرنج تباريهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وقد ثبت حفظها على الإقدام أقدامهم، وما فقد من أصحابنا ممن عرف إلا أربعة، ونجا الباقون وخواطرهم جل أولئك متوزعة، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها، وهون ضررها.

وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته فى نقل الحجارة والجد فى العمارة ومعه الملوك أولاده والأمراء، والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والأولياء، وخرج كل من بالبلد وجاء المدد بعد المدد، وهو قد حمل على سرجه، واستوى فى نهجه، والناس ينقلون معه على خيولهم، فى قفافهم وذيولهم. ولما دخل الظهر نزل فى خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحراء، وأحضر فيها السماط لمن يدعوه من الأمراء، فحضر على ذلك السماط وأحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك البساط، وكنت قد مضيت فردني وبتقريبه أمدنى، فلما فرغ وفرغنا وبلغ مراده وبلغنا، صلى هناك الظهر وركب عائدًا إلى داره آيبًا بإيثاره وحسن آثاره، فائزًا بسرور أسراره وخير اختياره.

* * *

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجرد فى سرية سرية، بارية رقاب ذوى الغلول من الغل برية، فأغارت يوم الأربعاء الحادى عشر من المحرم على يبنى، وفيها الفرنج بنية السكنى، فغنمت اثنى عشر أسيراً، وخيلاً ودواب وأثاثاً كثيراً.

وفى يوم الثلاثاء ثانى صفر أغارت السرية وفيها جرديك، وعسكر القدس وجماعة من المماليك، على ظاهر عسقلان، وأوفدت بتناصرها على الكفر الخذلان، وغنمت ثلاثين أسيراً قيدت فى الأغلال، سوى ما كسبته من الخيل والبغال.

* * *

سرية فارس الدين ميمون القصرى

باتت ليلة الأحد رابع عشر بتل الجزر، وسرت حتى أصبحت على يبنى وكمنت، وصبرت إلى أن استرسلت الفرنج إلى الطريق وأمنت، ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت، فكبست وكسبت، وكسرت وأسرت، وأخذتها بأسرها مع رجالها، وبغالها وأحمالها وأثقالها، ثم أغارت على يافا فقتلت وفتكت، وسفكت دماء وهتكت، وعادت بالغنيمة والسبايا واستغنت بنقودها عن النسايا، وعجز جماعة من الأسارى عن المشى فضربت أعناقهم، وأوجب ذلك للباقين فى المسير إعناقهم، وعادت سالمة سالبة، غانمة غالبة.

* * *

ذكر خروج سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار فأدى منها ثلاثين، وأعطى رهائن على عشرين ووصل إلى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر، وأقطعه نابلس وأعمالها، وحلى بأيالته لها أحوالها، وعاش إلى آخر شوال من هذه السنة، وتوفى إلى رحمة الله بأعماله الحسنة فعين السلطان ثلث نابلس وأعمالها لمصالح البيت المقدس، وتشييد ركن سوره المؤسس، وأبقى باقيها على ولده وتركه فى تصرفه ويده.

* * *

نكتـــة

لما خرج المشطوب من الأسر تلقاه ولده روى السرى قوى الأزر، فوجده على زى أولاد الأتراك مضفور الشعر، فبدأ منه الإنكار والإكبار، وقال: ما للأكراد فى شعورهم هذا الشعار؟!، فقطع ضفيريته وقصر وفرته، فتطير الناس من قطع شعره على أبيه، وقالوا: هذا دليل مصابه الذى يأتيه.

هلاك المركيس بصور

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر فاستوفى رزقه لموافاة أجله، ووصل إلى الباب قاطع أمله، وقد دعى إلى جهنمه، ومالك على انتظار مقدمه، والجحيم فى ترقبه، والدرك الأسفل من النار فى تلهبه، والسعير فى تسعره، ولظى فى تلظيها لتنظره، وقد قرب أن تكون الهاوية له حاوية، والحامية عليه حامية، والزبانية فى إيقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه، وقد فتحت النار له أبوابها السبعة، وهى جائعة إلى التهامه وهو ملته بالأكل يستوفى الشبعة، فأكل وتغدى، وما درى أنه يتردى، وأكل وشرب، وشبع وطرب، وخرج وركب، فوثب عليه رجلان بل ذئبان أمعطان، وسكنا حركته بالسكاكين، ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة، وقد أخرج النفس الخسيسة، وقال الماركيس وهو مجروح وفيه بقية روح: احملونى إلى الكنيسة، فحملوه وظنوا أنهم حاطوه لما نقلوه، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه للحين، وزاده جرحًا على جرح، وقرحًا على قرح، فأخذ الفرخ الرقيقين فألقوهما من الفدائية الإسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير، فقالا: ملك الانكتير، وذكر عنهما أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، ودخلا فى ترهب وتطهر ولزما البيع والتزما الورع، وخدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس، واستحكما بملازمتهما أسباب التأنيس، ثم علقا بركابه، وفتكا به فقتلا شر قتله، وجهل عليهما أشد جهلة، فيالله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر. فلما ظل المركيس مركسًا وفى جهنم منكبا منكسًا، تحكم ملك الانكتير فى صور وولاها الكندهرى وعذق به الأمور، ودخل بالملكة زوجة المركيس فى ليلته وادعى أنه أحق بزوجته، وكانت حاملاً فما منع الحمل من نكاحها، وذلك أفظع من سفاحها، فقلت لبعض رسلهم: إلى من ينسب الولد؟ فقال: يكون ولد الملكة، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة؟!

ولم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحالة، وإن كان من طواغيت الضلالة، لأنه كان عدو ملك الانكتير ومنازعه على الملك والسرير، ومنافسه فى القليل والكثير، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه، وننزع ما أخذه من يديه. وكلما سمع ملك الانكتير إن رسول المركيس عند السلطان مال إلى المراسلة بالاستكانة والإذعان، وأعاد الحديث فى قرار الصلح وطمع فى ليل ضلاله بأسفار الصبح، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه، وذهب ضوره وضوعه، وطاب قلبه، وآب لبه، واستوى أمره، واستشرى شره، وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق، فأظهر له ود الشفيق الشقيق، وولاه جزيرة قبرس وأعمالها وسدد بسداده اختلالها، فلما هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ فى تقويته، وخشى أنه لا يسلم من عاديته، ولا يأمن من غائلته. فلما عدم عدوه وجد هدوّه وآب سكونه وثاب جنونه وغاض غيظه، وحضه حظه، وفاض من منبع

الشرك فظه، ومع هذا لم يقطع محادثته ولم يحدث مقاطعته، ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته، ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته، وراسل فى طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فإنه يبقى لنا بمدينته وقلعته، سوى كنيستهم المعروفة بقمامه، فإنهم يعتقدونها لمتهم الدعامة، فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار وأبدى لهم الإنكار وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان، ويأخذوا على ما يبقى فى أيديهم الأمان.

* * *

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر، وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر، فلما فتحت حفظت وتركت وأبقيت، وبالميرة والذخائر والرجال مليت، وخربت عسقلان وغزة دونها، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يصونها. فلما شرع الفرنج فى إعادة عمارة عسقلان ترددوا مراراً إليها، وداروا حولها وأشرفوا عليها وأنفق السلطان فى جماعة وقواها بها، وشد بالنجدة قلوب أربابها، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم، وسمرهم وبيضهم، وفارسهم وراجلهم، وصارمهم وذابلهم، ورامحهم ونابلهم، واشتد زحفهم عليها ونهوضهم عليها، عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أخذوا فيها نقباً وخرقوه، وحشوه وأحرقوه، وطلب أهلها الأمان فلم يجدوا وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا. ولما عرف الوالى أنهم مأخوذون وأنهم موقومون وموقوذون، عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعرقبها، وإلى الذخائر فأضرمها وألهبها، وفتحوها بالسيف، وعرضوا أهلها على الحيف، وأسروا منها عدة يسيرة وكانت هذه النوبة على الإسلام كبيرة ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها ونزلوا على ماء يقال له الحسى، وقد طاش بهم الغى والبغى، وذلك فى يوم الخميس رابع عشر الشهر، وقد أنسوا بما ظنوه من أسباب الغلبة والقهر ثم تركوا خيلهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب، فخرجت عليهم أسد اليزكية الممكنة من الغاب، فقاتلهم قتالاً شديداً وتركتهم بحد الحديد بديداً، وغادرت حبل قصدهم الجديد جديداً وكرت عليهم فكررت فى ردهم عن جهتهم ترديداً وقتل منهم فى جملة من قتل كند كبير وآتاهم من مباريها لهم مبير، وعادوا مفلولين مثلومين، مخذولين مهزومين، مثلولين مهضومين، ثم رحل الفرنج من الحسى يوم الأحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين وبعضهم عاد إلى عسقلان وبعضهم جاء إلى بيت جبرين، فتقدم السلطان إلى العساكر والأمراء بأن يكونوا لهم مبارين.

وفى يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية بجموعهم الوافرة الوافية ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون، فأرجفت الألسنة بأنهم على قصد

القدس على حسب تراجم الظنون ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة واجتلينا نيرانهم المشبوبة وسرت منا إليهم السرايا وتوالت عليهم البلايا، وأظهر السلطان مقامه بالقدس لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالأنس، وفرق الأبراج والأبدان على الأمراء والأجناد، وذوى القوة والاستعداد، وأمرهم بنقل الأزواد، ثم زال الرعب وطاب القلب، وخرج الناس إلى خيامهم يتخطفونهم ويعسفونهم ويتحيفونهم. وجرت وقعة بعد وقعة وكبسناهم دفعة بعد دفعة، ومن ذلك أن بدر الدين دلدرم كان فى اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر إلى طريقهم من يافا من لزم الكمين فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا. وفى يوم السبت نزل الناس إليهم وقاتلوهم فى خيامهم، وألهبوهم بضرامهم، وركب العدو وساق إلى قلونية وهى ضيعة من القدس على فرسخين، ثم عاد بائد الشأن بادى الشين، وعساكرنا قد ركبت أكتافه، وهى تقطع أطرافه، وتهز أعطاف البيض لتحز أعطافه. وفى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة خرج كميننا فى طريق يافا على السابلة العابرة، فظفروا وفازوا، وحووا وحازوا، وكسروا وأسروا.

* * *

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله، ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله. فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق، وانضم إليهم التجار، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار، وللعدو لقدومهم الانتظار، وعنده بجواسيسه الأخبار، فجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أن العدو ملك الانكتير ركب فى سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل، ولا يدرى أى جانب قصد ولأى نائب رصد، فجرد السلطان أمير آخر أسلم خوفًا على الواصل ليسلم، وندب معه الطنبة وعدة من العادلية، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس فى طريق البرية. فعبروا على ماء الحسى قبل وصول العدو إليه واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه، وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل. وقصد أقرب الترك وغفل عما يعرو من الفرق والفرق، وترك الأحمال على ترك أخرى سائرة، ورأى الأمنة ظاهرة، وأوجه السلامة سافرة، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة، والأمانى تغره بالمواعيد المخلفة، ونادى تلك الليلة: إنّآ جزنا مظان المخافة، وفزنا بالسلامة من الآفة فلا رحيل إلى الصباح. فاغتر الناس بالنداء الصراح وناموا مسترسلين وباتوا متغفلين، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقة، وعاق ابن ذكاء بإذكاء بنت

الداهية العاقة، فجاءهم فجاءة، والصبح لم يبد إضاءه، والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين، وكل غرار فى جفنه قار، وكل قلب بأمنه سار، وكل جنب على فراش، وكل عاش له النعاش غاش، فلما بغتوا بهتوا، وطلبوا أن يفلتوا فما التفتوا، وركب كل منهم على وجهه، وربما كر بكرهه، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه، وأسلم إخوانه وغلمانه، وانهزموا نحو الأثقال، فأوقعوا العدد وهو وراءهم على الجمال والأحمال. فوقع العدو فى سوابقها واشتغل بها عن لواحقها، فتفرقت فى البرية وعاد معظمها إلى الديار المصرية، ومنهم من عاج إلى طريق الكرك لم يقع فى الشرك ولم يحصل فى الدرك فأخذ الكفار حمالاً لا تعد وأحمالاً لا تحد، وكانت هذه نكبة عظيمة، ونائبة عميمة، ونوبة ذات نبوة، وكبة ذات كبوة، ووقعة ذات روعة، وعولة ذات لوعة، فظنت الظنون وأرجف المرجفون، وقالوا: قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم وينهضهم، ومن المال ما يبطرهم ويحضرهم، ومن الآن يقابلهم، وبأى عسكر وعدة نقاتلهم. ووصل الجند مسلوبين منهوبين، فسلاهم السلطان عن أموالهم بما قوى من آمالهم، وحضهم على الحظ من الآخذ بثأرهم، والجد فى دمار القوم وبوارهم، ولها الملاعين بما ملأ العين من المال، عن القيل والقال والقتل والقتال، وحلا لهم ما حاولوه من الحال وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل غائبان، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة فى الإتيان.

* * *

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ونزل عن جميع ماله من الولايات، وإنه إذا عبر إلى الرها وحران ملك تلك البلدان، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان، ورحل من القدس فى ثالث صفر وقد أزمع السفر، ووجه عزمه الماضى المضىء قد سفر، وأقام فى دمشق حتى استعد، واستجدى من أبيه ما كمل به الخزانة واستجد، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار، سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار، ثم سار فى مجر مجر سيل خيله جار ذيل نقعه على المجرة شاغل بالسير والسرى أسرار ذوى الأسرة، بادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة، ووصل إلى حلب، وقد مرى أفاويق التوفيق وحلب، واحتفل أخوه الملك الظاهر لقدومه وقام له بسنن الكرم ورسومه، ورحب للترحيب به صدره وجنابه، وسحب على روضه سحابه وأصحب فيض فضله صحابه، ووقف لخدمته ماثلاً، وهز عطف الابتهاج إليه مائلاً، وأحضر له مفاتيح بلده وقدم له كل ما فى يده، ولم يبق من الجميل شيئًا إلا عمله، ولا نوعًا من الفضيلة إلا كمله، وعرض عليه الحصن العراب، والتحف والثياب، وخلع على خواص أصحابه وعوام أجناده،

وخصهم وعمهم من الجود بأمداده، وعول أن يسير معه إلى الجهة التى يقصدها، ويساعده على الضالة التى ينشدها، وسمع ناصر الدين بن تقى بما أقلقه، ودفع منه إلى ما أرهجه وأرهقه، ووصل رسوله إلى الملك العادل وهو بالقدس لاجيًا إلى ظله، راجيًا لفضله، لائذًا بجنابه، عائذًا ببابه، مستجيرًا بإرعائه، مستجيبًا لدعائه، مفوضًا ما حل به إلى أنوار آرائه، مروضًا ما حل بأنواء آلائه، فاحتمى له واحتمله، وقوى على تقويته أمله، وخاطب السلطان فى حقه واستعطفه، وشفع فى أمره واستشفعه، وقال: أنا أمضى إليه وأستحضره وأؤمنه مما يحذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها، وتشد من رجائه بذلك وما وهى، وتعطيه فى السنة الأخرى حماة والمعرة، وتكفى المضرة والمعرة.

ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ تلك البلاد ويحويها، ويملك حوزتها ويحميها، ويكف عنها ويكفيها، واستقر أن ينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصة، وإذا أخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد فى استخلاصه، فأبدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من أبيه بأضعافها واستظهر، وتقرر مسير الملك العادل فى العشر الأول من جمادى الأولى وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعًا، وذهب ذاك مسارعًا، ووصل إلى حران والرها، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى، وبلغ من مراده إلى أمد الأمل المنتهى، وعاد فى آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقى الدين ووصل فى هذا الشهر إلى دمشق ابن صاحب الموصل علاء الدين وصاحب آمد بن قرا ارسلان قطب الدين وعسكر صاحب سنجار ومقدمه مجاهد الدين يرنقش، واجتمعت بدمشق فى هذا الشهر عساكر بها الإسلام يأنس والكفر يستوحش، وأقامت تنظر مسير الملك العادل لتسير فى خدمته وتتجلى راياتها فى مطالع رايته.

* * *

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكاء مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس، وعرفوا أن مرضهم به فى النكس، ورأوا أن ثغر بيروت قد براهم، وعراهم من القوة ما منه عراهم، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا: أخذ هذا البلد هين، وقصده متعين، وإذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره إلى جانبه وخلا القدس من جمة كتائبه وجمرة مضاربه، فنبادر إليه من يافا وعسقلان، من يجد فى تملكه الإمكان. فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من القصد ودبروه من الكيد، أمر الملك الأفضل بمباراة القوم فى الرحيل وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل، وسبقهم إلى مرج عيون، حتى إذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر إلى بيروت ودخلتها، ونكت الفرنج

ونكبتها وحولتها. وكتب السلطان إلى العساكر الواصلة إلى دمشق أن يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم إلى مدد، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكاء بعد تجاوز ولم تعد.

* * *

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار، وخلى وراءه الديار، ترك فى مدينتى يافا وعسقلان جمعا من منتخبى الرجال والفرسان ووصاهم بالجلد فى حماية البلد، فانتهز السلطان فرصة الغيبة، وأوفد إلى مساغ رجائهم غصة الخيبة، ونهض بعسكره الحاضر، ولم يتمهل لانتظار العساكر ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق أحجاراً، وأراق دماء وساق دمارا، وزحف الناس وحفز الباس، وفرعت المدينة، ورفعت منها السكينة، وقتل من بها ومسح، وأخذ ما بها وكسح، ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدى والسيوف من الدماء والأموال ونهلت، ونفضت كنائن، ونظفت خزائن، واستخرجت دفائن، وولجت مكامن، وحصل استمتاعنا بأمتعة، وانتفاعنا بكل منفعة، وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين وبقيت القلعة وطلب حماتها الأمان ليكونوا لها مسلمين، وكان الناس قد سبقوا إليها، وقرب أن يستولوا عليها، وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب، وقد شارف من فيها الشجب، فلما طلب الآمان رد الناس وكفوا فظن أن الغنيمة تصفوا، فإنه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر، على أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر، على أن يطلق كل واحد منهم بأسير، ويفدى صغير بصغير، وكبير بكبير، وشرعوا فى الخروج آحاداً وعشرات، وعصباً متفرقات فى ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا إلى الصباح، وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عينوه من الاقتراح، وما زال يخرج منهم من يستدعى زيادة التوثقة، وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة، حتى وصل ملك الانكتير فى البحر فى مراكب فى سواد الليل بل ظلمة الكفر، ودخل هو القلعة من الجانب البحرى ونادوا بشعار الغدر، فاكتفينا منهم بمن حصل فى الأسر، وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم ولا نفع بعد فوات الفرصة للندم، ولو أن السلطان توقف فى تأمينهم، واستمر على توهينهم لقلعت أساس تلك القلعة، ونفضت رقعة تلك البقعة، ولقد كان ذلك فتحاً عظيماً، وفضلاً من الله عمماً، فقد امتلأت الأيدى بغنائم المدينة، ووهت أسباب قواهم المتينة، واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية، وفزنا بالغنائم السنية، وقتل من أقام بالبلد وأسر، وكشط جلد تلك المدرة وبشر، وحصل فى اليد من مقدمى القلعة نيف وسبعون، وتركوا وهم بالثبور يدعون، وكان القصد فى الأول رجوعهم عن قصد بيروت وخشى على فرصة حفظها أن تفوت فمن الله تعالى بحصول المقصود، وفزنا بجنى الجهاد بغير بذل

المجهود، وجرى الأمر على الوجه المحمود، وإنما وقع التندم، كيف لم يقع فى أخذ القلعة التسرع والتقدم فتعاصت بعد الإذعان، وتعذرت بعد الإمكان، وجمحت بعد الإصحاب، وجنحت بعد الاكتئاب، وأفلتت وقد وقعت فى الحبالة، واستقلت بعد العثرة والاستقالة، وضعف الفرنج من تلك الكرة، وآذن نشاطهم بالفترة وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسرة، وعاد السلطان وخيم على النطرون، والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء إليه الملك الأفضل ولده والملك العادل أخوه، وأسفرت بالمسار الوجوه وكان ولده الملك الظاهر أيضًا قد وصل، وفى هذه الغزاة حضر وبيمنها حصل، وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان حاضراً، وأخذ من السعادة حظًا وافرًا، وحصل بيده جرح يئس أن يؤسى، وظن تلك النعمة بؤسى، ثم اندمل جرحه وفازت قداحه وحاز السنى قدحه.

وأقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت أوائلها الأواخر، ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقية، فى بيضه وسمره ومشرفية وسمهرية، هذا والملك العادل متأخر فى المخيم بسبب عارض السقم وملم الألم، ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر فى عدد الرمل والإسلام قرير العين من أهله بجمع الشمل، والفضاء قد امتلأ، والقضاء قد اجترأ، والقدر قد أسعد والسعيد قد قدر، والنصر قد أبدى الصفو وأذهب الكدر، وتلك البرية قد حوت البرية، وجمعت العسكرية وألكمت الجارية والكماة الجرية، والأعراب والعراب، والمحارب والحراب، والأجاود والجياد، والأساود والآساد، والبياض والسواد، والعدد والأعداد.

فصل فى وصف الحال من كتاب إلى الديوان العزيز

الخادم حاله على ما أنهاه غير مرة فى مرابطة أهل الكفر مستمرة، وأفاويق النصر على حفولها تارة وبكئها أخرى مستدرة، والحرب سجال، وللإسلام فى مضمار الظفر مجال، وقد تجاوزت القصة عن حد الإنهاء، وكلما شارفت القضية الانتهاء عادت إلى الابتداء، والحادثة متصلة والواقعة مستقبلة، والنعمة من الله فى إجراء أوليائه على أجمل عاداته بإنجاذ عداته فى قمع عداته مؤملة، وما ينقضى يوم إلا عن نصرة تتجدد، ونعمة تتمهد، وجمع للعدو يتبدد، وجمر لنكاية فيه يتوقد، وخد للسيف من حده بدم الشرك يتورد، وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد.

وآخر ما تم فى هذه الأيام من مرهجات الكفر ومبهجات الإسلام حظوة حلوة ونوبة ما لها نبوة، وهى أن الفرنج لما زعجزهم قصد البيت المقدس، ولم يستقم لهم ما سولوه فى الأنفس، عكسوا زعمهم، ونكسوا عزمهم، وعادوا خائبين، ونكصوا هائبين، واستأنفوا مكيدة أخرى، وشرعوا فى شر خلف الشرك بما يمرى، وأجمعوا على قصد مدينة بيروت وتآمر على الاتجاه نحوها أعداء الله أولياء الطاغوت، فسارت العساكر الإسلامية على مباراتهم لمضايقتهم فى مضايق طرقاتهم، وتجرد الخادم فى

خواصه ووافى يافا موقنًا من الله تعالى أن مدد نصره إليه تتوافى، وحمل إليها من معتقلى نبات الأسل ومشتملى بنات الخلل الأسد والعرين، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين، فأخذها بالسيف عنوة وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوة، وأتى القتل والنهب من وجد فيها من الكفار، واستخرج ما بها من الأموال والعدد والأذخار، وخلص من المسلمين من كان بها فى الأسار وأضحت الفرنج فيها تبارى بالتبار، وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتل ويستسلموا للأسر، ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر. فبينا هم مشتغلون بالنزول ومنقطعون إلى الوصول، جاءهم الغوث فى البحر وظهرت منهم أمارة الغدر، ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله، ونصر الإسلام وأخذ له وسره بما يسره له وأجذله، ونال سيف الدمار من سبب دمائهم عله ونهله، وكان المقصود ردهم عن موردهم وصدهم عن مقصدهم، فأربى ما قيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الأرب، واهتزت أعطاف البيض والسمر المنتشية من كأس نجيعها للطرب. والقوم الآن قد اشتغلوا بمصابهم واجتمعوا لضم ما انتشر من أسبابهم وراسلوا فى الصلح على أن نخلى لهم عسقلان فما أجيبوا، وعلموا بجهلهم أنهم ما أصابوا فيما دبروه ولأدبارهم فأصيبوا والعساكر الإسلامية اليوم عليهم مجتمعة، ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة، وقد آن أن تحل معاقد معاقلهم التى هى ممتنعة، وكل ما يجده الله من علو يظهر، وعدو يقهر، ونصر يزهر، ونصل بالظفر يشهر، فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الإمامية الناصرية وبحمد الله ويمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة، وأسباب الظهور متناصرة، ووجوه الآمال بنشر نجاحها ويسر ما فى اقتراحها سافرة.

* * *

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير أن العساكر قد اجتمع، والخرق عليه قد اتسع، وإن القدس قد امتنع، وإن العذاب به وقع، خضع وخشع، وقصر الطمع، وعلم أنه لا قبل له بمن أقبل، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل، فأظهر أنه إن لم يهادن أقام واستقتل، وللشر استقبل، وأنه عازم على العودة إلى بلاده، لأمور مردها يعود إلى مراده، والبحر قد آن أن يمنع راكبه، ويسنم بالأمواج غواربه، فإن هادنتم وطاوعتم تبعت هواى، وإن حاربتم وعصيتم ألقيت هاهنا عصاى واستقرت نواى، وقد كلّ الفريقان، وملّ الرفيقان، وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان، ولا تغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات، فإن جمعها فى الشتاء إلى الشتات، ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء رمينا أنفسنا على البلاد، فأجيبوا رغبتى، وأصيبوا محبتى، وأودعونى العهد ودعونى، ووادعونى وودعونى.

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم فى الأمر، وأظهرهم على السر، واستطلع ما عندهم من الرأى، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاى، وقال لهم: نحن بحمد الله فى قوة وفى ترقب نصرة مرجوة، فأنصارنا المهاجرون إلينا ذوو دين وكرم ومروة، وقد ألفنا الجهاد، وألفينا به المراد، والفطام عن المألوف صعب، وما تصدع إلى اليوم بتأييد الله لنا شعب، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو، وما نحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو، وإذا تركنا هذا العمل فما العمل، وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم الأمل، وأخشى أن يأتينى فى حالة بطالتى الأجل، ومن ألف الحلية كيف يألفه العطل، ورأيى أن أخلف رأى الهدنة ورائى، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازى وإليه اعتزائى، وما أنا بطالب البطالة فأرغب عن استحالة هذه الحالة، وقد رزقت من هذا الشىء فأنا ألزمه، ولى بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه.

فقالوا له: الأمر على ما تذكره والتدبير ما تراه والرأى ما تدبره، ولا يستمر إلا ما تمره من الأمر ولا يستقر إلا ما تقرره، وإن التوفيق معك فى كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره غير أنك نظرت فى حق نفسك من عادة السعادة وإرادة العبادة، واقتناء الفضيلة الراجحة والاعتناء بالوسيلة الناجحة، والأنف من العطلة، والعزوف للعزلة وإنك تجد من نفسك القوة والاستمساك ويقينك يعرفك بالأمانى الإدراك، فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت، والرعايا فإنها تعكست وتعلثت، والأجناد فإنها نصبت ووصبت، والجياد فإنها عطلت وعطبت، وقد أعوزت العلوفات وعزت الأقوات، وبعدت عنا العمارات، وغلت الغلات ولا جلب إلا من الديار المصرية، مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية، وهذا الاجتماع مظنة التفريق ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق، فإن المواد منقطعة، والجواد ممتنعة، والمترب قد ترب، والمعدم قد عطب، والتبن أعز من التبر، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر، وهؤلاء الفرنج إذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم فى استفراغ المكنة واستنفاد المنة، وصبروا على المنية فى طريق الأمنية، وأبوا فى الإقبال على دينهم قبول الدنية، والصواب أن نقبل من الله الآية التى أنزلها وهى قوله: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**﴾ [الأنفال: ٦١] وحينئذ تعود إلى البلاد سكانها وعمارها، وتكثر فى مدة الهدنة غلاتها وأثمارها، وتستجد الأجناد عدتها، وتسريح زمان السلم ومدتها فإذا عادت أيام الحرب عدنا، وقد استظهرنا وزدنا، ووجدنا القوت والعلف، وعدمنا المشاق والكلف، ففى أيام السلم نستعد للحرب، ونستجد أدوات الطعن والضرب، وليس ذلك تركًا للعبادة وإنما هو للاستجداء والاستجداد والاستجادة على أن الفرنج لا يفون، وعلى عهدهم لا يقفون، فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا وقد شقوا بما لقوا، وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة، ويستقل بالملازمة.

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضى وأجاب إلى ما اقتضى، وكانت قد بقيت

بين العسكرين منزلة واحدة والعجاجات على الطلائع متعاقدة، فلو رحلنا رحلناهم وعلى الهلك أحلناهم، لكن مراد الله غلب، وأجيب ملك الانكتير من الصلح إلى ما طلب، فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها، وعينت مدتها وبينت قضيتها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر، وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكاء إلى صور وأبدوا بما تركوه من البلاد التى كانت معهم الغبطة والسرور، وأدخلوا فى الصلح طرابلس وأنطاكية والأعمال الدانية والنائية.

* * *

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا ثم إفضاء الأمر إلى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بإنهاء الحالة وما هو لا يزال مستمراً عليه من جهاد العدو وقتاله، وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب، والحشر والحشد المضطرم المضطرب، وأنهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس وعزموا على بذل المصونين من النفائس والأنفس، وسلكوا فى القصد كل طريق، وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق، ودنوا على ظن أن جنى الفتح لهم دان وإن شبا الحتف عنهم وان.

ولما قربوا عرفوا أن المرمى بعيد المرام، وأنهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الإسلام فنكصوا على أعقابهم، ونكسوا ما ضربوه من آرائهم وآرابهم، وعلموا عقبى ما جهلوه، وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه، ونكثوا من عقد القصد ما أبرموه، وشرعوا فى أمر آخر توهموه ومضوا واستأنفوا الاستعداد، واستنهضوا الأمداد، وحصنوا بلادهم وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة والعدة النافعة والشوكة الرادعة والشكة القاطعة، واستظهروا فيهما بكل ما قدروا عليه من المنعة الحامية ورجال الصبر على النار الحامية، ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة، وظلال الضلال الممدودة، وصلال الصلادم المقودة، مستمطرى شآبيب الأنابيب، مستنفرى سراحين السراحيب.

وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية الحصر وغفلوا عما أجراه الله لأوليائه على أعدائه من عوائد النصر، ولما نمى خبرهم وطار شررهم وخيف ضررهم أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم ومباراتهم ومقاتلتهم، ونزل فى مماليكه وخواصه ورجال الأقدام ذوى استخلاصه على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة وجب بها من سنام الكفر ذروة، وحل منه بغزوته إليها عروة، واستكمل للإسلام بتملكها حظورة،

وقتل كل من حوته وسبى وتاب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا، وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل، وأسر من وجد فيها وقتل، ونهب من الآت الحصر ما خرج عن الحصر، وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر للذخر، وطلب أهل القلعة الأمان من القتل خاصة دون الأسر، وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول إليهم من جاءهم للنجدة من البحر وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم، وكنودهم ومقدميهم، مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان.

فلما أصبحوا جاءهم ملكهم فى البحر فغدروا، وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا، وخيم العدو هناك فى جموعه، وندب إلى عسكره من يأمره برجوعه ووافت فى البر جحافله حافلة، وتواردت فى الإسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة، فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق، وسيرهم إلى دمشق فى أقياد الوثاق، ورجع إلى القوم فهزمهم وردهم إلى عكاد بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى، وعاد إلى العدو ونزل عليه وكدر الموارد لديه حين زحف إليه.

واجتمعت من أهل الإسلام العساكر واتسعت على المشركين فى المضايقة الدوائر، ورجا المؤمن وخاب الكافر، وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر، وعاينوا العذاب الواقع، وعدموا الدافع وشاهدوا المصارع، فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة وبذل الطاعة، والنزول عن الاشتطاط، والدخول تحت الاشتراط، والغبطة بما هز له الإسلام عطف الاغتياط، واحتوى عليه بيد الاحتياط، وكانوا لا يجابون إلا بالإباء، ولا تلقى رسائلهم إلا بتصميم عزم اللقاء، حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها وأولياء الطاعة وألباؤها، وأشاروا بعقد الهدنة والانتهاز فيها لفرصة الممكنة، واستقرت المهادنة على ما أعزه للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب، ورجح وأنجح من أهل الإيمان الآراء والآراب، بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التى تملكوها وبعدوا عن الطرق التى سلكوها، وسألوا الأمان على الأمانى التى استدركوها وما أدركوها، وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويبنى ولد وتل الصافية وغير ذلك من الأعمال والأماكن الوافرة الوافية، واقتنعوا بيافا وعكاء وصور واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور، ورأوا عزهم فى ذلهم وصونهم فى بذلهم وسلامتهم فى سلمهم وغناهم فى عدمهم ولانوا بعد الاشتداد، ودانوا للانقياد، وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار، وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى الغرار، وأمورهم إلى القرار، وخلوا ديارهم وأخلوها، وما سألوا عن حب الأوطان والأوطار وسلوها، ومدة الهدنة التى أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين.

ووضعت الحرب أوزارها ، ورحصت بماء السلم أوضارها، وأخذت من أهل النار

ثارها. وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها ولا شك أنهم يستعدون فى هذه المدة ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة، ويستجدون عزمة العودة. وقد شرع الخادم فى تحصين الثغور وإمرار الأمور وإبرام معاقد المعاقل، وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل، وإتمام أسوار القدس وخنادقه، حتى يبقى على الدهر آمنًا من طروق العدو وطوارقه، وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها، وحلية نضارتها، وإجمام العساكر وإراحتها ليوم تعبها الذى هو عين راحتها. ولقد كان الخادم للسلم متكرهًا ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفهًا، لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوى الآراء على أن المصلحة فى المصالحة راجحة، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة وصفقة الإسلام رابحة، وأن فى إطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونًا عامًا، وأمنًا تامًا، وتفريقًا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضامًا، فهى سلم أنكى من الحرب فيهم، وأنها تقصيهم من هذه الديار، بل تنفيهم، وإلى متى تجتمع هذه الأعداد الهائلة لهؤلاء الأعداء، وتتفق هذه الأمداد المتواصلة من أهل النار فى الماء، وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا فى خمس سنين وما وافى إليهم مددهم من ألوفه سوى مئين، وكل ما كان لهم من أموالهم فى بلادهم نقلوه وأنفقوه وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه، فمتى انفضوا انفضوا وقد آن أن يرفضوا ويرفضوا، وإلى م يتفق مثل هذه الجموع ويعزم ذاهبهم على الرجوع يكون الإسلام قد استظهر بقوته واستكثر من نجدته ومن جدته، فرأى موافقة الإجماع وقيل مناصحة الأشياع، وتفرق جمع الكفر وباخ جمره، وأمن نكره ومكره، وانشرح صدر الإسلام وتضوع نشره، وتوضح بسنى النصر فجره.

* * *

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان إلى القدس وعادت عادة سعادته، واشتغل بإتمام السور والخندق وتكميل عمارته، وفسح للفرنج كافة فى زيارة قمامه، فجاؤوا ووجدوا الأمن والسلامة، وزاروا ورازوا، ولما عجزوا أن يحتازوا، ففسح لفريق من بعد فريق، وتوافوا فى طريق وراء طريق وقالوا: إنما كنا نقاتل على هذا الذى وجدناه مع الصلح وما زلنا سائرين فى ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح. وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة إلا لمن وصل معه كتابه أو رسوله، ورغب فى أن يجاب سؤاله فى ذلك ويصاب سوله، فقيل: مقصوده إنهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة فيبقون على الاستنفار والاستثارة، ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له فى مشقة العود أرب، ولم يتصل له بهذه الديار سبب، فكان الأمر كما حسب، فاعتذر إليه فى الجواب الذى كتب، وقيل له: أنت أولى بمنعهم وردهم بردعهم،

فإنهم يصلون إلينا وافدين، ولزيارة الكنيسة قاصدين، وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلغ من يقصدنا المقصود.

ومرض ملك الانكتير مرضاً ألهاه عما اشتهاه، ولم يبلغ فى هذا الغرض إلى منتهاه، وركب البحر وأقلع، وعجل فى مفارقته وأسرع، وسلم الأمر إلى من يليه، وهو الكند هرى ابن أخيه من أمه وهو ابن أخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر، ولم يقف الأول منهم على الآخر.

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر بأن يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء ويعلم أن قصدك فى المضى مضىء، والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذ تركتها على ما بها من الشعث، لم تبرم مرر حبلها المنتكث، وهذه المعاقل التى فى الثغور، حفظها من أهم الأمور ولا يغتر بعقد الهدنة فإن القوم على ترقب المكنة، والغدر دأبهم، وملء البغى أهابهم، فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده، وأطفأوا من نار جده فيه ما أوقده، فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته وتهذيب عمله ومعاملته، وكان الوالى بالقدس حسام الدين سياروخ، وهو تركى يقتدى به فى زهادته وحسن سيرته الشيوخ، وكان فيه دين ولين، وحبله فى الخير متين، ولم يزل مستوفيا لحق الأمانة مستعفيا من الولاية لطلب الصيانة، فانصرف حميداً أثره كريماً مورده ومصدره، وفوض السلطان ولاية القدس إلى عز الدين جرديك، وقال: تهديك فى الأمور يغنيك عن أن نهديك، وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك، فتول آخذاً بالحزم فى تثبتك وتأنيك، وترويك وتأتيك، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها، فخرج إليها وتولاها، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين وإعانة المقطعين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان، ليعيد إليها الزراعة والعمران وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤاله عنها بإجابة سؤلهم وسؤالهم، فإنه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطاً وجعل لهم كل يوم فيه سماطاً، وزاد فى الوقوف، وحكمهم فى الإنفاق بالمعروف، وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الأسباط للفقهاء الشافعية مدرسة، وردها بنية على التقوى مؤسسة، وزاد فى أوقافها، ووفر مواد تلادها وطرافها، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستاناً للمرضى، واتخذ فيها بيوتاً فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضى، ووقف مواضع عليها، وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها، وفوض القضاء والنظر فى هذه الوقوف إلى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم وعول منه على أمين كريم.

* * *

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال، وقد دبر الأحوال، وأقام بعدله الاعتدال، وأفاض الفضل والإفضال، وجاوز ناحية البيرة، وقد جلا جلاله سنى راياته المنيرة، وبات على بركة للداوية بالهمة الروية والعزمة القوية، ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة، وجمع شتات مصالحها المتوزعة، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها، وأنه قد طرق الرتق إلى مشاربها، وزاد فى رسومها ونوائبها، فأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها، وأضحك بالعدل والإحسان مباسمها، وأسقط رسومها الجائرة، وأمات سننها الضائرة، وأصفى بها شرعة الشريعة، وأضفى ضلال الرعاية للرعية فى مراعيها المريعة، ورحلنا بعد الظهر، وبتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسة، ورتعنا فى مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين، ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب وداع الأبد، فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد، وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة إلى بيسان، وأزال حلول السلطان عنها البؤس وأشاع الإحسان، وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية، وقال: هذه إذا عمرت دامت فى حضانة الحصانة، وكان جبلها لوثوقه مستودع الأمانة، والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب، ووعد بإحكامها، وإعلاء إعلامها، ثم ظهر ظهرا وبات على قلعة كوكب، وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصوب. ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وتلقيناه بالبشر والبر، وأقمنا بها يوم الأربعاء لتوافر الأنداء وتواتر الأنواء.

ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل. ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الجش، وهى عامرة محتوية على سكانها، كأنها العش، وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين، وبتنا بأحوال قلعتها معتنين، وأصبح السلطان حوالى حيطانها بأحوالها محيطا، ممتطيا قرى قلعتها ولأسباب اختلالها مميطا، ووصى الوالى بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته منوطة وسدادها بسداده منوطا، ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين ونزلنا من الجبل، وبتنا على عين الذهب واجتمعنا بالثقل، ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج عيون، وجلس السلطان على عادته معنا فى تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت العيون. ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير

بالسرى، وقطعنا فى الطريق الوعر الوهاد والذرا، وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادى التيم يمنة على الضياع والقرى، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعبة، ودفعنا إلى سوك المسالك الصعبة، ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد، والسلطان مشغول فى طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد، ثم غدونا يوم الأربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد أصحرنا إلى الفضاء، وأقمنا ذلك النهار راتعين من الفواضل السلطانية فى النعماء. ولما جن الليل جمعنا بالحضرة السلطانية الأنوار، وسرت أسماعنا منه أسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسمار. ودخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت، وأنجز بالوصال إليها وعده الموقوت، ونزلت الأثقال على مرج فلميطية بالبقاع، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والإيداع.

* * *

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بيمند الأبرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر أسامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامة، بكل ما توفرت به الكرامة، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب، وسماحة أريب وسجاحة لبيب، وفتحت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع أغلاقها وسبلها وما قيد إطلاقها وقرى وأضاف، وأدنى القطاف، وأصفى العطاف، وتلطف فى الهدايا وأهدى الألطاف، وفرق على الصغير والكبير التحف وأحضر للسلطان ولكل من معه للطرف، وأغنى وأقنى، وأعدم فى الجود الموجود وأفنى، وأعطى الخيل والمماليك والجوارى والملابس، وبذل النفائس، وزف على أكفاء المحامد من أبكار المناقب العرائس، وأظهر فى مكان الشدة الرخاء، وفى مظنة الضن السخاء، وأهب فى إعصار الأعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء، وأحضر كل ما عنده مما كسبه فى الغنيمة جريًا على كرم الشيمة من الجوخ الإفرنجية والثياب البندقية والهنابات الفضية والأكواب اللجينية، والسروج واللجم، والأكسية والحزم، والمهاميز والملاليط والغفافير، والعروض والدراهم والدنانير، ففرق من ذلك ما جمعه ورفع إلى كل منه ما أسمى قدره ورفعه، وما انفصل عنه إلا كل مواصل بشكره، مساجل أمثاله بذكره، مضوع كل ناد للكرام بنشره، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه، وأعجب وأعجز ما صدق من اهتمامه.

* * *

ذكر وصول الأبرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما أراد السلطان عن بيروت الانفصال، وذلك فى يوم السبت الحادى والعشرين من شوال قيل له: إن الابرنس الأنطاكى قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحمل العصمة، داخلاً حكم الذمة، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل، وأذن للإبرانس فى الدخول، وشرفه فى حضرته بالمثول، وقربه وآنسه، ورفع مجلسه، وأظهر له البشاشة والهشاشة، وسكن من روع روعة الحشاشة، وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ووهب كلا منهم تشريفا سريا، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار، وخص أصحابه بمبار، وأعجبه استرساله إليه ودخوله عليه بغير أمان، فلا جرم تلقاه بكل إحسان، وودعه يوم الأحد وفارقه، ووافق مراد السلطان أنه بمراده وافقه، وانصرف المذكور مسرورا بين أسرته مذكوراً محبواً بالمنح والمنن محبوراً.

ذكر وصول السلطان إلى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع، وأحضرنان تلك الليلة فى نادى فضله للمؤانسة والأمتاع، وتجاذبنا أطراف الآراء، وهززنا منه أعطاف الآلاء، واستدنينا قطاف النعماء، وقد قرب الدخول إلى البلد والوصول إلى الأهل والولد، وكل يقترح مقصوداً ويقصد اقتراحا، ويظهر إلى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا. فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس، وقد شرح الله الصدر وأطاب النفوس، ووصل إلينا من أعيان دمشق من سبق للتلقي والاستقبال، وأظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال، وجاءتنا فواكه دمشق وأطايبها، واغتصت بالواصلين إلينا مسالكها ومذاهبها، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة، وجرى المتلقون فى التحفى بالتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا إلى دمشق وقد أخرجت أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، وكان يوم الزينة وخرج كل من بالمدينة وحشر الناس ضحى، وأشاعوا استبشاراً وفرحا، وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين فى الجهاد طالت، فاهتزت بقدومه واختالت، وقرت بفضائله الأعين، وأقرت بفواضله الألسن، وذاعت أسرار السرور، ورقت حبرات الحبور، وطابقت الأنفس، وغابت الأبؤس، وانجلت المكاره، وتجلت المكارم، وأفترت المباسم وهنيت بموسمه المواسم، وتهوديت التهانى، وهديت الأمانى، وغنت المغانى، ولذت المجانى، وسفرت المجالى، وظفرت المعالى، وتحلت الأحوال، وتملت الآمال، وراج الرجاء، وأرجت الأرجاء، وفاض الجود، واستفاضت السعود، وعم العدل، وتم الفضل، وأشرقت الآفاق، وأفاق الإشراق، وكرم الفضلاء، وفضل الكرماء، وحل فى القلعة حلول الشمس فى برجها، وقد جلت أوجه السعود بأوجها، وأخذت بحار سماحه فى موجها، وسلكت المناجح فى نهجها، وجاءت المنائح فى فجها بفوجها، وصفت شرعة الشرع لواردها، وضفت حلة الكرامة على وافدها، وفتحت مرتجات أبواب الآلاء

لمرتجيها، واستجدت عادات إنجاز عدات الجوائز لمستجديها، ويسر اليسار لإسعاف العافى، ونمت على ألسن الأنام أوصاف الصافى، وجلس السلطان فى دار العدل فأعدى المستعدى، ولبى المستدعى، وأجاب وأجار، وأنال وأنار، وجاد وأجاد، وبدأ وأعاد.

وفى هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر، واجتمع بنا يوم وصلنا إلى طبرية، ولقى من السلطان الألطاف الخفية، ووصل معه إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر، وتوجه إلى مصر، وقد صان نفسه ببذل ماله، وأخرج ثروته ودخل فى إقلاله، وخرجت السنة والسلطان فى أسنى سنائه، وأبهى جلاله وأجلى بهائه، والناس راتعون فى رياض نعمائه ورسل المماليك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه، وينتظرون عزمه ويرقبونه، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره، وابتسام ثغر الربيع وافتراره، والتهاب زهر أزهاره، وانتهاب سرح أسحاره، وانتباه عيون بهاره، واندلاق غرار عراره، وائتلاق أنواء أنواره، وانطباق نواظر ثماره، واصطفاق أوراق أشجاره، وانفتاق كمامه واتساق نظامه وانتثار منظومه وانتظام منثوره، وانفجار صبح أسفاره، وانفراج وجه سفوره، واجتماع لفيف أعشابه، واستماع حفيف أقصابه، والتماع بريق سحابه، واتساع طريق صحابه، وانشقاق شقائقه، وانعقاق عقائقه، واشتمال شمائله، واقتبال قبائله، وتأرج صبا صباحه، وتبلج صبا صباحه، وتورد وجنات جناته، وتوقد جمرات ثمراته، وتبسم ثغور أقحوانه، وتنسم ضمير ضيمرانه، وتصور خدود تفاحه، وتدور نهود رمانه، واخضرار آس عذاره، واحمرار خد جلناره، وتشنف أقطار النادى بأقراط قطار الندى وتفوف حافات الوادى بالوشى الوشيع من حوك الرباب حول الربا، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب، ودعا البلبل ولبى العندليب، وتعطر عبير الربيع، وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع، ووافق مراد المرعى من المراد المريع، وحلال الجنى اللجينى وحلى النضير النضارى، وبقل العذار البنفسجى واشتعل الخد الجلنارى النارى، ونجم فى الروض النجم السمائى المائىّ، وابتسم الثغر الأفاحى، وتنسم الضوع الصباحى، وتحرك العرف السحرى الشجرى، وتأرج النشر الروضى، وتبلج البشر الوضى، وانتشى النشأ الشمالى الشمولى، وانتعشت عاثرات أعشاب الشعاب، وقابلت القبول خطبة الفضل بفصل الخطاب، وصبت الصبا فى محل خطيئة المحل بصوب الصواب، فحينئذ آل جماح الأصحاب إلى الأصحاب، وصرفت أشاجيع الشجعان وإيمان أهل الإيمان كل مواج العنان رواج السنان، ونزعت النزائع إلى الحلاب، ورشفت القواطع بشفاه الشفار ضرب الضراب، واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع، وسرت الطلائع وسر الطلوع، ونهض أهل الجد وجد النهوض، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض، وضرب السرادق السلطانى حيث النصر ينزل، والسعد يقبل، واليمن يشمل، والنجح يسهل، والظفر يمثل، والأمر يمتثل، والجد يسمن والهزل يهزل، والعزم يولى والونى يعزل، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ولا يتنفس إلا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان.

وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والأجفان مغضوضة على طيب السنة، وظل البرد الشديد مديد، والجلد واهٍ والهواء جليد، وحد الشتاء فى التشتيت حديد، والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيباً، والثلوج قد زرت على أعناق أطوادها جيباً، والجو فى نظم ونثر، والثرى من الثرات مثر، والهتون ناكب ناكت، والهتوف ساكن ساكت، والمزن مزين، والحزن حزين، وللسماء سماط، وللنشاص نشاط، وللسحاب حساب، وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب، وللبرد من ثلجه برد، وللمطر فى نهجه طرد، وللغيث عيث، وللوحل ريث، وكانون قد أكن الربا، وشباط قد شب الشبا، والنار محبوبة مشبوبة، وحدود النكب مذروبة، وخدود الترب مضروبة، والسلطان مشغول بالصيد والقنص، منتهز فى العمر للفرص، مبتز بالبزاة والقصور حشاشات الوحوش والطيور بكل جار جارح، وطائر طارح، يدنى أجل الحجل وحمام الحمام، كأنه غريم لها لا هى الغرام، وكل شهم ينقض انقضاض السهم، ويبط بطن البط بالحزم، وأكثر الجلوس بدمشق فى دار العدل وأغزر لمنتجعيه در الفضل، وحكم وقضى، وأسخط بالحق وأرضى، ووقف وأمضى، وما منع بل أعطى، وأصاب وما أخطا، وجاد وأجاد، وأبدى وأعاد، وأوفد وأفاد، وأحسن وزاد، وأغنى وأفنى وأجدى وأسدى وأولى وولى، وأجار وأجاز، وحاز وفاز، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء، وفضل الكرماء، وتكلموا عنده فى المسائل الشرعية، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية، وما كان أحسن إلى الحق إصغاءه، وأسرع للباطل إلغاءه، ولكل ذى فضل منه حظ، ولكل ذى حفظ منه حفظ، ولكل محروم منه رزق، ولكل مرزوق إلى حمده سبق، ولكل فهم عنده سوق، ولكل سهم عنده فوق، ولكل أدب لديه دأب، ولكل عاتب عدم من جوده أعتاق، ولكل مكرمة عنده باب، ولكل دعوة عاف من إسعافه جواب، ولكل مستجد إجداء، ولكل مستهد إهداء، ولكل سائل نائل، ولكل ماحل وابل، ولكل ظام رى، ولكل حائم ورد هنى، فما أسح مزنه، وما أصح وزنه، وما أسمح يده، وما أوضح جدده، وما أعلى جده وما أجد علاه، وما أجدى كفه وما أكفى جداه، وما أكثر حياءه وأغزر حياه، وآرج رياه وأبلج محياه.

وممن توفى فى هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان.

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم إقليماً، وقصد به لمناد أمر ذلك الجانب تقويماً، فقوى كل منهم فى ثغره، واستقل بأمره، ودب فى طبعه حب الاستيلاء والاستبداد، ومد عينه إلى ما فى يد صاحبه من البلاد، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه واستطال هواه، وهو حينئذ متولى سيواس، فأطاع فى التملك على أبيه ملكه الوسواس، وسعى إلى أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن عفراس، وصور له أنه يريد أن يستولى على الملك، وينفرد بابتهاج المسلك وانتظام السلك.

وساعده صاحب أرزنكان وأمن اختيار الدين إلى المذكور واختاره، واستأذن السلطان أن يقصد دياره، ويقيم عنده إلى أن يصلح أمره مع أولاده، ويأذن له فى العود إلى بلاده، فاستصحبه صاحب أرزنكان، وأوقع عليه فى الطريق التركمان فقتلوه شر قتلة ومثلوا به وبولده أقبح مثلة، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا وإنه عن حسن بن عفراس سلا، ساق إليه وأخنى عليه ودخل قونية دار مملكته واستبد بحوز حوزته، وقوى بعزته، وعز بقوته، وقال لوالده: أنا بين يديك أشفق عليك وأنفذ أوامرك وأوفر مآثرك، وقتل أمراء كانوا لأبيه، وألزم خدمته من لا يشتهيه، فبقى معه كالمعتقل، يظن حاليا وهو فى العطل، واستكتبه إنه ولى عهده، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده، وتصرف فى خزانته وملك أقسرا، وفرع وفرى، وقرع وقرا، وقطع وبرى، وقد مضى حديث ملك الألمان فى ذلك الأوان، وكيف وصل وعبر إلى الشام وكيف قوى بهم فى وهن الإسلام، واستصحب معه والده إلى قيسارية لقسر أخيه نور الدين سلطانشاه وحصره، وأظهر أنه بأمر والده وأنه شاد ظهره، وخرج عسكر البلد وصف، ووقف وكف، ورأى قليج ارسلان، إن ولده عنه مشغول، وإن عقد حراسته له محلول، فخرج من الصف مفارقا للولد، وساق ودخل إلى البلد، فأضافه الولد الآخر وأكرمه، وبره واحترمه، وانفصل ملكشاه إلى قونية وملك تلك الأمكنة، وقد استبد بالسلطة وبقى قليج أرسلان يتردد فى بلاده، وفى ضيافة أولاده، ينتقل من بلد إلى بلد، ومن ولد إلى ولد، وكلهم يضجر منه ويعرض عنه حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وآزره وضافره، وظاهره، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله وجاء به إلى قونية فدخلها، وحلى به عطلها، وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت، واسترغب الأوجيه، وجمع العسكرية، فمرض فجاء به وقد توفى إلى قونية فى محفة، ونزل يمشى قدامها ويظهر أنه من المرض الثقيل فى خفة، حتى دخل المدينة وقلعتها، واجتازها واحتاز مملكتها، واستدعى الأعيان فاستحلفهم واستمالهم وتألفهم، ثم أظهر لهم وفاة أبيه وإنه وارث ملكه ومتوليه، وقوى على قطب الدين ملكشاه أخيه.

وتوفى فى هذه السنة القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفرّاش كان من أهل الفضل، والرياسة والنبل، وهو قاضى العسكر الحاكم المحكم، والكريم المكرم، والسلطان يعول عليه فى المهام، وفى الأمور العظام، ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود، وتولى الولايات والعقود، ولما أخذ شهرزور سلمها إليه، وعول فيها عليه، وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين، فعاد القاضى شمس الدين فأرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح بينهم ويعيد أمرهم إلى سداده، فتردد بينهم سنه، ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة، وعاد ووصل إلى ملطية، وقد استكمل من عمره لله العطية، وتوفى بها فى شهر ربيع الآخر من السنة وانتقل إلى الله بأعماله الحسنة.

* * *

[دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة]

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق فى داره، وممالك الآفاق فى انتظاره، والأيام مشرقة بمطالع أنواره، والليالى مترقبة صباحها لإسفاره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والوافدون قاطفو جنى جنابه، والضيوف فى فيوض أنعامه عائمون وبفروض حقوقه قائمون، والفقراء فى رياض صدقاته راتعون، وفى كلاء كلاءته راعون وادعون، ودار العدل بالفضل داره، وأسرار المنى بالمنائح ساره، والسلطان يجلس فى كل يوم وليلة لإسداء الجود، وإبداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وإمضاء العزائم، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم، والاهتمام بمصالح الإسلام، ومناجح الأنام، والاغتمام للمسلمين بما يتم فى بلادهم من الخطوب، وينم من الكروب، وبمجالسة العلماء ومساجلة الفضلاء، وموالاة الأولياء، ومصافاة الأصفياء، وإعداء الملهوف، وإسداء المعروف، ومل ملازمة البلد، وخرج عن حكم الجلد، وبرز إلى الصيد شرقى دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوماً، واستصحب معه أخاه العادل وأبعدوا فى البرية، وظهروا عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية، وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادى عشر صفر، ووجه بشره قد سفر، ووافق ذلك عود الحاج الشامى فخرج للتلقى، وسعاداته فى الترقى، ولما لقى الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها وإدراراتها، وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام فتلقاه بالإكرام وأنزله فى كنف الاهتمام.

* * *

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر فى مجلس عادته، ومجلى سعادته، ونحن عنده فى أتم اغتباط، وأتم نشاط، حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا إمامه وحان قيامه وانفصلنا بإحسانه مغتبطين وبامتنانه مرتبطين. وأصبحنا يوم السبت وجلسنا فى الإيوان، ننتظر خروجه لوضع الخوان، فخرج بعض الخدام وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام، فجاء وتصدر وتربع فى دسته، وجلس بسمته وسمته، وتطيرنا من تلك الحال وتفللنا بحد ذلك الفال، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعبادة ومرضه فى الزيادة، وتوفى بكرة الأربعاء السابع

والعشرين ونقله الله فى دستة العالى إلى أعلى عليين، ومات بموته رجاء الرجال وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادى، وفاضت الأعادى، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن وخاب الآمل، وقنط السائل وشحط النائل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف، ودفن بالقلعة فى داره، وفجع الزمان بأنواره، وعدمت الأيام صباحها، والآمال نجاحها. ودفن معه الكرم وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم، وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى، ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره صح ولا صحا، وحالت حالى، وزال إذلالى، وزاد بلبالى، وبطل حقى، واتسع خرقى، وتنازل جاهى، وتنازق أشباهى، وأعضلت أدواء الدواهى، وبقيت المعارف متنكرة، والمطالع مكفهرة، والعيون شاخصة، والظلال قالصة، والأيدى يابسة، والوجون عابسة، وعادت أبكار خواطرى عانسة، ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة. وبقى باب كل مرتجى مرتجًا، ومنهج كل معروف منهجًا، وظن الغنى عنى، واختلف فى ضن الأخلاف بى ظنى، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه وقام بالأمر بعزم تأتيته وحزم تأتيه وعز تأبيه، فعرف افتقاره إلى معرفتى وفقرى، وإلى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درى ونضارة حلى درى، فكتبت له، وحليت من الملك عطله، ووشيت الكتب ووشعتها، وجليت الرتب ووسعتها، وهززت اليراعة وأغزرت البراعة، وهجرت الجماعة ولزمت القناعة.

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيرة ومحاسن كثيرة، ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً، فإنه كان بإخراج ما يدخل من الأموال فى المكرمات والغرامات مغرماً، وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، فإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوى الغناء فى الجهاد بآلافه، ولا جبه أحداً بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول: ما عندنا شىء الساعة ومفهومه أنه يعطى وإن كان يبطى، وإنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان ولى عهده بالشام الملك الأفضل نور الدين على وإنه كاسمه سام على، ونور فضله كسمته جلى، وهو الذى حضر وفاته، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته، وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بأبيه فى إيلاء الآلاء وإدناء الأولياء، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء. وكان بالباب رسل ووفود وملوك، ورجال لهم فى مسالك الرجاء سلوك، فخابوا وغابوا وذهبوا وما آبوا.

ذكر من تولى ممالكه بعده من أهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، وأحيا سنتى الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس، وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة، وجاد أجاد، وأبدى الكرم وأعاد، وبسط وقبض، وأبرم ونقض، وحل وعقد، وبر وافتقد، ووضع ورفع، ومنح ومنع، وأبصر وسمع وضر ونفع، وقطع وأقطع، وأصل وفرع، ووعد وأنجز، وأوعز بغنى من أعوز، وبرز وأبرز، وجاهد وجهز، وعرض الكتائب، وفرض المواهب، وأجرى الصدقات، وتصدق بالجرايات، وأدر وأدار، وأجاز وأجار، وأغنى وأسعد، وأدنى وأبعد، وقدم أمر بيت الله المقدس، واعتمد فى اعتماد الأشوش الأسوس، وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية، لتصرف فى وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالأنس، وجلس فى دار العدل ففصل ووصل، وأحسن وعدل، وقضى وحكم، وأمضى وأحكم، وأحضر نواب ديوانه فى إيوانه، واستعرض منهم قوانين سلطانه، واستقرى الضياع والأقطاع، وعمم الاصطفاء والاصطناع، وحل إقطاع من أقام بالشام، وألزم جند مصر بالخدمة والمقام، وما أبقى إلا ما فى يدى من الضياع، وصان حقوقى من الضياع، وأمر بتخليده وأجد جدى بتجديده، فجاءنى كتابه الكريم بكل كرم مكتوب، ومحبوبه من الرفد محبوب، ورعى فى عهد الوالد، وأضاف الطارف عندى من العرف إلى التالد، هذا وأنا غائب، وبرائى رائب، ولسواه كاتب ونائب، وما أحوجنى فى النوال إلى السؤال، وأغنانى استرساله فى إغنائى عن الإرسال، ولم تفتقر مقاصدى ووسائلى إلى تسيير القصائد والرسائل، وما أغرب بدار فواضله للحلول بدار الأفاضل، ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر إلى البيت المقدس بكل ما فى المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم وتابعهم وشايعهم، قد خرجوا فى أيمانهم حانثين، ولعقد أيمانهم ناكثين، فخيم ببركة الجب، واستشار أمراءه أهل الرأى واللب، وجهز جيشاً جائشاً، وبعثاً لعثار الدولة ناعشاً، فى كل مقدم مقدام، وهمام همام، وضيغم ضرغام، وقرم قمقام، فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى أن الحمد أعود والعود أحمد، وسيأتى ذكر ذلك فى مكانه، عند ذكر الملك العادل وما رفع الله من شأنه.

* * *

ذكر دمشق وما يجرى معها ومن تولاها

وتولى الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على ولد السلطان دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد ونفذت فى البلاد أوامره، ونفدت فى الرجال ذخائره، ورتب الأمور أجمل ترتيب، وهذب الشؤون أكمل تهذيب، وجلا السرير السلطانى بنوره، وأسفر صباح الإقبال بإقبال سفوره، وهدى وهدأ، وملأ بالبشر المتبلج والنشر المتأرج الملأ، وهذب وأذهب، ورغب وأرهب، ورتب وربت، وأصلى وأصلت، وأثر وأرث، ولم الشعث، وأبهى وأبهج، ورجح ونجح، ومنّ ومنح، وأرسى وأرسخ، وبذ وبذخ، ووعد وأوعد، وجدد الجدد، وأذاع بحميته سر حمايته وأعاذ، ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ، وأمر وأمر، ونضر ونظر، وعز وأعز، وحاز وحز، وساس وراس، وملك البأس والناس، وأشاع البر وأعاش، وأشبع الجياع وروى العطاش، واستخلص ذوى الاختصاص، واختص أهل الإخلاص، ونهض واستنهض، وعرض واستعرض، وربط عزمه الرباط، وأحاط علمه وحاط، وحفظ أولى الحفائظ، ولاحظ العرف وعرف أنه لا حظ لغير اللاحظ، وصنع واصطنع، وأبدى وأبدع، ومد الظل وأسبغ، وسوى الفضل وسوغ، وأهمى العوارف، وأمهى ا لرواعف، وحقق الحقوق، ورتق الفتوق، وضم الملك، ونظم السلك، وجلس فى دار العدل، وأتى بالحكم الفصل، وحزم وجزم، وعزم والتزم، وزاد وزان، وأغاث وأعان، وأبر أرباب الهوى، وأمر من أرباب التقوى القوى، وحمى النابه، ومحا المكاره، وفاض بغزارة العطايا، واستفاض بطهارة السجايا، وآوى إليه إخوته، وضم جماعته، وجهز أخاه الملك الظافر مظفر الدين خضراً، وأصحبه عسكراً مجراً، وأنهضه لإنجاد عمه الملك العادل، فأنار فى فضاء الفضائل، وسار بجحفله إلى الجحفل الحافل، فالتزم الشروع، وهزم الجموع، وقارع القروم، وكان الهازم والعدو المهزوم.

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجرى معها فى المملكة الأفضلية داخلة، وأمداد طاعات الولاة والأولياء بها متواصلة، وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن ابن عم السلطان، وهو أثير الشأن أثيل المكان، فوصل إلى دمشق مطيعاً، ولسر صدقه ونشر صداقته مذيعاً مشيعاً، فأحلى له الملك الأفضل جنى شهياً وأحله جناباً وسيعاً، وعقد له حباً الحب، وحباه بكل ما سفر عن سفور مودة القلب ووفور مواد القرب.

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب طائعاً، وللأمر الأفضلى تابعاً، فأدناه وأجناه، وأحبه وحباه، وأسناه وأسماه، وآواه وآساه، فتأكدت بينهم القرابة المتشجة، وتشبكت اللحمة

المنتسجة، وتمهدت الآصرة الممتزجة، وتفتحت أبواب الإلفة المرتجة، وتوافوا على التوافق، وتصادقوا على التصادق، وتعاضدوا على الآخذ بالتساعد، وتعاقدوا على ترك التقاعد.

* * *

ذكر حلب وما يجرى معها

وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعاقلها، وكرائم البلاد وعقائلها، الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازى، وهو برجاحته وسماحته للطود والجود الموازن الموازى، وتلك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحواها وحماها، وبماء العدل رواها وقواها، وأعز رجال الرجاء، وهز أعطاف العطاء، ورحب لوراده ورواده رحابة، وسحب بحيا الأحياء سحابة، وأبرت مبراته، وأثرت مأثراته، وسح وصح غيثه وغياثه، ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغراته، وزخرت أمواجه، وزهرت بثواقب المناقب أبراجه، وصابت سماء سماحه، وطابت صبا صباحه، وعزت بسيرته كتب التواريخ، وعزى قلمه وسيفه إلى عطارد والمريخ، وسعدت وفوده، ووفدت سعوده، وأثر من أمره النفاذ، وكثر بظله اللياذ، وأدنى الأبرار، وأقصى الأعزة الخواص بالأعزاز، وأوعز بما يعود به إلى نضارة الغنى العود الذى ذوى لذوى الإعواز، وتمهد لسلطانه الأساس، وأطرد لإحسانه القياس، ووجد من عثر من أيد يده الانتعاش، وعشا إلى جدواه المجتدى وعاش، وفرض الفرض، ورفض الرخص، وأدى الفروض، وقضى القروض، واستدنى من المناجح شاحطها، واستدرك من المصالح فارطها، وملك خلق التحفظ، وسلك طرق التيقظ، وفرق وجمع وخرق ورقع، وغلب وبلغ، ودمر أهل الكفر والنفاق ودمغ، وشفى واشتفى، وكفى واكتفى، وراع وراق، وفات وفاق، وطلب وأدرك، وأخذ وترك، وفاض بالفضل، وراض بالعدل، وقدم الحزم، وصمم العزم، وأحيا السنن، وأولى المنن، ولها بالجد عن اللهو، وانتهى بالعدو إلى اليأس المر وبالولى إلى النائل الحلو، وأمر ونهى، وأوهن معاقد ذوى المكايد وأوهى، ووفى للوفى، وصفا للصفى، وأقر البيرة وأعمالها وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ولم يزل مقبولاً أمره غير مردود، ودخل فى أمره صاحب حماة، وأعزه وحماه، وهو ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين واتسع الملك، واتسق السلك، وكاتب الجوانب وراسل، وفارق من رأى وواصل، وطال باعه، وأطاع أشياعه، وهمت همته بالزيادة، وسمت لسمت السيادة.

* * *

ذكر الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب أخى السلطان وما جرى له بعد وفاة أخيه

كان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته، وكان موافقه ومرافقه فى مقتنصاته، فلما عاد السلطان إلى دمشق ودعه ومضى إلى حصنه بالكرك للاستراحة، غير مطلع على سر الغيب فى الأقضية المتاحة، فنابه النائب، ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب، فلما عرف وصل إلى دمشق بعد أيام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام، ولم يرم ثلاثا؛ ولم يرم لباثًا، ورحل طالبًا لبلاده بالجزيرة، حذرًا عليها من أهل الجريرة. وكان السلطان جعل له كل ما فى شرقى الفرات من البلاد والولايات، ومضى كما ومض بارق، وتخوف أن يطرق بلده طارق.

فلما وصل إلى الفرات وجد مما خافه دلائل الفترات فأقام بقلعة جعبر ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة فى السلم والسلامة، ومحبة للدعة المستدامة، وسير إلى الولايات الولاة، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحران والرها، وشحنها بالشحن واستقام أمرها، وحسب أن الأعداء إذا سمعوا بسمعه جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه، وسكن وسكت، وتبين وتثبت، وعلم العدو أنه فى خف فخفوا، وعرضوا وصفوا، وما كفاهم وما هم فيه فهموا وما كفوا، وسافوا تراب الطمع وأسفوا، فجرت حركتهم هلكتهم وأذهب الله عند مجيئهم بركتهم.

* * *

ذكر أهل الشمات وما قدر الله لجمعهم من الشتات

كان الأمير بكتمر صاحب خلاط قد هجر الاحتياط ووصل النشاط، وضرب البشائر لرزء صلاح الدين، وظهر فى النوب الخمس بشعار السلاطين، وتلقب بالملك الناصر وحدث أمله بجرالعساكر، وراسل صاحبى الموصل وسنجار وطيّر إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه من ماردين، ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، وخلط من خلاط الأوشاب والأوباش. فبينما هو فى أتم غرور وأتم سرور وأحب حبور وأشب سفور، وأرقد عين، وأركد عين، وأغفل قلب، وأذهل لب، وأطول أمل فى أقصر أمد، وأكثر مدد فى أقل مدد، وقد خرج من الحمام ولم يدر أنه داخل إلى مغتسل الحمام، استشهد على أيدى الإسماعيلية ولعل الله غفر له ونقله بشهادته إلى جنته العلية وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة وكأن أيامه كانت أحلامًا رأيت فى السنة وأول بادئ بالخروج متولى ماردين فإنه مرد وحشد المدد ونزل على حصن الموزر بالعزم المزور والجد المزور، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن

أعمال ماردين حين كان أهله عليه ماردين، فلما صالحهم استبقاه واستثناه وأضافه إلى نائبه بالرها وأعطاه. ثم تحرك عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وخرج فى الجحفل الحفل، وأضافه أخوه عماد الدين زنكى بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين، وقدموا الرسل إلى الملك العادل سيف الدين وقالوا: تخرج من بلادنا وتدخل فى مرادنا. فكتب إلى بنى أخيه يستنجدهم ويستنفرهم، ويستصرخهم ويستنصرهم، فأنجدوه بالأمداد، وأمدوه بالأنجاد، فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجًا بعد فوج، وكان أنجاد حلب أقرب، ولدر الإسعاف أحلب.

ولما عرف الملك الأفضل اغتم واهتم وجمع عسكره وضم، وخص وعم، وكتب إلى صاحب حمص وبعلبك، واستدعى عسكرهما الترك فسار أخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر، وروض عسكره بورق الحديد الأخضر نضر، والملك العادل لقدومه منتظر. وأما المواصلة فإنهم ما أسرعوا بل أبطأوا، وما أصابوا بل أخطأوا، وسمعوا إن الأمداد العادلية الوافية متوافية وإن فئته كافة كافية مكافية، فتجنبوا وتجبنوا وكانوا قد وصلوا إلى رأس عين فأقاموا وسكنوا. والملك العادل مخيم بظاهر حران فى جموعه وجنوده، وأعلامه وبنوده، ومساعديه وسعوده، وعزمه على اللقاء مصمم، وقلبه بحب الظفر متيم، وجده غالب، وحده سالب، وجده لظباء النصر حالب، ولطيب الذكر جالب، وسيف سيف الدين باتر واتر، ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر.

وتقارب العسكران حتى أن الطلائع تتواجه وتتجابه، ورجال اليزك تتناجى وتتناجه. وكان من قضاء الله المحتوم وسر قدره المكتوم تفليل غروب القوم وتقليلهم، وحار تأملهم وخار تأميلهم، وجعفل رألهم ورتع رعيلهم، وذلك بما قدره الله من مرض أتابك صاحب الموصل ولم يطق الإقامة بالمنزل وأشفى على الخطر وأشرف صفو حياته على الكدر، فعاد إلى الموصل فى محفة ورجا أن يتبدل ما ألم به من ثقل ألم بخفة، وقهقر عماد الدين راجعًا ولمن وثق به من أشياعه فاجعًا، وتضرع صاحب ماردين وتذرع، وتشفع بالأمراء والأكابر وخضع، حتى وقع عنه الرضا وصفح له عما مضى، وأجرى على القاعدة السلطانية معه. وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه، ورأى عماد الدين أن القوم خانوا واستكانوا وما راعوا له العهد كما كانوا، فاضطر إلى الانكفاء وكف عن اللقاء، فخلا الجو وجلا الضو وعلا النو وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن أخيه الملك الظافر إلى الفرات فى عسكر دمشق أهل الثبات، فكاتبه بمنازلة سروج وهى من أعمال عماد الدين وأمده بابن تقى الدين وابن المقدم عز الدين ليث العرين. فنزلا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الأحد تاسعه واستولوا على البلد وأماكنه ومواضعه، ورحل الملك العادل منتصف

رجب إلى الرقة وتسلمها فى العشرين منه وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكر عنه. ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه، وجاء إلى نصيبين ونزل بظاهرها وشرع فى ضم ذخائرها، فجاءت الرسل العمادية فى طلب الصلح وأسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح. ورحل ونزل داراً وكان صاحبه دار مع القوم وما دارى، فبسط عذره، وقبض ذعره، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده إلى نور الدين رسلان شاه ولده وجرى بينه وبينهم صلح وكان له فى كل سفرة تجارة وربح، وكتب إلينا أن أهل خلاط كاتبوه وعلى تأخره عنهم عاتبوه، وأن كل صاحب حصن قد ضبط موضعه، وانتظر مطلعه، فإنه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار دينارى، فلم يرضوا بإيالته لخلاط ولم يروه كفواً لتلك الهدى، ثم أشرف العادل على خلاط فوجد أهلها قد كملوا الاحتياط، ورأى أن البرد يشتد وأمد الحصر يمتد، فعاد إلى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر إلى الربيع أمرها.

* * *

فصل فى المعنى أنشأته إلى الديوان العزيز فى آخر رجب عن الملك الأفضل

لا شك فى إحاطة العلم الأشرف بحال الذين حالوا عن الاتصاف بالإنصاف ومردوا ومروا أخلاف الخلاف، وعادوا عن خلق التلافى إلى الإتلاف، وبددوا بالانتظام فى سلك الغدر شمل الائتلاف، ونكثوا بعد أيمانهم حتى قيل كفروا بعد إيمانهم، وباؤوا فى بغيهم بغيهم، وأبدوا قوتهم فى وهيهم وعزموا أنهم إذا عزموا نالوا فرصة، ووجدوا إذا جدوا فى العزيمة رخصة. وجاؤوا إلى البلاد التى للخدم من إنعام أمير المؤمنين صلوات الله عليه ليتملكوها، واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها، واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم، وأصيبوا إذا لم يصيبوا ببصائرهم وأبصارهم، ودخلوا فى دائرة السوء وخرجوا من ديارهم.

واجتمع صاحب الموصل وأخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وما الظن بشر الحاسدين الحاشدين، ووعدهم الشيطان وأحزابه فصدقوا كذب الواعدين، وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه إلى تلك البلاد لإبقاء أمورها على السداد، واثقًا منهم بالمواثيق؛ محتفلاً بالوفاق الحافل الأفاويق. وهو فى خواصه وذوى استخلاصه، لم ينتظم عسكره، ولم ينضم إليه معشره، ولم يصف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره. فلما عرف نكرهم وعلم فى مكرهم مكرهم، توافت إليه الجموع وحنت على قلبه الضلوع، وحنت إلى أصله الفروع،

وتوافد إليه بنو أخيه فى الجنود وتوافوا نجدة ساعدت بالسعود. وأمد الأخ الملك الظاهر من حلب بالأمداد المتظاهرة والأنصار المتناصرة، وندب الخادم أخاه الظافر خضرا وأنهضه، وسار معه عسكره الذى بدمشق عرضه، وسمع الأخ الملك العزيز خبر القوم وأنهم من حول ورد الردى على الحوم، فأخرج المضارب وأبرزها، وأنفق فى العساكر وجهزها، وذكر عدة النجدة فأنجزها، واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها، وأقبل على ذخيرة الفضيلة فأحرزها، وتحرت السواكن، وثارت الكوامن، وهاجت الأقطار، وماجت البحار، وشابت الأكدار، وأصابت الأقدار، وأظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته فى أهل الشمات وخصّ جمعهم بالشتات وحبلهم البتات، وخص من تلك الثبات أجنحة الثبات، وشغل كلا منهم بوباله وباله، وحطه من يفاع اعتلائه إلى حضيض اعتلاله، وأعادهم على أعقابهم ناكصين، وبعقابهم ناكسين وفى آرائهم وآرابهم ناقصين. وأظهر الله فى كل واحد من أعداد الأعداء آية للعادة خارقة، وقدرة لأقدار الأولياء للسعادة خالقة، وقتلهم وما قاتلوا وقابلهم وما قابلوا، وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين، وعظة للمتفكرين. وعلم صاحب ماردين أنه أخطأ وما أصاب، فأبان عن ندمه وأناب، وتعرض للعفو عنه وتضرع، وتشفع بالأمراء فى أمره وتذرع، فأبديت له صفحة الصفح وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح، وأجرى على القاعدة المستقرة له فى عهد الوالد رحمة الله عليه، فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا إليه، وكان الأخ الملك الظافر خضر قد وصل إلى الفرات حين حكم الله لجموع أولئك بالشتات، فعبر إلى سروج يوم السبت ثامن رجب وقلب العدو من الفتح الذى وجب وجب، وفتحها يوم الأحد ضحوة، وجاءت هذه المنحة من الله حظوة. ورحل الملك العادل بالعساكر إلى الرقة لاسترجاع وديعتها المستحقة، وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها، وما السعادة إلا لمن شملته سعودها، وما الجد إلا لمن وصله جودها، وما الكرامة إلا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها، وما العصمة إلا لمن لزمت فى حمده النعماء عقودها.

* * *

ذكر سيف الإسلام باليمن

وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشأن، مستول على جميع البلدان، مختص فى مكانه بالإمكان، وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام فلم يظفر بمرام، ووصل كتابه إلى أخيه، وهو غير عالم بتوفيه. فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الإسلام بغمه، وهمّ فى كتابه بما كتب الله من همه، والكتاب بإنشائى عن الملك الأفضل يشتمل على شرح ما ألم، وخص به الرزء وعم.

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم، والخطب الجسيم، والرزء العميم، والحادث الأليم، والكارث المقعد المقيم، والنائب الباغت، والمصاب الساحت، والفجيعة الفاجية، والنكبة الناكية، والطارقة الطارية، والملمة المؤلمة والبلية البارية، والواقعة الرائعة، والصدمة الصادعة، والحدمة اللافحة، والروعة الفادحة، والغمة التى غامت بها الأيام، وغم لها الآنام، واعتل منها الإسلام، واختل النظام. فقد عدمت المطالع ضياءها والمشارع صفاءها والثغور سدادها والأمور سدادها والعيون قرتها والنفوس قرارها، والقلوب ثباتها والجفون غرارها، والأيدى أيدها والوجوه سفورها، والصدور انشراحها، والأسرار سرورها، فقد فقدت الدنيا بهجتها، وضلت العلياء محجتها، واهتدى الضلال إلى الهدى، وأقوى نادى الندى، وأقفرت مغانى الغنى، واكفهرت مجالى السنى، وأمرت مجانى المنى، وخفيت مناهج المناجح، وعطلت مناهل المنائح، وعميت مذاهب المواهب، وأظلمت مطالع المطالب، وارتجت أبواب الفتوح، ودجت أضواء الوضوح، ودرست معالم المعالى، وطمست زواهر الليالى، واضطربت الدهماء، واضطرمت الدهياء، وبطلت مواسم الحق، وأبهمت مظالم الخلق، وانقطعت مسالك الجهاد، وتفجعت ممالك البلاد، وأخلفت عدات الأعداء على الأعداء، وانكسفت أنوار آمال الأولياء وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم وأظهره من سر قدره المكتوم بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه، وروض فى جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه، فقد عظم الخطب وجل، وحل عرى الجلد حين حل، وثلم غرب الصبر وفل، وأجرى غرب الدموع وأزكى كرب الضلوع، وبت حبل اللاجين، وشت شمل الراجين، وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث، وحباؤها غثاث، وعقودها أنكاث، وسهولها أوعاث، وقصورها أجداث، وسرورها غرور ومواهبها أحداث، وسكونها قلق، وأمنها فرق، وصحتها سقم، وأملها ألم، وغبطتها ندم، ووجودها عدم، وبقاؤها فناء، ونعيمها بلاء، وراحتها عناء، وملكها هلك، وسترها هتك، وأخذها ترك، وسلمها حرب وصلحها فتك، ووفاؤها غدر، ووفاقها مكر، وعرفها نكر، ووصلها هجر، وخيرها شر، ونفعها ضر، وجبرها كسر، ومتاعها قليل، وباعها فى التطاول طويل، وما لعثارها مقيل، ولا فى ظلها مقيل، ولا إرب فيها لأريب، ولا الباب فيها للبيب، فإن ظلها قالص، وفضلها ناقص، وعمرها قصير، وغنيها فقير، وريها جرع، وزيها خدع، وحليها عطل، وسعيها زلل، وإجداؤها أجداب، وإعطاؤها أعطاب، وإصباحها إظلام، وأرغابها إرغام، وربحها خسار، وجرحها جبار، ويسارها إعسار، وخصبها إمحال، وحبها محال، وعمارتها شعث، وشيمتها عيث وعبث، وترابها

تراث، ولا لمسكنها أساس ولا لساكنها أثاث، ولا كيدها في كيدها يد، ولا لمكرها في جد مكرها جدد، والسعيد من استعد في معاشه للمعاد، واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد، ومن نظر إليها بعين القلي، وعرف إنها دار البلاء والبلى، وتقوى فيها بالتقوى، وجد في الإعراض عن جدواها للفوز يوم العرض بالجدوى.

ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفًا ولطريقتها عازفًا، ولزخرفها عائفًا، ومن ملكها آنفًا، وعن مالها متعففًا، فاشتغل عن الدنيا بالدين، وخصه الله بتأييده في علم اليقين، واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقف حياته على إحياء معالم الهدى، والإعلان بشعار التقى، وإعلاء منار الجهاد وإشاعة سنن العدل والإحسان في البلاد والعباد، وإفاضة سجال الفضل والإفضال، حتى كفل جوده بفيض أرزاق ووفى بنجح الآمال، وأخلص لله عمله، ولا ملك ملكًا ولا تمول مالاً إلا في سبيل الله أنفقه وبذله، وكان كما قال النبي ﷺ: «من كان لله كان الله له»، فلا جرم أذلّ الله له الملوك الأعزة ووهب لأعطاف الدولة للتباهي بملكه الهزة، وملكه الأقاليم والأمصار، وأجرى بإقداره الأقدار، فأزال عن مشارع الشريعة الأكدار، وعطل البدعة بمصر واليمن والشام، وقمع أعداء الإسلام، ومد الله في عمره حتى بلغ المراد، وفتح البلاد ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد، وقدر على ما أعجز عنه الملوك، ونهج في نصرة الدين نهجًا أعوز من قبله فيه السلوك، وأخرج الفرنج عن الساحل وأبادها، وملك عليها ديارها وبلادها، وأوهى على الكفرة معاقد معاقلها وطال بحقه على باطلها، وأقصى عن المسجد الأقصى مدنسيه، وأزال عنه أيدي غاصبيه، وأصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الأرجاس، وأبعد عنها أجناس الأنجاس، وقهر الكفر وخذله، ونصر الإيمان وأخذ له، وأحيا للكرم كل سنة حسنة، واستمرت محاسن أيامه سنة بعد سنة، وتعدلت بعدله الجوانح، وتذللت ببأسه الجوامح، ودانت ودنت له الممالك القاصية، وأذعنت أذعنت لحكمه الأماني العاصية، وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته، وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته، ونفذت في الشرق والغرب مراسمه، وقامت بالحمد والشكر مواسمه، ووفت بأمل الداني والقاصي والطائع والعاصي مكارمه، وأسعده الله وأمهله، حتى حقق في ذويه أمله، وولى في كل إقليم من يعمل لله في العدل والإحسان عمله، ثم توفاه حميد الأثر كريم الورد والصدر، ظافر الرجاء رائج الظفر، صالح العمل، ناجح الأمل، طاهر الفطرة، ظاهر النصرة، كاسيًا من الفخار، عاريًا من العار، مرتديًا بثوب الثواب، مرتويًا

من صوب الصاب، مبتهجًا بنضرة النعيم، متأرجًا بعرف نسيم التسنيم، وما كان أبهج الأيام بأيامنه ، والأعصار بمزاينه، والأمصار بمحاسنه، والإسلام بسلطانه، والآفاق بسنى إحسانه، وما كان أسعدنا بجدوده، وأجدنا بسعوده، وأغنانا بعدله وجوده، فقد فقد الصباح فلا سنى، ودفن السماح فلا جدى ولا جنى، وغاض البحر فلا غنى وهو الطود فلا ثبات، وذوى الروض فلا نبات، ووهى الركن فلا سند، وانتهى اليمن فلا جدد، وغلب الكمد فلا جلد، وعز العزاء فلا عز ولا قوة ولا عضد، إنّا لله وإنا إليه راجعون ولأمره تابعون ولحكمه طائعون، لا راد لإرادته، ولا صاد لمشيئته، ولا صادف لمصادف قضائه، ولا صارف لصرف بلائه. ولقد كادت الأنوار تغرب، والأنواء تعزب، والمنابع تغور، والصنائع تبور، والأحوال تحول، والأهوال تهول، وأضواء المعارف لا تضيء، وأفياء العواطف لا تفيء، وزهر السماء لا تشرق، وأزهار الروض لا تؤنق، ومعاقد الإسلام تهى، ومياه من الأيام تنتهى لولا أن الله تدارك الأرماق بألطافه، وتلافى الآمال بإسعافه، وجلا وجه النعمى من خلال البؤس، وأهدى البشر بعد العبوس وأنزل السكينة عند الزلزال على النفوس، وأجرى الدولة على أحسن العوائد وأرشد المقاصد وأثبت القواعد من استمرارها على الالتئام، واستقرارها فى النظام، واستدرارها بأفاويق الوفاق، وإهلال بدورها غب المحاق، وطلوع شموسها من الآفاق، وارتفاع فروعها فى سماء السمو، وامتداد أصولها فى منابت النمو، وانفتاح أحداقها النواظر عن نور الأبصار، وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الأزهار، حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت، وانتظمت الإلفة المتبددة وتأكدت وسكنت القلوب الراجفة وأنست، وسكتت الألسنة المرجفة وخرست، وأنارت الخواطر المظلمة، وأفاقت الظنون الراجمة والأفكار المنقسمة، وزاد الرونق، وزال الرنق، وانجلى الغسق، وتجلى الفلق، واستقامت الأمور، واستنامت إلى حفظها الثغور، ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب بكل ما أنجح الإرب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب، وبكل ما أظهر القوة وقوى الظهر، وشد الإزر، وأمر الأمر، وسر السر، ونصر الحق وحقق النصر من الموافقة والموافاة والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة، والمتابعة والمشايعة فى كل أمر يبرم، وكل حكم يحكم، وكل عزم فى قمع العدا يصمم، وكل عقد فى نصر الهدى يلزم ويتمم.

ووصل المولى الملك العادل فتولى أمر الملوك بكل ما وافق إيثاره، وأشاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره، وأخلى من كل شاغل باله ورفه أسراره، وأراح أفكاره، وما فى الجماعة إلا من خطب الجمعية وخطب فى ا لجمع، وأعرض عن الهوى للحق المتبع، فالكلمة متحدة وإن كانت الأنفس متعددة، وما أخلقت هذه

الدولة بل استمرت على تجدد الأيام متجددة، وإنما أشفقت فى حال الصدمة الأولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس، ومن غدر الفرنج بقصدها فإن الغدر شيمة لهم فى الأنفس، فوقى الله شرهم، ودفع مكرهم، وأوهى أمرهم، ولم يزل من قلوبهم الرعب، ولم يؤثروا على الصلح الحرب، بل طلبوا بقاء السلامة بإبقاء السلم، وخطبوا إجراءهم فى الوفاء بعقد الهدنة على الرسم، وبركات نية المرحوم شملت، ووصاياه نفذت وكملت.

وتوجه الملك العادل إلى بلاده الجزرية، شرقى الفرات لإصلاح تلك الولايات وإخراس شقاشق الهادرين بالأرجاف من أهل الشمات، ليؤذن بهيبة الأسد جمع النقاد بالشتات، وليعيد إلى الأنس شارد الولى الراشد، ويرد بالبأس مكايد الحاسد الحاشد، والحمد لله الذى أجد الأمن وقد عرت المخافة، وأنزل الرأفة وقد فجأت الآفة، وأبقى الإسلام بعزه والكفر بذله، وثبت قواعد الملك الناصرى بجمع شمل أهله، وأحيا بهم سنتى إحسانه وعدله، وشيمتى إفضاله وفضله، وفى دوام إقبال المجلس السامى دوام إقبالهم، ونظام أحوالهم، وسبوغ ظلالهم، وبلوغ آمالهم.

* * *

ذكر ما افترضه الملك الأفضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وإنفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

ولما استقر الملك الأفضل بدمشق فى مقام والده، وشفع طارف ملكه بتالده، وأضاف موروث الفضل إلى مكتسبه، وأكرم نسبه بكرم حسبه، بدأ بالأهم الأفرض، والأتم الأمحض، فقدم إلى الديوان العزيز النبوى نجابين بالكتب، وأنهى الحال فيما ألم من الخطب. ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى فى الرسالة، إلى منزل الرسالة وموقف الجلالة، وأصحبه عدة والده فى الغزاة، أوان لقاء العداء، وسيفه ودرعه وحصانه، وأضاف إلى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفذ وسعه وإمكانه فما تهيأ مسير الرسول إلا فى أواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراده من الهدايا الفاخرة وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله، حتى لا يظن إنه انفرد بسوله، وقصد مدارة إخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد أن جدد نقش الدينار والدرهم بسمتى أمير المؤمنين، وولى العهد عدة الدين، وأمرنى بإنشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد فيها وتقريرها.

* * *

فصل من الكتاب إلى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده

مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء، وهمته فى العبودية فارعة ذروة العلاء، وهو للأرض مقبل، وللفرض متقبل، وبالطاعة ماثل، وللاستطاعة باذل، وللجهد والإخلاص، عارض ضارع، وفجر فخره من الصحة المناصحة صادق صادع، وهو يمت بما قدمه من الموات، وأسلفه من الخدمات، وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، واتخذه عصمة من النائبات، وعوذه من الطارقات، وعدة عند الملمات، وعمدة لدى الخطوب الكارثات، ومصرفًا لصرف الحادثات، ومؤلفًا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها فى أزمن الأزمات وسلوة من الأسى وأسوًا لجراح المصيبات، ولا خفاء بما أخافه، وفاض له من بحر البرح وضافه وأغاض نطافه، وعاق أوان رجاء جنى النجاح قطافه، لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه، فإنه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه، وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه، ونابه ما رابه، وجرعه مصابه صابه، ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة ومحا عن صفحة صبحه آية الآيات وألم بألم الأمل، وأحال الحلى إلى العطل، وحلاء عن النهل والعلل، وأذهب بهجة الأيام، وأشمت الكفر بالإسلام وسر الشرك منه ما ساء التوحيد، وقرب من إشفاق القلوب وإشفاء الكروب البعيد، وعطل الجهاد وأراح الحديد، وشب حقود العداة على أنها ما شبت إلا لتخمد، وشام حدود العتاة على أنها ما شيمت إلا لتغمد، وهذا الحادث أرجف المرجفون بحديثه، وآثاروا كوامن النار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه، وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق، وعاد ثبات ثباتهم إلى نفار وقلق، ومن كان مستمسكًا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى، مستلئمًا من عدد أيامها ومدد إنعامها بالدرع الأقوى الأوقى، فإنه لا يحتفل بحفول أخلاق أهل الخلاف، ولا يتحلحل طود حجاه الراسى وحصاه الراسخ لعواصف ذوى الإحجاف، وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد الشديد السديد، المبير للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته، مستقيمًا على جدد الجد، مستنيمًا فى صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، مستنفدًا فى كل ما يحوز به المراضى الشريفة وسعه، مستفرغًا طاقته فى الشغل الدينى الذى يهدى بصره وسمعه، فكم قبض يدًا بسطتها بالفتنة الفئة العادية، وكم فرض سنة أعلت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهادية، ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولايات الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد، ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان فى الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد وأطمر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب، وأقام بها منار الإسلام ومنابره لما أناب عن

أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره ضوامن الظافر بمضامير، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع، وعقوده تروق فى سلك الملك وتروع، ومصر بل الأمصار باجتهاده فى الجهاد شاهدة والأنجاد والأغوار فى نظر عزمه واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وتوفره على العبودية لمالك رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته، وكل ذلك فى طاعته ومناصحته وبركاته، وما زال ظاهراً على العدا، ناصراً للهدى، معلياً معالم العلى، محيياً مواسم التقى، مسنياً سنن الشرع وفروضه، مديماً بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه،، وهو الذى ملك ملوك الشرع وفروضه، مديماً بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه، وهو الذى ملك ملوك الشرك وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها، وقمع عبدة الصلبان وقصم أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها وسد الثغور، وسدد الأمور، وأذل للدار العزيزة كل عدو، وأخذ لها على يد كل ذى عتو، واستمرت على الأيام مساعيه فى الخدمة ناجحة، ومعانيه على موازين الموازين راجحة، وسيرته حسنة وحسناته سائرة، ومحاسنه ظاهرة، وسريرته طاهرة، وختم الله له بالسعادة، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة، وقضى وقد قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه، وقبض وعدله مبسوط، وأمره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وأمله بالنجاح مشروط، وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط، والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة، والأسباب محكمة والأحكام مسببة، والأحوال حالية، والأعمال راضية، والمصالح مصونة، والمناجح مضمونة، والرعية مرعية، والعوائد مرضية، والقواعد متأثلة، والمقاصد متحصلة، والثغور مسدودة، والخطوب مصدودة، وأصول الدولة ثابتة، وفروع الدوحة نابتة، وما ترك أمراً بعده غيرمستقيم ولا نهجاً غير قويم، ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج إلى تقريبه وتقريره، ولا أبقى لمن بقى له ما يفتقر إلى ترتيبه وتدبيره، وما خرج من الدنيا إلا وهو فى حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها، والاستكثار من مادتها، والاستسعاد بسعادتها، والاستعداد لعبادتها، والاستجارة بظلالها والاستنارة بجلالها، والاستعاذة بفضلها والاستزادة من أفضالها، وما بنيت القواعد إلا على أساس وصاياه، ولا أمضيت العوائد إلى على قياس سجاياه، ولا أبرم إلا ما عقده، ولا أحكم إلا ما أكده.

واقتفيت آثاره، واجتليت أنواره، واتبع إيثاره، وائتمرت فى ائتمار الأوامر الشريفة أوامره، ومن كان فى نصرة الدولة الإمامية الناصرية فإن الله ناصره، وما يفتخر العبد إلا بما ورثه فى ولائها من الفخار، وبعثه من آلائها الغزار، ونعشه برفعه من

العثار، وعرفه بعرفه المبر المبار، ولا يتسم بالملك إلا من يتسامى بأنه لها مملوك، ولا يوصل إلى السعادة الأبدية إلا مسلك إلى رضاها مسلوك، ولئن مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخوه فى مقامه، والأمر فى كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه، والكفر مفلول الغرب، مخذول الحزب، مجبول على الرعب، مغلول بقيد السلم عن الحرب، فإن الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة وخصهم لإبقاء عزة الثغور الإسلامية بالذلة، وقد استمرت الحال إلى الآن على الهدنة وهم لا يؤمنون إذا أحسوا بالمكنة، فإن الغدر فى طباعهم مركوز، والسوء فى غرائزهم مغروز، والعبد آخذ بالحزم، عائذ بتأييد الله فى العزم متيقظ لمخوف غدرهم، متحفظ من مكر مكرهم، مستعد بكل إمكان، مستجد كل ما يفتقر إليه من نجدة وقوة بكل مكان، مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة فى أموره، مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره، ظاهر بقوته من أيدها وأياديها قوى بظهوره، مدل بما له من الموات الأكيدة، والسوابق الحميدة، والشوافع المقبولة، والذرائع الموصولة، موقن أن الرعاية تدركه، وأن العناية تملكه، وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص، وأن فاتحة الحمد منه والإخلاص تفتح له باب الأحماد والاستخلاص.

ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاستطاع حسن الحلية وقوة النصر والحول عول على القاضى ضياء الدين فى المثول بالخدمة الشريفة وإنهاء حاله، والانتهاء إلى مناجح آماله، والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد، ونجح المقاصد ونصح العقائد، وشرح الأحوال فى المصادر والموارد، وأن بلاغته وصية بالإبلاغ، ملية بإشباع القول فى اعتفاء الطول الملى بالأسباغ، وقد فاوضه فيما فوضه إليه، واعتمد فى استنجازه واستنجاحه عليه، لا زالت أيادى ا لدار العزيزة دارة غزيرة، سارة أولياءها وبإحياء موات مواتها جديرة، إن شاء الله تعالى.

* * *

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفًا فى سبيل الله بالإنفاق، موقوفًا عزمه فى الأعداء بإدناء الآجال وفى الأولياء بإجراء الأرزاق، وما عقر فى سبيل الله فرس أو جرح إلا وعوض مالكه بمثله، وزاده من فضله، وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد، للحاضرين معه فى صف الجهاد مدة ثلاث سنين مذ نزل الفرنج على عكاء فى رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجر، وأكديش طمر وذلك غير ما أطلقه من المال فى أثمان الخيل المصابة فى القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به،

وصاحبه ملازم فى طلبه، وما حضر اللقاء إلا استعار فرسًا فركبه وهجر جياده فإذا نزل جاء صاحبه فاستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعير جوادًا، ويستعر فى الجهاد اجتهادًا، وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه كالكتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها فى إسداء المعروف، وكانت محاضره مصونة من الحظر، وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة من الهزء والهزل، ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط، يغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين، ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان، بل يعتقد إنه جليس أخ من الإخوان، وكان حليمًا مقيلاً للعثرات متجاوزًا عن الهفوات، نقيًا تقيًا، وفيًا صفيًا، يغضى ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ما ردّ سائلاً، ولا صد نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خيّب آملاً.

ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه فى بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان مشتغلاً بمهماته، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه وما الذى وقفه عن موقفه، فذكر أن غرماءه لجوا وألحوا وضنوا بإطلاقه وشحوا. فأحضروا غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين، وأمرنى بأن أحيلهم على مصر فحسبتها وهى اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر، فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل.

ولما كنا بالقدس فى سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ من مصر وهو بها نائبه، وقد وضحت فى الكفاية مذاهبه إن واحدًا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها ألفى دينار وتسحب، وربما وصل إلى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب. فجاء إلى السلطان من أخبره أن الرجل على الباب وخال إنه إليه به تقرب، فقال: قل له إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع فى عينه. فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل بقدمه إلى حينه.

ومما أذكره له فى أول سفرى معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، ووردت بها من فضله العذب المعين أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه فى زمانه، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه فما طلبها ولا ذكرها، وأراه كأنه ما عرفها على أن صاحب الديوان ما أنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوًا صفوًا ويحصل عذبًا حلوًا، وكله يخرج فى الجود والجهاد، ورعاية الوفاد والقصاد، ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة، ولم ير انزواءه فى بيت العزلة، فولاه ديوان جيشه وأولاه ما دنت له به مجانى جاهه وعيشه.

ولما كنا بظاهر حران فى سنة إحدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين،

وكتب إلى نوابه فى الولايات بإخراج الصدقات، وقال لى: اكتب إلى الصفى بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت له: الذهب الذى عنده مصرى، قال: فيتصدق بخمسة آلاف مصرية. وأشفق من صرف المصرى بالصورى فيكون حراماً ويرتكب فى كسب الأجر آثاماً فسمح ومنح وتاجر الله وربح، وسمعت بعد ذلك الصفىّ وكان فى الخير مجلى كل مضمار، ويقول: قد أحصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الإحسان، وقال لى يوم الرحيل: انظر كم بقى بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم وفضل على إقدارهم فى القسم. وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ولم تجده ميسرة فعينت لكل اسم قسماً وعنيت بهم خلقاً منى ورسماً فبلغ أربعمائة دينار ثم وقفت أفكر وأردد النظر إليه وأكرر، فسألنى: ما الذى عملت وهل قسمت المبلغ وكملت؟ فقلت: جرى قلمى بقسمة أربعمائة دينار فهل أنقص من كل اسم ربعاً؟ فقال: أجرى ما جرى به القلم وأحسن صنعاً.

وكان رحمه الله إذا أطلق لعارف عارفة، وقلت له: هذه ما تكفيه، ردها مضاعفة، وكان أصحاب المظالم وأرباب المطالب والراغبون فى الرغائب، والذاهبون فى المذاهب، يحضرون عندى ويعرفون فى إنجاز أمرهم وإنجاز قصدهم بذل جهدى، فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم، وأنتهى فى الإملاء بنهاية مأمولاتهم، فيجريها ويمضيها، ويضع علاماته فيها ويرتضيها وإذا ألفى توقيعاً بخطى علم فيه ولم يقف بنشره على سر مطاويه إلفاً بما ألفه من صحبتى ومناصحتى كفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتى، وكان يأمرنى بإجابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف عن كتبهم فى حالتىّ سلمهم وحربهم، وهى تشتمل على أسباب متنوعة وآراب متفرعة بحسب الحوادث المتجددة، والبواعث المتمهدة، فإذا قلت له: بماذا أكتب وما الذى أخطب؟ فيقول: أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف. فأكتب من عندى بالإجابة وتوافق منه الإصابة. فقد كنت مطلعاً على سره مضطلعاً بأمره ما يخفى عنى مراده وأنا أتيقن لمن ولاؤه ووداده، فآتى بمداناة الأغراض ومداواة الأمراض وموازنة الجواهر والأعراض، والتمييز بين أهل القبول وأهل الإعراض، فكم أصلح قلمى بينه وبين من عاداه، وراض الجامح من سخطه وقاده إلى مدى رضاه.

وكان يغضب للكبائر ولا يغضى عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد، ويسدد الأمر ويأمر بالسداد، فكان مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

ورأى يوماً لى دواة بالفضة محلاة، فأنكر حل الحلية و ادعى حظر القنية، فقلت على سبيل المدافعة وطريق المناظرة والممانعة: أو ليس تحل حلية السلاح واستصحابه

في الكفاح؟ فدواء دواتي أنجع، ومدد مدادي أنفع، ويراع براعتي القصير أطول، وسلاح قلمي أجذ وأحد وأفتك وأقل، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها من جوامع كلمي، فقال: ما هذا بدليل ولا يعيد تحريمًا إلى تحليل، حتى قلت له: إن الشيخ أبا محمد والد الإمام أبي المعالي قد ذكر وجهًا في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه. ثم لم أكتب بعدها عنده إلا من دواة الشبه وتجنبت طرق الشبه وتركت المحلاة مخلاة، وعادت الشبهية مجتباة مجتناة، وكان محافظًا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبًا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة.

وكان له إمام راتب ملازم مواظب، فإن غاب يومًا صلى به من حضره من أهل العلم، إذا عرفه متقيًا متجنبًا للإثم، وكنت لملازمتي إياه يقدمني إمامًا في الصلوات، ومستشارًا في المشورات، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، وينفق من حل المال وطيبه، ويجود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود فما تتجدد جدة إلا ويستوعبها إنجاز الوعود. ولم يكن إلى المنجم مصغيًا، ولم يزل لقوله ملغيًا، فما عنده منجًا لمن جاء يمين المنجمين، ولا قبول لمنطق المنطقيين، فلا يفضل يومًا على يوم ولا زمانًا على زمان إلا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان، ولا يتعيف ولا يتطير ولا يعين وقتًا ولا يتخير، بل إذا عزم توكل على الله، وأقبل على محكم أمره وأعرض عن مظان الاشتباه، فكم فل سفه ذي الفلسفة، ودل بمعروفه على المعرفة، وما زال ناصرًا للتوحيد قاهرًا جمع أهل البدع بالتبديد، مستجليًا سنى السنة، مستحليًا جنى الجنة، شافعي المذهب أصولاً وفروعًا، معتقدًا له معقولاً ومسموعًا، يدني أهل التنزيه ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه. فالعالمون في عدله والعالمون في فضله، والبلاد في أمنه والعباد في منّه، والبرية في بر سعيه، والإسلام في حماية حميته، والدين في إدالة دولته، وشرعة الشريعة صافية بصفائه، ومادة المودة له وافية بوفائه، وقامت بعده طريرة طرية، من العار عرية، وببر البرية من الشائبات والشائنات برية، وبالحرية حرية، وبسرور السر سرية. فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وأفضلها وظاهرها وفخرت بمفاخرها، ورويت بروائهم آثار مآثرها، وتبلجت الآفاق، وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها، وبرزت الأرض في أزهارها والسماء في زواهرها والحمد لله مجري الأقدار ومصفي الأكدار، ومدبر الليل والنهار، ومدبر الإيراد والإصدار وسلم تسليمًا كثيرًا، آمين. تمّ.

تم الفتح القدسي بحمد الله وعونه
والحمد لله وحده وصلواته على خير خلقه محمد نبيه
وآله وصحبه وأزواجه وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة